

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies



التفسير

في

اختصار تفسير ابن كثير

اختصار وتحقيق

صالح بن محمد عرفان محمد بن عبد الله الشافعي

خالد بن فوزي عبد الحميد

إشراف معالي الشيخ

د. صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء



اليسير
في
اختصار تفسير ابن كثير

ح دَار تَفْسِيرِ النَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ ، ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر
اليسير في اختصار تفسير ابن كثير - ١ / عماد الدين أبو الفداء
الشنقيطي ؛ خالد بن فوزي عبد الحميد . - الرياض ؛ ١٤٤٢ هـ
عدد الصفحات : ١٠٦٠ ، القياس : ٢٤×١٧ سم
القرآن - التفسير المأثور أ. عرفات ، صلاح محمد (محقق)
ب. الشنقيطي ، محمد بن عبد الله (محقق) ج. عبد الحميد ،
خالد بن فوزي (محقق) د. العنوان

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٩١٥٦٩-٠١-١

١٤٤٢/٣٩٦٥

ديوي ٢٢٧, ٣٢

بِمَنْعِ حُقُوقِ الطَّبْعِ بِمُفْرَظَةٍ لِدَارِ تَفْسِيرِ النَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م



الْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ - الرِّيَاضُ - حَيِّ الْيَاسَمِينَ - طَرِيقُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ

الهاتف : ٩٦٦١١٢١.٩٦٢٠ - فاكس : ٩٦٦١١٢١.٩٧١٣ - ص.ب. ٢٤١٩٩ - الرَّمْزُ البريدي : ١١٢٢٢

الموقع الإلكتروني : www.tafsir.net

البريد الإلكتروني : info@tafsir.net



التفسير في اختصار تفسير ابن كثير

اختصاراً وتحقيقاً

صالح بن محمد عرمان محمد بن عبد الله الشافعي

خالد بن فوزي عبد الحميد

إشراف معالي الشيخ

د. صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء

المجلد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المركز

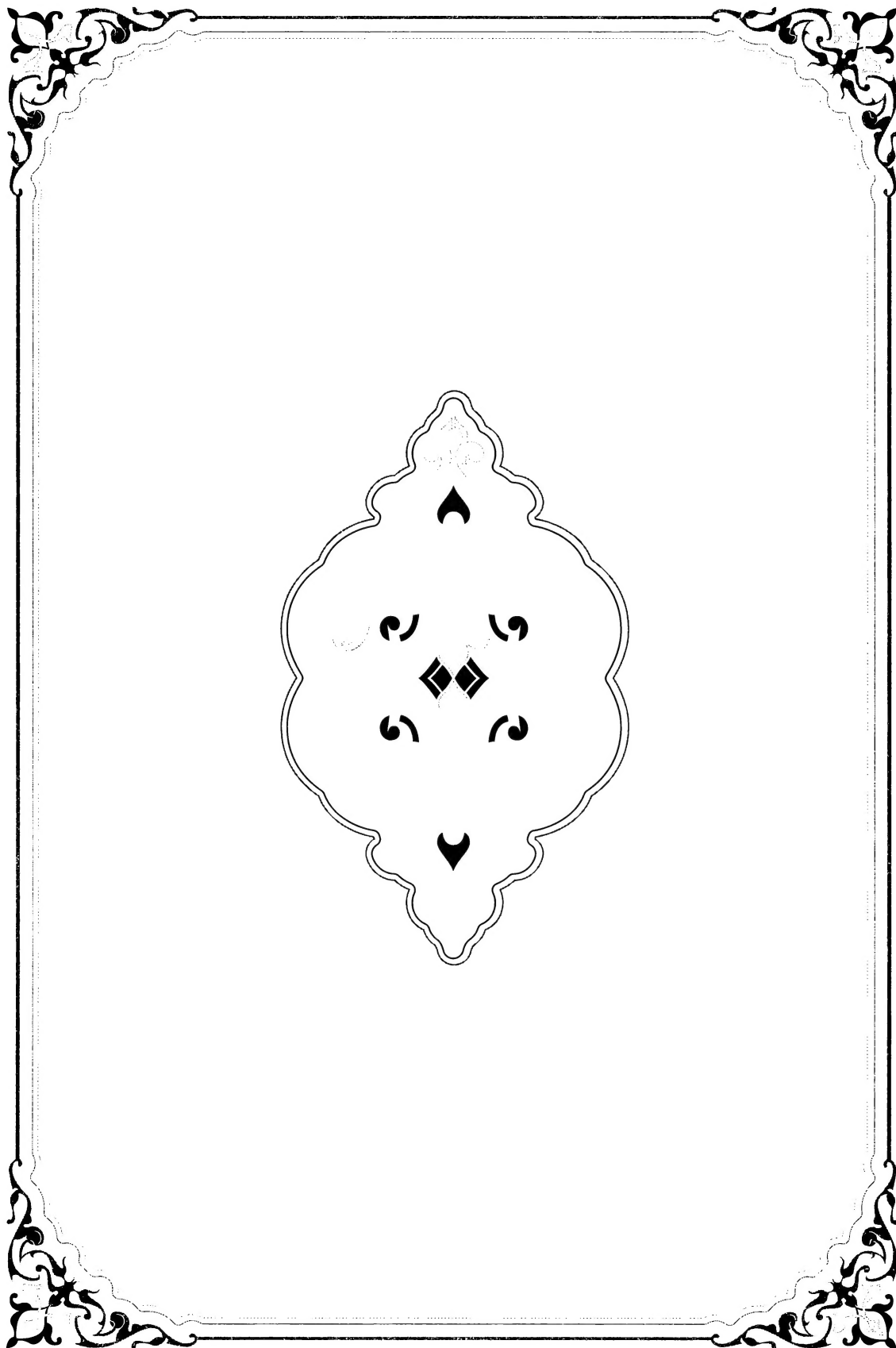
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فقد رزق الله تفسير الحافظ ابن كثير القبول لدى طلاب العلم وعامة القراء منذ تأليفه حتى اليوم، فكثرت مخطوطاته قديماً وطبعاته واختصاراته حديثاً، وقام عدد من الباحثين باختصاره وتهذيبه رغبة في تقريبه لجمهور القراء، وكان من المختصرات هذا الاختصار الذي سماه مختصروه (اليسير في اختصار تفسير ابن كثير)، وقد شرحوا منهجهم في الاختصار في تقديمهم، وقمنا في المركز بتخريج الآثار والأحاديث والأقوال على وجه الاختصار زيادةً في التوثيق دون إكثار على القارئ، كما أعدنا صفه في حلة قشبية أكثر تنسيقاً، وأجمل في عين القارئ.

وقد انقطعت طبعته الأولى التي صدرت عن دار الهداة للنشر والتوزيع، وأخذنا الإذن من القائمين عليها لطباعته وإتاحته لطلاب العلم للاستفادة منه، وتفضل بعض أهل الفضل بدعم هذه الطبعة فجزاهم الله خير الجزاء، وجعله من العلم النافع الذي ينتفع به.

المدير العام

أ.د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري



مقدمة المشرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل كتابه قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، واضح البيِّنات والحجج، أنزله بحسب المصالح منجمًا، كلامًا مثاني متشابهًا محكمًا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصَّ هذا القرآن بكونه ساطعًا بيانه، قاطعًا برهانه، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل، المؤيد بالسُّنة والتنزيل. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد:

فلم يحظَ كتاب بال العناية على مدار التاريخ منذ أن عرف الإنسان القراءة والكتابة كما حظي القرآن الكريم، فلقد تركت العناية به وبسوره وترتيبها، وآياته بألفاظها وحروفها، وقراءاته بوجوهها وأنواعها، ورسمه الخاص، ونقطه، وأجزائه، وأعشاره، وأحزابه، وتجويده، وحفظه وتدبره، وتفسيره، وتأويله، وفهمه، والاستنباط منه.

كما حَبَّبَ الله إلى أهل الإسلام تلاوته ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وحشهم على قراءته وقراءة ما تيسر منه ﴿فَأَقْرَءُوا مَا يَنْصَرُّ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وأمرهم بالاستماع له والإنصات عند قراءته ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] في خصائص ومزايا ليست لكتاب غيره على وجه الدنيا. إنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، ونور الأبصار والبصائر. أمثاله عِبَرٌ لمن تدبرها، وأحكامه هدى لمن استبصرها.

كما جعل سبحانه كتابه العزيز أصلًا، وجعل سُنَّةَ نبيه محمدًا ﷺ له بيانًا ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وجعل استنباطات أهل العلم له إيضاحًا وتبيانًا. ثم قيَّضَ الله من اصطفاه ليكونوا أوعية لكتابه، وجعل همهم مصروفة إلى تعلُّمه وتعليمه، والبحث في معانيه ودقائقه، فخير ما تصرف فيه الهمم كتاب الله قراءة وتعلُّمًا وتعليمًا وحفظًا وتدبرًا وتفسيرًا وشرحًا واستنباطًا، فعلموا القرآن خير العلوم، وخير علوم القرآن علم التفسير الذي يعرف به مراد الله وأحكامه وأوامره ونواهيه وزواجره وعبره، وخير أنواع التفسير التفسير بالمأثور فهو مستقى المعين الأول من رسول الله ﷺ، تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسُّنة، ثم آثار الصحابة رضوان الله عليهم ثم تابعيهم من أهل القرون المفضلة، ومن كل ذلك يأتي تفسير الإمام الحافظ المحدث الناقد البارِع المفسِّر المؤرخ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) نموذجًا من هذا النوع العالي من التفسير، فهو من أفضل

تفاسير السلف، وأنقى كتب أهل العلم التي تُعنى بالقرآن وعلومه، فقد جمع فيه المؤلف رحمته الله الفوائد الجمة، والفرائد العدة، من التوحيد والفقه والحديث واللغة والتاريخ وغيرها. ومن كتبت له مطالعة لأقوال أهل العلم وآثارهم في شأن هذا التفسير، استبان له فضله فكيف بمن من الله عليه بالاشتغال به تدريسيًا وعناية وتحقيقًا، ناهيك بما عرف به هذا الإمام الفذ من التبريز في العلم والفضل والسبق، فقد كتب الله له ذكرًا حسنًا، وأحدوثة متميزة بين أهل العلم، كما كتب الله القبول لكتبه ومؤلفاته ولا سيما تفسيره هذا فاشتغل به أهل العلم وسمعه الخاصة والعامة، وحظي من الخاصة بعناية فائقة، قراءة، وتدرسيًا، واختصارًا، وتعليقًا، وتهذيبًا، وقد بدأ يذيع صيت الكتاب وينتشر منذ حياة مؤلفه رحمته الله، وعده كثير من العلماء أفضل تفاسير السلف. ونظرًا لما غلب على الكتاب من الصفة الحديثية، إذ جرى المؤلف رحمته الله على سوق الأسانيد وجمع الروايات ونقدها والحكم عليها مع التعليل والترجيح، وهو جهد تجلّى فيه مقام هذا الإمام ومنزلته، وكان محل الاحتفاء من أهل العلم، إلا أن هذا كان سببًا في طول الكتاب وكبر حجمه مما كان مانعًا لبعض ذوي الاهتمام والمطالعة والرغبة في اتساع المعرفة في معاني كتاب الله تعالى من الاستفادة من هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل، من أجل هذا ظهرت مختصرات عدة لهذا الكتاب، لكل واحد منها منهجه في الاختصار وأسلوبه في الحذف. غير أن لجنة من بعض فضلاء مدرّسي دار الحديث الخيرية بمكة المشرفة توجهت همتهم لوضع مختصر سلكوا فيه منهجًا مغايرًا لمن سبقهم سوف يأتي وصفه إن شاء الله في المقدمة.

ولقد أحسنوا الظن بي جزاهم الله خيرًا، فرغبوا مني مشاركتهم ولو من طريق المتابعة والإشراف فشكر الله لهم حسن ظنهم، وما وسعني إلا إجابة رغبتهم لا سيما وإننا نعمل هذه الأيام على تحقيق الكتاب كله وسوف يخرج قريبًا إن شاء الله.

واللجنة أثابها الله أنجزت عملها حسب الطريقة المرسومة والمنهج الذي تمّ التخطيط له، ومن المحزن المفرح أن أحد أعضائها وهو فضيلة الشيخ صلاح محمد عرفات وافته المنية صبيحة الليلة التي أتمّ فيها إنجاز عمله من الكتاب، فهو محزن لأننا فقدنا شيخًا كريمًا فاضلاً عالمًا بحأثة محباً للمعلم وأهله ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وهو مفرح فلعل ذلك من المبشرات في تمام إنجاز هذا العمل المبارك الذي الاشتغال بمثله من أشرف العلوم والأعمال بإذن الله، ولا سيما اتصاله بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثم آثار أهل العلم من السلف الصالح. وليعلم القارئ الفاضل أن هذا العمل استغرق من اللجنة الموقرة وقتًا طويلاً حرصت فيه على الالتزام بعبارة الحافظ ابن كثير رحمته الله، فكان أن حذفت الأسانيد والأحاديث الضعيفة على ما يأتي وصفه في مقدمة اللجنة، والله من وراء القصد وكفى به وليًا وكفى به نصيرًا وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صالح بن عبد الله بن حميد

مكة المكرمة

١٤٣١/٧/٢٣ هـ

مقدمة لجنة اختصار تفسير ابن كثير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أما بعد . .

فهذا «مختصر تفسير ابن كثير» نقدّمه لطلبة العلم بعد جهد طويل، وعمل دؤوب، فلقد بدأت فكرة هذا المختصر إبان عمل اللجنة في تحقيق تفسير ابن كثير الذي سيصدر قريباً إن شاء الله، وقد شعرنا أثناء ذلك أن الكتاب - وقد كتب له من القبول ما لا يخفى - لا يتسنى للكثيرين من غير المتخصصين الاستفادة منه لكثرة ما فيه من المباحث التخصصية والصناعة الحديثية المتمثلة في سرد الأسانيد وبيان العلل والحكم على الرجال وغير ذلك مما يهتم به طلاب العلم المتخصصون، إلا أن وجود هذه المباحث المتعمقة المتخصصة في التفسير يجعل غير المتخصصين لا يصلّون إلى خلاصة التفسير التي يتوقون إليها.

ومن هنا كانت الحاجة الملحة لاختصار هذا الكتاب المبارك، ولقد شعر بهذا الكثير من الطلاب، وقد ظهرت عدة مختصرات لتفسير ابن كثير، وكان لكل منها أسلوبه ومنهجه غير أننا شعرنا بالحاجة إلى وجود مختصر لا يخرج في الجملة عما كتبه الحافظ ابن كثير، بحيث تكون العبارة هي عبارته، مع حذف ما لا يتوقف عليه التفسير، فاجتمعت اللجنة واتخذت لنفسها منهجاً خلصت منه إلى الاتفاق على اختصار تفسير ابن كثير على النحو الذي اختصر به الإمام الذهبي منهاج السنّة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وبعد عدة لقاءات تمّ وضع المنهج الخاص بالاختصار، وتمّ عرضه على فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد المشرف العام على العمل، وقد كانت اللجنة تجتمع مرتين في الأسبوع وتقرأ ما اختصر، مقابلًا بمخطوطة (الأزهر المصرية)، وبيعض النسخ المطبوعة، ويتخلل ذلك مناقشات فيما يبقى وفيما يحذف، واستمر الأمر بضعة أسابيع حتى استقر المنهج على ما سوف يتم وصفه، وبحمد الله انتهت من أعمالها بعد صلاة العشاء ليلة الثلاثاء ١٨/١٠/١٤٢٠هـ، وفي صبيحة هذه الليلة توفي فجأة عضو اللجنة الشيخ صلاح محمد عرفات رحمه الله تعالى وغفر له وأجزل له المثوبة.

وأما المنهج الذي اتخذته اللجنة في الاختصار فيتمثل فيما يلي:

أولاً: حذف الأسانيد التي ذكرها المؤلف في الكتاب، وترتب على ذلك تغيير في أول كلمة فإن الحافظ ابن كثير عند إirاده للإسناد يقول: قال فلان فتم تغييره بـ (روى فلان أو أخرج فلان)، ونحو ذلك، ولأجل الربط بين العبارات احتاجت اللجنة إلى إضافة أحرف وكلمات نحو: (عن - و - أيضاً - وغيره - وغيرهم . . .) ونضع ما عدا الأحرف بين قوسين هكذا [].

ثانياً: حذف الأحاديث الضعيفة التي نص الشيخ على تضعيفها، أو نص أئمة العلم على

ذلك، أو ظهر للجنة عدم صلاحيتها للحجية، وأما الأحاديث التي صححها الشيخ أو حسننها وكذا ما نص على تصحيحه أو تحسينه بعض أهل العلم فقد أبقيناه مع حذف المكرر منه، وأثبتنا في نهاية كل منها من أخرجها إن لم يخرجها المصنف مع الحكم عليها وجعلنا ذلك بين قوسين أيضًا، وربما لا يصل الحديث إلى درجة الاحتجاج، لكن الشيخ أوردته تفسيرًا ولم يورد غيره، فهذا نبقه مع التنبيه على ضعفه، وهذا قليل.

ومنهجنا في ذلك لا يخرج عن منهج الحافظ ابن كثير الذي نص عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُ الْبَيْعَ وَتَوَقَّدَ كَبْكَبْتِ﴾ [البقرة: ١٢٤] حيث قال: إنه لا تجوز رواية الضعيف إلا مع بيان الضعف.

وأما الأحاديث التي أوردها ابن كثير بطولها، فإن لم تكن لها فائدة مباشرة في التفسير، فإننا نقتصر على إيراد محل الشاهد منها.

أما الآثار التي نقلت عن السلف في التفسير فقد أبقيناهما كلها في الجملة، لم نحذف منها إلا القليل وإن كان بعض أسانيدنا ضعيفًا، إلا ما نص الشيخ على رده وتضعيفه، أو كان منكراً مخالفًا للصحيح، أو مخالفًا لأصول الشريعة مع ضعف إسناده فإننا نحذفه، وقد يحكي الشيخ القول عن كثير من مفسري السلف فنختار ثلاثة أو أربعة من أشهرهم بمراعاة المدارس التفسيرية المختلفة ويشار للآخرين بين قوسين بلفظ [وغيرهم]، ونحو ذلك.

ثالثًا: نص الكتاب كله من كلام ابن كثير وإذا احتجنا إلى إثبات عبارات من عندنا للربط، فإننا نضعها بين قوسين [] تمييزًا لها عن نص الكتاب.

رابعًا: الظاهر أن الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يعتمد قراءة غير قراءة حفص، ويغلب على الظن أنها قراءة أبي عمرو، فإنه كثيرًا ما يفسر عليها ثم يذكر القراءة الأخرى، وهذا الأمر لم ينتبه له بعض من اختصر الكتاب فاختصر القراءة الثانية، وأثبت الأولى، مع أنه أثبت الآيات على القراءة التي حذفها وهي قراءة حفص، وقد تنبها إلى هذا وراعيناه، والأصل أننا لا نذكر من القراءات إلا ما كان يتوقف فهم التفسير عليها، حيث قد نص الحافظ ابن كثير في تفسيره لآية البقرة ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [آية: ٩٨] على أنه لم يسرد من القراءات إلا ما يدور فهم المعنى عليه أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وقد أثبتنا قراءة حفص في جميع الآيات، وما أبقيناه من القراءات الشاذة نبهنا على شذوذه.

خامسًا: لم نحذف الأقوال الفقهية التي أوردها الشيخ، إلا أننا ربما حذفنا الأقوال الضعيفة وأثبتنا الراجح بدليله، ونبه القارئ إلى أن مراد المصنف بالأصحاب: الشافعية.

سادسًا: ربما وقعت أوهام في النسخ التي بين أيدينا في عزو أو تخريج، فإننا نصحح مثل هذا ونضعه بين قوسين، وهو قليل.

سابعًا: كثيرًا ما يستدل المصنف على التفسير باللغة ويورد أبياتًا من الشعر، فأبقينا بعضها وحذفنا أكثرها مع الإبقاء على المعنى اللغوي الذي يخدم التفسير مع عزوه لقائله.

وأخيرًا: فإن من لا يشكر الناس لا يشكر الله، واعتزافًا بالحق والفضل لأهله، فإننا لا ننسى أن نشكر معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد على موافقته على الإشراف العلمي

على هذا المشروع، وحثه الدائم على ضرورة الانتهاء منه في أفضل صورة ممكنة، والاجتماع به عند وضع المنهج وتعديله، ثم الإشراف على طباعة المشروع بعد الانتهاء منه، فهذا كله كان له الأثر الكبير في صدور هذا الكتاب على هذه الصورة التي نأمل أن تكون مشرفة مقبولة. وسبحانك اللهم وبحمدك ونشهد ألا إله إلا أنت ونستغفرك ونتوب إليك.

لجنة التحقيق

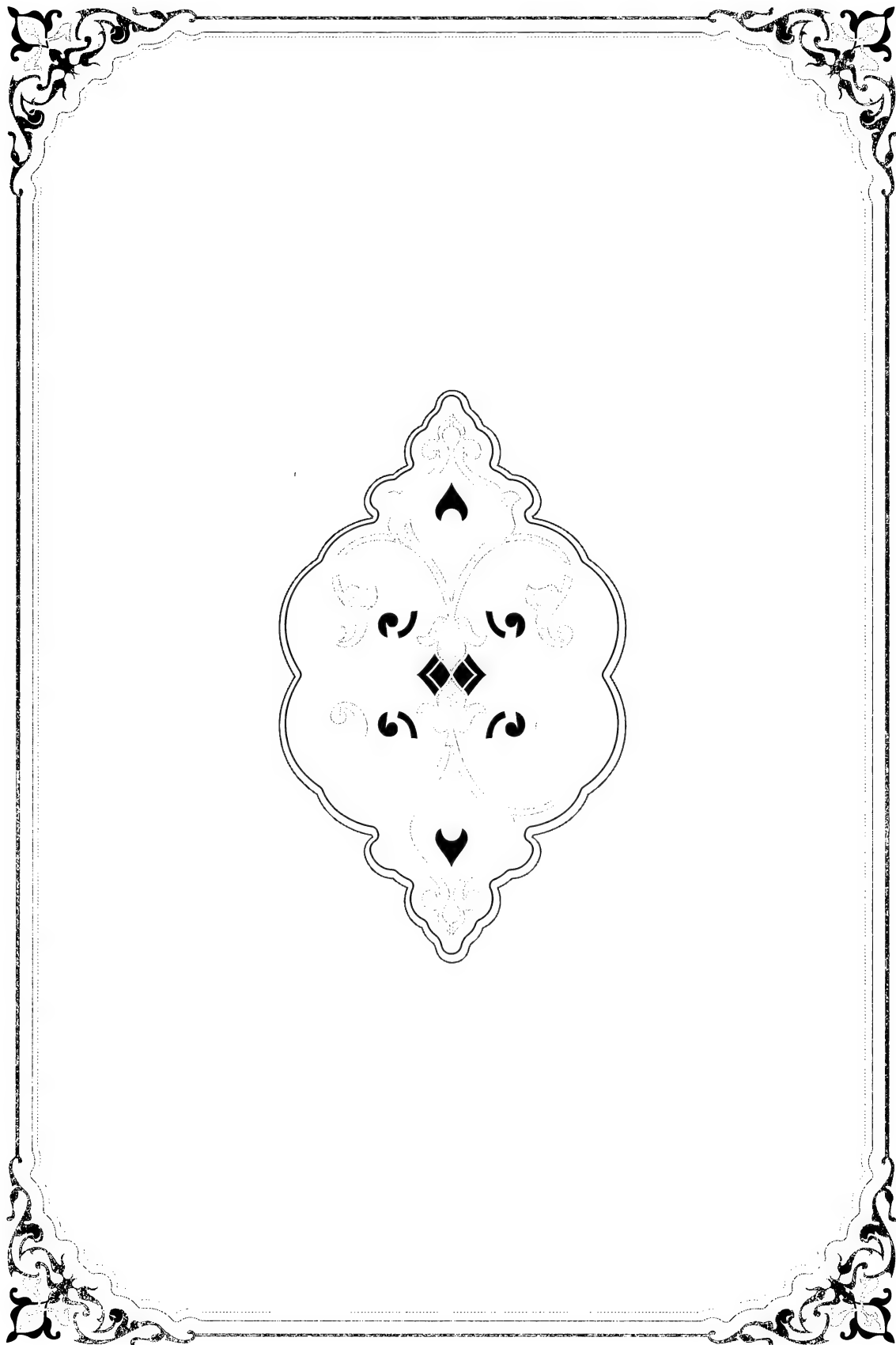
فضيلة الشيخ صلاح بن محمد بن عرفات المتوفى في ١٨/١٠/١٤٢٠هـ

محمد عبد الله ابن الشيخ محمد الشنقيطي

خالد بن فوزي بن عبد الحميد

(المدرّسون بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة)





الحافظ ابن كثير وكتابه التفسير

أولاً: ابن كثير:

هو الإمام الحافظ المؤرخ المفسر أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي، ولد في حدود سنة سبعمائة من الهجرة، ونشأ في بيت علم ودين، فأبوه من الأئمة الذين أخذوا عن فقهاء الشافعية في عصرهم كالنووي، والفركاح، وكان خطيب قريته، إلا أن ابن كثير لم يأخذ عنه إذ توفي أبوه وهو صغير، وقد انتقلت الأسرة بعد موته إلى دمشق، وقام بالأسرة أخوه عبد الوهاب الذي تولّى تربية المصنف وكانت بداية دراسته عليه.

وقد أخذ ابن كثير عن أعلام عصره، ونجد في ثبت أسماء شيوخه أمثال: ابن تيمية، والحافظ المزي وقد صاهره فتزوج بابنته، والحافظ الذهبي، والفقير إبراهيم الفركاح، والمؤرخ المحدث البرزالي، والحافظ الدمياطي، والمقرئ محمد بن جعفر اللباء وغير هؤلاء كثير.

كما تتلمذ على يديه جملة من الأئمة من أبرزهم شيخ علم القراءات في عصره محمد بن محمد بن محمد الجزري، وابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية، والحافظ أبو المحاسن الحسني، وجمع كثير.

وقد بارك الله لابن كثير في مؤلفاته، فوضع كتابه التفسير ووضع جملة من الكتب في الحديث وعلومه لعل من أشهرها: «جامع المسانيد والسنن»، و«اختصار علوم الحديث»، وعددًا من الأجزاء الحديثية، كما وضع في الفقه على المذهب الشافعي كتابه الكبير الأحكام الكبرى، وأجزاء فقهية كثيرة، ويُعد كتابه في التاريخ «البداية والنهاية» من أجلّ كتب التاريخ لما فيه من تحقيقات عديدة وتحليل فريد للوقائع.

وقد أثنى عليه معاصروه ومن جاء بعده، ووصفه الذهبي وهو معاصره وشيخ له بأنه الإمام المفتي المحدث البارع فقيه متفنن متقن مفسر نقال، ووصفه ابن حجر بأنه كثير الاستحضار حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته، وذكر ابن حبيب أنه طارت أوراق فتاويه إلى البلاد واشتهر بالضبط والتحرير وأنه انتهى إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير وبنحو ذلك وصفه العيني.

وقد تُوفي في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان عام ٧٧٤هـ، وكانت له جنازة حافلة مشهودة، ودُفن حسب وصيته في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية بدمشق.

ثانيًا: كتابه «تفسير القرآن العظيم»:

وهو من أجلّ كتب التفسير قال عنه السيوطي: إنه «لم يؤلف على نمط مثله»، وقال

الشوكاني عن ابن كثير: «وله تصانيف، منها: التفسير المشهور وهو في مجلدات وقد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها». اهـ.

وقد جمع تفسيره من عشرات الكتب المؤلفة في التفسير والحديث والفقه ولعل من أشهرها في التفسير تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، والرازي، والبغوي، وابن عطية، وغيرها، وأما في الحديث، فقد أكثر من العزو إلى الكتب الستة واعتنى عناية فائقة بالنقل من مسند الإمام أحمد، كما كانت له عناية بكتاب صهره الحافظ المزي «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف»، وكذلك «المختارة» للضيء المقدسي، وكثيراً ما يحيل على كتابه «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن»، وفي الفقه اعتمد على كتب الإمام الشافعي، وعلى كتاب حافظ المغرب ابن عبد البر الاستذكار ونقل عنه كثيراً عند ذكره لمذاهب العلماء، كما أكثر من النقل عن النووي وغيره.

وفي التاريخ والتراجم كان من ضمن مصادره «أسد الغابة» لابن الأثير، و«طبقات ابن سعد»، وأحال على كتابه «البداية والنهاية»، وأما في اللغة فأكثر ما اعتمد عليه «الصحاح» للجوهري، و«الغريب» لأبي عبيد القاسم بن سلام، وقد نقل جملاً من كتب متفرقة في علوم شتى.

وقد تميز منهجه في التفسير بمميزات عدة لعل من أهمها أنه يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة ويستوعب الأحاديث التي تدل على التفسير، أو يتطابق لفظ منها مع لفظ الآية فيجعلها عمده في فهم النص القرآني، ويسرد الأحاديث غالباً مسندة، ويقدم في الجملة الأحاديث بإسنادها من كتب التفاسير كابن أبي حاتم وابن جرير، ثم يذكر من أخرجها من علماء الحديث وأئمتها، ويقدم المسند في الذكر على الصحيحين، ولا يكاد يذكر حديثاً إلا ويبين صحته، وأما إن كان ضعيفاً يمكن أن ينجر ضعفه، فإنه يحشد له شواهد ومتابعات كثيرة، كما نبه على ضعف كثير من الأحاديث وله في ذلك لفتات مميزة، وضوابط وقواعد كثيرة كتبيين حديث ابن لهيعة من طريق العبادلة، والأخذ بحديث الحارث الأعور في الحساب والفرائض خاصة وغير ذلك كثير.

وقد اختلف منهج الحافظ ابن كثير في سرد التفسير طويلاً وقصراً، وأما القراءات فقد بين أن منهجه أن يذكر منها ما يتعلق بالتفسير أو الأحكام دون استطراد في ذكرها، كما بين منهجه في الإسرائيليات وأنه لا يقبل منها إلا ما وافق الشريعة أو لم يخالفها في غير ما موضع من كتابه، وشنع على كثير منها.

وقد أدخل بعضاً من أجزائه الفقهية في التفسير كالجزم الذي كتبه في الصيد بالكلاب المعلمة وغير ذلك، وقد اعتنى بسرد معتقد أهل السنة والجماعة في التوحيد بأنواعه، وله اهتمام بالآثار في ذلك والتنبيه على البدع المختلفة.

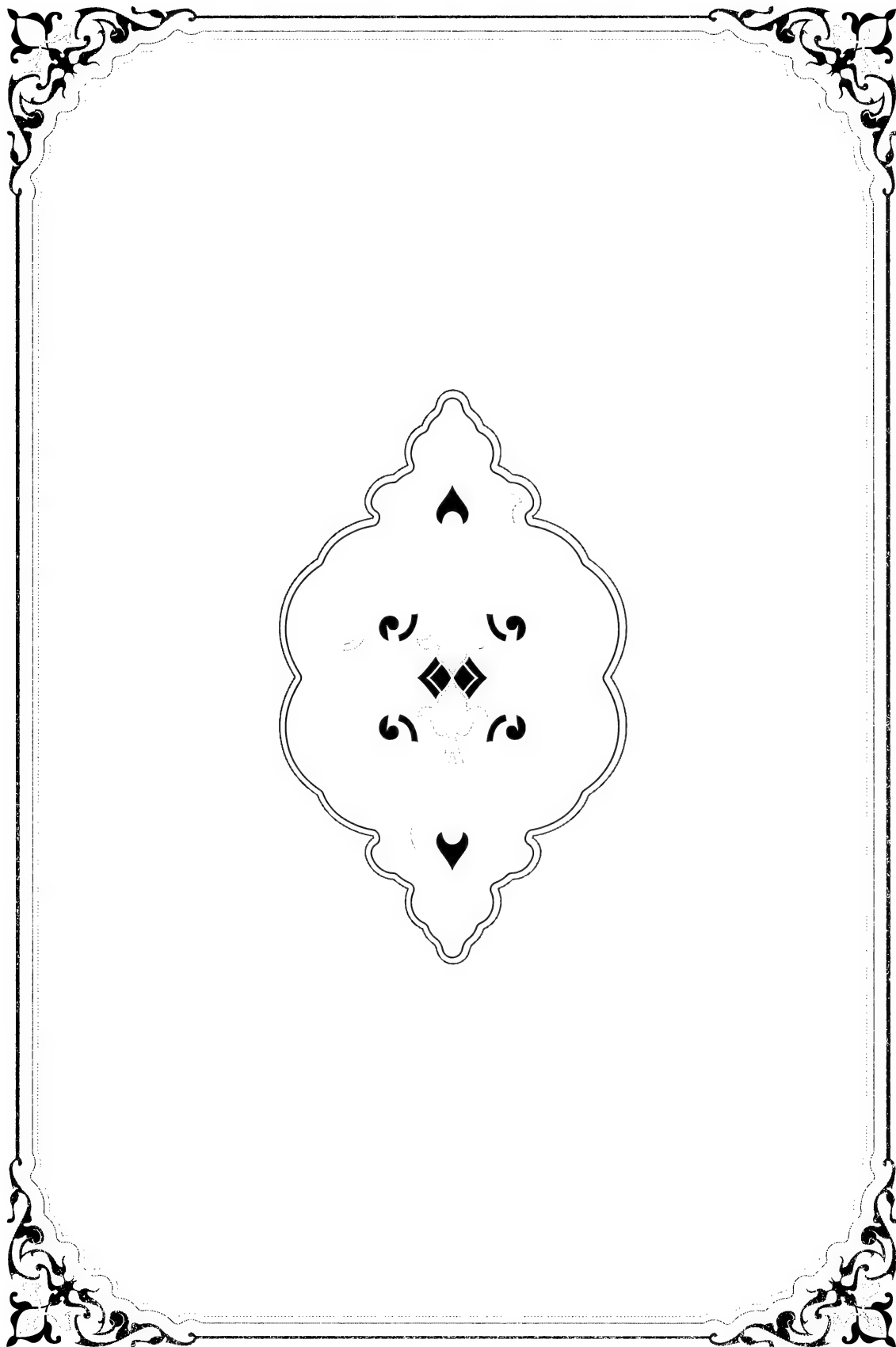
وقد اشتمل تفسيره كذلك على جمل لطيفة من اللغة والرقائق والآداب، واعتنى بحشد النصوص والآثار في كثير من المسائل كالنصوص في عذاب القبر، وفي أحاديث الإسراء،

والصلاة على النبي ﷺ، وفضل المساجد، والأحاديث الواردة في فضائل أهل البيت وغير ذلك كثير.

وقد اعتمدنا في عملنا على مخطوطة دار الكتب المصرية مع المقابلة بطبعة دار طيبة بتحقيق سامي سلامة، وبالنسخة التي طبعتها دار المعرفة وفيها زيادات عن نسخة دار طيبة، وربما استعنا ببعض النسخ المطبوعة الأخرى، وقد اجتهدنا في إخراج الكتاب بهذه الصورة التي حافظنا فيها على عيون التفسير ولم نحذف منه إلا ما لا يحتاج إليه إلا المتخصص، والله حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لجنة التحقيق





مقدمة الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرِّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ④ قِيمًا لِنُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ⑤ مَتَّكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ⑥ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ⑦ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ⑧﴾ [الكهف: ١-٥]، وافتتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصاص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبا: ١]، فله الحمد في الأولى والآخرة؛ أي: في جميع ما خلق وما هو خالق، هو الم محمود في ذلك كله كما يقول المصلي: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ) [رواه مسلم/٤٧١]؛ ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النَّفْسَ؛ أي: يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالي منته وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠]، والحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَمَّا كُنتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ، وَمَنْ يَلْعَنُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ أَرْبُؤُهُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكِتَابِ سَتَجِدُنَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ⑩ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال رسول الله ﷺ: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) [رواه مسلم بنحوه/٥٢١]. قال مجاهد: يعني: الإنس والجن فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع

الثقلين: الإنس والجن، مبلغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهّمه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُذِلَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله، فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهميه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتُوا الْبُيُوتَ آمِنًا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]، ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يُفسّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنّه قد فُسِّرَ في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنَّة فإنّها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِحَتْمِكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) [رواه أبو داود بنحوه/٤٦٠٤]؛ يعني: السُّنَّة، وحينئذٍ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ)

[رواه أحمد/٣١٠٢، والبخاري بمعناه/١٤٣]، وغالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) [رواه البخاري/٣٢٧٤]؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾؛ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجح كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتنظرن اللبيب لذلك، والله الهادي، وإذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قَالَ فِي

الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) [رواه الترمذي/٢٩٥١، وقال: حسن]، وفي لفظ: (مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِهِ، فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ) [رواه النسائي/٨٠٨٦]؛ أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، والله أعلم، وهكذا سَمَّى الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم، ولهذا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، فعن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَكَهْمَهُ وَأَبَاكَ﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم، وعن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَكَهْمَهُ وَأَبَاكَ﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه، وهذا كله محمول على أنهما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبأً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَبْتَأُ فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧) الآية [عبس: ٢٧، ٢٨]، وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها، وعن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن، وعن عبيد الله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم به، فكذلك يجب القول فيما سئل مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ) [رواه أهل السنن، الترمذي/٢٦٤٩، وقال: حسن]، والله أعلم بالصواب.





فضائل القرآن



ذكر البخاري رحمته الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [رواه البخاري/٤٦٩٦ ومسلم/١٥٢]. في هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر؛ أي: ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من أتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحياً منه إليه منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلماذا قال: (فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا)، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّنَّاسٍ أَجْتَمَعَتْ أَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء: ٨٨].

أنزل القرآن على سبعة أحرف:

عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فليته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله ﷺ: (أَرْسَلُهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ)، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: (كَذَلِكَ أَنْزَلْتُ)، ثم قال: (اقْرَأْ يَا عُمَرُ)، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: (كَذَلِكَ أَنْزَلْتُ). إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ) [متفق عليه، البخاري/٤٧٠٦ ومسلم/٨١٨].

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قول أكثر أهل العلم: إن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بالفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم.

قلت: وإنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمورين باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العريضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يُتعاطى الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف.

وقال القرطبي: قال كثير من علمائنا: هذه القراءات السبع التي تنسب للقراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف.

تأليف القرآن

عن يوسف بن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أية قرأت قبل... الحديث. [أخرجه البخاري/٤٧٠٧]، والمراد من التأليف هاهنا ترتيب سوره، وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم، ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأي سورة بدأت.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السور، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد [١٦٢١١] عن أوس بن حذيفة قال: «كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ فذكر حديثاً فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: (طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَرَدْتُ أَلَّا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَهُ). قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم» [وهو حسن].

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك، وأما كتابة الأعشار على الحواشي فينسب إلى الحجاج أيضاً، وعن ابن مسعود أنه كره التعشير في المصحف، وقال مالك: لا بأس به بالجبر، فأما بالألوان المصبغة فلا.

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، فرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فأنصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتثه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: (اقْرَأْ يَا ابْنُ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنُ حُضَيْرٍ). قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها. قال: (أَوْ تَذَرِي مَا ذَاكَ؟). قال: لَا، قال: (الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِمَوْنِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَوَارَى مِنْهُمْ). [رواه البخاري/ ٤٧٣٠ ومسلم/ ٧٩٦].

وفي الحديث المشهور الصحيح: (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) رواه مسلم [٢٦٩٩] عن أبي هريرة.

لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. [أخرجه البخاري/ ٤٧٣١]؛ ومعناه. أنه ﷺ، ما ترك مالا ولا شيئا يورث عنه، كما قال عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً، وفي حديث أبي الدرداء: (إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظٍّ وَافِرٍ) [رواه أبو داود/ ٣٦٤١ وابن ماجه/ ٢٢٣ وصححه ابن حبان/ ٨٨]. ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين؛ يعني: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم من كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء ﷺ، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، وإنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (لَا تُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ) [رواه البخاري/ ٢٩٢٦ ومسلم/ ١٧٥٧]، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لما سئل عن ميراث النبي ﷺ فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه رضي الله عنه، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقوله - أيضاً - عنه ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الَّذِي يَفْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَةِ، طَعْمُهَا

طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْتَّمَرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا) [رواه البخاري/ ٤٧٣٢ ومسلم/ ٧٩٧]، ووجه المناسبة: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجودًا وعدمًا، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مَن خَلَا مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيَّنَّ صَلَاةَ الْعَصْرِ وَمَغْرِبَ الشَّمْسِ، وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى الْعَصْرِ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ أَنتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بِقِرَاطَيْنِ قِرَاطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلَ عَطَاءً!! قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مَنْ شِئْتُ) [أخرجه البخاري/ ٤٧٣٣]، والمناسبة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذي شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله.

الوصاة بكتاب الله ﷻ

عن طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كُتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله ﷻ. [رواه البخاري/ ٢٥٨٩ ومسلم/ ١٦٣٤]، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين الدفتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية في أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وأما هو ﷺ فلم يترك شيئًا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك ولم يوص إلى خليفة يكون بعده على التنصيب؛ لأن الأمر كان ظاهرًا من إشاراته وإيماءاته إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: (يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ) [رواه مسلم/ ٢٣٨٧]، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغنَّ بالقرآن وقول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: (لَمْ يَأْذِنْ اللَّهُ لَشَيْءٍ، مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ) [رواه البخاري/ ٤٧٣٥]، وقال صاحب له: يريد يجهر به؛ ومعناه: أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو ﷺ، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا

تَنَلُّوْا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُوْنَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُوْنَ فِيهِ» [يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ① وَاذْنَتْ لِربِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَكَ ④ وَاذْنَتْ لِربِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ [الانشقاق: ١-٥]؛ أي: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: (لِللَّهِ أَشَدُّ أَدْنًا إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ [يَجْهَرُ بِهِ] مِنْ صَاحِبِ الْفَيْئَةِ إِلَى قَيْئِهِ) (رواه ابن حبان/٧٥٤)، وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغني: يستغني به، فالتغني بالقرآن: تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا.

فصل

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك.

عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ فَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) [رواه البخاري/٤٧٣٧ ومسلم/٨١٥]، وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانَ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانَ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ) [رواه البخاري/٤٧٣٨]، ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاعتباط بما هو فيه، ويستحب تغيبه بذلك، والحسد الشرعي الممدوح هو تمنى مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة؛ ولهذا قال ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ)، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آتاء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

عن عثمان بن عفان، عن النبي ﷺ قال: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) [أخرجه البخاري/٤٧٣٩]، والغرض أنه عليه الصلاة والسلام، قال: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسول، وهم الكمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون ولا يتركون أحداً

ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره.

القراءة عن ظهر قلب

عن سهل بن سعد «أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست، فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوّجنيها، فقال له: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ فقال: لا والله يا رسول الله. قال: اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا. فذهب ورجع فقال: لا والله يا رسول الله، ما وجدت شيئاً. قال: انْظُرْ وَلَوْ خَاتِمًا مِنْ حَدِيدٍ، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزارى. قال سهل: ما له رداءً فلها نصفه، فقال رسول الله ﷺ: مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إِنْ لَبَسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبَسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ، فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام، فرآه رسول الله ﷺ مَوْلِيًا، فأمر به فدُعِيَ، فلما جاء قال: مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا عدها. قال: أَنْقَرُوهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟ قال: نعم. قال: اذْهَبْ فَقَدْ مَلَكَتْهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» [أخرجه البخاري ٤٧٤٢]، وهذه الترجمة من البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم.

ولكن الذي صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه، فعن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف، وعن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فليُنشر المصحف وليقرأ.

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لثلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فلا استنبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيئاً يوقفه على لفظ القرآن، فأما عند العجز عمن يلقي فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف - والحالة هذه - فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه، وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظراً أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف.

استذكار القرآن وتعاهده

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ) [رواه البخاري/٤٧٤٣]، وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: (بَشِّرْ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ، بَلْ نُسِي، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ) [رواه البخاري/٤٧٤٤ ومسلم/٧٩٠]، وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: (تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا) [رواه البخاري/٤٧٤٤ ومسلم/٧٩٠]، ومضمون هذه الأحاديث الترغيب في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرضه حافظه للنسيان، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [١٧٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَكَ ءَابِتْنَا فَسَيِّئًا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لُنْسَى ﴿طه: ١٢٤ - ١٢٦﴾، وهذا الذي قاله هذا - وإن لم يكن هو المراد جميعه - فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال ﷺ: (تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ)، وفي لفظ: (اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ). التَّفْصِي: التخلص يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه تفصى النوى من التمرة: إذا تخلص منها؛ أي: إن القرآن أشد تفلتًا من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقال.

القراءة على الدابة

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح» [رواه البخاري/٤٧٤٧]، وهذا أيضًا له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرًا وحضرًا، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ في الطريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الدرداء أنه كان يقرأ في الطريق، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن في ذلك.

تعليم الصبيان القرآن

عن ابن عباس قال: «توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم» [أخرجه البخاري/٤٧٤٨]، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، وعمره آنذاك عشر سنين، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبًا أو واجبًا؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيرًا، وأشد علوقًا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلًا للعب، ثم توفر همته على القراءة، لئلا يلزم أولاً بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلًا قليلًا، بحسب همته

ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن يلقي خمس آيات خمس آيات.

❦ نسيان القرآن ❦

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى:

﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة الليل فقال: (يَرْحَمُهُ اللهُ، فَقَدْ أَذْكَرَنِي آيَةَ كَذَا وَكَذَا كُنْتُ أَنْسِيْتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا) [روى البخاري نحوه/ ٤٧٥٠ ومسلم نحوه أيضاً/ ٧٨٨]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِيَ) [رواه البخاري/ ٤٧٤٤ ومسلم/ ٧٩٠]، وفي هذا الحديث والذي قبله دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقص له إذا كان بعد الاجتهاد والحرص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: (بَلْ هُوَ نُسِيَ)، مبني لما لم يسم فاعله، وأدب أيضاً في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، وهو والله أعلم من باب ذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنباً، أمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب بالسيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر للشيء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

❦ الترتيل في القراءة ❦

وقول الله ﻋَﻠَﻴْكَ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْنٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وما يكره أن يهذ كهذ الشعر، قال ابن عباس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ فصلناه، عن أبي وائل قال: غدونا على عبد الله [بن مسعود]، قال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هَذَا كَهْذُ الشَّعْرِ، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرآن التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم. [رواه البخاري/ ٤٧٥٦ ومسلم/ ٨٢٢]، وفيه دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هذمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرَّكٌ لِيَذَّبُوا عَنِتَّهُ﴾ [ص: ٢٩].

وعن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكانه عجل، فقال عبد الله: فداك أبي وأمي، رتل القرآن فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن، وعن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول. [وفي رواية عنه]: أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هذمة، ثم قال البخاري رحمته الله:

مد القراءة - الترجيع

عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مدًّا. [أخرجه البخاري/٤٧٥٨]، وعن قتادة قال: سئل أنس بن مالك كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه، وعن عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته أو جملة وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يُرْجِع. [أخرجه البخاري/٤٧٦٠]. أما الترجيع: فهو التردد في الصوت كما جاء أيضًا في البخاري أنه جعل يقول: آآ، وكأن ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلي على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره - قول المقرئ للقارئ حسبك - البكاء في القراءة:

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: (يَا أَبَا مُوسَى، لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ)، فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتي لحببته لك تحبيرًا. [أخرجه مسلم/٧٩٣].

وقال الزهري عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده، وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنج قط ولا بربط قط، ولا شيئًا قط أحسن من صوته. [الصنج والبربط من آلات المعازف في وقتهم].

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ) قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ غَيْرِي). قال: فقرأت عليه النساء حتى إذا بلغت: ﴿كَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: (كَفَّ أَوْ أَمْسَكَ [أَوْ حَسَبَكَ]) فرأيت عينيه تذرفان. [رواه البخاري/٤٧٦٨ ومسلم/٨٠٠].

في كم يقرأ القرآن

وقول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَنَّتَه فيسألها عن بعلمها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا، ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناها، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، قال: (أَلْقِنِي بِهِ)، فلقيته بعد، فقال: (كَيْفَ تَصُومُ؟). قلت: كل يوم. قال: (وَكَيْفَ تَخِيْمُ؟). قال: كل ليلة. قال: (صُمْ [من] كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ). قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: (صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْجُمُعَةِ)، قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: (أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا). قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: (صُمْ

أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامُ يَوْمٍ وَإِفْطَارُ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعٍ لَيْالٍ مَرَّةً) فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ [رواه البخاري/٤٧٦٥].

ثم روى البخاري [٤٧٦٧] ومسلم [نحوه/١١٥٩] عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النبي ﷺ: (اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ). قلت: إني أجد قوة. قال: (فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ)، فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع.

فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً، ولكن دلت أحاديث أخر على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في مسنده [لم أجده من حديث سعد] عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: (نَعَمْ)، فكان يقرؤه حتى توفي، وهذا إسناد جيد قوي حسن.

وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث، وترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك، منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه [وتميم الداري وسعيد بن جبير وعلقمة وهذه مروية عنهم بأسانيد صحيحة]، وهذا محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصود له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرة).

من رأى بقراءة القرآن

أو تأكل به أو فخر به

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَنَاءُ الْأَسْنَانِ، سُهَاءُ الْأَخْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِينُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنْ قَتَلْتَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [رواه البخاري/٣٤١٥ ومسلم/١٠٦٦]، وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأُتْرَجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْتَّمَرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ وَرِيحُهَا مُرٌّ) [رواه البخاري/٤٧٧٢].

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب، والمذكورون في حديث علي هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في الرواية الأخرى: (يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ قِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، وَصَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ) [رواه البخاري بألفاظ قريبة/ ٦٥٣٤]، ومع هذا أمر بقتلهم؛ لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شِقَاقٍ جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، والمنافق المشبه بالريحانة التي لها ريح ظاهر وطعمها مر هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم﴾

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَمُؤْمُوا عَنْهُ) [رواه البخاري/ ٤٧٧٣]، ومعنى الحديث أنه ﷺ أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: (اَكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا) [رواه البخاري/ ٦١٠٠ ومسلم/ ٧٨٢]، وقال: (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ) [رواه البخاري/ ٤٣ ومسلم/ ٧٨٢]، وفي اللفظ الآخر: (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ) [رواه مسلم/ ٧٨٣].

﴿كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن﴾

وفضائله وفضل أهله

عن أبي سعيد قال: قال نبي الله ﷺ: (يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً، حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ) [أخرجه بلفظه أحمد/ ١١٣٧٨ وابن ماجه/ ٣٧٨٠ وبنحوه الترمذي/ ٢٩١٤ وقال: حسن صحيح].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ دُعَائِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ نَوَابِ السَّائِلِينَ)، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ فَضْلَ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ) [أخرجه الترمذي/ ٢٩٢٦ وهو حسن لغیره].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ). قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: (أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ) [أخرجه النسائي/ ٨٠٣١ وابن ماجه/ ٢١٥ وأحمد/ ١٢٣٠١ وصححه الحاكم/ ٢٠٤٦].

وروى الطبراني [في الكبير/ ٦٧٤] عن أنس رضي الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم. [وهو صحيح]، وعن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما

هو له أهل، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَإِنْ أَفْضَلَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) ثم يرفع صوته وتحمرّ وجنتاه، ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: (أَتُنْكُمُ السَّاعَةَ [بِعَثِّ أَنَا وَالسَّاعَةِ] هَكَذَا - وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى - صَبَحْتُكُمْ السَّاعَةَ وَمَسَّنْتُكُمْ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلْأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلِإِيٍّ وَعَلَيٍّ) [أخرجه مسلم/ ٨٦٧ وأحمد/ ١٤٣٧٣ وغيرهما واللفظ لأحمد].

وعن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرءون القرآن، فقال: (اقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَابْتَغُوا بِهِ وَجْهَ اللَّهِ ﷻ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ الْقِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ) [أخرجه أحمد/ ١٤٨٩٨ وهو صحيح بشواهده، والقدر: السهم، والمراد: يتعجلون أجره كما في رواية أبي عبيد].

وعن عبد الله بن مسعود قال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، مَنْ اتَّبَعَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَهُ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - زُجَّ فِي قَفَاهُ إِلَى النَّارِ) [صحيح كما قال في مجمع الزوائد ١/ ١٧١]، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَثَلُ الْقُرْآنِ مَثَلُ الْإِبِلِ الْمُعْقَلَةِ إِنْ تَعَاهَدَهَا صَاحِبُهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا ذَهَبَتْ) [أخرجه أحمد/ ٤٧٥٩ وهو صحيح].

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: (الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنْعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفَّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنْعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفَّعْنِي فِيهِ) قال: (فَيُشَفَّعَانِ) [أخرجه أحمد/ ٦٦٢٦ وهو صحيح بشواهده]، وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا) [أخرجه أحمد/ ٦٦٣٣ وهو صحيح بشواهده].

وهكذا أذكر آثاراً مرويةً عن ابن أم عبد [عبد الله بن مسعود] أحد قُرَّاء القرآن من الصحابة المأمورين بالتلاوة على نحوهم: قال ابن مسعود: من أراد العلم فليَنبِؤْ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين، وعن أبي وائل قال: كان ابن مسعود يقل الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُئْتُ ضَعُفْتُ عن القراءة والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إليّ.

مقدمة مفيدة

عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة [التوبة] والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والرحمن والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبي لم تُحَرِّمْ وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة، فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك، وأما كلماته فعن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمئة وتسع وثلاثون كلمة، وأما حروفه فعن مجاهد قال: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمئة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً.

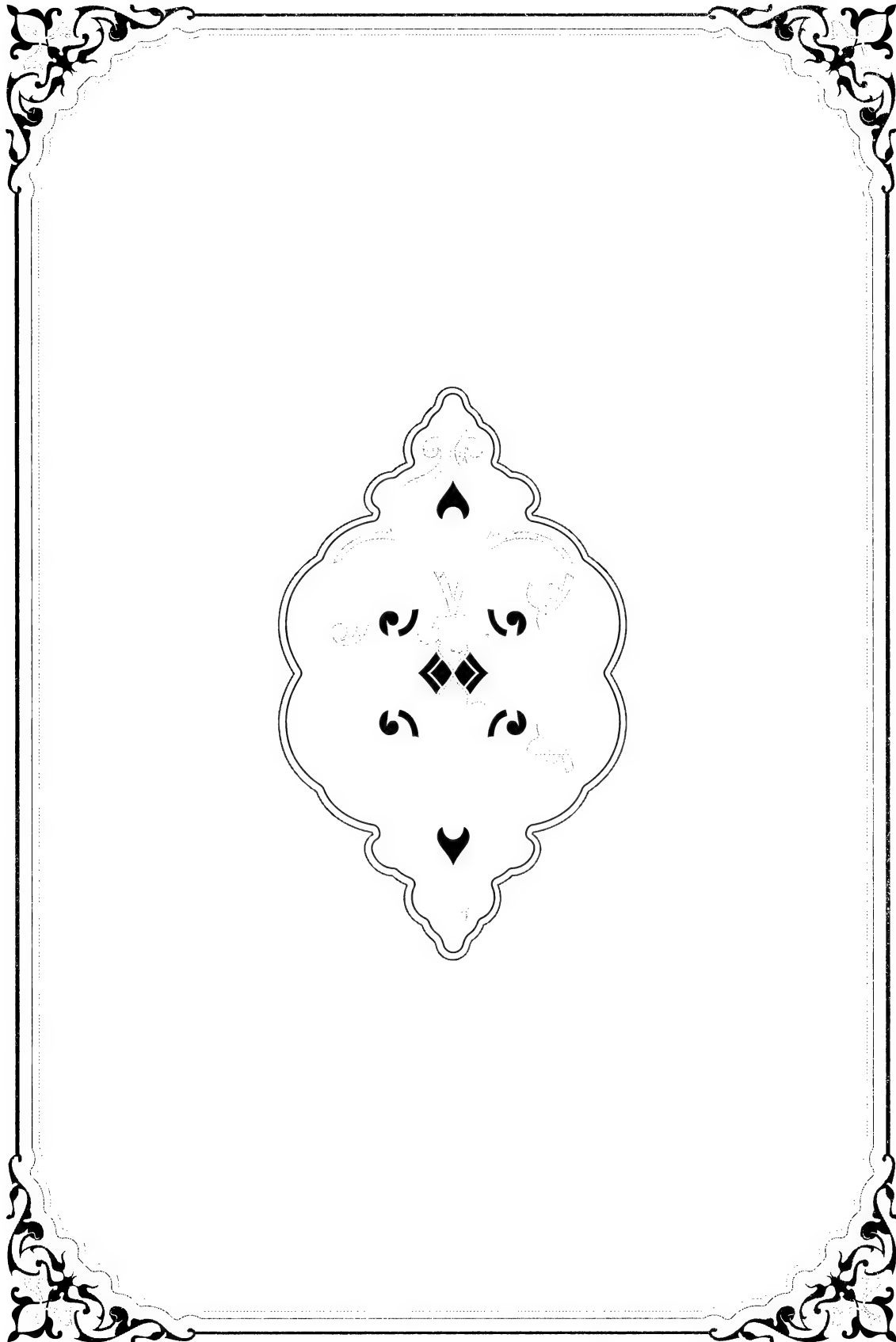
وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمد [بنيه/١٩٠٤٣] وسنن أبي داود [١٣٩٣] وابن ماجه [١٣٤٥] وغيرهما عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف يُحزَّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمسة وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المُفَصَّل من قاف حتى يختتم. قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت عليه اللغات.

فصل في

واختلفوا في معنى السورة: مم هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع؛ فكأن القارئ يتنقل بها من منزلة إلى منزلة، وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنازله ودوره، والله أعلم، وجمع السورة سورٌ بفتح الواو، وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله؛ أي: هي بآئنة عن أختها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقيل: لأنها جماعة حروفٍ من القرآن وطائفة منه، وقيل: سُميت آية لأنها عجبٌ يَعْجِزُ البشر عن التكلم بمثلها.

وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر، وأكثر ما يكون عشرة أحرف: ﴿لَيْسَ تَخْلَفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَأَسْقَيْنَهُمْ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة آية مثل: والفجر، والضحى، والعصر، وكذلك: الَمْ، وطه، ويس، وحَمْ - في قول الكوفيين - و﴿حَمْ ① عَسَق﴾ [الشورى: ١، ٢] عندهم كلمتان، وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هي فواتح السور، وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله: ﴿مُدَّهَا قَتَانٌ﴾ [الرحمن: ٦٤].





تفسير سورة الفاتحة

(مكية)

يقال لها: الفاتحة؛ أي: فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضًا: أم الكتاب، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي [٣١٢٤] وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ)، ويقال لها: (الحمد) ويقال لها: (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللَّهُ: حَمْدُنِي عَبْدِي...) الحديث [أخرجه مسلم/٣٩٥]، فَسُمِّيَتِ الفاتحة صلاة؛ لأنها شرط فيها، ويقال لها: (الرُّقْيَةُ) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ: (وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟) [رواه البخاري/٢١٥٦ ومسلم/٢٢٠١].

وهي مكية قاله ابن عباس وهو أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم، وهي سبع آيات بلا خلاف، وإنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها، أو بعض آية أو لا تُعد من أولها.

قالوا: وكلما تها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا. قال البخاري في أول كتاب التفسير: وَسُمِّيَتِ أم الكتاب؛ لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف ويُبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سُمِّيَتِ بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. ويقال لها أيضًا: الفاتحة لأنها تفتتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني قالوا: لأنها تُتَنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المَعْلَى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت، قال: وأتيت فقال: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟) قال: قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: (أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]) ثم قال: (لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ) قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: (لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ) قال: (نَعَمْ)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي: السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ [أخرجه البخاري/٤٣٧٠ وأحمد/١٥٧٦٨ واللفظ له].

وعن عبد الله بن جابر قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء فقلت: السلام

(أحدها): أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَفِّفْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ أي: بقراءتك كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس [بنحوه عند مسلم/ ٣٩٥]، وهكذا قال في هذا الحديث: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ) ثم بيّن تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها هو القراءة كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ

إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرحاً به في الصحيحين [البخاري/ ٤٤٤٠ ومسلم/ ٦٤٩]: (أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ) فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء، ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم، أنها لا تتعين بل مهما قرأ من القرآن أجزأه في الصلاة واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].

(والوجه الثاني): أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور العلماء، واحتجوا على ذلك بما ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ) [رواه البخاري/ ٧٢٣ ومسلم/ ٣٩٤]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

(والوجه الثالث): هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: (أحدها): أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة. (والثاني): لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها ولا في الصلاة الجهرية ولا في الصلاة السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده [١٤٦٨٤] عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقَرَأَهُ الْإِمَامُ لَهُ قِرَاءَةً)، ولكن في إسناده ضعف، وقد روي هذا الحديث من طرق ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ والله أعلم. (والقول الثالث): أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم [٤٠٤] عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ؛ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا) وهو قول قديم للشافعي، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغرض من ذكر هذه المسائل هاهنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور والله أعلم.

الكلام على تفسير الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَوْدَ وَأَنْتَ بِالْعَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [١٩٩] وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبَّةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [٩٦] وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ [٩٧] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٢٤] وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُو حَظِّ عَظِيمٍ [٢٥] وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل

مصانعة ولا إحساناً ولا يتنغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى: ﴿يَنْبَغِي لِآدَمَ أَنْ يَفْتَنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْزَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿افْتَحِذُوا زِينَتَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِكُمْ وَلَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الْغُلَامِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم لآدم ﷺ أنه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَعَزَّزْتُكَ لِأَعُوذُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [النحل: ٩٨]، [٩٩].

قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها؛ إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾؛ أي: إذا أردت القراءة كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]؛ أي: إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك، فعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ). ويقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ثلاثاً، ثم يقول: (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ) [أخرجه أهل السنن واللفظ لأحمد/ ١١٤٩١ وهو حسن]، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر.

وعن سليمان بن صرد رضى الله عنه قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ: (إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ قال: إني لست بمجنون [رواه البخاري/ ٥٧٦٤ ومسلم/ ٢٦١٠].

(مسألة): وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يأثم تاركها، وحكي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، واحتج لعطاء بظاهر الآية ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها؛ ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب.

(مسألة): يجهر بالتعوذ وإن أسر فلا يضر؛ لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، وفيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورُجِّح عدم الاستحباب، والله أعلم، فإذا قال المستعِذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة.

(مسألة): ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، [وقيل]: بل للصلاة فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد والجمهور بعدها قبل القراءة، ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للنفوس مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطيب

له وتهيؤ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه.

(فصل): والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر والعيادة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنيائي أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.

والشيطان: في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بَعَدَ فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار، والشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يُسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّاكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وفي «صحيح مسلم» [٥١٠] عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْجِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ) فقلت: يا رسول الله! ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: (الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ركب برذوناً فجعل يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا فنزل عنه وقال: ما حملتوني إلا على الشيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. إسناده صحيح [أخرجه ابن جرير].

والرجيم: فعيل؛ بمعنى: مفعول؛ أي: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كُتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كُتبت للفصل لا أنها آية. على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وفي سنن أبي داود [٧٨٨] بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ابن عباس وابن عمر وعلي، ومن التابعين عطاء، وسعيد بن جبير، وبه يقول الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور. هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا.

فأما ما يتعلق بالجهر بها فمفترع على هذا، فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة

المسلمين سلفًا وخلفًا، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها، وفي «صحيح البخاري» [٤٧٥٩] عن أنس بن مالك أنه سُئل عن قراءة النبي ﷺ، فقال: كانت قراءته مدًا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهرًا ولا سرًا واحتجوا بما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، ولمسلم [٣٩٩]: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها، فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة من جهر بالبسملة ومن أسرَّ والله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

عن عاصم قال: سمعت أبا تيمية يحدث عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان فقال النبي ﷺ: (لَا تَقُلْ تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ، وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَغَتْهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ) [أخرجه أحمد/٢٠٧٠٩ وجوّده المنذري] فهذا من تأثير بركة بسم الله، ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول، فتُستحب في أول الخطبة، وتُستحب البسملة عند دخول الخلاء، وتُستحب في أول الوضوء، وكذا تُستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وهكذا تُستحب عند الأكل، وكذلك تُستحب عند الجماع.

(الله): عَلَّمَ على الرب تبارك وتعالى يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤] فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) [البخاري/٢٥٨٥ ومسلم/٢٦٧٧].

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يُعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له، وقيل: إنه مشتق، وقد استدل على كونه مشتقًا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]؛ أي: المعبود في السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

(الرحمن الرحيم): اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لأتصل بذكر المرحوم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي [١٩٠٧] وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ) قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق، قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر؛ أي: أكثر رحمة. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فخصهم باسمه الرحيم قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة، وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يُسمى به غيره ومنها ما لا يُسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك. فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشهر الأسماء فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنُّت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله بالرحمن.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو مبتدأ وخبر. قال أبو جعفر بن جرير معنى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الشكر لله خالصاً دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كل ما برأ

من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا، وقد اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر:

أَفَادَنْتُكُمْ النَّعْمَاءَ مِنِّي ثَلَاثَةً يَلِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر على قولين والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم.

وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللमित وللجماد أيضًا كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا فهو أعم.

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله، ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال: إلا لله ﷻ، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم، والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله ﷻ.

والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر وكل قرن منها وجيل يُسمى عالمًا أيضًا، وعن ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رب الجن والإنس، وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج، واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس، وقال قتادة: رب العالمين كل صنف عالم.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدّم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن إعادته قال القرطبي: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى: ﴿تَتَقَرَّبُ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ

رَحِمَ ﴿[الأنعام: ١٦٥] قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب، وفي «صحيح مسلم» [٢٧٥٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ).

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤).

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقرأ آخرون: ﴿مَلِكِ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع، ومالك مأخوذة من الملك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢]، وملك مأخوذ من المُلْك كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين؛ لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَحُشِّنَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وعن ابن عباس: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر.

والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] وقال: ﴿أَوَلَا لِمَدِينَتَيْنِ﴾ [الصافات: ٥٣]؛ أي: مجزيون محاسبون، وفي الحديث: (الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ) [رواه الترمذي/٢٤٥٩]؛ أي: حاسب نفسه كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥).

العبادة في اللغة من الذلة يقال: طريق مُعَبَّدٌ وبغير مُعَبَّدٍ؛ أي: مذل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصص؛ أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله ﷻ، وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسب؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في «الصحيحين» عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ) [رواه البخاري/٧٢٣ ومسلم/٣٩٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ يعني: إياك نوحّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم. وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعي واحد وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد قيل له: إذا كنت في العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلى الله ﷻ، ومنهم من قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ اللطف في التواضع من إياك أعبد لما في الثاني من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبد حق عبادته ولا يثنى عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى.

وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فسماه عبداً عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦)

قراءة الجمهور بالصاد، وقرئ السراط، وقرئ بالزاي.

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: (فَنُصَفُّهَا لِي

وَنَصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ) [من حديث أخرجه مسلم/ ٣٩٥ وتقدم قريباً] وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة، ولهذا أرشد الله إليه؛ لأنه الأكمل وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [الفصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول كقول ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والهداية هاهنا الإرشاد والتوفيق، وقد تُعدي الهداية بنفسها كما هنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]؛ أي: بيناً له الخير والشر، وقد تُعدي بإلى كقوله تعالى: ﴿أَجَبْنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الصفات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تُعدي باللام كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ أي: وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب.

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول، فروي أنه كتاب الله، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال ذاك الإسلام، وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، وقال مجاهد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.

وعن أبي العالية: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو النبي ﷺ وصاحبه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح، وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد.

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصُّره وازدياده منها واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمهده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من

وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم.

فمعنى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها... أن الله يقول: (هَذَا لِعِبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ) [رواه مسلم/٣٩٥].

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم.

﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]، وقال ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ المعنى: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثَمَّ مسلكين فاسدين وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وإنما جيء بها لتأكيد النفي لثلاث يتوهم أنه معطوف على ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وللفرق بين الطريقتين لتجنب كلاً منهما فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العلم والنصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وبهذا جاءت الأحاديث والآثار وذلك واضح بين.

وعن عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرَى على فرسه وسأله رجل من بني القين فقال يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: (الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ - وَأَشَارَ إِلَى الْيَهُودِ - وَالضَّالُّونَ هُمُ النَّصَارَى) [رواه أحمد/ ٢٠٧٥٥ وهو صحيح].

وعن ابن عباس، وعن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ هم النصارى، وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً، وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿يَسْمَا أَشْرَوْا يَوْمَ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُزَلَّ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال في المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِمُتَرِّينَ مِنْ ذَلِكَ مُتُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما، وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا؛ ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم، وأما حديث: (أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ) فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله، والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وما أحسن إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك

إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضْلَهُمْ بِقَدْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلْ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال لا كما تقول الفرقة القدرية ومن هذا حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم: وهذا حال أهل الضلال والغي، فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد.

فصل

يُستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل يس، ويقال: آمين بالقصر أيضاً مثل يمين؛ ومعناه: اللَّهُمَّ استجب والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد [١٨٨٦٢] وأبو داود [نحوه/٩٣٢] والترمذي [٢٤٨] عن وائل بن حجر قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: آمين مد بها صوته، ولأبي داود [٩٣٢] رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم، وقال الجوهري: معنى آمين كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأكثرون: معناه: اللَّهُمَّ استجب لنا.

وقد اختلف أصحابنا [أي: الشافعية] في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً وإن أمن الإمام جهراً فالجديد أن لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة، والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك، ولنا قول آخر ثالث أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨، ٨٩) ذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون آمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩] ذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون آمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ فدل ذلك على أن من آمن على دعاء فكأنما قاله.

تفسير سورة البقرة

ذكر ما ورد في فضلها:

في مسند أحمد [٨٩٠٢] وصحيح مسلم [٧٨٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ).

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران عليهم السلام

عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْيْنَ: الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّيْتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِهِمَا)، ثم قال: (اقْرَأُوا الْبَقَرَةَ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ) [رواه أحمد/ ٢٢٢٠٠ ومسلم/ ٨٠٤].
الزهراوان: المنيران، والغاية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى: (لَا تَسْتَطِيعُهَا)؛ أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهى، وعن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة، وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم (١)﴾.

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه فردّوا علمها إلى الله، ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وقاله الشعبي والثوري والربيع بن خثيم واختاره أبو حاتم ابن حبان، ومنهم من فسرها، واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور، ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين [البخاري/ ٨٥١ ومسلم/ ٨٨٠] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة آلَمَ السجدة، وهل أتى على الإنسان، وعن مجاهد أنه قال: آلَمَ، وَحَمَ، وَالْمَصَ، وَصَ. فواتح افتتح الله بها القرآن،

وعنه أنه قال: أَلَمْ اسم من أسماء القرآن، وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد أنه اسم من أسماء السورة، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون «الْمَصَّ» اسماً للقرآن كله؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «الْمَصَّ» إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى، فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وعن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى، وعن عكرمة أنه قال: أَلَمْ: قسم، وعن ابن عباس: أَلَمْ قال: أنا الله أعلم، وكذا قال سعيد بن جبير، وعن ابن عباس وعن ابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: أما أَلَمْ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وعن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى أَلَمْ قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه، وبلائه: وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وأجالهم، ورواه ابن جرير [بنحوه] ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن فهي أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي أبي العالية؛ لأن الكلمة الواحدة تطلق على معانٍ كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢ و ٢٣] وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِزْهِيَةَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونُ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِمُّهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]؛ أي: بعد حين على أصح القولين قال: فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهًا ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا وعلى هذا معاً، ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، ثم إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهي: ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر، وهي نصف الحروف عددًا والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف.

ومن هاهنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلامًا فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها ﷺ عبثًا ولا سدى، ومن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعين أن لها معنى في الأمر نفس، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتّباعه وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها، فقال بعضهم: إنما ذكرت لتعرف بها أوائل السور حكاة ابن جرير وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوة وكتابة، وقال آخرون: بل ابتدئ بها لَتُفْتَحَ لاستماعها أسماعُ المشركين إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه حكاة ابن جرير أيضًا وهو ضعيف؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك - أيضًا - لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتي تليها - أعني: البقرة وآل عمران - مدنيتان ليستا خطابًا للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [٢]، ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]، ﴿الْمَصِّصُ﴾ [١]، ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم.

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادّعى ما ليس له، وطار في غير مطاره.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: هذا الكتاب، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغيرهم: أن ذلك بمعنى هذا والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم.

﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن: ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النُّجَّةَ وأَغْرَقَ في النزع وتكلف ما لا علم له به، والريب الشك، فعن ابن عباس، وابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه.

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن - لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى في السجدة: ﴿الْمَ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال بعضهم: هذا خبر؛ ومعناه: النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه، ومن القراء من يقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾ ويتبدى بقوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى للآية التي ذكرناها؛ ولأنه يصير قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون فيه هدى، وخصت الهداية للمتقين كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ يعني: نوراً للمتقين، وقال الشعبي: هدى من الضلالة، وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين، وكل ذلك صحيح.

وعن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

وعن الحسن البصري قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتَّقُوا ما حَرَّمَ الله عليهم، وأدُّوا ما افترض عليهم، وقال قتادة: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الآية والتي بعدها [البقرة: ٣، ٤]، واختار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله وهو كما قال.

وأصل التقوى التوقي مما يكره؛ لأن أصلها وَقَوَى من الوقاية. قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَاوَلْنَاهُ وَاتَّقَيْنَا بِالْيَدِ

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت، قال: شمريت واجتهدت، قال: فذلك التقوى، وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَفِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ الثُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى
وَأُنْشِدْ أَبُو الدَّرْدَاءُ يَوْمًا:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مِنْهُ وَيَأْبَى إِلَهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَإِذْنِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه يؤمنون يصدقون، وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل، وعن الربيع بن أنس رضي الله عنه يؤمنون يخشون.

قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً وعملاً واعتقاداً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأنشاق: ٢٥]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث.

ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأما الغيب المراد هاهنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.

فعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله، وكذا قال قتادة.

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن، وعن زر قال: الغيب القرآن، وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب، وقال إسماعيل بن أبي خالد رضي الله عنه يؤمنون بالغيب قال: بغيب الإسلام، وقال زيد بن أسلم: بالقدر، فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيننا لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيث، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، [رواه سعيد بن منصور/ ١٨٠ والحاكم/ ٣٠٣٣ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه]، وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد عن أبي جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، قال: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: (نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني) [صححه الحافظ/ ٦٩٩٢].

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: يقيمون الصلاة بفروضها، وعن ابن عباس [أيضاً] إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وعن ابن عباس ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم، وعن ابن عباس، وابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة.

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال فإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهاال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القربات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين [البخاري/ ٤٢٤٣ ومسلم/ ١٦] عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (بُنيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ) والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء. ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة، وقال ابن جرير: وأرى أن الصلاة سُميت صلاة؛ لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجاته.

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أي: يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا، وقد اختلف المفسرون في الموصوفين ها هنا، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير؛ أحدها: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والثاني: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾ [الأعلى: ١ - ٥]، فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد. والثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مؤمنو أهل الكتاب، نقله السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير، ويُستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وبما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٧٩٥ ومسلم/ ١٥٤] من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: (ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ، وَرَجُلٌ آدَبَ جَارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا).

قلت: والظاهر قول مجاهد، [فعنه] أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين وآيات في نعت الكافرين وثلاث عشرة في المنافقين.

فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي من إنسي وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذاك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم

مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملاً.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥).

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات.

﴿عَلَى هُدًى﴾؛ أي: على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: غطوا الحق وستره، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ أي: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِدَ له، ومن أضله فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك؛ ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول.

وعن أبي العالية قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، والمعنى الذي ذكرناه أولاً عن ابن عباس أظهر، ويفسر ببقية الآيات التي في معناها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ أي: هم كفار في كلا الحالين فهذا أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون لا يؤمنون خبراً؛ لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧).

قال السدي: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾؛ أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استحوز عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، وعن مجاهد قال: الرأى أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك كله.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأصم عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم.

قلت: وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير هاهنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وما أشبه من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله ﷻ قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١١٥]، وذكر حديث ثعليب القلوب: (وَيَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ) [رواه أحمد/ ١٧٦٦٧] وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: (تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا فَإِذَا قَلْبٌ أَشْرَبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفَاءِ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادٍّ كَالْكُوزِ مُجْحَيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا) الحديث [رواه مسلم/ ١٤٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّأى الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]) [رواه النسائي/ ١١٦٥٨] والترمذي/ ٣٣٣٤ وقال: حسن صحيح.

قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلک، ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الختم والطبع على ما تدرکه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما

فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلّها فكَذَلِكَ لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها .

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غُشُوهٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر كما قال ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ فلا يعقلون ولا يسمعون، وجعل على ﴿أَبْصَرِهِمْ غُشُوهٌ﴾ على أعينهم فلا يبصرون .

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضاً فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي: وهو من أكبر الذنوب، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُهُ فِعْلُهُ، وسِرَّهُ علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغْيِيهِ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَهًا، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَضِير، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام ؑ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله. قال عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وُجِدَ النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون

فلم يكن فيهم أحد نافق؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

قال ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم. وكذا فسرهما بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدي، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في الأمر نفسه، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]؛ أي: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط لا في الأمر نفسه، ولهذا يؤكدون الشهادة بأن ولام التأكيد في خبرها، كما أكدوا قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ﴾ وليس الأمر كذلك كما أكذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: بإظهارهم ما أظهره من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغترون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن القراء من قرأ: ﴿وما يخادعون إلا أنفسهم﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

وعن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك.

وعن قتادة: نعت المنافق عند كثير: خنق الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هبَّ معها.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

عن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قالوا: شك، فزادهم الله مرضاً، قالوا: شكاً.

وكذلك قال مجاهد والحسن وغيرهما، وعن عكرمة وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾؛ يعني: الرياء، وعن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: نفاق، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقاً وهذا كالأول، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في

الَّذِينَ، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون: والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجسًا، وقرأ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شرًا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم، وهذا الذي قاله عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ وقرئ: ﴿يَكْذِبُونَ﴾، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢).

عن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية، وعن أبي العالية قال: يعني: لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغيرهم.

وعن سلمان الفارسي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال سلمان: لم يجئ أهل هذه الآية بعد.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها، وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأفال: ٧٣]، فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين.

فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غرَّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأولى لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطليح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب.

يقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه

ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣).

يقول الله تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾؛ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَنْتُمُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم.

قاله ابن عباس، وابن مسعود، وأبو العالية، وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!! والسفهاء: جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، وقد تولّى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم.

﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥).

يقول الله تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: أظهرنا لهم الإيمان والموالة والمصافاة، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾؛ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم.

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾؛ يعني: هم رؤساؤهم في الكفر.

وعن ابن عباس [أيضاً]: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ، وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشر، وبنحو ذلك فسره غير واحد.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ عن ابن عباس؛ أي: إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم، وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه

فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقَسَ مِنْ ثَوْبِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ سُبُورًا لَّهُ بِابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية [الحديد: ١٣]، قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مَرَدَّتِهِمْ قالوا: إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم من قولنا لهم: صدقنا بمحمد ﷺ وما جاء به مستهزئون، فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا؛ يعني: من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة؛ يعني: من العذاب والنكال. ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله ﷻ بالإجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. قال: وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْذُرُهُمْ فِي طَغْيِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾؛ عن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من الصحابة قالوا: يمدهم: يملئ لهم، وقال مجاهد: يزيدهم. قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ الْأَمْرِ وَنَذَرُهُمْ فِي طَغْيِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. والطغيان: هو المجاوزة في الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْأَمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

وعن ابن عباس: ﴿فِي طَغْيِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾: في كفرهم يترددون، وكذا فسره أبو العالية، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم: في كفرهم وضلالتهم. قال ابن جرير: والعَمَ: الضلال، يقال: عمه فلان يَعْمَهُ عَمًّا وَعُمُوًّا: إذا ضل.

قال: وقوله: ﴿فِي طَغْيِهِمْ يَعْهَدُونَ﴾ في ضلالتهم، وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُهُ، وعَلاهم رَجْسُهُ، يترددون حيارى ضلَّالًا، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْدًا، ولا يهتدون سبيلاً.

وقال بعضهم: العمى في العين، والعمه في القلب، وقد يستعمل العمى في القلب - أيضًا - قال تعالى: ﴿فَأَنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿أُولَ الْأَمْرِ الَّذِينَ أَشَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَحَّتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

قال السدي في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: ﴿أُولَ الْأَمْرِ الَّذِينَ أَشَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدّلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾؛ أي: بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَیَحَتْ بِحَدَرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾؛ أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، وما كانوا مهتدين؛ أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَعَمَىٰ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٨).

تقرير هذا المثل: أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياءً لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم العمى على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، ولم يستحضر ابن جرير رحمه الله هذه الآية هاهنا وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت.

قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَعَمَىٰ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: أذهب عنهم ما ينفعهم وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمُّ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿بَكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمَىٰ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه:

عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾

زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مَقْدَمَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة، فأوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي منه، فبينما هو كذلك إذ طفت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فكَذَلِكَ المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، والخير والشر، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر.

وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب، وروي عن عكرمة، والحسن، والسدي، والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني [وينحوه قال ابن زيد].

﴿وَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ عن ابن عباس: يقول في عذاب إذا ماتوا، وقال ابن عباس [أَيْضًا]: ﴿وَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَةٍ﴾؛ أي: يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق.

وعن ابن عباس: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمًى﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه، ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس: أي: لا يرجعون إلى هدى، وقيل: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمًى﴾ فهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إلى الإسلام، وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لا يتوبون، ولا هم يذكرن.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْغَعِمٌ فِيْٓ عَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾.

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب: المطر، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وغيرهم.

وقال الضحاك: هو السحاب، والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

والبرق: هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْغَعِمٌ فِيْٓ عَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾؛ أي: ولا يُجدي عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجُنُودِ﴾ (١٧) ﴿رِيعُونَ وَنُمُودَ﴾ (١٨) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١٩) ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧ - ٢٠].

والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد. ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾؛ أي: لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان. وعن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد مُحْكَمُ الْقُرْآنِ يدل على عورات المنافقين.

وعن ابن عباس: ﴿كَلَّمَ أَصْنَاءَ لَهُمْ مَسْؤًا فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ الآية [الحج: ١١].

وعن ابن عباس: ﴿كَلَّمَ أَصْنَاءَ لَهُمْ مَسْؤًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر ﴿قَامُوا﴾؛ أي: متحيرين، وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم، وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلَص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُوا نَفْسٍ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

فإذا تقرر هذا صار الناس أقسامًا، مؤمنون خُلَص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة وكفار خُلَص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان: خُلَص وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع من الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي وهم أخف حالًا من الذين قبلهم، وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور.

وقد قسّم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضًا صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق، كما جاء في «الصحيحين» [البخاري/٣٤/٥٨] عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةً مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ). استدلووا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق. إما عملي لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ عن ابن عباس قال: لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس: أي؛ إن الله على كل ما أراد

عباده من نعمة أو عفوٍ قديرٍ، وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنَّه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وأنه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير؛ ومعنى قدير: قادر، كما أن معنى عليم: عالم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

شرح تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشًا؛ أي: مهدًا كالفراش موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وأنزل من السماء ماء - والمراد به السحاب هاهنا - في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقًا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن، ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفي «الصحيحين» [البخاري/٥٦٥٥ ومسلم/٨٦] عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ...) الحديث، وكذا حديث معاذ: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...) الحديث [متفق عليه]، وفي الحديث الآخر: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فَلَانٌ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فَلَانٌ) [رواه أبو داود/٤٩٨٠ وصححه النووي]، وهذا كله صيانة، ورعاية لجنان التوحيد والله أعلم.

وعن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعًا من الكفار والمنافقين؛ أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

وعن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه، وهكذا قال قتادة.

وعن ابن عباس أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاء سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان» هذا كله به شرك.

قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾؛ أي: عدلاء شركاء، وهكذا قال قتادة وغيره.

روى الإمام أحمد [١٧٢٠٩] عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَانَ يُنْطَى بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبْلِغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبْلِغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أَعْدَبَ أَوْ يُخَسَفَ بِي). قال: (فَجَمَعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمَرَكُمُ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَأَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصٍ مَالِهِ بَوْرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُوَدِّي غَلَّتْهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَكُمُ بِالصَّلَاةِ الْحَدِيثِ. فهذا حديث حسن والشاهد منه في هذه الآية قوله: (وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)، وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدلل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ أعوانكم؛ أي: قومًا آخرين يساعدونكم على ذلك، وعن أبي مالك: شركاءكم؛ أي: استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم.

وقال مجاهد: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون به؛ يعني: حكام الفصحاء، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ

أَنْ يُقَرَّرَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿يونس: ٣٧، ٣٨﴾ وهي مكة.

ثم تحداهم الله تعالى بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾؛ يعني: من مثل هذا القرآن، قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير.

وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقال بعضهم من مثل محمد ﷺ؛ يعني: من رجل أُمي مثله، والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأُمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ولن: لنفي التأييد؛ أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدًا، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنِّي يتأتَّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الرَّكَنُ أَتَمَّتْ أَيْتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته، وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ممن فهم كلام العرب وتصارييف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوسة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَيِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، وقال في الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الشمراء: ٢٠٥] - ٢٠٧. . . إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام

والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل ذنيء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٥] فأرעה سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأحوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٤٦٩٦ ومسلم/١٥٢ واللفظ له] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وقوله ﷺ: (وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا)؛ أي: الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرارها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، والمراد بالحجارة هاهنا: هي حجارة الكبريت، وهي أشد الأحجار جراً إذا حميت أجارنا الله منها، فعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين، وبنحوه قال مجاهد وابن جريج وغيرهما، وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تُعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان، وأعدت؛ أي: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن عباس: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر، وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ أي: أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها حديث ابن مسعود: سمعنا وجبة، فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: (هَذَا حَجَرٌ أُلْقِيَ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً الْآنَ

وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا) وهو عند مسلم [نحوه/٢٨٤٤]، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه:

قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وقوله في سورة يونس [٣٨]: ﴿يُسَوِّرُ مِثْلَهُ﴾ يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، فكل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٥﴾.

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، من تحت أشجارها وغرفها، وعن عبد الله بن مسعود: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ عن ابن عباس، وابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، ونصره ابن جرير، وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: معناه مثل الذي كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً لقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ وعن يحيى بن أبي كثير، قال: عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتمونا آنفاً به، فيقول لهم الولدان: كلوا فإن اللون واحد، والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ وروي عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وأبي العالية، والسدي، وعكرمة نحو ذلك وهذا اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد، وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم، وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف، وروي عن عطاء، والحسن، والسدي نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرةهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ يَهْدِنَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] الَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْهُمْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾.

عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين؛ يعني: قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وعن قتادة؛ أي: إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وعن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للعنكبوت؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سممت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلؤوا من الدنيا رياءً أخذهم الله تعالى عند ذلك ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وعن أبي العالية بنحوه، فهذا اختلافهم في سبب النزول، وقد اختار ابن جرير الأول؛ لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي؛ أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما؛ أي: أيّ مثل كان، بأي شيء كان صغيراً أو كبيراً.

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك؛ يعني: فيما وصفته، وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر المحققين، والثاني: فما فوقها فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختار ابن جرير، ويؤيده ما رواه مسلم [٢٥٧٢] عن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيتَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ) فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو

كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال مجاهد: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها.

وقال قتادة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله، وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال أبو العالية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ يعني: هذا المثل ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ كما قال في سورة المائدة [٣١]: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْبَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدُوَّهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفْتِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِذَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْنًا وَلَا يَرْآبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وكذلك قال هاهنا: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾؛ يعني: المنافقين، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾؛ يعني: المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقًا يقينًا، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾؛ يعني: بالمثل كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانًا إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقًا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون.

وقال أبو العالية: هم أهل النفاق، وكذا قال الربيع بن أنس، وعن ابن عباس يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به، وقال قتادة: فسقوا فأضلهم الله على فسقهم.

والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة، وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة: فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد، وثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣١٣٦ ومسلم/١١٩٨] عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (خَمْسُ فَوَاسِقٍ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَاةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ).

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية

الفاسق الكافر، والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾، وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد [١٩ - ٢٥]: ﴿أَمَنْ يَعْلَمْ أَنَّكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَا هُوَ أَعْلَمُ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَؤُا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ الآيات إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ وقول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيد ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب، وروي عن مقاتل بن حيان أيضًا نحو هذا وهو حسن، وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا... ﴿١٧٢﴾...﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به، وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضًا، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره، وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ قال: هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أوثمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أوثمنوا خانوا، وكذا قال الربيع بن أنس أيضًا.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير، وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ قال: في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وعن ابن عباس: كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبته إلى أهل الإسلام، فإنما يعني به الذنب.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. الخاسرون: جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم وحظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ؟ أَي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؛ أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١] قال: هي التي في البقرة: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى، فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وهكذا روي عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة، وعن الحسن ومجاهد نحو ذلك، وعن أبي صالح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال: يحييكم في القبر ثم يميتكم، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة، وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، وهذا غريب والذي قبله، والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود، وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الباقية: ٢٦]، وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿وَوَآيَةَ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجَتَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾ .

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه في أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا تَصَمَّنْ معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدِّي بإلى ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾؛ أي: فخلق السماء سبعاً، والسماء هاهنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ .

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، وتفصيل هذه الآية في سورة حَمَّ السجدة وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا مِنْ فَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَقْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿فصلت: ٩ - ١٢﴾، ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداءً بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسفله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض وسبع أرضين؛ يعني: بعضهن تحت بعض، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء وكذا في آية حَمَّ السجدة، فهذه وهذه الدالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض وفي «صحيح البخاري» [٤٥٣٧] أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢] ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله ﷻ أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

يخبر تعالى بامتداده على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملائكة الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: واذكر إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم ﷺ فقط، كما تقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن عباس، وابن مسعود وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾؛ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك؛ وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبي، أو أنهم قاسوهم على من سبق.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول؛ أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؛ أي: نصلي لك؛ أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاختصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفساد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني جاعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء والعاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٦٣٢] أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: (كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام: (يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ) [أخرجه مسلم بنحوه/١٧٩] فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: معنى قوله تعالى جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إن لي حكمة مفصلة

في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به، وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها فخر الدين الرازي مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله، إنما هي خلافة قرن منهم قرناً، قال: والخليفة الفعلية من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً. قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكناً وعامراً يعمرها ويسكنها خلقاً ليس منكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة وليس لله ربك خلق إلا الملائكة، والأرض وليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى أحرقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وعن الحسن قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل، فأمنوا بربهم فعلمهم علماً وطوى علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا: بالعلم الذي علمهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وعن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

قال ابن جريج: وإنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك، بعدما أخبرهم أن ذلك كائن من بني

آدم، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أنتم، ومن بعض ما ترونه لي طائعا. قال: وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموه من ذلك، فكأنهم قالوا: يا رب خبرنا، مسألة الملائكة استخبار منهم، لا على وجه الإنكار واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ عن قتادة: قال: التسبيح: التقدیس، والتقدیس: الصلاة، وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة يقولون: نصلي لك، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك، وقال الضحاك: التقديس: التطهير، وقال محمد بن إسحاق: لا نعصي ولا نأتي شيئا تكرهه، وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ؛ يعني: بقولهم: سبوح: تنزيه له، وبقولهم: قدوس: طهارة وتعظيم له، وكذلك قيل للأرض: أرض مقدسة؛ يعني: بذلك المطهرة، فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك، وفي «صحيح مسلم» [٢٧٣١] عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل؟ قال: (مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ).

وقد استدلل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والإمامة تُنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيحاء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور. وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم. أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعي.

ويجب أن يكون ذكرا حرا بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام: (إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ) [رواه البخاري ٦٦٤٧]، وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: (مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَاقْتُلُوهُ كَأَنَّا مَنْ كَانَ) [أخرجه مسلم بنحوه ١٨٥٢] وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام

الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز اثنان فأكثر كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمام؛ لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جَوَّزَ نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك، قلت: وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّْي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفضل على ذلك لمناسبة ما بين المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر الله تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً والدواب فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس.

وقال مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء، كذلك روي عن سعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء، وقال الربيع في رواية عنه: أسماء الملائكة، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وأفعالها، كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية؛ يعني: أسماء الذوات والأفعال الكبير والمصغر؛ ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من «صحيحه» [٤٢٠٦]:

عن أنس، عن النبي ﷺ قال: (يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا؟ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذَكِّرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْيِي) [الحديث]، وقد رواه مسلم [نحوه/١٩٣]، ووجه إيراد هاهنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: (وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ)، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾؛ يعني: المسميات، كما قال قتادة، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة، وعن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ عرض أصحاب الأسماء على الملائكة.

وعن الحسن وقتادة قالوا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه عرضت عليه أمة أمة، وعن الحسن وقتادة في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس، ومن قال بقوله؛ ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عَرْضَتْهُ عليكم أيها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك؟. إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني وأتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

وقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علَّمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام.

عن ابن عباس: سبحانه الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء، وعن ميمون بن مهران قال: سبحانه الله: اسم يُعْظَمُ الله به، وَيُحَاشَى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال زيد بن أسلم قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدَّد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب.

وقال مجاهد في قول الله: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء، وروي عن سعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر فضل آدم ﷺ على الملائكة ﷺ في سرِّه ما علَّمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: ألم أتقدم إليكم إني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فهذا الذي أبدوا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر، وكذلك قال سعيد بن جبیر، ومجاهد، والسدي، والضحاك، والثوري، واختار ذلك ابن جرير، وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كُنَّا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قصة الملائكة وآدم، فقال الله للملائكة: كما لم

تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته، ولذلك أخفيت عنكم أنني أجعل فيها من يعصيني ومن يُطيعني، قال: وقد سبق من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ﴾ وأعلم - مع علمي غيب السموات والأرض - ما تظهرونه بألستكم وما كنتم تخفون في أنفسكم، فلا يخفى علي أي شيء، سواء عندي سرائركم، وعلايتكم، والذي أظهروه بألستهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتومون ما كان عليه منطويًا إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته.

قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الجيش وهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذي نادى إنما كان واحدًا من بني تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤).

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتنَّ بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث أيضًا كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم. وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك، وعن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلْك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموا الجن؛ لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلْكه خازنًا، فوقع في صدره كِبَر وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لميزة لي على الملائكة، فلما وقع ذلك الكِبَر في نفسه اطلع الله على ذلك منه.

فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فقالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضًا، قالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِجِدُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: ٣٠]؛ يعني: من شأن إبليس.

فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ، وقال: رب مني عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخالط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قبل التراب حتى عاد طينًا لازبًا، واللازب هو الذي يلتزق ببعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [ص: ٧١، ٧٢] فخلقه الله بيده لئلا

يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملتُ بيدي، ولم أتكبر أنا عنه، فخلقه بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففرغوا منه لما رأوه، فكان أشدهم فرغاً منه إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿مِنْ صَلَصلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، ويقول: لأمر ما خلقت، ودخل من فيه فخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سُلِطَ عليه لأهلكته، فلما بلغ الحين الذي يريد الله ﷻ أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه، عَطَسَ، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله، فقال له الله: «رحمك ربك».

فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجَلَانِ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٣٠]، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١]، أبى واستكبر وكان من الكافرين، قال الله له: (ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي؟) قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لمن خلقته من طين. قال الله له: (اخرج منها فما يكون لك؟ يعني: ما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾) [الأعراف: ١٣] والصغار: هو الذل.

قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿فَقَالَ أَتُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

قال الله: ﴿يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّْي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فهذا الذي أبدوا ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]؛ يعني: ما أسرَّ إبليس في نفسه من الكبر، فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السُّدِّي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوا من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم، والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه، ويقول: هو على شرط البخاري.

والغرض: أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه - وإن لم يكن من عنصرهم - إلا أنه كان قد تشبَّه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر.

وعن ابن عباس: إن من الملائكة قبيلًا يقال لهم: الجن، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيمًا، وقال سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وعن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد سواء.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم ﷺ، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني، وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم ﷺ.

وعن عبد الله بن بريدة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الذين أبوا فأحرقتهم النار.

وعن أبي العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ يعني: من العصيين، وقال السدي: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين لم يخلقهم الله يومئذ، يكونون بعد، وقال محمد بن كعب القرظي: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصوره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأسافقتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: (لَا، لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عَظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا) [أخرجه الإمام أحمد نحوه/ ١٩٤٢٢ وهو صحيح]، والسجدة لآدم إكراماً وإعظماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله ﷻ؛ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عده.

قلت: وقد ثبت في «الصحيح»: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ كِبَرٍ) [رواه ابن حبان/ ٥٦٨٠] وقد كان في قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس.

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦).

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء.

﴿رَعْدًا﴾؛ أي: هنيئاً واسعاً طيباً، وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهى في السماء أم في الأرض؟ والأكثر على الأول، وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَتَادُمُ أَنْتَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

قال: ثم أُلقيت السُّنَّةُ على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضِلْعًا من أضلاعه من شِقِّهِ الأيسر، ولأَم مكانه لحمًا، وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضِلْعِهِ تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كُشِفَ عنه السُّنَّةُ وَهَبَ من نومه رَأْيَا إلى جنبه، فقال: - فيما يزعمون والله أعلم - «لحُمي ودمي وزوجتي» فسكن إليها، فلما رَوَّجَهُ اللهُ، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قَبَلًا: ﴿يَتَّكِدُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وعن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشًا ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي. قالت له - الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه - : ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم سُميت حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿يَتَّكِدُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي؟

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ ثَنَاهُ: نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلها منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السُّنَّةِ الصحيحة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قرأ حمزة: فأزالهما؛ أي: فتنَّاهما، ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ أي: من قبيل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾؛ أي: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَّ أَفْكَ﴾ [الذاريات: ٩]؛ أي: يصرف بسببه من هو مَأْفُوكٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ أي: من اللباس والمنزل والرحب والرزق الهنيء والراحة. ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وعن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وعن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا.

وعن أبي موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض عَلَّمَهُ صنعة كل شيء، وزَوَّدَهُ من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا) [رواه مسلم/ ٨٥٤].

قال فخر الدين الرازي عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قومًا من أهل الجنة فسانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها.

فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف تمكّن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طردًا قدرًا، والقدر لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتاب «البداية والنهاية».

وأجاب الجمهور بأجوبة؛ أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرّمًا، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء.

﴿فَلَقَّيْ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغْفِرٌ لَنَا وَتَرْحَمًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهم]، وعن مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم: يا رب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبت عليّ قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدئته من قبل نفسي؟ قال: (بل شيء كتبت عليك قبل أن أخلقك) قال: فكما كتبت عليّ فاغفره لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

وعن ابن عباس بنحوه، وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب، أرايت إن تبت وأصلحت؟ قال الله: (إذن أرجعك إلى الجنة) فهي من الكلمات، ومن الكلمات أيضًا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغْفِرٌ لَنَا وَتَرْحَمًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وعن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَلَقَّيْ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ قال: الكلمات: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، ربّ إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين، اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، ربّ إني ظلمت نفسي فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩).

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة؛ والمراد الذرية، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسول؛ كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسول والبيئات والبيان.

وقال مقاتل بن حيان: الهدى: محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى: القرآن، وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾؛ أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علي ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ [طه: ١٢٤] كما قال هاهنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها ولا محيص.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، لَكِنَّ أَقْوَامًا أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِخَطَايَاهُمْ، أَوْ بِذُنُوبِهِمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أَذُنٌ فِي الشَّقَاعَةِ) [رواه مسلم نحوه/ ١٨٥].

وذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم: أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتَیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِیْ أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَإِنِّیْ فَارْهُبُونَ﴾ (٤٠) ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ کَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِإِبْنِیْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّیْ فَاقِقُونَ﴾ (٤١).

يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهيّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب ﷺ، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فإسرائيل هو يعقوب ﷺ، وعن عبد الله بن عباس: أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿أَذْکُرُوا نِعْمَتَیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما

سمى، وفيما سَوَى ذلك؛ فَجَّرَ لَهُمَ الْحَجَرَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمَ الْمَنَ وَالسُّلَى، وَأَنْجَاهُمَ مِنْ عِبُودِيَةِ آلِ فِرْعَوْنَ.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب.
قلت: وهذا كقول موسى ﷺ لهم: ﴿يَقْوِمُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]؛ يعني: في زمانهم.
وعن ابن عباس في قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: بلائي عندهم وعند آبائكم لِمَا كَانَ نَجَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم.

﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾؛ أي: أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه وأتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم.

وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المائدة: ١٢].

وقال أبو العالية: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه.
وعن ابن عباس: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أَرْضَ عَنْكُمْ وَأَدْخِلْكُمْ الْجَنَّةَ، وكذا قال السدي، وأبو العالية، [وغيرهما].

وقوله: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ﴾؛ أي: فأخشون؛ قاله أبو العالية، [وغيره]، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ﴾؛ أي: أنزل بكم ما أنزل بمن كان قبلكم من آبائكم من النِّقَمَاتِ التي قد عرفتم من المسخ وغيره، وهذا انتقال من التَّغْيِبِ إلى التَّهْيِيبِ، فدعاهم إليه بالرغبة والرَّهْبَةِ، لعلهم يرجعون إلى الحق وأتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾؛ يعني به: القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتقاً على الحق من الله تعالى، مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.
قال أبو العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

وروي عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندهم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، وقال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ؛ يعني: من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، وكذا قال الحسن، [وغيره]، واختار ابن جرير أن الضمير في قوله به عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾

وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن، وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾؛ فيعني به: أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية.

سئل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: الثمن القليل: الدنيا بحذاخيرها. وعن ابن جبير نحوه، وقال السدي: لا تأخذوا طمعًا قليلًا، ولا تكتموا اسم الله، لذلك الطمع وهو الثمن.

وعن أبي العالية: لا تأخذوا عليه أجرًا، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم علِّم مجانًا كما علِّمت مجانًا، وقيل: معناه لا تعاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيمة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود؟ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرُحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [روى أحمد نحوه/ ٨٤٣٨ وصححه النووي والألباني]، وأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعيّن عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكبس، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه، فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء كما في «صحيح البخاري» [٥٤٠٥] عن أبي سعيد في قصة اللديغ: (إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابَ اللَّهِ)، وقوله في قصة المخطوبة: (زَوَّجْتُهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ) [أخرجه البخاري/ ٤٧٤١].

فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علّم رجلًا من أهل الصُّفَّة شيئًا من القرآن فأهدى له قوسًا فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال له: (إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُطَوَّقَ بِقَوْسٍ مِنْ نَارٍ فَأَقْبَلْهُ) فتركه، رواه أبو داود [نحوه/ ٣٤١٦]، وروي مثله عن أبي بن كعب مرفوعًا، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر ابن عبد البر، على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة، فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم.

﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله؛ ومعنى قوله: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾: أنه تعالى يتوعددهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣﴾.

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه من تلبس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب.

وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ.

ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه، وقال قتادة: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وروي عن الحسن البصري نحو ذلك.

وعن ابن عباس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم، وروي عن أبي العالية نحو ذلك.

وقال مجاهد، والسدي، وقاتدة، والربيع بن أنس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لترؤجوه عليهم، والبيان: الإيضاح، وعكسه: الكتمان وخلط الحق بالباطل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة؛ أي: يدفعونها إلى النبي ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ، يقول: كونوا منهم ومعهم.

وعن ابن عباس: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ يعني: بالزكاة: طاعة الله والإخلاص.

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة، وعن الحارث العكلي في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: صدقة الفطر.

وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٤٤﴾.

يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب

وتعلمون ما فيه على من قَصُر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتهبوا من رَقَدَتكم، وتنبصروا من عمايتكم، وهذا كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويتقواه وبالبر، ويخالفون، فَعَيَّرَهم الله ﷻ، وكذلك قال السدي.

وقال ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فَعَيَّرَهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وعن ابن عباس: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْتَوْنَ أَلِكِيبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم؛ أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي، وعنه أيضًا: في هذه الآية يقول: تأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتسنون أنفسكم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْتَوْنَ أَلِكِيبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب رضي الله عنه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلَفَكُمْ إِلَى مَا أَتَاهُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولِي العلماء من السلف والخلف، وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهي غيره عنها وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها.

والصحيح: أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبيرة يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟

قلت: لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، روى البخاري [٣٠٩٤] ومسلم [٢٩٨٩] وأحمد [٢١٨٣٢] واللفظ له عن أسامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُجَاء بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِي بِهِ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ

الْجِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانٌ مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ).

وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].
وقال أبو الأسود الدؤلي:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
فَأَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَأَنْهَاهَا عَنْ غِيَّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعِظْتَ وَيُقْتَلُ بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُوا رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى آمراً عبده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فأما الصبر فقليل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، قال القرطبي وغيره: ولهذا يُسمى رمضان شهر الصبر، وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر، وعن سعيد بن جبير، قال: الصبر: اعتراف العبد لله بما أصيب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله.

وأما قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

وعن ابن عباس أنه نعي إليه أخوه قُثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

وعن ابن جريج: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله، والضمير

في قوله: وإنها عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير، ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ أي: وما يلقي هذه الوصية إلا الذين صبروا، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا﴾؛ أي: يؤتاها ويلهمها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِكَبِيرَةٍ﴾؛ أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين.

قال ابن عباس: يعني المصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: المؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين؛ يعني به: المتواضعين.

وقال الضحاك: ﴿وَإِنَّمَا لِكَبِيرَةٍ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعدته، وهذا يشبه ما جاء في الحديث: (لَقَدْ سَأَلَتْ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) [أخرجه أحمد/٢٢٠٦٩ من حديث معاذ، والترمذي/٢٦١٦ وقال: حسن صحيح]، وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحرار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال: والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله؛ أي: وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم؛ أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون؛ أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعده، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات. فأما قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾: قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم المغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده. قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

وعن مجاهد: قال: كل ظن في القرآن يقين؛ أي: ظننت وظنوا، وعنه قال: كل ظن في القرآن فهو علم، وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾ قال: الظن هاهنا يقين، وروي عن مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبي العالية.

وعن ابن جريج: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾ علموا أنهم ملاقو ربهم، كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفي «الصحيح»: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: (أَلَمْ أَرْوِّجْكَ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ،

أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْحَيْلَ وَالْإِيلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُوعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي [رواه مسلم بالفاظ قريبة/ ٢٩٦٨]، وسيأتي مبسوطًا عند قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧).

يذكرهم تعالى سالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً، ورؤي عن مجاهد، [وغيره] نحو ذلك، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى، خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المسانيد والسُنن عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ) [روى الحاكم نحوه/ ٦٩٨٨]، والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨).

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حُلُولِ نقمه بهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسَ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، فهذا أبلغ المقامات: أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾؛ يعني: من الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدي: أما

عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهبًا تفتدي به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ يعني: فداء، وروي عن الحسن، وسعيد بن جبير، [وغيرهما] نحو ذلك.

وعن علي عليه السلام قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة، وهذا القول غريب هاهنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾؛ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]؛ أي: أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحدًا من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصفات: ٢٥] ما لكم اليوم لا تمانعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾؛ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرشا والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ٢٤ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ٢٥ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَائِلُونَ [الصفات: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَبْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ ٥٠.

يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذا ﴿بَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم؛ أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا حالته، رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بعد تحدث سمارة عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني

إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها، وهاهنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم [٦] عطف عليه كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدَّخُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، به الثقة والمعونة والتأييد؛ ومعنى: يسومونكم؛ أي: يولونكم، قاله أبو عبيدة.

وقيل: معناه: يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعي، نقله القرطبي، وإنما قال هاهنا: ﴿يَدَّخُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله هاهنا: ﴿أَذْكُرُوا الْقَوَّيْنَ أَنَّمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، وأما في سورة إبراهيم [٥] فلما قال: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾؛ أي: بأياديهِ ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدَّخُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل، وفرعون علم على كل من ملك مصر، كافراً من العمالق وغيرهم، كما أن قيصراً علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكسرى لمن ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم؛ أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك.

وعن ابن عباس: في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة، ونحوه عن مجاهد، وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدي وغيرهم، وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَّوْنَهُم بِالْحُسْنِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بلاءً، وفي الخير أبلوه إبلاء وبلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء، قال القرطبي: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هاهنا في الشر، والمعنى في الذبح مكروه وامتحان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْتَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾؛ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى ﷺ، خرج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله، ﴿فَأَمْجَيْتَكُمُ﴾؛ أي: خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم.

عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة، قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا، فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط، فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع له ستمائة ألف من القبط ثم سار، فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه، يقال له: يوشع بن

نون: أَيْنَ أَمَرَ رَبِّكَ؟ قال: أَمَامَكَ، يشير إلى البحر، فأفحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به الغمر، ثم رجع فقال: أَيْنَ أَمَرَ رَبِّكَ يَا مُوسَى؟ فوالله ما كذبت ولا كُذبت. فعل ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله إلى موسى ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾، فضربه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه، واتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تناموا فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وَأَعْرَفْنَا أَنَاءَ فِرْعَوْنَ وَأَتَمَّمْنَا فَرْعَوْنَ﴾.

وكذلك قال غير واحد من السلف، وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما روى الإمام أحمد [٢٦٤٤] عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: (مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ؟) قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله ﷻ فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه، وروى هذا الحديث البخاري [١٩٠٠] ومسلم [١١٣٠].

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى: واذكرو نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يومًا، وهي المذكورة في الأعراف [١٤٢]، في قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ﴾، قيل: إنها: ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾؛ يعني: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وكان ذلك أيضًا بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الفصل: ٤٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوْبُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾. وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾؛ أي: إلى خالقكم.

قلت: وفي قوله هاهنا: ﴿إِلَّا بِأَرْيَكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم؛ أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

وروى النسائي [في السنن الكبرى/١١٣٢٦] عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: (إِنَّ تَوْبَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَلَدٍ وَوَالِدٍ، فَيَقْتُلَهُ بِالسَّيْفِ، وَلَا يُبَالِي مَنْ قُتِلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ)، فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول، وهذا قطعة من حديث الفُتون وسيأتي في سورة طه بكماله إن شاء الله، وبنحوه عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والحسن، والزهري.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه وكان سبعون رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى، ما من توبة، قال: بلى، ﴿فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية: فاختلطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة، قال: ففعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدري. قال: ويتنادون فيها رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلهم شهداء، وتيب على أحيائهم ثم قرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتهم رؤيتي جهرة عياناً، مما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية.

وعن الربيع بن أنس قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا. وقال مروان بن الحكم: الصاعقة صيحة من السماء، وقال السدي: الصاعقة: نار، وقال عروة بن رُويم في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ قال: صعق بعضهم وبعضهم ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء، وقال السدي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتْلِكُهُمْ بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال الربيع بن أنس: كان موته عقوبة لهم، فَبَعَثُوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وكذا

قال قتادة، وقال محمد بن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخَيْرَ فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعَلْ ولا تفعلْ، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿كَانَ نُوْمَنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه، ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟؛ أي: إن هذا لهم هلاك، اخترت منهم سبعين رجلاً الخَيْرَ فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فلم يزل موسى يناشد ربه ﷻ، ويطلب إليه، حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم.

والقول الثاني: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله: ﴿كَانَ نُوْمَنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا، قال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فتنت الجبل فوقهم.

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧).

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم،

فقال: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك؛ لأنه يُغَمِّ السماء؛ أي: يوارئها ويستترها، وهو السحاب الأبيض ظَلَّلُوا به في التيه ليقبهم حر الشمس، كما رواه النسائي [١١٣٢٦] وغيره عن ابن عباس في حديث الفتون، قال: ثم ظَلَّلَ عليهم في التيه بالغمام. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، والربيع بن أنس، والسدي [وغيرهم] نحو قول ابن عباس، وقال الحسن وقتادة: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ كان هذا في البرية، ظَلَّلَ عليهم الغمام من الشمس.

وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا وأطيب، وعن مجاهد قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم؛ وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زِيِّ هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، وعن ابن عباس أيضاً قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فعن ابن عباس قال: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاؤوا، وقال مجاهد: المن: صمغة، وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرب الغليظ، وقال السدي: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما هاهنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر الزنجبيل، وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محللتهم سُقُوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشتة ولا يطلبه شيء، وهذا كله في البرية.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وقال وهب بن منبه، وسئل عن المن، فقال: حُبْز الرِّقَاق مثل الذرة أو مثل النَّقِيِّ، وعن عامر الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: (الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ) [متفق عليه، رواه البخاري/٤٢٠٨ ومسلم/٢٠٤٩]. وأما السلوى، فعن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَانِي، كانوا يأكلون منه.

وعن ابن مسعود، وناس من الصحابة نحوه، وكذا قال مجاهد، والشعبي، والحسن،

[وغيرهم] رحمهم الله تعالى، وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمرة [وهو طائر كالعصفور أكبر منه] تحشرها عليهم الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه شيء ولا يطلبه، وقال وهب بن منبه: السلوى طير سمين مثل الحمام كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت.

وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى ﷺ: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المَنَّ فكان يسقط على شجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمَّان أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلَّ عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يَنُحْرَقَ لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَاسْمُهُمْ فِي رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وروي عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي، وعن ابن عباس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المَنَّ والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمر بإباحة وإرشاد وامتنان، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا كما قال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهده من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن هاهنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القبط والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرُك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْبَلَدَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى لا ئمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى ﷺ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي، والربيع بن أنس، وقتادة، وأبو مسلم الأصبهاني وغير واحد وقد قال الله: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا...﴾ [المائدة: ٢١ - ٢٤].

وقال آخرون: هي أريحا، ويحكي عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، والصحيح الأول، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون ﷺ، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقرية ليست مقصودة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: ركعًا من باب صغير، فدخلوا من قبل أستاذهم، وقال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة، وقال مجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس، وعن ابن عباس فدخلوا على شق، وعن عبد الله بن مسعود: قيل لهم: ادخلوا الباب سُجَّدًا، فدخلوا مقنعي رؤوسهم؛ أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ عن ابن عباس قال: مغفرة، استغفروا، وروي عن عطاء، [وغيره] نحوه، وعن ابن عباس: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم، وقال عكرمة: قولوا: لا إله إلا الله.

وقال الحسن وقتادة: أي: أحطط عنا خطايانا.

﴿نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الأمر؛ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر]، فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر رضي الله عنه، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه

الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنه الخاضع لربه حتى أن عُثْمُونَهُ ليمس مَوْزُكَ رَحْلَهُ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ [أخرجه البيهقي/٨٦٠٩، وهو مرسل وله شاهد موصول عند البيهقي عن أنس بسند صحيح]، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضُحَى، فقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هي صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم، وقيل: يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ روى البخاري [٤٢٠٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا ﴿الْبَابَ﴾ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴿فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمَ﴾، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِطَّةٌ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ)، وهكذا روي عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وقتادة، [وغيرهم].

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق: أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سَجْدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمرُوا أَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ؛ أي: أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزؤوا فقالوا: حِطَّةٌ في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته، ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وعن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من «الرجز»؛ يعني به: العذاب، وهكذا روي عن مجاهد، والحسن، [وغيرهم].

وقال أبو العالية: الرجز: الغضب، وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد، وقال سعيد بن جبیر: هو الطاعون.

وعن سعد بن مالك [بن أبي وقاص]، وأسامه بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنه، قالوا: قال رسول الله ﷺ: (الطَّاعُونُ رَجْزُ عَذَابٍ عُدِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ) رواه النسائي [نحوه/٧٥٢٥]، وأصل الحديث في «الصحيحين» [البخاري/٥٣٩٦ ورواه مسلم نحوه/٢٢١٨] بلفظ: (إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا).

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى ﷺ، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يُحْمَلُ معكم، وتفجير الماء لكم منه من اثنتي عشرة عينًا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من

هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سَخَّرَ لكم ذلك: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها.

قال ابن عباس: وجُعِلَ بين ظهرانيهم حجر مرَّع وأمر موسى ﷺ فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيْنًا، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من مَنْقَلَةٍ إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول، وهذا قطعة من حديث الفتون الطويل.

وقال عطية العوفي: وجُعِلَ لهم حجرٌ مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلًا وضعوه فضربه موسى ﷺ بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيْنًا فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمسك الماء.

وعن عطاء الخراساني: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا. وقال قتادة: كان حجرًا طورياً، من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجرًا بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيبيس، فقالوا: إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون، وقال يحيى بن النضر: قلت لجويبر: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيْنًا فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين.

وعن ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهارًا، وعن ابن عباس أيضًا قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عيْنًا من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها، وقال مجاهد نحو قول ابن عباس، وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقصص على رسوله ﷺ عما فعل بهم.

وأما في هذه السورة - وهي البقرة - فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهًا إليهم، وأخبر هناك بقوله: ﴿فَالْيَجَسَّتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر هاهنا بما آل إليه الأمر آخرًا وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار هاهنا، وذاك هناك، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكْفُرُونَ لَنْ تَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُؤْمِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ رِجْلَهُ وَيَقْتُلُونَ الْبَاقِيَ بغيرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى، طعامًا طيبًا نافعًا هنيئًا

سهلاً، واذكروا ضجركم مما رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيّة من البقول ونحوها مما سألتهم.

قال الحسن البصري رحمته الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فقالوا: ﴿يَتَمُوتَنَّ لَنْ نَصَبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعَ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾ وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنّه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم، فهو كأكل واحد، فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة، وأما الفوم، فقد اختلف السلف في معناه، فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء، وكذا فسرّه مجاهد في رواية بالثوم، وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، وحكاها الحسن عن ابن عباس.

وقال آخرون: الفوم: الحنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبز، وعن ابن عباس قال: الفوم: الحنطة بلسان بني هاشم، وكذا عن مجاهد وعطاء، وهو قول عكرمة، والسدي، والحسن البصري، وغيرهم، والله أعلم.

وقال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقرير لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيئ الطيب النافع. وقوله تعالى: ﴿أَهْطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف، وقال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿أَهْطُوا مِصْرًا﴾ قال: مصرًا من الأمصار، وروي عن السدي [وغيره] نحو ذلك، وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود ﴿أَهْطُوا مِصْرًا﴾، من غير إجراء؛ يعني: من غير صرف.

ثم الكلام عن ابن جرير روى عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسّرا ذلك بمصر فرعون، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضًا.

وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضًا، ويكون ذلك من باب الإتيان لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا ۝١٥﴾ قَوَارِيرًا [الإنسان: ١٥]، ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟ وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد: مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأن موسى عليه السلام، يقول لهم: هذا الذي سألتهم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموها، فليس يساوي مع دنائه وكثرته في الأمصار؛ أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: ﴿أَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾؛ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه. والله أعلم. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾؛ أي: وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً؛ أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ قال: هم أصحاب النيات؛ يعني: أصحاب الجزية، وعن الحسن، وفتادة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال الضحاك: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ﴾ قال: الذل.

وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والسدي: المسكنة الفاقة، وقال العوفي: الخراج، وقال الضحاك: الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع بن أنس: فحدث عليهم غضب من الله، وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يقول: استوجبوا سخطاً.

وقال ابن جرير: يعني: بقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باؤوا إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال من: باء فلان بذنبه يبوء به بؤءاً وبواء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمَانِي وَإِيمَانِكَ﴾ [المائدة: ٢٩]؛ يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دوني؛ فمعنى الكلام إذا: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَعَمُطُ النَّاسِ) [رواه مسلم/٩١]؛ يعني: رد الحق، وانتقاص الناس، والازدراء بهم، والتعاضم عليهم، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله، وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً، وقد روى الإمام أحمد [٣٨٦٨] عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامٌ ضَلَالَةٍ وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ) [سند جيد].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَآلِهَهُمُ الْبَاقُونَ مِنَ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٢].

لما بين الله تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجه، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، ما أحلّ لهم من النكاح، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنی، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْجَنَّةِ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وعن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَآلِهَهُمُ الْبَاقُونَ مِنَ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فهذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى ﷺ، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم، واليهود من اليهودة وهي المودة، أو التهود وهو التوبة، كقول موسى ﷺ: ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: تبنا، فكانهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب ﷺ، وقال أبو عمرو ابن العلاء: لأنهم يهودون؛ أي: يتحركون عند قراءة التوراة، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل أتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصاري، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى ﷺ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، قاله قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم.

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً، وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، وشدة إيقانهم؛ ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية، وأما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين، وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك، وقال أبو العالية، والسدي، والضحاك، [وغيرهم]: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائهم ومناكحتهم.

وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور ويصلون إلى القبلة، وكذا قال قتادة، ونحوه عن الحسن وأبي الزناد، وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً، وقال عبد الرحمن بن

زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم؛ يعني: في قول: لا إله إلا الله، وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن نجيح، أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم.

قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم، قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سألهم عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى: أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الذين جاءهم إبراهيم الخليل عليه السلام، راداً عليهم ومبطلاً لقولهم.

وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصراني ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يبنزون من أسلم بالصابئي؛ أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك، وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم ليُقرروا بما عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتنال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر بآية الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس وغير واحد، وهذا ظاهر، في رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم يُنبث فليس بطور، وفي حديث الفتون عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا فسجدوا.

قال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً فسجدوا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

وقال الحسن في قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾؛ يعني: التوراة، وقال أبو العالية،

والربيع بن أنس: بقوة؛ أي: بطاعة، وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه، وقال قتادة: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجد وإلا قذفته عليكم، قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة، ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم؛ أي: أسقطته عليكم؛ يعني: الجبل، وقال أبو العالية والربيع: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾؛ أي: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حلّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطیاد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكَذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها، وقال السدي: أهل هذه القرية هم أهل أيلة، وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ عن مجاهد: قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله: ﴿كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وهذا قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

وعن ابن عباس: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير، وعن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فصار القوم قروداً تعاوى لها أذنان بعد ما كانوا رجالاً ونساءً.

وقال عطاء الخراساني: نودوا يا أهل القرية: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم: أي بلى.

وعن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة

أيام، قال: ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء.

وعن أبي العالية في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعني: أذلة صاغرين، وروي عن مجاهد، وقتادة، والربيع، وأبي مالك نحوه.

قلت: والغرض بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمته الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً، بل الصحيح أنه معنوي وصوري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية، حكاه ابن جرير، والصحيح أن الضمير عائد على القرية؛ أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالًا﴾؛ أي: عاقبتهم عقوبة، فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: من القرى.

قال ابن عباس: يعني: جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا آلَاتِكُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحاف: ٢٧]، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى، وكذا قال سعيد بن جبير: من بحضرتها من الناس يومئذ، وروي عن قتادة، والعوفي قالوا: ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت.

وقال أبو العالية، والربيع، وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم، وكأن هؤلاء يقولون: المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان، وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به، وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ وهذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى، كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وعن أبي العالية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم، وروي عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك، وحكى القرطبي عن ابن عباس، والسدي، والفراء، وابن عطية: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وقيل: إنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده، وهذا قول الحسن.

قلت: وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حلَّ بها، فجعلها عبرة ونكالاً لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وعن ابن عباس: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة، وقال الحسن

وقتادة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بعدهم فيتقون نقمة الله، ويحذرونها، وقال السدي: وعطية العوفي: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ.

قلت: المراد بالموعظة هاهنا الزاجر؛ أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَرْكَبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيلِ) [ذكره في الدر المنثور ٣/ ٥٩٢] وإسناده جيد، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَحِدْنَا هُزُوطًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضًا، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى ﷺ، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَحِدْنَا هُزُوطًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا، فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهبًا، فأخذوها بملء جلدتها ذهبًا فذبحوها، فضربوه ببعضها، فقام: فقالوا: من قتلك؟ فقال: - هذا لابن أخيه. ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا، فلم يُورث قاتل بعد، وهذا السياق عن عبيدة، ونحوه بأبسط منه عن أبي العالية، والسدي، وغيرهم، وفيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا نعلم عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٨) قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ (٦٩) قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَنَّا حَتَّى بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١).

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقت الموضع عنهم، ولكنهم شددوا فشدد

عليهم، فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟ عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشد الله عليهم، وكذا قال عبدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد.

قال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾؛ أي: لا كبيرة هَرمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل، كما قاله أبو العالية، والسدي، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم]، وقاله ابن عباس أيضًا. وعن ابن عباس: ﴿عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ﴾ يقول: نَصَف بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقرة وأحسن ما تكون، وروي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، [وغيرهم] نحو ذلك.

وقال السدي: العوان: النَّصَف التي بين ذلك التي قد ولدت، وولد ولدها، وعن الحسن في البقرة: كانت بقرة وحشية، وعن ابن عباس ومجاهد ووهب بن منبه: أنها كانت صفراء، وعن ابن عمر: كانت صفراء الظُّلف، وعن سعيد بن جبير: كانت صفراء القرن والظلف، وعن الحسن قال: سوداء شديدة السواد، وهذا غريب، والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾.

وقال عطية العوفي: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ تكاد تسود من صفرتها، وقال سعيد بن جبير قال: صافية اللون، وروي عن أبي العالية، والربيع بن أنس، والسدي، والحسن، وقتادة نحوه. وعن ابن عمر: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صاف، وعن ابن عباس: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض، وقال السدي: ﴿تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾؛ أي: تعجب الناظرين، وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وجلَّها لنا ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بيئتها لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾؛ أي: إنها ليست مذلة بالحرثة ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكركة، حسنة، صبيحة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صبيحة لا عيب فيها ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾؛ أي: ليس فيها لون غير لونها، وقال قتادة: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقال مجاهد: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من الشبه.

وقال عطاء الخراساني: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ القوائم والخلق، ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ قال مجاهد: لا بياض ولا سواد، وقال أبو العالية والربيع، والحسن، وقتادة: ليس فيها بياض، وقال عطاء الخراساني: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾، قال: لونها واحد بهيم، وروي عن عطية العوفي ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك.

وقال السدي: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى.

﴿قَالُوا أَتَنَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة: الآن بَيَّنَّتْ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك والله قد جاءهم الحق.

﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا ألا يذبحوها؛ يعني: أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعت، فلهذا ما كادوا يذبحونها، وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها، وفي هذا نظر؛ لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل كما تقدم. ثم قيل في ثمنها غير ذلك، فعن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير، وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضًا.

قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن أطلع الله على قاتل القتل الذي اختصموا فيه، ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، وفي هذا نظر بل الصواب، والله أعلم، ما تقدم عن ابن عباس على ما وجهناه، وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان، كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور من العلماء سلفًا وخلفًا بدليل ما ثبت في «الصحيحين» [البخاري بلفظ قريب/٤٩٤٢] عن النبي ﷺ: (لَا تَنْتَعُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا)، وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ، وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان؛ لأنه لا تنضبط أحواله، وحكي مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُبُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعِي اللَّهُ الْمُتَوَقِّينَ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قال البخاري: ﴿فَاذْرَءْ ثُمَّ فِيهَا﴾ اختلفتم، وهكذا قال مجاهد، وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختصمتم فيها، وقال ابن جريج: قال بعضهم: أنتم قتلتموه، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُبُونَ﴾ قال مجاهد: ما تُعْبُونَ، وعن المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُبُونَ﴾.

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينًا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله، ولهذا قال ابن عباس: فذبحوها، فضرَبوه - يعني: القتل - بعضو منها، فقام تشخب أوداجه دمًا، فسألوه، فقالوا له: من قتلك؟ قال: قتلني

فلان، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها، وفي رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف، وعن عبيدة: ضربوا القتل ببعض لحمها، وقال قتادة: ضربوه بلحم فخذه فعاش، فقال: قتلني فلان، وعن عكرمة قال: فضرب بفخذه، فقام فقال: قتلني فلان، وروي عن مجاهد، وقاتدة نحو ذلك.

وقال السدي: فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين، فعاش، فسأله، فقال: قتلني ابن أخي، وقال أبو العالية: أمرهم موسى ﷺ، أن يأخذوا عظمًا من عظامها فيضربوا به القتل، ففعلوا فرجعت إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتًا كما كان، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها، وقيل: بلسانها وقيل: بعجب ذنبها.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾؛ أي: فضربوه فحيي، ونَبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى، في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم ﷺ والطير الأربعة.

ونَبَّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا، كما روى أبو داود الطيالسي [في المسند/١٠٨٩]: عن أبي رَزِين العُقَيْلي، قال: قلت يا رسول الله! كيف يحيي الله الموتى؟ قال: (أَمَّا مَرَرْتُ بِوَادٍ مُّجَلٍّ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ خَضِرًا؟) قال: بلى. قال: (كَذَلِكَ النُّشُورُ) أو قال: (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى) [إسناده حسن]. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَمَّمِ الْأَرْضُ أَلْبَتَهُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٢٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن تَحِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣، ٣٥].

مسألة: استدل لمذهب مالك في كون قول الجريح: فلان قتلني لوثًا بهذه القصة؛ لأنَّ القتل لما حيي سئل عن قتله، فقال: قتلني فلان، فكان ذلك مقبولًا منه؛ لأنَّه لا يخبر حينئذٍ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك بحديث أنس: أن يهوديًا قتل جارية على أوصاح لها، فرفض رأسها بين حجرين، فقيل: من فعل بك هذا، أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين [رواه البخاري بألفاظ قريبة/٢٢٨٢]، وعند مالك: إذا كان لوثًا، حلف أولياء القتل قسامة، وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتل في ذلك لوثًا.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤).

يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه

الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كله ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبداً، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلَهِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وعن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، ف قيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد إذ رأوا.

فقال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ يعني: بني أخي الشيخ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعدما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجرة، فإن من الحجرة ما يتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإنه لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تَسْجُ لَهُ السَّكَبَاتُ النَّاصِعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُ بِمِجْرِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْجِيعَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وعن مجاهد أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء: أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن.

وعن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: وإن من الحجرة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تنبيه: اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو: هاهنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجرة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ مِنْهُمْ ءَانِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وحكى القرطبي قولاً: إنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو: أنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمرّاً وهو يعلم أيهما أكل، وقولاً آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلي حلواً أو حامضاً؛ أي: لا يخرج عن واحد منهما؛ أي: وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجرة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشئين والله تعالى أعلم.

وقال آخرون: أو هاهنا بمعنى بل، تقديره: فهي كالحجرة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فُرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاه ابن جرير، وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثليين، إما أن تكون مثل الحجرة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجرة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجرة، وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَّقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ الآية [النور: ٤٠]؛ أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

﴿أَنْظِمُوهُمْ أَنْ يُوْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُدُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧).

يقول تعالى: ﴿أَنْظِمُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ يُوْمِنُوا لَكُمْ﴾؛ أي: ينقاد لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾؛ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُّهُمْ مِّيَثَقُهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم: ﴿أَنْظِمُوهُمْ أَنْ يُوْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ وليس قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربه فأخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمد بن إسحاق، فيما حدثني بعض أهل العلم: أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم، ثم فليطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا عنه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤوهم، حَرَفَ فريقٌ منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله ﷻ لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ.

وقال السدي: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: هي التوراة حرفوها، وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس، وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه، كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَآخِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ [التوبة: ٦]؛ أي: مبلغًا إليه؛ ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه، وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء منهم، وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم، من نعت محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه.

وقال السدي: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنهم أذنبوا، وقال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقًا؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ أَلَّا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية.

عن ابن عباس: أي: بصاحبكم محمد رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا نتظر ونجد في كتابنا، اجدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ﴾؛ يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ.

وقال قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي فخلا بعضهم إلى بعض، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

وعن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: (يَا إِخْوَانُ الْفِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَيَا عِبَدَةَ الطَّاغُوتِ)، فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمدًا؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله، للفتح ليكون لهم حجة عليكم [الدر المنثور ١/١٩٩]، قال ابن جريج عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم عليًا فآذوا محمدًا ﷺ، وقال السدي: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ هؤلاء ناسٌ من اليهود آمنوا ثم نافقوا، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم.

وقال عطاء الخراساني: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: بما قضى الله لكم وعليكم، وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، فيحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال أبو العالية: يعني: ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم، وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوكُمْ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقاتة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَطْنُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٩﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾؛ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد، والأميون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقاتة، وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: لا يدرون ما فيه، ولهذا في صفات النبي ﷺ: أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَمْتَ أَنْ تَبْتَاطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّا أُمَّة أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا) الحديث [رواه البخاري/ ١٨١٤، ومسلم/ ١٠٨٠]؛ أي: لا نفتقر في عبادتنا ومواقيتنا إلى كتاب ولا حساب، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾، عن ابن عباس قال: إلا قولاً يقولون بأفواههم كذبًا، وعن مجاهد: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾، قال: أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانِي يتمنونها.

وعن الحسن البصري نحوه، وقال أبو العالية، والربيع، وقاتة: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: يتمنون على الله ما ليس لهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزل الله تعالى على موسى شيئًا، ولكنهم يَتَخَرَّصُونَ الكذب ويتخرصون الأباطيل كذبًا وزورًا، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه.

وعن ابن عباس: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَطْنُونَ﴾ ولا يدرون ما فيه،

وهم يجحدون نبوتك بالظن، وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يكذبون، وقال قتادة، وأبو العالية، والربيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور، والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة، وقال أبو عياض: ويل: صديد في أصل جهنم، وقال عطاء بن يسار: الويل: واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيبويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفجع، والويح: ترحم، وقال غيره: الويل: الحزن، وقال الخليل: وفي معنى ويل: ويح وويش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأن فيها معنى الدعاء.

وعن ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ قال: هم أحبار اليهود، وكذا قال قتادة: هم اليهود.

وعن ابن عباس قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب، وقال السدي: كان ناسٌ من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً، وعن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ؟ وقد حَدَّثَكُمْ الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم، رواه البخاري [٧٠٨٥]، وقال الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: فويلٌ لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويلٌ لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أُنْيَاً مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨١).

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾؛ أي: بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلَفُ عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بـ «أم» التي بمعنى: بل؛ أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّبُ بكل ألف سنة يوماً في النار وإنما هي سبعة أيام معدودة.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَلِيدُونَ﴾، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، وعن ابن عباس أيضاً: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي نابتة في أصل الجحيم، وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فنذهب جهنم وتهلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، وعن قتادة: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾؛ يعني: الأيام التي عبدنا فيها العجل.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ، شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: (اجتمعوا لي من كان من اليهود ههنا) فقال لهم رسول الله ﷺ: (من أبوكم؟) قالوا: فلان، قال: (كذبتم، بل أبوكم فلان) فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: (هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟) قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: (من أهل النار؟) فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: (اخسؤوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً)، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: (هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟) قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: (هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟) فقالوا: نعم، قال: (فما حملكم على ذلك؟) فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرّك، ورواه الإمام أحمد [٩٨٢٦] والبخاري [٥٤٤١].

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات من العلم الموافق للشرعية فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَحِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [٢٢٣] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

عن ابن عباس: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾؛ أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره، فما له من حسنة، وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك، وروي عن أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، [وغيرهم] نحوه، وقال الحسن أيضاً والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر، وعن مجاهد: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، قال: بقلبه، وقال أبو هريرة، وأبو وائل،

وعطاء، والحسن: ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: أحاط به شركه، وعن الربيع بن خثيم: ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب، وعن السدي وأبي رزين نحوه، وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ الكبيرة الموجبة، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم.

ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣٨١٨] عن عبد الله بن مسعود: «أن رسول الله ﷺ قال: (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ)، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثّل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأَجَّجُوا ناراً فأَنْضَجُوا ما قذفوا فيها» [وروي موقوفاً وهو أشبه وصح مرفوعاً من حديث عائشة وسهل بن سعد وآخرين].

وعن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

يُذَكِّرُ تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى، أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، وفي «الصحيحين» [البخاري/٥٠٤ ومسلم/٨٠] عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أيّ العمل أفضل؟ قال: (الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا) قلت: ثم أي؟ قال: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) قلت: ثم أي؟ قال: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: (أُمُّكَ) قال: ثم من؟ قال: (أُمُّكَ) قال: ثم من؟ قال: (أَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ) [روى مسلم نحوه/٢٥٤٨].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو أكد، وحكي عن أبيّ، وابن مسعود رضي الله عنهما قرآها: «لا تعبدوا إلا الله» وقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قسم؛ أي: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه، وقال: اختاره الكسائي والمبرد والفراء.

قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، وقال أهل اللغة: اليتيم في

بني آدم من الآباء وفي البهائم من الأم. ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ أي: كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحسن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضي الله، وقرأ بعضهم: (حسنًا)؛ أي: قولًا حسنًا، وقرأ آخرون: (حسنى) مثل فعلى. نقله القرطبي.

وروى الإمام أحمد [٢١٥٥٩]: عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَالْقَ أَخَاكَ بِوَجْهِ مُنْطَلِقٍ) وأخرجه مسلم في صحيحه [٢٦٢٦]، وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا، بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَآلِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدُودِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْتَرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

يقول تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عبَاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها

من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استغفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾؛ أي: لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرجهم من منزلهم، ولا يظاهر عليه، جاء معنى هذا عن ابن عباس، وقال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَرِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهَرِ) [رواه البخاري/ ٥٦٦٥ واللفظ لمسلم/ ٢٥٨٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾؛ أي: ثم أقررتهم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية، وعن السدي: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سُمير، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفائهم، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجلٌ من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك يقولون: كيف تقاتلونهم وتقدونهم، قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا، فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

وعن أبي العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي من وقع عليها العرب، فقال عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلهن، والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يُصدّقون فيما يكتُمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونها التي قد أخبرنا بها الأنبياء قبله، واليهود عليهم لعائن الله يتكتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ أَلْقَيْنَا بِرُودُونَ إِلَهُ أَسْدٍ الْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتّموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ؛ أي: استحَبوها على الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾؛ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾؛ أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧).

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم

إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال أبو مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا والكل قريب، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي المعجزات، «قاله ابن عباس»؛ من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأيدته بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿وَلَا جُدْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه، وفريقًا يقتلونهم، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلماذا كان ذلك يشق عليهم فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي، وفتادة [وغيرهم] مع قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [١٩٦] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٧﴾ بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ ﴿١٩٨﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ما جاء عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، وضع لحسان بن ثابت منبرًا في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ أَيُّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافَحَ عَنْ نَبِيِّكَ) [أخرج أبو داود نحوه/ ٥٠١٥ والترمذي/ ٢٨٤٦، وقال: حسن صحيح، وعلقه البخاري مجزؤًا به]، وفي «الصحاحين» [البخاري/ ٣٠٤٠ ومسلم/ ٢٨٤٥] عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: (أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيُّدُ بَرُوحِ الْقُدُسِ؟) فقال: اللهم نعم، وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ، قال لحسان: (اهْجُئْهُمْ - أَوْ: هَاجِئْهُمْ - وَجَبْرِيلُ مَعَكَ) [البخاري/ ٣٠٤١].

وقال ابن أبي نجیح: الروح هو حفظة على الملائكة، وعن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى، وهو قول كعب، وقال السدي: القدس: البركة، وقال ابن عباس: القدس: الطهر، وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون القول الأول، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحًا كما جعل القرآن روحًا، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ثم قال ابن جرير: وأولى

التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع: جبرائيل؛ لأن الله ﷻ، أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠]، فذكر أنه أيده به، فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تكرير قول لا معنى له، والله ﷻ أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

قلت: ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أول السياق، والله الحمد، وقال الزمخشري: ﴿بُرُوحُ الْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره فتضمن كلامه قولاً آخر، وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنما لم يقل: وفريقاً قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل - أيضاً - لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسّم والسحر، وقد قال ﷺ في مرض موته: (مَا زَالَتْ أَكْثَلُ خَيْرِ تَعَاوِدِي فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي) وهذا الحديث في «صحيح البخاري» [نحوه/٤١٦٥] وغيره.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: في أكنة، وعنه أيضاً؛ أي: لا تفقه: وعنه أيضاً: هي القلوب المطبوع عليها، وقال مجاهد: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ عليها غشاوة، وقال عكرمة: عليها طابع، وقال أبو العالية؛ أي: لا تفقه، وقال السدي: يقولون عليها غلاف، وهو الغطاء، وعن قتادة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هو كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله غلف، قال: يقول قلبي في غلاف فلا يخلص إليه مما تقول، وقرأ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ وهذا هو الذي رجحه ابن جرير، واستشهد مما روي عن حذيفة قال: «القلوب أربعة» فذكر منها: «وقلب أغلف مغضوب عليه، وذاك قلب الكافر»، وعن الحسن في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: لم تُحْتَن، هذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: يقولون قلوبنا مملوءة لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره، وقال عطية العوفي: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: أوعية للعلم، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير، وقالوا: قلوبنا غُلْفٌ، بضم اللام؛ أي: جمع غلاف؛ أي: أوعية؛ بمعنى: أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه

إلى علم آخر، كما كانوا يمتنون بعلم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضهم: قليل من يؤمن منهم، واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة وغيره، وقيل: قليل إيمانهم؛ بمعنى: أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم؛ لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ، وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: قليلًا ما يؤمنون وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط. حكاه ابن جرير رحمه الله، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩).

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾؛ يعني: اليهود، ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ يعني: من التوراة، وقوله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فعن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وكانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ وقال مجاهد: هم اليهود.

وروى الإمام أحمد [١٥٨٧٩] عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جارٌ يهوديٌّ في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ ببسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدث من فيهم سنًا على بردة مضطجعًا فيها بفناء أصلي، فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثًا كائنًا بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان،

ترى هذا كائنًا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سنًا، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو بين أظهرنا، فأما به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويلك يا فلان، ألسنت بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. تفرد به أحمد. [وسنده جيد وصححه الحاكم/ ٥٧٦٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٠/٨: رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ مَن يَهْدِي ۖ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

قال مجاهد: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يهودُ شَرُّوا الحقَّ بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد ﷺ بأن يبينوه، وقال السدي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بتسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكرهية ﴿أَن يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولا حسد أعظم من هذا، وعن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ أي: أن الله جعله من غيرهم ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم.

قلت: ومعنى: ﴿فَبَاءُوا﴾: استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضبٍ على غضب، وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن، وعن عكرمة وقتادة مثله، قال السدي: أما الغضب الأول، فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني، فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ، وعن ابن عباس مثله.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين، وقد روى الإمام أحمد [٦٦٧٧] عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ، قال: (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسَ فَيَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ: عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ) [وإسناده حسن].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾؛ أي: على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾؛ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿مُصَدِّقًا﴾ منصوب على الحال؛ أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلوا الأنبياء الذين جاؤكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغيا وعنادا وحسدا واستكبارا على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال السدي: في هذه الآية يعيبرهم الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد لليهود بني إسرائيل الذين إذا قلت لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: لم تقتلون - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وتعير لهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، والبينات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدها ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾؛ أي: معبودا من دون الله في زمان موسى وأيامه، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلُوبِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَكَّا سِطًى فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۚ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾

يعدد تبارك وتعالى عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. وقد تقدم تفسير ذلك، وعن قتادة: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أشربوا في قلوبهم حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس. وقال السدي: أخذ موسى ﷺ، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجري يومئذٍ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

وعن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: لما أحرق العجل، برد ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران، وقال القرطبي: وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المقصود من هذا السياق، أنه ظهر على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا في قلوبهم العجل؛ يعني: في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تَغْلَغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ
تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

وقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمر عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله؟

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ عَلَىٰ حَقِّهِمْ ۖ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجَّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: ادعوا بالموت على أي

الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات.

وعن ابن عباس أيضًا: فتمنوا الموت: فسلوا الموت، وعنه قال: لو تمنى يهود الموت لماتوا، وعنه أيضًا، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيدها صحيحة إلى ابن عباس، وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ، قال: (لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا) [أخرجه أحمد، وابن جرير، والبزار ورجال البزار رجال الصحيح]، وعن عباد بن منصور عن الحسن، قال: قول الله: ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم، قلت: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا ميتين، قال: لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وهذا غريب عن الحسن، ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَتَائِبُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي يَقْرُوكَ مِنْهُ فَإِنَّهُمْ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِينَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الجمعة: ٦ - ٨]، فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا، علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ فَقُلْ نَعَمْ أَرْسَلْنَاكُمْ رِيسًا وَرِسَاءً نَا وَرِسَاءً كُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يدهم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أمينًا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]؛ أي: من كان في الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومد له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

فأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت، ولم يتعرض للمباهلة، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول، فلا تظهر به الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم، أنهم يتمنون الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيرًا وترتفع

درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: (خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ) [أخرجه الترمذي/ ٢٣٣٠ وقال: حسن صحيح]، وجاء في «الصحيح» النهي عن تمني الموت وفي بعض ألفاظه: (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ إِمَامًا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ، وَإِمَامًا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ) [نحوه عند البخاري/ ٥٣٤٩ وكذلك عند مسلم/ ٢٦٨٠]، ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فهذا أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت، فكيف تلزموننا بما لا نلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس المروي بأسانيد صحيحة: فلا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبّؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافتراءهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم، وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة، وسميت هذه المباهلة تمنياً؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٩٥) وَلَجِدْتَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ؛ أي: أحرص الخلق على حياة؛ أي: على طول عُمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام.

عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم، وقال الحسن البصري: ﴿وَلَجِدْتَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ﴾. قال: المنافق أحرص الناس على الحياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق، وقال أبو العالية: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾؛ يعني: المجوس، وهو يرجع إلى الأول.

عن ابن عباس: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو كقول الفارسي: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة، وكذا روي عن سعيد بن جبير أيضاً.

وقال مجاهد: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حبيت إليهم الخطيئة طول العمر.

وعن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْجَزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾؛ أي: وما هو بمنجيته من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما صنع بما عنده من العلم، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْجَزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل.

وقال أبو العالية وابن عمر: فما ذاك بمغيثه من العذاب، ولا منجيته منه، وقال

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد وء هؤلاء أن يعمر أحدهم ألف سنة، وليس بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: خير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل وليهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته.

قال البخاري: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد، وإيل: الله، وعن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الوالد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: (أخبرني بهن جبريل أنفاً) قال: جبريل؟ قال: (نعم) قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. (أما أول أشراط الساعة، فنار تحشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَرِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ). قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال رسول الله ﷺ: (أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بُنْ سَلَامٌ فِيكُمْ؟) قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بُنْ سَلَامٌ) قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: هو شرنا وابن شرنا فانتقضوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله [البخاري بالفاظ قريبة/ ٣٧٢٣].

وعن علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل عبيد الله، ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل، فبعد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي ﷺ، [روي ذلك عن الشعبي، وقتادة، والسدي، وابن أبي ليلى وفيها انقطاع].

فغن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن يهوديًا أتى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبرائيل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال: فنزلت على لسان عمر ﷺ، وعنه أيضًا قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان هو الذي ينزل عليكم اتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه لنا عدو، قال: فنزلت هذه الآية.

وعن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبرائيل عدو لنا؛ لأنه ينزل بالشدة والسنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبriel عدونا. فقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول، فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول، فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ رُسُلِهِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل، فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [الزمر: ٦٤].

وقد روى البخاري في «صحيحه» [بلفظ قريب برقم/٦١٣٧] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ)، ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة: ﴿وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْ عَادَاتِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفصل: ٤٤].

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلتي، ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة ثم في عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم،

فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، كما قرّن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة؛ ولهذا جاء في «صحيح مسلم» [٧٧٠] أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

وعن ابن عباس، قال: إنما كان قوله: جبريل كقوله: عبد الله، وعبد الرحمن، وقيل: جبر: عبد، وإيل: الله، وعن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله، وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله، وفي جبرائيل وميكائيل لغات وقراءات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوّل كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمّر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين، وإنما أظهر الله هذا الاسم هاهنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى ولياً لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما في الحديث الصحيح: (وَمَنْ كُنْتُ خَصَمَهُ خَصَمْتُهُ) [أخرجه ابن حبان/ ٧٣٣٩ في صحيحه، وأصله في الصحيح من حديث أبي هريرة].

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهُدُوا عَهْدًا بَذَلَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دلالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله

من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أبحارهم وعلمائهم، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه، ولم يدّعه إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ، من الآيات البينات التي وَصَفَ من غير تعلم تعلمه من بَشَرِيٍّ، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي.

كما قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أميٌّ لا تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله تعالى في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون، وعن ابن عباس أيضاً: قال: قال ابن صوريا الفطيووني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتنبعك، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

وقال مالك بن الصيف حين بُعث رسولُ الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ، ولا أخذ له علينا ميثاقاً، فأنزل الله: ﴿أَوْكَلِمَا عَهْدُوا عَهْدًا بَدَّهٖ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بَلْ أَكْذَرُكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عهدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً.

وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ، وقال قتادة: ﴿بَدَّهٖ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: نقضه فريق منهم، وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبوءاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء.

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتُهُ وصفته وأخبارُهُ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال ههنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أطرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم؛ أي: تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيّداً برسول الله ﷺ وسحروه، وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له: لبيد بن الأعصم لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في «الصحيحين» [البخاري/ ٣٠٩٥ ومسلم/ ٢١٨٩] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

قال السدي: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ

عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنذبوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال قتادة في قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكنموه وجحدوا به.

وعن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا﴾.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾؛ أي: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موتٍ أو غيبٍ أو أمرٍ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا، حتى إذا أمتتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان ﷺ، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فادنُ، فقال: لا ولكنني هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلونني، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار وذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا﴾ [ونحوه عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما].

وعن الحسن: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ﴾ قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة، وعن الحسن: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ واتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾؛ أي: واتبعته اليهود الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما تتلو الشياطين؛ أي: ما ترويّه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان، وعداه بعلى؛ لأنه

ضمن تتلو: تكذب، وقال ابن جرير: «على» هاهنا بمعنى «في»؛ أي: تتلوا في ملك سليمان، ونقله عن ابن جريج وابن إسحاق.

قلت: والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم، وقول الحسن البصري رحمته الله: «قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها وفيها: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، لنبيهم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]؛ أي: المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾: اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية؛ أعني: التي في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال القرطبي: ما نافية ومعطوف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَنْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ﴾؛ أي: السحر على الملكين وذلك أن اليهود لعنهم الله كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بدلاً من الشياطين، قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، أو لكونهما لهما أتباع أو ذُكِرَا من بينهما لتمردهما، فنقدّر الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ الآية، يقول: لم ينزل الله السحر، وعن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر. قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت، فيكون قوله: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنْ﴾ من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ببابل، هاروت وماروت، فيكون معنيًا بالملكين جبريل وميكائيل عليه السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، أخبر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًا عليهم.

وعن عبد الرحمن بن أبزى أنه كان يقرأها «وما أنزل على الملّكين داود وسليمان» .
وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علّما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر،
فهما ينهيان عنه أشدّ النهي، ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما»؛ بمعنى: الذي،
وأطال القول في ذلك، وادّعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما
في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بيّن لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة
الرسول، وادّعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك؛ لأنّهما امثالاً ما أمرا به، وهذا الذي
سلّكه غريب جداً، وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه
ابن حزم: وَوَجَّه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق، لا بمعنى الإحياء كما في قوله
تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ﴾ [الزمر: ٦٦]،
﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] .

وفي الحديث: (مَا أُنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أُنْزِلَ لَهُ دَوَاءٌ) (روى البخاري نحوه/ ٥٣٥٤)، وكما يقال:
أنزل الله الخير والشر، وحكى القرطبي عن ابن عباس [وجماعة]: أنهم قرؤوا: (وما أنزل على
الملّكين) بكسر اللام. قال ابن أبزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا تكون
«ما» نافية أيضاً، وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وما نافية، فعن
القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ
بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾ قال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما
لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان
من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع [غريب] رواه الإمام أحمد [٦١٧٨] في
مسنده رحمته الله، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة
أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ، كما سبق في
علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على
ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت - على ما ذكر - أخف مما وقع من إبليس لعنه الله، وقد
حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، [وغيرهم].

وأما الحديث المرفوع الوارد في ذلك فالأقرب أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب
الأخبار، لا عن النبي ﷺ، كما رواه عبد الرزاق في تفسيره عن ابن عمر عن كعب الأخبار
قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقليل لهم: اختاروا منكم اثنين،
فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، وليس بيني وبينكم
رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر. قال كعب: فوالله ما أمسيا من
يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأخبار عن
كتب بني إسرائيل، والله أعلم.

وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد، والسدي، والحسن البصري وغيرهم، وقصّها خلقٌ من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطّباب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال، وبابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق، كما قاله السدي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ عن ابن عباس قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهيّاه أشد النهي وقال له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر. قال: فإذا أبى عليهما أمرهما أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه، فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء، فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا أصنع؟ [ونحوه عن الحسن البصري وقتادة والسدي]، وعن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار. قال تعالى إخباراً عن موسى ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ شَاءَ وَتَهْدِي مَنْ شَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويُستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار [١٨٧٣]، عن عبد الله [بن مسعود] قال: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)، وهذا إسناده صحيح وله شواهد أخر.

وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾؛ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر وما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنع الشياطين، كما رواه مسلم في «صحيحه» [نحوه/٢٨١٣] عن جابر بن عبد الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَضْعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكَتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ: لَا وَاللَّهِ مَا صَنَعْتُ شَيْئًا! وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكَتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ قَالَ: فَيَقْرَبُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ، وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ)، وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خُلُقٍ أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارة عن الرجل وتأنثه امرأة، ويشئ كل منهما ولا يجمعان والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَكَارَيْنِ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، وقال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أَرَادَ، وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُمْ بِضَكَارَيْنِ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحدٍ إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ أي: يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾؛ أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لَمَنْ فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق.

قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب، وقال الحسن: ليس له دين، وعن قتادة: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسل، لو كان لهم علمٌ بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [الفصص: ٨٠].

وقد يستدل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف، وقيل: بل لا يكفر، ولكن حده ضرب عنقه، لما رواه الشافعي [ص ٣٨٣] وأحمد بن حنبل [١٦٥٧] رحمهما الله عن بجاله بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر، وقد أخرجه البخاري في «صحيحه» أيضاً [نحوه/٣١٥٦]، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلثة من أصحاب النبي ﷺ أن ذنوا في قتل الساحر، وروى الترمذي [١٤٦٠] عن جندب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ). قال الترمذي: والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفاً.

وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة، كان عنده ساحرٌ يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَنُتَوَكَّبُ الْسَّحَرَ وَأَنُتَرَّبُ بُصْرَتِي﴾ [الأنبياء: ٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم، وعن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجلٌ يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، قال: أراه كان ساحراً، وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم.

وفي هذه الآية الكريمة تشيع لتعلم السحر، وفي «الصحيح»: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ

كَفَرُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) [الحاكم بلفظ قريب/١٥]، وفي السُّنن: (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَر) [رواه النسائي/٤٠٧٩، وهو حسن بشواهده].

[وذهب الرازي] إلى وجوب تعلّم [السحر]، وأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به. [وهو] ضعيف بل فاسد؛ لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم.

[وأما] التصرف بالحال، فهو على قسمين، تارة تكون حالاً صحيحةً شرعيةً يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله ورسوله ﷺ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة، ولا يسمّى هذا سحراً في الشرع، وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ، ولا يتصرف بها في ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشرعية، ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجال - لعنه الله - له من الخوارق للعادات ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله، وكذلك من شابهه من مخالف في الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وبسط هذا يطول جداً وليس هذا موضعه.

[وذكر الرازي من أنواع] السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة: وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار وهم الشياطين، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

[وذكر من أنواعه أيضاً] التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويستغل بالشيء المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبد الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذٍ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها، لفطن الناظرون لكل ما يفعله. قال: وكلما كانت الأحوال التي تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشدّ، كان العمل [أشدّ]، مثل أن يجلس المشعبد في موضعٍ مضيءٍ جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناضرة على أحوالها بكلالها والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخِلُّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم ذكر الرازي من أنواعه: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل، قلت: يعني ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها. قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً معلومةً يقينية، من اطلع عليها قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُروّنها إياه من الأنوار، كقضية قُمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغاً لهم.

ثم ذكر الرازي من أنواعه: الاستعانة بخواص الأدوية؛ يعني: في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدّعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

[ثم ذكر منه: تعليق القلب، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم، وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المُتَنَبِّلُ حادقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

ثم ذكر آخر الأنواع وهو: السعي بالنميمة والتضريب، من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع في الناس.

قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرامٌ متفقٌ عليه، فأما إذا كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: (لَيْسَ بِالْكَذَّابِ مَنْ يَنْمِي خَيْرًا) [البخاري نحوه/٢٥٤٦ ومسلم/٢٦٠٥]، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث: (الْحَرْبُ خُدْعَةٌ) [البخاري/٢٨٦٦ ومسلم/١٧٣٩]، وكما فعل نُعَيْم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، وجاء إلى هؤلاء فسمى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافتترقت، وإنما يحذو على مثل هذا الذكي ذو البصيرة النافذة والله المستعان.

وإنما أدخل [الرازي] كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر، للطافة مداركها؛ لأن

السحر في اللغة عبارة عما لُطِفَ وخفي سببه، ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّ مِنَ الْبَيِّنَاتِ لَسِحْرًا) [البخاري/٤٨٥١ ومسلم/٨٦٩]، وسمي السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل، والسَّحَر: الرثة، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ أي: أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم.

فصل: وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هُبيرة في كتابه «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً في السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال: إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كَفَرَ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحتها فهو كافر، قال ابن هُبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم.

وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا. فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يُقتل عند مالك والشافعي وأحمد.

وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو يقر بذلك في حَقِّ شخص معين، وإذا قُتِلَ فإنه يُقتل حدًّا عندهم إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل - والحالة هذه قصاصاً - قال: وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد في المشهور عنهم: لا تقبل، وقال الشافعي، وأحمد في الرواية الأخرى: تقبل، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل، كما يقتل الساحر المسلم، وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يقتل يعني لقصة لبيد بن الأعصم، واختلفوا في المسلمة الساحرة، فعند أبي حنيفة: لا تقتل، ولكن تحبس، وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم.

وعن الزهري قال: يقتل ساحر المسلمين، ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها، وقد نقل القرطبي عن مالك رَحِمَهُ اللهُ، أنه قال في الذمي إذا سحر يقتل إن قتل سحره، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر: إحداهما: أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية: أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

لكن قال مالك: إذا ظُهِرَ عليه [أي قُدِرَ عليه] لم تقبل توبته؛ لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يُظْهَرَ عليه وجاءنا تائباً قبلناه ولم نقتله، فإن قتل سحره قتل. قال الشافعي: فإن قال: لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية.

مسألة: وهل يُسأل الساحر حل سحره؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري،

وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصري، وفي «الصحيح» عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هلا تشترت، فقال: (أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أَفْتَحَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا) [يلفظ قريب عند البخاري/٥٤٣٢ ومسلم/٢١٨٩]، وأنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث: (لَمْ يَتَعَوَّذُوا الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِمَا) [أخرجه النسائي/٧٨٥٢ عن عتبة وهو حسن]، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾.

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُونَ من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص، عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالْسِينِهُمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سَلَمُوا إنما يقولون: السام عليكم، والسام هو: الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم»، وإنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وروى الإمام أحمد [٥١١٥] عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) [وروى أبو داود آخره/٤٠٣١ وإسناده حسن].

ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نُقَرَّ عليها، وعن عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعاها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر، ينهى عنه، وعن خيثمة قال: ما تقرأون في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإنه في التوراة يا أيها المساكين.

وعن ابن عباس: ﴿رَاعِنَا﴾ أي: أرعنا سمعك، وعن ابن عباس [أيضاً]: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك، وإنما راعنا كقولك: عاطنا، وروي عن أبي العالية، وأبي مالك، والربيع بن أنس، والعوفي، وقتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لا تقولوا خلافاً، وفي رواية لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك.

وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها، وقال الحسن:

﴿لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾، قال: الراعن من القول السخري منه، نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوههم إليه من الإسلام، وكذا روي عن ابن جريج أنه قال مثله، وقال السدي: كان رجلٌ من اليهود من بني قينقاع، يدعى رفاعه بن زيد، يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مُسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخَم بهذا، فكان ناسٌ منهم يقولون: اسمع غير مسمع: عَيْرٌ صاغر، وهي كالتي في سورة النساء، فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا. قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: (لَا تَقُولُوا لِلْعَنَبِ الْكَرْمَ، وَلَكِنْ قُولُوا: الْحَبْلَةُ، وَلَا تَقُولُوا: عَبْدِي، وَلَكِنْ قُولُوا: فَتَايَ) [أوله عند البخاري نحوه/ ٥٨٢٨ ومسلم بلفظ قريب/ ٢٢٤٨] وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابعتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم، وينبئ تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾.

قال: ثبت خطؤها وبديل حكمها، حَدَّثَ به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وروي عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك، وقال الضحاك: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ ما نُنسَخُ، وقال عطاء: أما ﴿مَا نَسَخَ﴾: فما نترك من القرآن، وقال ابن أبي حاتم؛ يعني: تَرَكَ فلم ينزل على محمد ﷺ.

وقال السدي: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ نسخها: قبضها، وقال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها رفعها، مثل قوله: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، وقوله: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَبْتَغِي لَهْمًا ثَالِثًا)، وقال ابن جرير: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: ما نقل من حُكْمِ آية إلى غيره، فنبذله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حرامًا، والحرام حلالًا، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك، إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكَذَلِكَ معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطؤها، وهي في كلتا حالتها منسوخة.

وأما علماء الأصول، فاختلفت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب؛ لأن معنى

النسخ الشرعي معلومٌ عند العلماء، ولخص بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر، فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل، وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فبمسوطة في فن أصول الفقه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾: قرئ على وجهين، نَسأها، ونُسْها، فأما من قرأها: نَسأها، بفتح النون والهمزة بعد السين؛ فمعناه: نؤخرها. قال ابن عباس: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾ يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها، وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: أو نُسأها: نثبت خطها ونبدل حكمها، وقال عبيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء: أو نُسأها: نؤخرها ونرجئها، وقال عطية العوفي: نؤخرها فلا ننسخها، وقال السدي: مثله أيضًا، وكذا الربيع بن أنس.

وقال الضحاك: يعني: الناسخ والمنسوخ، وقال أبو العالية: نؤخرها عندنا، وعن ابن عباس قال: خطبنا عمر رضي الله عنه، فقال: يقول الله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾؛ أي: نؤخرها، وأما على قراءة: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ قال قتادة: كان الله تعالى ينسي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء. وعن الحسن أنه قال في قوله: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ قال: إن نبيكم ﷺ، أقرئ قرآنًا ثم نسيه، وقال عبيد بن عمير: نرفعها من عندكم، وعن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي، وذلك أن أبيًا يقول: لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [رواه البخاري/٤٢١١].

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾؛ أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال ابن عباس: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم، وقال أبو العالية: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ فلا نعمل بها، ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾؛ أي: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها، وقال السدي: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ يقول: نأت بخير من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه، وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يرشد تعالى عباده بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتنال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام ردٌ عظيمٌ وبيانٌ بليغٌ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله، في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفرًا، وإما نقلًا كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمته الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد، أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي، بما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء، ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى، لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نسخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاء به من عند الله، بتغيير ما غير الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته، وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيمهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيهِ، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح، بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حلَّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم ﷺ بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلاً يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه، وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، كما في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة ﷺ، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مُعَيَّاة إلى بعثته ﷺ، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ثُمَّ أَتَيْنَا النَّبِيَّ إِلَى آلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أو قيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه متعين؛ لأنه جاء بكتابٍ وهو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى، ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، رداً على اليهود عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتي تفسيرها، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه، وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله ضعيفٌ مردودٌ مردول، وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم عشرة من الكفرة إلى

مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٠٨).

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل وقوعها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسُئِلْتُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْفَرْءُ تَبَدَّدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]؛ أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل [وقوعه]؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في «الصحيح»: (إِنَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ جُزْأً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ، فَحُرْمٌ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ) [رواه البخاري/٦٨٥٩]، ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت عن مثل ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعة [البخاري/٥٠٠٣]، ولهذا ثبت في «الصحيحين» [البخاري/١٤٠٧ ومسلم/١٧١٥]، من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

وعن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سأله إلا عن ثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]؛ يعني: هذا وأشباهه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه ﷺ رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وعن ابن عباس، قال: قال رافع بن خرملة أو وهب بن زيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنْزِلُهُ علينا من السماء نقرؤه، وفَجَّرَ لنا أنهاراً نَتَّبِعُكَ وَنُصَدِّقُكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، قال: (نَعَمْ وَهُوَ لَكُمْ كَأَلْمَائِدَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنْ كَفَرْتُمْ)، فأبوا ورجعوا [الدر المنثور ١/٢٦١]، وعن السدي، وقتادة نحو هذا، والله أعلم، والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والافتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى ﷺ تعنتاً وتكديباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾؛ أي: ومن يشتَرِ الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق

الأنبياء، واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ۚ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٢٩] ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١٣٠].

يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال ابن عباس: كان حِيَّيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب، من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية [الطبري ٤٨٨/١].

وعن الزهري قال: هو كعب بن الأشرف، وعن ابن عباس، أن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كُفْرًا وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فغيرهم ووبخهم ولاهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم، وقال الربيع بن أنس: ﴿مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾: من قبل أنفسهم، وقال أبو العالية: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم، وكذا قال قتادة، والسدي.

وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۖ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾: نسخ ذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿تَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فنسخ هذا عفوهم عن المشركين، وكذا قال أبو العالية،

وقتادة، والسدي: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾.

وروى ابن أبي حاتم [في تفسيره/١٠٨٨] عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكان رسول الله ﷺ، يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش، وهذا إسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. يحث تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضع لديه سواء كان خيرًا أو شرًا، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادَّعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

وقال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد، ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قال أبو العالية ومجاهد: حجبتكم، وقال قتادة: بيتتكم على ذلك ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿فَإِن حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال أبو العالية والربيع: ﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يقول: من أخلص لله، وقال سعيد بن جبیر: ﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أخلص، ﴿وَجْهَهُ﴾ قال: دينه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: متبع فيه

الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [رواه مسلم/١٧١٨]، فعمل الرهبان ومن شابههم، وإن فرض أنهم يخلصون فيه الله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول [محمد] ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وأما إن كان العمل موافقاً للشرعية في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردودٌ على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم ما يخافونه من المحذور ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ يعني: لا يحزنون للموت.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديتهم وتعاندتهم.

عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أخبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن خريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعبسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد بنبوّة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [الطبري ٤٩٥/١].

قال: إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به؛ أي: يكفر اليهود بعبسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعبسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء في التوراة من عند الله، وكلٌّ يكفر بما في يد صاحبه، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء، وقال قتادة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ قال: بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية، والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وهذا القول يقتضي أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلةً للفساد بالفساد، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، وقاتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يُبَيِّنُ بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة، وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقال الربيع بن أنس، وقاتدة: قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل، وقال السدي: هم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَتْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين: أحدهما: عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ قال: هم النصارى، وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وبنحوه عن قتادة، والسدي.

القول الثاني: عن ابن زيد، قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة، حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم، وقال لهم: (مَا كَانَ أَحَدٌ يَصُدُّ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلَا يَصُدُّهُ)، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق. [الطبري ٤٩٩/١، وعن ابن عباس نحوه].

وفي قوله: ﴿وَاسْعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة، ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي يظهر، والله أعلم، القول الثاني كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذ منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضاً فإنه تعالى، لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعواهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب

الكعبة، فأَيُّ خرابٍ أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأَيُّ خرابٍ لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: هذا خبر معناه الطلب؛ أي: لا تُمْكِنُوا هَؤُلَاءِ - إذا قَدَرْتُمْ عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: (أَلَا لَا يَحْجُبَنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكُكُمْ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ غُرَبَانِ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ) [البخاري/ ١٥٤٣ ومسلم/ ١٣٤٧] إلا الجملة الأخيرة ففي الترمذي/ ٨٧١ والمسنَد بلفظ «عهد»، وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب، وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها أو يمنعوا المؤمنين منها؛ والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيُظْهِرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحدٌ منهم، إلا خائفاً، يخاف أن يُؤْخَذَ فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يَبْقَى بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٌ، وأن تُجْلَى الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْهَا، والله الحمد والمنة، وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة المباركة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيراً ونذيراً، صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدُّوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجْلُّوا منها. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده، والطواف به غُرَباً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله ﷺ.

وأما من فَسَّرَ ببيت المقدس، فقال كعب الأخبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهِ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ الآية، فليس في الأرض نصرائي يدخل بيت المقدس إلا خائفاً، وقال السدي: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يُضْرَبَ عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤديها، وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة.

قلت: وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة، التي كانت يصلي إليها اليهود، عوقبوا شرعًا وقدرًا بالذلة فيه، إلا في أحيانٍ من الدهر امتحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عَصَوْا الله فيه أيضًا، أعظم من عصيان النصارى، كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم، وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا، بخروج المهدي عند السدي، وعكرمة، ووائل بن داود، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، كما روى الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: (اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ) [الحاكم/ ٦٥٠٨ وهذا حديث حسن].

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ (١١٥).

وهذا، والله أعلم، فيه تسليّة للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومُصَلَّاهم، وقد كان رسول الله ﷺ، يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة، وُجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. عن ابن عباس، قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ رَأَى تَلَلُوبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البهيقي/ ٢٠٨٠].

وعن ابن عباس: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقًا أو غربًا، وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة. وروي عن أبي العالية، والحسن، وعكرمة [وغيرهم] نحو ذلك، وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية، إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، إذنا من الله أن يصلي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسابقة وشدة الخوف، فعن ابن عمر، أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ، كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [رواه مسلم وأصله في الصحيحين].

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت الآية في قوم غُمِيَتْ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله: لي المشرق والمغرب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية.

وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، قال قتادة: قالوا: إنه كان لا يصلي إلى القبلة. فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

وقد قيل: إنه كان يصلي إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبي عن قتادة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ) رواه الترمذي [٣٤٤] وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الترمذي: وقد روي عن غير واحد من الصحابة: (مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ) منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس، وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبله، إذا استقبلت القبلة.

قال ابن جرير: ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم، وعن مجاهد: لما نزلت: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

قال ابن جرير: ويعني بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود، وأما قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ فإنه يعني: عليهم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليهم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، على الرد على النصارى عليهم - لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولداً.

فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ﴿٣﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿٤﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿٥﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿٦﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿٧﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿٨﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿٩﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ﴿١٠﴾﴾.

لَهُ كُفُّوا أَحَدُكُمْ [سورة الإخلاص]، فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا روى البخاري [٤٢١٢] في تفسير هذه الآية من البقرة: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا)، وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى سَمِعِهِ مِنَ اللَّهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ) [البخاري، بألفاظ قريبة/ ٦٩٤٣ ومسلم/ ٢٨٠٤].

وقوله: ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ﴾ عن ابن عباس قال: قانتين: مصلين، وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ﴾: مقرون له بالعبودية، وقال سعيد بن جبير: ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ﴾: يقول كل له قائم يوم القيامة، وقال السدي: مطيعون يوم القيامة، وعن مجاهد قال: مطيعون، قال: كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان، وعن مجاهد قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعي وقدري، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما على غير مثال سبق، قاله مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة، كما جاء في «صحيح مسلم»: [بلفظ قريب/ ٨٦٧] (فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)، والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: (فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)، وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نَعَمَتِ الْبَدْعَةُ هَذِهِ [الموطأ/ ٢٥٠].

وقال ابن جرير: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبدعهما، ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعاً؛ لإحداثه فيه، ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً، لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعاً. قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون لله ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعها بدلائلها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو باريها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثالٍ احتذاها عليه، وهذا إعلامٌ من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح، الذي أضافوا إلى الله بُنُوته؛ وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل، وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته، وهذا من ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلام جيد وعبرة صحيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّرَ أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: كن؛ أي: مرة واحدة فيكون؛ أي:

فيوجد، على وفق ما أراد كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١١٨).

قال مجاهد: النصارى تقولوه، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم، وفي ذلك نظر، وحكى القرطبي: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾؛ أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد.

قلت: وظاهر السياق أعم، والله أعلم، وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، قال: هم اليهود والنصارى، ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

وقوله: ﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: قد وضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩).

قراءة أكثرهم: «ولا تُسأل» بضم التاء على الخبر، وفي قراءة ابن مسعود: «ولن تسأل عن أصحاب الجحيم» نقلها ابن جرير؛ أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٣١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ الآية [الغاشية: ٢١، ٢٢]. وأشبه ذلك من الآيات، وقرأ آخرون: «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» بفتح التاء على النهي؛ أي: لا تسأل عن حالهم.

وعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها

النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرراً للأُميين، وأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً. [أخرجه البخاري/٢٠١٨].

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٢١﴾.

قال ابن جرير: يعني: بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: قل يا محمد إن هدى الله الذي بعني به هو الهدى؛ يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، قال قتادة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قال: خصومة علّمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة، وكان رسول الله ﷺ يقول: (لَا تَرَأَىٰ طَائِفَةً مِنْ أُمَّتِي يَفْتَنُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ) [البخاري نحوه/٣٤٤٢ ومسلم/١٩٢٠]، ﴿وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فيه تهديد ووعد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة، عباداً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمرته؛ وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وقال قتادة أيضاً: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وعن عمر بن الخطاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار، وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحَلَّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله، وعن ابن عباس في هذه الآية قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه، وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكُونُونَ ما أشكل عليهم إلى عالمه، وعن ابن عباس في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا لَئِلَهَا﴾ [الشمس: ٢]، يقول: اتبعها. قال: وروى عن ابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد [وغيرهم] نحو ذلك.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبر عن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد،

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]؛ أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتُم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلَّذِي يَخْدُونَهُۥ مَكُونُوا۟ عِندَهُۥ فِى ٱلتَّوْرَةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَآبَ وَٱلْأُمِينَ ءَاسَلُكُمْ فَإِنِ ٱسْلَمْتُمْ فَإِنِ ٱسْلَمُوا۟ فَقَدْ أَهْبَكُوا۟ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ بِصِيرٍ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وفي «صحيح مسلم» [بلفظ قريب/١٥٣]: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِّنْ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ ٱلنَّارَ).

﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّىٰ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١٢٢) وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ (١٢٣).

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته، يحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَآلُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١٢٤).

يقول تعالى مُنبِّهاً على شرف إبراهيم خليله ﷺ، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَتٍ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم؛ أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ أي: قام بهنَّ كلهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ أي: وفَّى جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِۦ أَحَبَّهُۥ وَهَدَّاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿وَأَنبَتْنَاهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۦۭ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿يَكْبِتْ﴾؛ أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ﴾ [التحریم: ١٢]، وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَبَتَ إِبْرَاهِيمُ رَبُّهُ بِكَلِمَاتِ فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ أي: قام بهن قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: جزاءً على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه.

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروي عن ابن عباس في ذلك روايات، فعن ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك.

وعن ابن عباس أيضاً قال: ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، في الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء، وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، [وغيرهم] نحو ذلك.

قلت: وقريب من هذا ما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٦١] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسَّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ، وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةُ). قال وكيع: انتقاص الماء؛ يعني: الاستنجاء، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبطِ)، ولفظه لمسلم [٢٥٧]، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحدٌ فقام به كله إلا إبراهيم عليه السلام [المستدرک/ ٤٠٢٧]، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبَتَ إِبْرَاهِيمُ رَبُّهُ بِكَلِمَاتِ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتَمَّهُنَّ؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢]، وعشر آيات في أول سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، و﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الآية: ٣٥] إلى آخر الآية، فأتَمَّهُنَّ كلهن فكتبت له براءة، قال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وعن الحسن قال: أي والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه والختان، فصبر على ذلك.

وعن ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَبَتَ إِبْرَاهِيمُ رَبُّهُ بِكَلِمَاتِ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فمنهن: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ومنهن الآيات في شأن

المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم والرزق الذي رزق ساكنوا البيت، ومحمد بعث في دينهما، وعن مجاهد: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلي بالآيات التي بعدها ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وعن الربيع بن أنس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: الكلمات ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَعِٰهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ رَفَعْنَا الْقَوْمَاعِدَ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم.

وقال السدي: الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم ربُّه: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً فإن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَعِٰهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلي بهن إبراهيم.

قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد: إنه سيكون في ذريتك ظالمون، وعن مجاهد أيضاً في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به، وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين، وقال سعيد بن جبیر: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: المراد به المشرك، لا يكون إماماً ظالماً، وعن عطاء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً. قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

وعن ابن عباس: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره، وإن كان من ذرية خليله، ومحسن ستفد فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته، وروي عن مجاهد [وغيره] نحو ذلك، وعن

قتادة في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به وأكل وعاش، وكذا قال النخعي، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وَنَزَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفات: ١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق، وكذا روي عن أبي العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان، وعن الضحاك: لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني، ولا أنحلها إلا ولياً لي يطيعني، وقال السدي: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول: عهدي نبوتي.

فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية، على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى، واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر، أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلامٌ من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره، والله أعلم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه، وروي عن أبي العالية، وعطاء، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم] نحو ذلك، وقال عكرمة، وقاتادة، [وغيرهما] ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مجمعا، ﴿وَأَمْنًا﴾ عن ابن عباس؛ أي: أمناً للناس، وعن أبي العالية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يقول: أمناً من العدو، وأن يُحْمَلَ فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّفُ الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسَبَّون، وروي عن مجاهد، والسدي، وقاتادة، [وغيرهم] قالوا: من دخله كان آمناً.

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا، من كونه مَثَابَةً للناس؛ أي: جعله مَجَلًّا تشاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى، لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿فَجَعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم: ٣٧ - ٤٠]، ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له، كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]؛ أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها السوء، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت، لأطبق الله السماء على الأرض، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً، وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]، وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فعن ابن عباس: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله، وروي عن مجاهد

وعطاء مثل ذلك، وعن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكرها هنا، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد، ثم قال: ومقام إبراهيم يُعَدُّ كثيرٌ، «مقام إبراهيم»: الحج كله. ثم فسره لي عطاء فقال: التعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسره ابن عباس؟ قال: لا، ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلت: أسمعت ذلك؟ لهذا أجمع قال: نعم سمعته منه، وعن سعيد بن جبير: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجاره.

وقال البخاري: باب قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: مثابة: يثوبون يرجعون، [ثم روى] عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقتُ ربي في ثلاث، أو وافقتني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبه النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو لبيدكن الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه، فقالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ الآية [التحریم: ٥] [البخاري/٣٩٣ ومسلم نحوه/٢٣٩٩]، وعن جابر، قال: استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في «صحيحه» [١٢١٨]، وروى البخاري [٣٨٧] عن ابن عمر قال: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجاره فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقفٌ عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة، كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخاري [٣١٨٥]، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة بالامية:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً، فعن أنس بن مالك [كما في فتح الباري ١٦٩/٨] قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه عليه السلام، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وعن قتادة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، وقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عقبيه وأصابعه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحي، قلت: وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة

قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمتدة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وعن مجاهد، قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزمان أبي بكر رضي الله عنه، ملتصقًا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه [دلائل النبوة للبيهقي ٦٣/٢]، وهذا إسناد صحيح.

﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنَّجَس، ولا يصيبه من ذلك شيء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: أمرناه. كذا قال، والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّيَ بإلي؛ لأنه في معنى: تقدمنا وأوحينا، وعن ابن عباس قوله: ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان، وقال مجاهد وسعيد بن جبیر: ﴿طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾: أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس، وروي عن عبيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبیر، ومجاهد، وعطاء، وقتادة ﴿طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾؛ أي: بلا إله إلا الله من الشرك، وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾؛ يعني: من أتاه من غربة، ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: المقيمين فيه، وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس، أنهما فسرا العاكفين بأهل المقيمين فيه، ونحوه عن عطاء، وعن ثابت، قال: قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مُكَلِّمَ الأمير أن أ منع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون، قلت: وقد ثبت في «الصحيح» أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عزب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فعن عطاء عن ابن عباس قال: إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود، وكذا قال عطاء، وقتادة، وقال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية، وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. [أو] أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليه السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود،

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الآية [الحج: ٢٦، ٢٧].

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّجِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يَظْلَمْ تُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجترأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام، وفي ذلك أيضًا ردٌّ على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء ﷺ، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذا: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾؛ أي: طهراه من الشرك والريب، وابنياه خالصًا لله، معقلًا للطائفين والعاكفين والركع السجود، وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَعْدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطيبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك، ولهذا قال ﷺ: (إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيََتْ لَهُ) [رواه مسلم/٥٦٩].

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وقيل: آدم ﷺ، وقيل: إن أول من بناه شيث ﷺ، وغالب من يذكر هذه إنما يأخذها من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجرد ما، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. روى الإمام أبو جعفر بن جرير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللَّهِ وَأَمَّنَهُ وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا فَلَا بُصَادَ صَيْدُهَا وَلَا يُقَطَّعُ عِصَاهُهَا) [أخرجه مسلم بلفظ قريب/١٣٦٢].

وعن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أَحَرَّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا) [أخرجه مسلم/١٣٦١]، وفي «الصحيحين» [البخاري بلفظ قريب/٢٧٣٣ واللفظ لمسلم/١٣٦٥] عن

أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: (الْتَمَسْ لِي غُلَامًا مِنْ غُلَامَيْنِ كَمْ يَخْدُمُنِي) فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنْتُ أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، وقال في الحديث: ثم أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لَهُ أَحَدٌ قَالَ: (هَذَا جَبَلٌ يُحْبِنَا وَنُحِبُهُ) فلما أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْنِهَا، مِثْلَمَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُدَّهِمْ وَصَاعِهِمْ)، وفي لفظ لهما: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَكْيَالِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي مُدَّهِمْ) زاد البخاري (٢٠٢٣)؛ يعني: أهل المدينة ولهما أيضًا عن أنس أن رسول الله ﷺ، قال: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَهُ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ) [البخاري/١٧٨٦].

والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنا أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة، وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض، وهذا أظهر وأقوى، وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء في «الصحيحين» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [البخاري/٣٠١٧ ومسلم/١٣٥٣].

وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يَحْرَمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)، فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة [رواه البخاري/١٠٤ ومسلم/١٣٥٤ وهذا لفظه].

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لم يجدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره.

وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾؛ أي: من الخوف؛ أي: لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَضِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيها، وفي «صحيح مسلم» [١٣٥٦]

عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ)، وقال في هذه السورة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة، وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ عن أبي بن كعب: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: هو قول الله تعالى، وهذا قول مجاهد وعكرمة، وهو الذي صوبه ابن جرير رحمه الله. قال: وقرأ آخرون: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، فعن أبي العالية قال: كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأمتعته قليلاً، وعن مجاهد أيضاً: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ يقول: ومن كفر فأرزقه أيضاً: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وعن ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنَآءَ وَهُنَآءَ مِنْ عَطَايِكُمْ وَمَا كَانَ عَطَاؤُكُمْ رِيكًا مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وروي عن عكرمة ومجاهد [وابن إسحاق] نحو ذلك أيضاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٢٣] نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير؛ ومعناه: أن الله تعالى يُنظرهم ويُمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قُرَيْشٍ أَمَلَتْ لَهُمَا ظِلْمَةً ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وفي «الصحيحين» [البخاري نحوه/ ٥٧٤٨ ومسلم/ ٢٨٠٤]: (لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَدَىٰ سَمِعَةٍ مِنَ اللَّهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ)، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٤٤٠٩ وعند مسلم قريباً منه/ ٢٥٨٣] أيضاً: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٢٧] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ: فالقواعد جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل ﷺ البيت ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهما في عملٍ صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، فعن

وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ تَرَفَعَ قَوَائِمُ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْكَ، وَهَذَا كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلُصِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا؛ أَيْ: يَعْطُونَ مَا أَعْطَوْا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ وَالْقُرْبَاتِ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أَيْ: خَائِفَةٌ أَلَّا يَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ [٣١٨٤] هَاهُنَا حَدِيثًا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِيَعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةٍ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تَرْضَعُهُ، حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دُوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعُهَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسَقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْطَقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مَرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: اللَّهُ أَمْرُكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَا لَا يَضِيعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، قَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٧]، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَرْضَعُ إِسْمَاعِيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَاءُ السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كِرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي: رَفَعَتْ طَرَفَ دَرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا فَنْظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا)، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَه، تَرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سَقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا) [البخاري/٢٢٣٩]. قَالَ: فَشَرِبْتُ وَأَرْضَعْتُ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتُ اللَّهِ ﷻ بَيْنَهُ هَذَا الْغَلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مَرْتَفَعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السِّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رَفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جَرْهُمٍ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ، فَإِذَا هُم بِالْمَاءِ، فَارْجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ،

فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: (فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ)، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفَسَهُم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل ﷺ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيلُ ليطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيقٍ وشدة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابي، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهدٍ وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، فالحقِّي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخيرٍ وسعة، وأثنت على الله ﷻ. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قال النبي ﷺ: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ، لَدَعَا لَهُمْ فِيهِ). قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يُثَبِّت عتبة بابي، فلما جاء إسماعيل ﷺ، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرُك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ﷻ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبْرِي نَبْلًا له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك ﷻ. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الحديث بطوله عند البخاري/٣١٨٤].

وعن ابن عباس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك، وعن مجاهدٍ وغيره من أهل العلم: إن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيل طفلٌ صغيرٌ يرضع، وحملوا فيما حدَّثني على البَرَّاق، ومعه جبريل يَدُلُّهُ على موضع البيت ومعالم الحرم، خرج معه جبريل، فكان

لا يمر بقريّة إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه، حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاه سَلَمَ وَسَمُر، وبها أناس يقال لهم: العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدبرة، فقال إبراهيم لجبريل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال البخاري رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية، القواعد: أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة. [وساق الإسناد] عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (أَلَمْ تَرَيَ أَنَّ قَوْمَكَ حِينَ بَنَوْا الْبَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟) فقلت: يا رسول الله، ألا تُرَدِّدُهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قال: (لَوْ لَا حِذْنَانِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ)، فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يُتَمَّمْ على قواعد إبراهيم ﷺ [البخاري/١٥٠٦]، ورواه مسلم [١٣٣٣] [ولفظه] عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: (لَوْ لَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ: بِكُفْرٍ - لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ).

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل ﷺ بمدد طويلة

وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين

وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنان الكعبة، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسقفوها ويهايون هدمها، [قال]: فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. [قال]: ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المغول ثم قام عليها وهو يقول: اللَّهُمَّ لِمَ تَرَعُ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ، ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عَمَلِهِ، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم ﷺ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضاً.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن؛ يعني: الحجر الأسود، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فزعم بعض

أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذٍ أسن قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه، ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رآوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: (هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا) فَأَتِي بِهِ، فَأَخَذَ الرُّكْنَ؛ يعني: الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: (لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا)، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بني عليه [المغازي لابن إسحاق نحوه/١١٣].

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعًا، وكانت تكسى القباطي، ثم كُسِيت بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحيتنذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ، ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما روى ذلك مسلم وغيره. [وقد روى مسلم] [١٣٣٣] عن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: (يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا حَدِثَانِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قَوْمَكَ قَصَّروا فِي الْبِنَاءِ)، فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير، فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير، فلو ترك لكان جيدًا، ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغيّر عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأل الإمام مالكًا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَةً لِلْمُلُوكِ، لا يشاء أحدٌ أن يهدمها إلا يهدمها، فترك ذلك الرشيد. نقله عياض والنوري، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السؤيقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في «الصحاحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يُخْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّؤِيقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ) أخرجاه [البخاري/١٥١٤ ومسلم/٢٩٠٩].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: (كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدُ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجْرًا حَجْرًا) [رواه البخاري/١٥١٨]، وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في «صحاح البخاري» [١٥١٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لِيُحَجَّجَنَّ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ).

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قال ابن جرير: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك، وعن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ قال: كانا مسلمين، ولكنهما سألاه الثبات، وقال عكرمة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت، وقال السدي: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾: يعنيان العرب.

قال ابن جرير: والصواب أنه يعمُّ العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٩]، والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرْقَةً أَزْوَاجًا وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحب أن يكون من صُلبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠] وهو قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [١٦٣١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ). ﴿وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ عن عطاء: أخرجها لنا، عَلَّمَنَاهَا، وَقَالَ مجاهد: ﴿وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: مَذَابِحُنَا، وروى عن عطاء أيضاً وقتادة نحو ذلك، وعن مجاهد، قال: قال إبراهيم: ﴿أَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فاتاه جبرائيل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، وفرغ القواعد وأتم البنين، ثم أخذ بيده فأخرجها فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم، فقال: كَبَّرَ وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يُدخل في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرات، قال: نعم، وروى عن [ابن عباس] وأبي مجلز، وقتادة نحو ذلك.

﴿رَبَّنَا وَأَنْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩).

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم؛ أي: من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرُ الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال: (دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى بِي) [صححه ابن حبان/ ٦٤٠٤ والحاكم/ ٤١٧٤، واللفظ للطبري/ ٧٧٢٩]، والمراد أن أول من نُوِّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم، وعن أبي العالية، في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَنْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ يعني: أمة محمد ﷺ، فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن في آخر الزمان، وكذا قال السدي، و قتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ يعني: القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ يعني: السنة، قاله الحسن، و قتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم، وقيل: الفهم في الدين، ولا منافاة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: طاعة الله، والإخلاص، وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادرٌ على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾.

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٣١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد، من حداثة سنّه إلى أن اتخذه الله

خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طرق الضلالة والغي، فأى سفهٍ أعظم من هذا؟ وأي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَئِذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ﴾ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرًا، وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ أي: وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وقد قرأ بعض السلف «ويعقوب» بالنصب عطفًا على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك، والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَنَشَرْنَاهَا إِسْحَاقَ وَيَمَ بْنَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقد قرئ بنصب يعقوب هاهنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣١٨٦ ومسلم/٥٢٠] من حديث أبي ذرٍّ قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) قلت: ثم أي؟ قال: (بَيْتُ الْمَقْدِسِ)، قلت: كم بينهما؟ قال: (أَرْبَعُونَ سَنَةً) الحديث، وأيضًا فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبًا، وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين.

وقوله: ﴿يَبْنِيَنَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عاداته بأنه من قصد الخير وُفق له ويسره عليه، ومن نوى صالحًا ثبَّت عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى [الليل: ٥ - ١٠].

﴿أَمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢٢٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْئَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمَعْلُونَ﴾ (٢٢٤).

يقول تعالى محتجًا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله

وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أبا، نقله القرطبي، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق عليه السلام حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهب عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحب أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر.

وقوله: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾؛ أي: نوحده بالألوهية، ولا نشرك به شيئا غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ اسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله عليه السلام: (نَحْنُ مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ دِينَنَا وَاحِدٌ) [البخاري نحوه/ ٣٢٥٩ ومسلم كذلك/ ٢٣٦٥].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تَسْتَلُونُ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله عليه السلام: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، وقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: لا نريد ما دعوتكم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: مستقيما، قاله محمد بن كعب القرظي، وعيسى بن جارية، وعن مجاهد: مخلصا، وعن ابن عباس: حاجا، وكذا روي عن الحسن، والضحاك، وعطية، والسدي.

وقال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا، وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفا؛ أي: متبعا، وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم، وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله تعالى والختان.

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وروى البخاري [٤٢١٥] عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، قال رسول الله ﷺ: (لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا). وقد روى مسلم عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط، وقال الخليل بن أحمد [والبخاري في باب تفسير سورة الأعراف] وغيرهما: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط هاهنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط، وهو التابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل: أصله من السَّبَط، بالتحريك، وهو الشجر؛ أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة.

فعن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله، وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيها.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَوَلُوا فإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) صَبَغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صَبَغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾.

يقول تعالى: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، أي: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾؛ أي: فقد

أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿وَإِنْ نَوَلَّوْا﴾؛ أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وروى ابن أبي حاتم [في تفسيره/١٣١٢] عن نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلي بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوق الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية، وقد قُدم. وقوله: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾: قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد وغيره نحو ذلك، وانتصاب ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾ إما على الإغراء كقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠]؛ أي: ألزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدل من قوله: ﴿وَمَلَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] كقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦].

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩) ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْكَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤١).

يقول الله تعالى مرشدًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾؛ أي: أننا نطروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجه ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾؛ أي: نحن براء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. [وغير ذلك من الآيات] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾؛ أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون؛ أي: في العبادة والتوجه، ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط، كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؛ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْإِنْسَانِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلام، وإن محمدًا رسول الله، وإن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله

بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكنتموا شهادة الله عندهم من ذلك، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيه تهديد ووعد شديد؛ أي: أن علمه محيطٌ بعملكم وسيجزيكُم عليه، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: قد مضت، ﴿هَآ مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُشْعَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد، فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

قيل: المراد بالسفهاء - هاهنا مشركو العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم.

روى البخاري [واللفظ له/ ٤٢١٦ ومسلم/ ٥٢٥] عن البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاةٍ صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﻋﻠﻴﻪ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﻋﻠﻴﻪ: ﴿قُولُوا وَجْهَكُمْ سَطْرَةٌ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمراً باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يكثّر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم ﷺ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى

البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في «الصحيحين» من رواية البراء.

وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثاني، كما جاء في «الصحيحين» [البخاري/٣٩٥ ومسلم/٥٢٦] عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: بينما الناس بقاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، وفي هذا دليل على أن الناس لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم، ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود - ارتياب، وزيف عن الهدى، وقالوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾؛ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثم وجه الله، ﴿وَلَيْسَ الَّلَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فِى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجَّهنا في كل يوم مراتٍ إلى جهاتٍ متعددة، فنحن عبيده وفي تصريفه وخُدامه، حيثما وجَّهنا توجَّهنا، وهو تعالى له عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأتمه عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجَّههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واختارنا لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا؛ أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه؛ أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرها: ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وروى الإمام أحمد [١١٥٧٥] عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: (يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيَقَالُ: هَلْ بَلَّغْتُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُدْعَى بِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمُهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: وَمَا عَلَّمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: عَذْلًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [وإسناده صحيح وهو في البخاري/ ٥٤٢٠ بأخصر منه].

وروى الإمام أحمد عن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرضٌ فهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خير، فقال: وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأثني عليها شر، فقال عمر: وجبت، فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: (أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) قال: فقلنا وثلاثة قال: فقال: (وَثَلَاثَةٌ) قال: فقلنا وأثنان: قال: (وَأَثْنَانٍ)، ثم لم نسأله عن الواحد، وكذا رواه البخاري [١٣٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه؛ أي: مُرْتَدًّا عن دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾؛ أي: هذه الفعلة، وهو صرف الوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ أي: وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا، كما يحصل للذين آمنوا إيقانًا وتصديقًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، ولهذا كان مَنْ ثَبَّتَ على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريبٍ من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين.

عن ابن عمر قال: بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآنٌ وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة. [البخاري/ ٤٢١٨ ومسلم/ ٥٢٦]، وعند مسلم أنهم كانوا ركوعًا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله ﷻ رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله، وفي «الصحيح» عن البراء قال: مات قومٌ كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [رواه الطيالسي في مسنده/ ٧٢٢].

وعن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ أي: بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى؛ أي: ليعطيكم أجرهما جميعًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾،

وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾؛ أي: ما كان الله ليضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي «الصحيحين» [البخاري قريباً منه/ ٥٦٥٣ ومسلم/ ٢٧٥٤] أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: (أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ؟) قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (فَوَاللَّهِ، اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا).

﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

عن ابن عباس [فيما يرويه البيهقي/ ٢٠٨٠] قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان ينظر إلى السماء فأُنزل الله: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ آلِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] فأُنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَإَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وروى الحاكم [٣٠٦٥] عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمر جالساً في المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلا هذه الآية: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قال نحو ميزاب الكعبة. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله، إن الغرض إصابة عين الكعبة، والقول الآخر وعليه الأكثرون: أن المراد الوجهة، كما رواه الحاكم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس وغيرهم، وكما تقدم في الحديث الآخر: (مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ) [الترمذي/ ٣٤٤].

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه وقبلة نحو الكعبة، وكذا في حال المسايقة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باتجاهه، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهكم إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِلَّتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِلَّتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَنْتَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥).

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِلَّتَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِلَّتِهِمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة رسول الله ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبله اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر الله تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد الأمة: ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَنْتَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧).

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب، يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: (ابْنُكَ هَذَا؟) قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال: (أَمَّا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ) [أخرجه أحمد/٧١٠٧ وأبو داود/٤٤٩٥ والنسائي/٧٠٣٦ وهو صحيح].

قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإنني لا أدري ما كان من أمره.

قلت: وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس، لا يشك أحد ولا يتمارى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق

والإتقان العلمي ﴿يَكُونُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: ليكتسبوا الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨).

عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾؛ يعني: بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبلية يرضونها، ووجهة الله حيث تَوَجَّه المؤمنون، وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهذاكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقبلة التي هي القبلة.

وروي عن مجاهد وعطاء [وغيرهما] نحو هذا، وقال مجاهد في الرواية الأخرى، ولكن أَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْكَعْبَةِ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو قادرٌ على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠).

هذا أمرٌ ثالثٌ من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقليل، تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزلٌ على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي، وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين الرازي وغيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر.

قال أبو العالية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ يعني به: أهل الكتاب حين قالوا: صُرف محمد إلى الكعبة، وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا، سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، وروي عن

مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي نحو هذا، وقال هؤلاء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ يعني: مشركي قريش، وقوله: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾؛ أي: لا تخشوا شبه الظلمة المتعتين وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعَنَّ عَلَيْنَا﴾ عطف على ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: ولأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ .

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبینات، ويزكيهم؛ أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في جاهلية جهلاء، فانقلبوا ببركة رسالته، ويؤمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عباس: يعني: بنعمة الله محمدًا ﷺ؛ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، وعن زيد بن أسلم: أن موسى ﷺ قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني: فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني». قال الحسن وأبو العالية [وغيرهما]: إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي، وعن سعيد بن جبیر: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي.

وعن ابن عباس قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، وفي الحديث الصحيح: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَا ذَكَرْتُهُ فِي مَلَا خَيْرٍ مِنْهُ) [البخاري/ ٦٩٧٠ ومسلم/ ٢٦٧٥]، وروى الإمام أحمد [١٢٤٢٨]: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَا ذَكَرْتُكَ فِي مَلَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ - أَوْ قَالَ: فِي مَلَا خَيْرٍ مِنْهُ - وَإِنْ دَنَوْتُ مِنِّي شَيْئًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذَرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتُ مِنِّي ذَرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ هَرْوَلَةً)، صحيح الإسناد وأخرجه

البخاري [٧٠٩٨] من حديث قتادة، وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة، وقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ لَنْ شُكِّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥٣] وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾.

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها كما جاء في الحديث: (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ، كَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ) [أخرجه مسلم بألفاظ قريبة/ ٢٩٩٩]، وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى. [رواه أبو داود/ ١٣١٩ وهو حسن]، و[أما] الصبر، فصبرٌ على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابًا؛ لأنه المقصود، وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذلك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَيِّتُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو مُتَجَلِّد لا يرى منه إلا الصبر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في بَرَزَتِهِمْ أحياء يرزقون، كما جاء في «صحيح مسلم» [نحوه برقم/ ١٨٨٧]: (إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ أَطْلَاعَةً، فَقَالَ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ نَبْغِي، وَقَدْ أَعْطَيْنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُتْرَكُونَ مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، فَتُقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٥٨١٦] عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ) ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفًا لهم وتكريمًا وتعظيمًا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

أخبر تعالى أنه يتلي عباده المؤمنين؛ أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمُ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فتارةً بالسراء، وتارةً بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال لباس الجوع والخوف، وقال هاهنا: ﴿بَشِّرِ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ أي: بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾؛ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: لا تُغَلِّ الحقائق والمزارع كعادتها، كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف هاهنا: خوف الله، وبالجموع: صيام رمضان، وينقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد، وفي هذا نظر، والله أعلم، ثم بيّن تعالى من الصابرون فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ أي: تسلموا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: ثناء من الله عليهم ورحمة. قال سعيد بن جبير: أي: أمنة من العذاب ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة، فمن ذلك ما في «صحيح مسلم» [٩١٨] عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَاخْلُفْ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا) قالت: فلما تُوفِّي أبو سلمة قلت: كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرًا منه رسول الله ﷺ.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ: يَا مَلِكُ الْمَوْتِ، قَبِضْتَ وَلَدَ عَبْدِي؟ قَبِضْتَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَكَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا قَالَ؟ قَالَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، قَالَ: ابْنُو لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ) [أخرجه أحمد/ ١٩٧٤٠ والترمذي/ ١٠٢١ وقال: حسن غريب].

﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

روى الإمام أحمد [٢٥١٥٥] عن عروة، عن عائشة، قال: قلت لأرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما على

أحد جناح أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بشما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُسَلَّل، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/ ١٥٦١ ومسلم/ ١٢٧٧]، وروى البخاري [٤٢٢٦] عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنسًا عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى ذلك من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

وفي «صحيح مسلم» [١٢١٨] من حديث جابر الطويل، وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: (أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ)، وعن حبيبة بنت أبي تَجْرَةَ قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه وهو وراءهم، وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول: (اسْعُوا، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ) [أخرجه أحمد/ ٢٧٤٠٨ وضعفه قابل للانجبار وقواه الشنقيطي]، وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركنٌ في الحج، كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك، وقيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدم، وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقيل: بل هو مستحب، والقول الأول أرجح؛ لأنّه ﷻ طاف بينهما، وقال: (لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ).

فكل ما فعله في حجته تلك واجبٌ لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم، فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله؛ أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وفي حديث ابن عباس، أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وتردّادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤها وزادها، حين تركهما إبراهيم ﷺ هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندها، قامت تطلب الغوث من الله ﷻ، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذللةً خائفةً وجلّة مضطرةً فقيرةً إلى الله ﷻ، حتى كشف الله كربتها، وأنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها (طَعَامٌ طُعْمٌ، وَشِفَاءٌ سُقْمٌ) [البزار/ ٣٩٢٩]، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذُلّه وحاجته إلى الله، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله ﷻ، لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات، حكى ذلك فخر الدين الرازي، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يشب على القليل بالكثير، عليمٌ بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه، ولا يظلم مثقال ذرَّةٍ وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا آتَيْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٦١) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (١٦٢).

هذا وعيدٌ شديدٌ لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفةً محمد ﷺ.

ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ، قال: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ) [رواه الحاكم/٣٤٤] وقال: صحيح الإسناد، والذي في «الصحيح» عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله، ما حدثت أحداً شيئاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا آتَيْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية [رواه مسلم/٢٢٧].

وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس، وقال مجاهد: إذا أجذبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم، وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾؛ يعني: تلعنهم الملائكة والمؤمنون، ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا﴾؛ أي: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيَّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه، ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٦١) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ فيها؛ أي: لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يُغَيَّر عنهم ساعة واحدة، ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك.

وقال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من

الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأننا لا ندري بما يختم له، واستدل بعضهم بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله ﷺ في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: (لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) [البزار/٢٦٩]، قالوا: فعلة المنع من لعنه بأنه يحب الله ورسوله ﷺ فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

يُخْبِرُ تعالى عن تَفَرُّده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عدل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وَ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾) [أخرجه أبو داود/١٤٩٦ والترمذي/٣٤٧٨ وقال: حسن صحيح]، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذُكِرَ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها وعمرانها وما فيها من المنافع، ﴿وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]؛ أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، ﴿وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾؛ أي: في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والارتفاع بما عند أهل ذلك الأقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمُّ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [٣٣] وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ

﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ كَمَا هِيَ تَنْبُتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿يس: ٣٣ - ٣٦﴾.

﴿وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾؛ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هـ: ٦]، ﴿وَنَصْرِفِ الرِّيحَ﴾؛ أي: تارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمععه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: سائر بين السماء والأرض، يُسَخَّرُ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَمَاكِنِ، كما يصرفه تعالى: ﴿لَا يَنْتَبِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الْآيَاتِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فبهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء، وعن أبي الضحى، قال: لما نزلت ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا، فليأتنا بآية، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً؛ أي: أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه ويحبونه كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه.

وفي «الصحاحين» عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله؛ أيُّ الذنب أعظم؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) [البخاري/٤٢٠٧ ومسلم/٨٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه، ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين

لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا؛ أي: أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ تَبَرَّتْ مِنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَٰهِكُمْ مَا كَانُوا إِلَّا نَجَافًا يُعْبَدُونَ﴾﴾ [القصص: ٦٣]، ويقولون: ﴿سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١].

والجن أيضًا تبرأ منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۖ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقوله: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾؛ أي: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معديلاً ولا مَصْرِفًا.

عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: المودة، وكذا قال مجاهد، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعُوا مَنَّهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾؛ أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحدهم بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، كما أخبر تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: تذهب وتضمحل كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَرِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [١٦٨] إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ [١٦٩].

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً؛ أي: مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها، مما زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حِمَار الذي في «صحيح مسلم» [بأنفاذ قربة/ ٢٨٦٥] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ كُلَّ مَا نَحْلَتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ) وفيه: (وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ).

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْزَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال قتادة، والسدي في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان، وقال عكرمة: هي نزغات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه أو قال: خطاياها، وقال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي، وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، وقال: هذا من خطوات الشيطان، وعن مسروق أتى عبد الله بن مسعود بضرع؛ [أي: ثدي] وملح، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريده، فقال: أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل ضرعاً أبداً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعمم وكفر عن يمينك [ذكره الحاكم/٣٢٢٣].

وعن ابن عباس، قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين، وعن عكرمة في رجل قال لغلामه: إن لم أجلدك مائة سوط فامرأته طالق. قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاءُكُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١).

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾؛ أي: وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاءُكُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: ليس لهم فهم ولا هداية.

وعن ابن عباس: أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما أَلْفَيْنَا عليه آبائنا، فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية: ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نطق بها راعيتها؛ أي: دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه؛ بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد والحسن [وغيرهم] نحو هذا، وقيل: إنما هذا

مثلُ ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً واختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله، ولا تبصره، ولا بطش لها، ولا حياة فيها.

وقوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ﴾؛ أي: صُمٌّ عن سماع الحق، بَكْمٌ لا يتفوهون به، عُمِّيٌّ عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبَكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْخَنِزِيرَ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧٣).

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٨٣٣٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ، يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَتَى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) [ورواه مسلم في صحيحه/١٠١٥]، ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حَتَفَ أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو مُتَرَدِّية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُم مِّتَدَّ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعًا لَّكُمْ وَلِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتي، وحديث العنبر في «الصحيح» [رواه مسلم/١٩٣٥].

ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجسٌ عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها، وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبي في التفسير هاهنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المانع، وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّي أم مات حَتَفَ أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي، وكذلك حَرَّمَ عليهم ما أَهْلٌ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له، وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل

عن الحسن البصري: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم، وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم؛ [أي: من ثمارهم وحبوبهم]، ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: في غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جببر، وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل بن حيان: غير باغ؛ يعني: غير مستحله، وقال السدي: غير باغ، يبتغي فيه شهوته، وقال عطاء الخراساني، في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: لا يشوي من الميتة ليشتهيه، ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العلقمة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه، وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ويقول لا يعدو به الحلال، وعن ابن عباس: لا يشبع منها، وفسره السدي بالعدوان، وعن ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة ولا عاد في أكله، وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قال: غير باغ في الميتة؛ أي: في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة، وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: فمن اضطر؛ أي: أكره على ذلك بغير اختياره.

مسألة: إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال - ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمنه أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجه [٢٢٩٨] من حديث عباد العنزي قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: (مَا أَطْعَمْتُهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا أَوْ سَاعِيًا [سَاعِيًا]، وَلَا عَلَّمْتُهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا)، فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسقٍ من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد [نحوه عند أبي داود/٢٦٢٠ والنسائي/٥٤٠٩]، وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: (مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرُ مُتَّخِذِ حُبْنَةٍ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ) الحديث [أخرجه الترمذي/١٢٨٩ وحسنه]، وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا، والله أعلم. أنه لا يزداد على ثلاث لقم، وقال سعيد بن جببر: غفور لما أكل من الحرام، رحيماً إذ أحل له الحرام في الاضطرار، وعن مسروق، قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ نَمًّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾؛ يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لثلاث تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نذر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النذر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ نَمًّا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق، ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرِبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ) [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم؛ لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم، ولا يزكيهم؛ أي: لا يثني عليهم بل يعذبهم عذاباً أليماً، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) [أخرجه مسلم]، ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾؛ أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذابٍ شديدٍ عظيم هائل، يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال، عياداً بالله من ذلك، وقيل معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾؛ أي: فما أَدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتبناهم أمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِهَدْيِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّادِقِينَ فِي الْبُيُوتِ وَالضَّرَاءَ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيم وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ﷻ، وامتنال أوامره، والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وعن ابن عباس في هذه الآية: ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها، وروي عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل، وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله؛ وقال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله ﷻ، وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها، وقال الثوري: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية قال: هذه أنواع البر كلها، وصدق ﷻ، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﷻ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير، واشتملت

على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله: ﴿وَعَائِ آَلَمَال عَلَىٰ حِيَةٍ﴾؛ أي: أخرجه وهو مُحِبٌّ له رَاغِبٌ فيه، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ١٣٥٣ ومسلم/ ١٠٣٢] من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْغَنَى، وَتَخْشَى الْفَقْرَ).

قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ السَّامِعَ عَلَىٰ حِيَةٍ مَسْكِينًا وَنَبِيًّا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا [الإنسان: ٨، ٩]، وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم أثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوبون له، وقوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطي من الصدقة، كما ثبت في الحديث: (الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ) [أخرجه النسائي/ ٢٣٦٣، وابن ماجه/ ١٨٤٤ والترمذي/ ٦٥٨ وقال: حديث حسن]، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابه العزيز: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكنائهم، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وختلتهم، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: (لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ) [البخاري قريباً منه/ ٤٢٦٥ ومسلم/ ١٠٣٩].

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال ابن عباس: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن [وغيرهم].

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَائِ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، وقوله: ﴿وَعَائِ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس، وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [الشمس: ٩، ١٠]، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين، إنما هو التطوع والبر والصلة، وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْمُنَ﴾ [الرعد: ٢٠]، وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في

الحديث: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ) [البخاري/ ٣٣ ومسلم/ ٥٩]، وفي الحديث الآخر: (إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) [البخاري/ ٣٤ ومسلم/ ٥٨].

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾؛ أي: في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾؛ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم، وإنما نُصب ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأْوِيلُ الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حرّم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يُفادي بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفرًا وبغيًا، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأْوِيلُ الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾. [وقوله]: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ منها منسوخة نسختها ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسأؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونسأؤهم، وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾.

مسألة: مذهب أبي حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوري، وهو مروي عن علي، وابن مسعود، [وجماعة]، وقال البخاري، وإبراهيم النخعي، [وغيرهما]: ويقتل السيد بعبد، لعموم حديث الحسن عن سمرة (وَمَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلَنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ، وَمَنْ خَصَّاهُ خَصَيْنَاهُ) [أخرجه أبو داود/ ٤٥١٥ - ٤٥١٦ والترمذي/ ١٤١٤ وقال: حسن غريب]،

وخالفهم الجمهور فقالوا: لا يقتل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، وأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق أولى.

وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، لما ثبت في البخاري [٢٨٨٢] عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ) ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة، ولقوله ﷺ: (الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُونَ دِمَاؤُهُمْ) [أخرجه أبو داود/ ٢٧٥١ والنسائي بلفظ (المؤمنون)/ ٨٦٨١، وابن ماجه ٢٦٨٣، وهو حسن]، وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

مسألة: ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر بن الخطاب في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم [البيهقي/ ٣٠٠٥]، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال ابن عباس: فالعفو أن يقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهم]، وقال ابن عباس أيضاً: فمن ترك له من أخيه شيء؛ يعني: بعد أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو، ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية، ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾؛ يعني: من القاتل من غير ضرر، وعن ابن عباس: ويؤدي المطلوب بإحسان، وكذا قال سعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهما].

مسألة: قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي في أحد قولي: ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل، وقال الباقر: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن، وقتادة، [وغيرهما]، وخالفهم الباقر.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال ابن عباس: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، وقال قتادة: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أورش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأورش، وهكذا روي عن سعيد بن جبير، [وغيره] نحو هذا.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، وكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، [وغيرهم]: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية، **وقوله:** ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ يقول تعالى: وفي شرع

القصاص لكم، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المُهَجِ وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة: القتل أنقى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل، وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهم]، ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ لَمَّا كُمُ تَتَفُونُ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والتهى، لعلمكم تنزجرون فتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْفِقِينَ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنبَأَ إِمَامَهُ عَلَى النَّبِيِّ بَدْلُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٣).

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، قد كان ذلك واجباً على أصح القولين قل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل منه الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ) [أخرجه النسائي/٦٤٦٨ والترمذي/٢١٢٠ وقال: حسن صحيح وابن ماجه/٢٧١٣].

وعن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبين ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت، وروي عن ابن عمر، وأبي موسى، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، [وغيرهم]: أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث. قال [الرازي ومن المفسرين] من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية؛ لأن الأقربين أعم ممن يرث وممن لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عُيِّنَ له، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت نذراً حتى نُسخت، فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع، بل منهى عنه للحديث المتقدم: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ) فآية الميراث حكم مستقل، ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، رفع بها

حُكْمُ هذه بالكلية، وبقي الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصى لهم من الثلث استثنائاً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٥٨٧ ومسلم/١٦٢٧] عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا حَقُّ أَمْرِي مُسْلِمٌ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لِبَنَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ).

قال ابن عمر: ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي، والآيات والأحاديث بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً.

وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ أي: مالا، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم، ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثه، ومنهم من قال: إنما يُوصي إذا ترك مالا جزيلاً، ثم اختلفوا في مقداره، روى ابن أبي حاتم [١٦٠٢] عن عروة قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص؟ قال: ليس بشيء إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وعن ابن عباس: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً [تفسير ابن أبي حاتم/١٦٠٣]، وقال طاوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً، وقال قتادة: كان يقال: ألفاً فما فوقها، وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالرفق والإحسان. عن الحسن، قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فقال: نعم، الوصية حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر، والمراد بالمعروف: أن يوصي لأقربيه وصية لا تحجف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣٧٢١ ومسلم/١٦٢٨] أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: (لَا) قال: فبالشطر؟ قال: (لَا) قال: فالثلث؟ قال: (الثلث، والثلث كثير؛ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُ أَغْنِيَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ)، وفي «صحيح البخاري» [٢٥٩٢] أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: (الثلث، والثلث كثير).

وقوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرّفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليمٌ بذلك وبما بدّله الموصي إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ قال ابن عباس: وأبو العالية، ومجاهد، [وغيرهم]: الجَنَفُ: الخطأ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخططاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللموصي والحالة هذه، أن يصلح القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق، ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف

هذا على النهي عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم، وأحسن ما ورد في هذا الباب ما جاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافٍ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ). قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] [رواه ابن ماجه/ ٢٧٠٤ والترمذي/ ٢١٣٧ وقال: حسن صحيح].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن نَّصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة وأمرًا لهم بالصيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله ﷻ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيهم أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٧٧٨ ومسلم قريبًا منه/ ١٤٠٠]: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه، وقد روي أن الصيام كان أولًا كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وزاد: لم يزل هذا مشروعًا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. [وروي] عن الحسن البصري: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فقال: نعم، والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتب علينا شهرًا كاملاً، وأيامًا معدودات: عددًا معلومًا، وروي عن السدي نحوه. وعن ابن عباس: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ يعني: بذلك أهل الكتاب، وروي عن الشعبي، والسدي، وعطاء الخراساني مثله، ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما بل

يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام آخر، وأما الصحيح المقيم الذي يطبق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وروى الإمام أحمد [٢٢١٧٧] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فإن رسول الله ﷺ، قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله ﷻ أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حالان، قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صِرْمَةٌ، كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله وقد جهد جهداً شديداً، فقال: (مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهِدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا؟) قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت صائماً، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿ثُمَّ آمَنُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] [أحمد/٢٢١٧٧] وأخرجه أبو داود في سننه [نحوه برقم: ٢٣١٤]، والحاكم في مستدركه [برقم: ٣٠٨٥] وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ولهذه الأحوال ما يؤيدها في الصحيح، وقد أخرج البخاري [٤٢٣٢] ومسلم [١١٢٥] عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان، كان من شاء صام ومن شاء أفطر، وروى البخاري عن ابن عمر [٤٢٣١] وابن مسعود [٤٢٣٣] مثله.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ رضي الله عنه: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، وهكذا روى البخاري [في ترجمة الباب/٣٨ من كتاب الصوم] عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها، وروى أيضاً [البخاري/١٨٤٨] عن ابن عمر قال: هي منسوخة، وعن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: يقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾؛ أي: يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وروى البخاري [٤٢٣٥] عن ابن عباس: [أنه كان] يقرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا، وعن ابن أبي ليلى، قال: دخلت على عطاء في رمضان وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينًا، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينًا وأفطر.

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حالٌ يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها وهو أحد قولي الشافعي، والثاني: وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطُوقُونَهُ﴾؛ أي: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري [ترجمة باب قوله: ﴿أَيَّامٌ مَعْدُودَاتٌ﴾]، فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس بعد أن كبر عامًا أو عامين كل يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا، وأفطر، ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: تفطران وتفديان وتقضيان، وقيل: تفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فدية، وقيل: تفطران ولا فدية ولا قضاء.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، وأما الصحف والتوراة والزيور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ثم نزل بعده مفرقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس، ففي رواية عكرمة عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُحدثُ لنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل

يَخَاصِمُونَ بِهِ إِلَّا جَاءَهُمُ اللَّهُ بِجَوَابِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۖ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣] [ذكر في المستدرک نحوه/ ٣٧٨١].

وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ هذا مدحٌ للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: دلائل وحجج بيّنة واضحة جلية لمن فهمها وتدبّرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام.

وقوله: ﴿مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا إيجابٌ حتمٌ على من شهد استهلال الشهر؛ أي: كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيحٌ في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء، فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ معناه: ومن كان به مرضٌ في بدنه يشقُّ عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر؛ أي: في حال سفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾؛ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيرا عليكم ورحمة بكم.

وها هنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

[منها]: ذهب [جمع] من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: «فَمَا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ، فَلَمْ يَعِْبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ» [نحوه عند مسلم/ ١١١٦]، لو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائما لما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ١٨٤٣ ومسلم/ ١١٢٢] عن أبي الدرداء، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديدٍ حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة.

[ومنها]: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل أخذًا بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: (مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنَ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ) [أخرج مسلم نحوه/ ١١٢١]، وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إنني كثير الصيام أفأصوم في السفر؟ فقال: (إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ)، وهو في «الصحيحين» [البخاري/ ١٨٤١ ومسلم/ ١١٢١]، وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا قد طُلِّلَ عليه فقال: (مَا هَذَا؟) قالوا: صائم، فقال: (لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّيَامُ فِي السَّفَرِ) [أخرجه البخاري/ ١٨٤٤ ومسلم نحوه/ ١١١٥]، فأما إن رغب

عن السُّنَّةِ ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه.

[ومنها]: القضاء هل يجب متتابعًا أو يجوز فيه التفريق، فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التتابع؛ لأن القضاء يحكى الأداء. والثاني: لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيام عدّة ما أفطر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

عن أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: (يَسْرُوا وَلَا تَعْسَرُوا، وَسَكُنُوا وَلَا تُتَفَرَّوْا) [البخاري/ ٥٧٧٣ ومسلم/ ١٧٣٤]، ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾؛ أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم، وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا اللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ﴾؛ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ولهذا جاءت السُّنَّةُ باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: «ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير» [البخاري نحوه/ ٨٠٦ ومسلم/ ٥٨٣]، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾ حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾، وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يُشْرَعُ التكبير في عيد الفطر، والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: إذا قمت بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

عن عطاء أنه بلغه لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وروى الإمام أحمد [١٩٦١٤] عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاةٍ، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا، ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَرْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِي. يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ،

أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) [وأخرج البخاري نحوه/ ٦٠٢١ ومسلم/ ٢٧٠٤]، وروى الإمام أحمد [١٠٩٨٩] عن أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللَّهُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ) [وسنده ثقات وعلقه البخاري مجزئاً به].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون ﷺ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، وفيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، وروى الإمام أحمد [١١١٤٩] عن أبي سعيد [الخدري]: أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِيْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يَعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّوْءِ مِثْلَهَا) قالوا: إذا نكث؟ قال: (اللَّهُ أَكْثَرُ) [رجاله ثقات]، وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي) [البخاري/ ٥٩٨١ ومسلم/ ٢٧٣٥]، وهذا لفظ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وأثابه الجنة، وروى مسلم [٢٧٣٥] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: (لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِيْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ) قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: (يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجَابْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ)، وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاداً إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر.

روى ابن ماجه [١٧٥٣] عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةً مَا تُرَدُّ). قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي. [وهو حسن بشواهد]، وفي مسند الإمام أحمد [٨٠٣٠] وسُنَنُ التِّرْمِذِيِّ [٢٥٢٦] والنسائي، وابن ماجه [١٧٥٢] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْعَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ) [وقال الترمذي: حسن].

﴿حُلِّ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ أَلْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْإِلِّ وَلَا تَبْشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [١٨٧].

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفَّعَ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك،

فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، والرفث هنا هو: الجماع. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن وقتادة، [وغيرهم].

وقوله: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم]: يعني: هنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن، وقال الربيع بن أنس: هنَّ لحافٌ لكم وأنتم لحافٌ لهن، وحاصله: أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخس لهم في المجامعة في ليل رمضان لثلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا.

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، وروى البخاري [٤٢٣٨] عن البراء، قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجالٌ يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ وعن ابن عباس، قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء، حُرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾، وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، [وغيرهما] في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِرْمَةِ بن قيس، فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمةً ورخصةً ورفقًا.

وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: يعني: الولد: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: الجماع، وعن ابن عباس: قال: ليلة القدر، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم، وعن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَابْتَغُوا﴾ أو «اتبعوا»؟ قال: أيتها شئت، عليك بالقراءة الأولى، واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله.

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ آتِلٍ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري [١٨١٨] عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ وكان رجالاً، إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار، وروى الإمام أحمد [١٩٣٨٩] عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين: أحدهما: أسود، والآخر: أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما،

فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله فأخبرته بالذي صنعت، فقال: (إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ) [البخاري نحوه/ ٤٢٣٩]، ومعنى قوله: (إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ)؛ أي: إن كان ليسع لوضع الخيطين: الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب، وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور. ففي «الصحيحين» [البخاري/ ١٨٢٣ ومسلم/ ١٠٩٥] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَتًا)، وفي «صحيح مسلم» [١٠٩٦] عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ فَصْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ)، وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة ماء تشبهًا بالأكليين، ويستحب تأخيرها إلى وقت انفجار الفجر، كما في «الصحيحين» [البخاري/ ١٨٢١ ومسلم/ ١٠٩٧] عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية، وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف، أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر. روي مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وعن طائفة كثيرة من التابعين، وقد ورد في «الصحيحين» عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (لَا يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ) [نحوه عند البخاري/ ١٨١٩ ونحوه عند مسلم/ ١٠٩٢]، وعن عطاء: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئًا، ولكن الفجر الذي يستبين على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب، وقال عطاء: فأما إذا سطع سطوعًا في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولًا، فإنه لا يحرم به شراب الصائم ولا صلاة، ولا يفوت به الحج، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج، وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله.

مسألة: ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُستدل على أنه من أصبح جنبًا فليغتسل، وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا، لما رواه البخاري [١٨٢٥] ومسلم [١١٠٩] من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضي.

وقوله: ﴿ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكمًا شرعيًا، كما جاء في «الصحيحين» [البخاري/ ١٨٥٣ ومسلم/ ١١٠٠] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ)، وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا

الْفِطْرُ) أخرجه أيضًا [البخاري/ ١٨٥٦ ومسلم/ ١٠٩٨]، وروى الإمام أحمد [٧٢٤٠] والترمذي [٧٠٠] وحسنه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا).

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر ولا يأكل بينهما شيئاً، روى الإمام أحمد [٧٧٧٣] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تُوَاصِلُوا) قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال: (فَإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي). قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: (لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُكُمْ) كَالْمُنْكَلْ بِهِمْ، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمةً لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: (إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي) [البخاري/ ١٨٦٣ ومسلم/ ١١٠٥]، فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويُعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر:

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغُلُهَا عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ

وأما من أحب أن يُمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تُوَاصِلُوا، فَإِيَّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحْرِ) [البخاري/ ١٨٦٢].

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف: أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضةً لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة، والله أعلم، ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد؛ أي: من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: رَحْمَةً لَهُمْ، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه؛ لأنهم كانوا يجدون قوةً عليه، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفتطرون على السمن والصبّر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً، وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم.

وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُ وَجْهَكَ عَنْ قِبَلِ الْمَسْجِدِ﴾ عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه، وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَيِّرُ وَجْهَكَ عَنْ قِبَلِ الْمَسْجِدِ﴾؛ أي: لا تقربوهن ما دمت عاكفين في المسجد ولا في غيره، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية، قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل قالوا: لا يقربها وهو معتكف، وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن

المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مارٌّ في طريقه، والفقهاء المصنفون يُتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم، وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشادٌ وتنبيهٌ على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله ﷻ، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه [البخاري/١٩٢٢ ومسلم/١١٧٢] من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيلٍ ومعانقةٍ ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٩٢ ومسلم/نحوه/٢٩٧] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يديني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارة.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا الذي بيناه، وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرمناه، وذكر غاياته ورخصه وعزائمه. حدود الله؛ أي: شرعها الله وبينها بنفسه، ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾؛ أي: لا تجاوزوها وتعتدوها، وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: المباشرة في الاعتكاف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ - حتى بلغ - ﴿ثُمَّ أَمِنُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾ قال: وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ﴾؛ أي: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَقْنُتُوا﴾؛ أي: يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِإِلَافٍ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيعة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه أثم أكل الحرام، وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جببر، وقتادة، والسدي، [وغيرهم] أنهم قالوا: لا تُخاصم وأنت تعلم أنك ظالم، وقد ورد في «الصحيحين» عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: (أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخِصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا، أَوْ لِيَذْرِهَا) [البخاري/نحوه/٦٧٤٨ ومسلم/١٧١٣]، فدلّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس

الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو يلزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم، قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً ولا يُحقُّ لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضي له بباطل أن خصومته لم تَنقُضْ حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩).

عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ يعلمون بها حلَّ دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم، وعن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله ﷺ لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم، كذا روي عن عطاء، وقاتدة، [وغيرهما] نحو ذلك؛ وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: (جَعَلَ اللَّهُ الْأَهْلَةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ فَصُومُوا لِرُؤْيَيْهِ وَأَفْطَرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا) [رواه الحاكم/١٥٣٩ في مستدركه نحوه وهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه].

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ روى البخاري [٤٢٤٢] عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية، أتوا البيت من ظهره فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

وعن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفر، لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وعن جابر: كانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان، إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: (مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟) قال: رأيتك فعلته، ففعلت كما فعلت، فقال: (إِنِّي أَحْمَسُ)، قال له: فإن ديني دينك، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [أخرجه الحاكم/١٧٧٧ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي]، وكذا روي عن مجاهد، والزهري، وقاتدة، وإبراهيم النخعي، والسدي، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ أي: اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ غدا إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم بأعمالكم على التمام والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠)
 وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ
 الْعَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾.

عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله؛ أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾؛ أي: لتكون همتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قساصاً، وقد حكى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة: ﴿أُوذِيَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩]، وهو الأشهر وبه ورد الحديث.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المثلة، والغُلُول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء في «صحيح مسلم»، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا أصحاب الصوامع) [يلفظ قريب عند مسلم/ ١٧٣١].

وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٢٨٥١ ومسلم/ ١٧٤٤] عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان، وروى الإمام أحمد [٢٣٥٠٩] عن حذيفة قال: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا: واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرهما، قال: (إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ، قَاتَلَهُمْ أَهْلٌ تَجَبَّرَ وَعَدَاءٌ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ) هذا حديث حسن الإسناد؛ ومعناه:

أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ قال أبو مالك؛ أي: ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وقتادة [وغيرهم]: الشرك أشد من القتل.

وقوله: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما جاء في «الصحيحين»: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ، حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ) [نحوه عند البخاري/ ١٧٣٧ ومسلم/ ١٣٥٣]؛ يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة.

وقوله: ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: ولا تقتاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصيال، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذٍ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فإن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه، ثم أمر تعالى بقتال الكفار: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شرك قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم] ﴿وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ﴾؛ أي: يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٢٦٥٥ ومسلم/ ١٩٠٤] عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً؛ أي: ذلك في سبيل الله؟ فقال: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ١٣٣٥ ومسلم/ ٢١]: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ).

وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين، فكفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالمٌ ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: أن لا يُقاتل إلا من قاتل، أو يكون تقديره فإن انتهوا فقد تَخَلَّصُوا من الظلم وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله، وروى البخاري [٤٢٤٣] عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ

فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِمَّنْ أَعَدَّيَ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيَ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

عن ابن عباس، والسدي، وقتادة وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ، معتمرًا في سنة ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدّوه بمن معه من المسلمين، في ذي القعدة وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ وروى الإمام أحمد [١٤٦٢٣] عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام، إلا أن يُغزى ويُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناده صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، وهو مُحَيَّم بالحديبية أن عثمان قد قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفًا وأربعمائة تحت الشجرة، على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان، وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين، وتَحَصَّنَ فَلَهُم بِالطَّائِفِ، عَدَلَ إِلَيْهَا فَحَاصَرَهَا، ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يومًا كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفْتَحْ، ثم كر راجعًا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عُمرته هذه في ذي القعدة أيضًا، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿مِمَّنْ أَعَدَّيَ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيَ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين، كما قال: ﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿وَحَزَّوْا سِنَتَهُ سِنَتًا مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وعن ابن عباس أن قوله: ﴿مِمَّنْ أَعَدَّيَ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيَ عَلَيْكُمْ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد ردّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القصية وعزا ذلك إلى مجاهد رَحِمَهُ اللهُ، وقد أطلق هاهنا الاعتداء على الاقتصاص من باب المقابلة.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارًا بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

روى البخاري [٤٢٤٤] عن حذيفة: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة، وروى عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن [وغيرهم] نحو ذلك، وعن

أسلم أبي عمران قال: حمل رجلٌ من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرّقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نَجِيًّا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونَصْرِهِ، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا، فنقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود [٢٥١٢]، والترمذي [٢٩٧٢]، والنسائي [١١٠٢٩]، والحاكم في مستدركه [٢٤٣٤]، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وعن أبي إسحاق السبيعي، قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملت على العدو وحدي فقتلوني، أكنت ألقى بيدك إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿فَقَنْتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وإنما هذه في النفقة [أحمد/١٨٥٠٠]، وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجلٌ من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فَرَدَهُ، وقال عمرو: قال الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وعن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

وقال الحسن البصري: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: هو البخل، وعن النعمان بن بشير، في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ورؤي عن عبيدة السلماني والحسن وابن سيرين، وأبي قلابة نحو ذلك؛ يعني: نحو قول النعمان بن بشير، إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة؛ أي: يستكثر من الذنوب فيهلك، ولهذا رَوَى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله، وعن القُرظي، أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زادًا من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وعن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وذلك أن رجالًا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإذا أن يُقَطَّعَ بهم وإما كانوا عيالًا، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجالٌ من الجوع أو العطش أو من المشي، وقال لمن بيده فضل: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القُرْبَات ووجوه الطاعات، وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل

ذلك بأنه هلاكٌ ودمارٌ إن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعْيِهِ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦).

لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾؛ أي: صُدِّدْتُمْ عن الوصول إلى البيت، ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء، على أن الشروع في الحج والعمرة مُلْزِمٌ، وعن علي أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تُحْرِمَ من دويرة أهلك، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامهما أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة، قلت لو حُججت أو اعتمرت، وذلك يجزي، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره، وقال مكحول: إتمامهما إنشاءهما جميعاً من الميقات، وعن الزهري، قال: بلغنا أن عمر قال في قول الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ من تمامهما أن تُفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج، إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وعن القاسم بن محمد قال: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة، فقليل له: فالعمرة في المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة، وكذا روي عن قتادة بن دعامه رحمهما الله، وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ، اعتمر أربع عُمَرٍ، كلها في ذي القعدة، عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر، وما اعتمر قط في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأُم سنان: (عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِيَ)، وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه ﷺ، فاعتاقت عن ذلك، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري [١٧٦٤].

وقال السدي في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؛ أي: أقيموا الحج والعمرة، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، يقول: من أحرم بحج أو بعمرة، فليس له أن يحل، حتى يتمهما تمام الحج، يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة، وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل، وقرأ الشعبي: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة، وروي عنه خلاف ذلك، وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة، أن

رسول الله ﷺ، جَمَعَ فِي إِحْرَامِهِ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ [أي: صحيح البخاري/١٥٥٧ ومسلم/١٢١١] أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: (مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُهْلِ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ)، وَقَالَ فِي «الصَّحِيحِ» [عند الحاكم/٦٥٩٨] أَيْضًا: (دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ؛ أَي: عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصةً أَنْ يَذْبَحُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ، وَكَانَ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ ﷺ أَنْ يَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا، فَلَمْ يَفْعَلُوا، فانتظارًا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قَصَرَ رَأْسَهُ وَلَمْ يَحْلِقْهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ) قَالُوا: وَالْمَقْصُرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: (وَالْمُقَصِّرِينَ) [مسلم/١٣٠١]، وَقَدْ كَانُوا اشْتَرَكُوا فِي هَدْيِهِمْ ذَلِكَ كُلُّ سَبْعَةٍ فِي بَدَنَةٍ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَكَانَ مَنْزِلُهُمْ بِالْحَدْيِيَّةِ خَارِجَ الْحَرَمِ، وَقِيلَ: بَلْ كَانُوا عَلَى طَرَفِ الْحَرَمِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلْ يَخْتَصُّ الْحَصْرُ بِالْعَدُوِّ فَلَا يَتَحَلَّلُ إِلَّا مِنْ حَصْرِهِ عَدُوًّا، لَا مَرَضٍ وَلَا غَيْرِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَا حَصْرَ إِلَّا حَصْرُ الْعَدُوِّ، فَأَمَّا مِنْ أَصَابِهِ مَرَضٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ ضَلَالٌ فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْنُ حَصْرًا، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو وَالزَّهْرِيِّ وَغَيْرِهِمَا نَحْوَ ذَلِكَ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْحَصْرَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْدُ أَوْ مَرَضٌ أَوْ ضَلَالٌ، وَهُوَ التَّوْهَانُ عَنِ الطَّرِيقِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، لَمَّا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ كُسِرَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ، وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى) قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَا: صَدَقَ [الحاكم/١٧٧٥]، وَأَخْرَجَهُ أَصْحَابُ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَلْقَمَةَ وَسَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدَ وَالنَّخْعِيَّ وَغَيْرَهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْإِحْصَارُ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ مَرَضٍ أَوْ كُسْرٍ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: الْإِحْصَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَذَاهُ، وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» [البخاري/٤٨٠١ ومسلم/١٢٠٧] عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى صُبَّاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ وَأَنَا شَاكِيَةٌ، فَقَالَ: (حُجِّي وَاشْتَرِطِي: أَنَّ مَجْلِي حَيْثُ حَبَسْتَنِي)، فَذَهَبَ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى صِحَّةِ الْإِحْصَارِ فِي الْحَجِّ لِهَذَا الْحَدِيثِ.

وقوله: ﴿فَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ﴿فَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ شَاةً، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْهَدْيُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ: مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعْزِ وَالضَّأْنِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قَالَ: شَاةً، وَكَذَا عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَالنَّخْعِيُّ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ الْجُمْهُورِ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ إِجْزَاءِ ذَبْحِ الشَّاةِ فِي الْإِحْصَارِ: أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ ذَبْحَ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ؛ أَي: مَهْمَا تَيْسَرَ مِمَّا يُسَمَّى هَدْيًا، وَالْهَدْيُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، كَمَا قَالَه الْحَبْرُ الْبَحْرُ تَرْجِمَانِ الْقُرْآنِ وَابْنُ عَمَرَ

رسول الله ﷺ، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/١٦١٤ ومسلم نحوه/١٣٢١] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرةً غنماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أَخْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير رضي الله عنه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حللوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارئاً، أو من فعل أحدهما إن كان منفرداً أو متمتعاً، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/١٤٩١ ومسلم/١٢٢٩] عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: (إِنِّي لَبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَحِلُّ حَتَّىٰ أَنْحَرَ).

وقوله: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ شُكٍّ﴾ عن كعب بن عجرة قال: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: (مَا كُنْتُ أَرَىٰ أَنَّ الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ هَذَا! أَمَا تَجِدُ شَاةً؟) قلت: لا، قال: (صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِّن طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ) فنزلت في خاصة وهي لكم عامة. [أخرجه البخاري/٤٢٤٥]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ شُكٍّ﴾ قال: إذا كان «أو» فأيه أخذت أجزأ عنك، وروي عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والنخعي [وغيرهم] نحو ذلك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة، وعامة العلماء أنه يُخَيَّرُ في هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدَّق بفرق، وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدَّان، وإن شاء ذبح شاةً وتصدق بها على الفقراء أي ذلك فعل أجزأه، ولكم أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل، فقال: (انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام) [أبو داود نحوه/١٨٦٠]، فكل حسن في مقامه، والله الحمد والمنة، وعن طاوس أنه كان يقول: ما كان من دمٍ أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء، وكذا قال عطاء ومجاهد والحسن.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول الله ﷺ وآخر يقول: قرَن، ولا خلاف أنه ساق الهدى.

وقال تعالى: ﴿فَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر، وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في «الصحيحين» [البخاري/٤٢٤٦ ومسلم نحوه/١٢٢٦] عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية التمتع في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ، ثم لم ينزل قرآنٌ يُحَرِّمُهَا، ولم يُنَّه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء، قال البخاري: يقال: إنه عمر،

وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام؛ يعني: قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها مُحَرِّمًا لها، إنما كان ينهى عنها لكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به رضي الله عنه.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج؛ أي: في أيام المناسك، قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء، أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله: ﴿فِي الْحَجِّ﴾ ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير، والسدي، وعطاء [وغيرهم]، وعن ابن عباس: إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث، فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وكذا جاء عن ابن عمر قال: يصوم يومًا قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضًا، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في «صحيح البخاري» [١٨٩٤]: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدى، إنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، وعن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج، صامهن أيام التشريق، والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق. لما رواه مسلم [١١٤١] إلا آخره عن نبیسة الهذلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ ﻋَظِيمٍ).
وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إذا رجعت في الطريق، ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق، وكذا قال عطاء بن أبي رباح. والقول الثاني: إذا رجعت إلى أوطانكم. قال ابن عمر: إذا رجع إلى أهله، وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد والحسن [وغيرهم]، وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع، وروى البخاري [١٦٠٦] ومسلم [١٢٢٧] عن ابن عمر قال: لما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ بِشَيْءٍ حَرَّمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيُطْفِئْ بِالنَّبْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلْيَقْصِرْ وَلْيَحْلُلْ ثُمَّ لِيَهْلِ بِالْحَجِّ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيُصِمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ)، وذكر تمام الحديث.

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، وقيل: معنى كاملة الأمر بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير، وقيل: معنى كاملة؛ أي: مجزئة عن الهدى، وعن الحسن البصري في قوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قال: من الهدى.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن غني بقوله: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل

الحرم معنيون به، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم، قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحرم، وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحدكم واديًا، أو قال: يجعل بينه وبين الحرم واديًا، ثم يهل بعمرة، [ونحوه لطاووس]، وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بيَّنه وبين المواقيت، فعن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع، [وعن مكحول مثله]، وقال الزهري: من كان أهله على يوم أو نحوه تَمَتَّعَ، وفي رواية عنه: اليوم واليومين، واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تُقَصِّرُ منها الصلاة؛ لأن من كان كذلك يعد حاضرًا لا مسافرًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيما أمركم وما نهاكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرُوهُا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقُتُوبَ وَاتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧).

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذاك صحيحًا والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسكين، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة، وذهب الشافعي رحمته الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عمرة؟ فيه قولان عنه، والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروى عن ابن عباس وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلّ على أنه لا يصح قبلها كميات الصلاة، وعن ابن عباس قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج. وهذا إسناد صحيح [عند الحاكم/١٦٤٢]، وقول الصحابي: (مِنَ السَّنَةِ كَذَا) في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيرًا للقرآن وهو ترجمانه.

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ قال ابن عمر: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة.

قلت: وهو مروى عن عمر وعلي، وابن مسعود وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخعي [وغيرهم]، وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل رحمهم الله، واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴿البقرة: ٢٠٣﴾ وإنما تعجل في يوم ونصف يوم، وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر أيضًا، وقد حكي هذا أيضًا عن طاوس ومجاهد، وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر. قال ابن جرير: وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمره في غير أشهر الحج أفضل من عمره في أشهر الحج.

قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما، أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَنْ فُضِّ فِيهِ مِنَ الْحَجِّ﴾؛ أي: أوجب بإحرامه حُجًّا، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض هاهنا الإيجاب والإلزام، وعن ابن عباس: ﴿فَمَنْ فُضِّ فِيهِ مِنَ الْحَجِّ﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمره، وقال عطاء: الفرض الإحرام، وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم، وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: ﴿فَمَنْ فُضِّ فِيهِ مِنَ الْحَجِّ﴾ فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض، ورؤي عن ابن مسعود، وابن عباس ومجاهد وغيرهم نحو ذلك، وقال طاوس والقاسم بن محمد: هو التلبية، وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾؛ أي: من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الْفِصَاكِ أَلْفَتْهُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء، وعن ابن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك، للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم، وعن محمد بن كعب مثله، وعن ابن عباس، أنه كان يحدو وهو محرم، وهو يقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَاهِمِيسَا إِنْ يَضْلُقِ الطَّيْرُ نَزِكَ لَمِيسَا

قال أبو العالية: فقلت: تكلم بالرفث وأنت محرم؟ قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء، وعن ابن عباس [أيضًا]: الرفث غشيان النساء والقبلة والعَمَز، وأن يُعَرَّضَ لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك، وكذا قال عطاء وطاوس ومجاهد والنخعي والحسن وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال ابن عباس: هي المعاصي، وكذا قال عطاء ومجاهد والحسن وغيرهم، وعن عبد الله بن عمر: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم، وقال آخرون: الفسوق هاهنا السباب، قاله ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومجاهد، والسدي، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٨ ومسلم/ ٦٤]: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق هاهنا الذبح للأصنام، قال الله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِعِزِّ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال الضحاك: الفسوق: التنازع بالألقاب، والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب،

كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد، ولهذا قال: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الْدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) [البخاري/ ١٧٢٤ ومسلم/ ١٣٥٠ بلفظ: رجع].

وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان، كما قال مجاهد: قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس.

وعن ابن عباس: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: المرء في الحج، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعي أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك، [وعن محمد بن كعب نحوه]، وعن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً، ويقول بعضهم: الحج اليوم، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحج، والله أعلم.

والقول الثاني: أن المراد بالجدال هاهنا المخاصمة، فعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه، وعن التميمي، سألت ابن عباس، عن الجدال، قال: المرء تماري صاحبك حتى تغضبه، وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وغير واحد، وعن عكرمة: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً تغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك إن شاء الله.

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً، **وقوله:** ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة، **وقوله:** ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِتِّكُ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة، يقولون: نَحْجُ بَيْتَ اللَّهِ وَلَا يَطْعَمُنَا؟ فقال الله: تَزَوَّدُوا ما يكف وجوهكم عن الناس، وعن عكرمة نحوه.

وفي البخاري [١٤٥١] عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِتِّكُ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾، وعن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِتِّكُ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ فَنُهِوا عَنْ ذَلِكَ وَأَمِرُوا أَنْ يَتَزَوَّدُوا الْكَعْكَعَ وَالْدَقِيقَ وَالسُّوْبِقَ، وكذا قال ابن الزبير، وأبو العالية، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي [وغيرهم].

وقوله: ﴿فَاِتِّكُ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسي تَبَّهَ مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خيرٌ من هذا وأنفع، قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَاِتِّكُ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾؛

يعني: زاد الآخرة، وقوله: ﴿وَأَتَقُونَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتني بأمر، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْفَضْلَيْنِ﴾ (١٩٨).

روى البخاري [٤٢٤٧] عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج.

وعن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده، وعن ابن عباس أنه كان يقرأ: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ) [ذكره البخاري/١٩٤٥]، وكذا عن ابن الزبير، وهكذا فسرها ابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والنخعي وغيرهم، وعن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا أناسٌ نُكْرَى في هذا الوجه إلى مكة، وإن أناسًا يزعمون أنه لا حج لنا، فهل ترى لنا حَجًّا؟ قال: أَلَسْتُمْ تُحْرِمُونَ، وتطوفون بالبيت وتقفون المناسك؟ قال: قلت: بلى، قال: (فَأَنْتُمْ حُجَّاجٌ)، ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مثل الذي سألت فلم يدر ما يعود عليه، أو قال: فلم يَرُدَّ عليه شيئًا حتى نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل فتلاها عليه، وقال: (أَنْتُمْ حُجَّاجٌ) [أخرجه ابن أبي حاتم/١٨٤٥، وابن خزيمة/٣٠٥١، وأحمد/٦٤٣٤ وسنده جيد].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إنما صُرف «عرفات» وإن كان علمًا على مؤنث؛ لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤنثات، سُمِّي به بقعة معينة فروعياً فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير، وعرفة: موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد [١٨٧٩٦] وأهل السنن بإسنادٍ صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الْحَجُّ عَرَفَاتٌ - ثَلَاثًا - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ، فَقَدْ أَدْرَكَ، وَأَيَّامٌ مِنِّي ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ)، ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: (لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ) [أخرجه مسلم/١٢٩٧ بلفظ قريب]، وقال في هذا الحديث: (فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ) وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي، رحمهم الله، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة، وحجته حديث عروة بن مَضَرَّس الطائي، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبل طيء، أكلت راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبلٍ إلا وقفت عليه،

فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: (مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَذْفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقَضَى تَفَتُّهُ) [رواه الإمام أحمد قريباً منه/ ١٦٢٥٣ وأهل السنن، وصححه الترمذي/ ٨٩١]، ثم قيل: إنما سميت عرفات لما جاء عن علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل ﷺ إلى إبراهيم ﷺ فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة، وروي نحوه عن ابن عباس، وابن عمر، وعطاء، وأبي مجلز، فالله أعلم، وتسمى عرفات المشعر الحرام، والمشعر الأقصى، وإلال على وزن هلال.

وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال؛ كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا، فأخبر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس، ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بغلَس، حتى إذا أسفر كل شيء، وكان في الوقت الآخر، دفع، وهذا حسن الإسناد، وعن المسور بن مخرمة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ - وَكَانَ إِذَا خَطَبَ خُطْبَةً قَالَ: أَمَّا بَعْدُ - فَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ الْحَجُّ الْأَكْبَرُ، أَلَا وَإِنَّ أَهْلَ الشَّرْكَ وَالْأَوْتَانِ كَانُوا يَذْفَعُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وَجْهِهَا، وَإِنَّا نَذْفَعُ بَعْدَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، وَكَانُوا يَذْفَعُونَ مِنَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بَعْدَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وَجْهِهَا، وَإِنَّا نَذْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، مُخَالِفًا هَذَا هَدْيِ أَهْلِ الشَّرْكَ) [أخرجه ابن مردويه وصححه الحاكم/ ٢٦٢٩].

وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذي في «صحيح مسلم» [١٢١٨]، قال فيه: «فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا - يُعْنِي بِعَرَفَةَ - حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ، وَأَرْدَفَتْ أَسَامَةَ خَلْفَهُ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَتَقَ لِلْقَصْوَاءِ الرَّمَامَ، حَتَّى إِنْ رَأَسَهَا لِيُصِيبُ مَوْرَكَ رَحْلِهِ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ كُلَّمَا أَتَى حَبْلًا مِنَ الْجِبَالِ أَرَخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصْعَدَ حَتَّى أَتَى الْمَزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَصَلَّى الْفَجْرَ، حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَا اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أُسْفِرَ جَدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ»، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ١٥٨٣ ومسلم/ ١٢٨٦] عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَعَ؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص، والعنق: هو انبساط السير، والنص فوقه، وعن سفيان بن عيينة قوله: ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين جميعًا، وعن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو، عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة، قال: أين السائل عن المشعر الحرام، هذا المشعر الحرام، وعن ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها، وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد [وغيرهم] أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين.

قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركنٌ في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفةٌ من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال، وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس؟ أو واجبٌ كما هو أحد قولي الشافعي يُجبر بدم؟ أو مستحبٌ لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم، عن جبير بن مطعم، عن النبي ﷺ، قال: (كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ عُرْنَةِ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسَّرٍ، وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مَنْحَرٍ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ) [أخرجه أحمد/ ١٦٧٩٧ ويصح بطرقه].

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ تنبيهٌ لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل ﷺ، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهدى: وقيل: القرآن، وقيل: الرسول، والكل متقاربٌ ومتلازمٌ وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩).

﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه؛ كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِلِّ، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وقُطَانِ بيته. [أخرج البخاري عن عائشة، قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَوْنَ الحُمسَ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدي وغيرهم، واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع، وروى البخاري من حديث ابن عباس: ما يقتضي أن المراد بالإفاضة هاهنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار، فالله أعلم، وحكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط، قال: والمراد بالناس إبراهيم ﷺ، قال ابن جرير: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في «صحيح مسلم» [٥٩١] أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٥٩٤٧] أنه نذب إلى التسييح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين، وروى البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ).

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكَ أَسْمَاءُ مَا أَقْرَبْتُمْ قَسَمَ اللَّهُ لَكُمْ أَنَّهُ لَكُمْ فِي الْأَخْيَارِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٠٢).

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها، وقوله: ﴿كَذِكْرُكُمْ﴾، أي: بذكرهم، كما يلهم الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجو بذكر الله بعد قضاء النسك، وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس، وروي عن ابن عباس نحوه، وعن ابن عباس أيضًا: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات [ويحمل الديات]. ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَازْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

وروي عن أنس بن مالك، وأبي وائل وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه وسعيد بن جبير، وعكرمة في أحد رواياته، ومجاهد [وغيرهم] نحو ذلك، والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله ﷻ؛ ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، و«أو» هاهنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، فليست هاهنا للشك قطعًا، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه، ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، ودَمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾؛ أي: من نصيب، وتضمن هذا الظم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك، فعن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللَّهُمَّ اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾، وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من

اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام، وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلبًا شاكراً، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووفي عذاب النار، ولهذا وردت السُّنة بالترغيب في هذا الدعاء، فروى البخاري [٤٢٥٠] عن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، [ورواه مسلم/ ٢٦٩٠ والإمام أحمد/ ١٢٠٠٠] [واللفظ له]

عن أنس، قال: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه، وخرج الحاكم عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ثم قال الحاكم [٣٠٩٩]: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ﴾.

قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر، وقال عكرمة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾؛ يعني: التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر، الله أكبر، وروى مسلم [١١٤١] والإمام أحمد [٢٠٧٤١] واللفظ له] عن نُبَيْشَةَ الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ)، وعن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: (هِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ) [روى أحمد نحوه/ ٧٠٨ من حديث علي كرم الله وجهه]، وقال مِقْسَم عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، وروى عن ابن عمر، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والنخعي، والحسن، وقتادة وغيرهم مثل ذلك.

وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده اذبح في أيهن شئت، وأفضلها أولها، والقول الأول هو المشهور، وعليه دلّ ظاهر الآية الكريمة حيث قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر، ويتعلق بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ ذكر الله على الأضاحي، والراجع في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق، ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال، وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النَّفَرِ الآخر، وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطني لكن لا يصح مرفوعاً، والله أعلم، وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته، فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترج منى

تكبيراً، ويتعلق بذلك أيضاً التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق، وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود [١٨٨٨] وغيره: (إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيِ الْجِمَارِ، لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ) [صحيح]، ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والموقف، قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [أي: تجتمعون يوم القيامة]، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلِكَ أَلْحَرْتُ وَالسَّلُّ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧).

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك، وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد، وهو الصحيح، وعن أبي معشر نجيج، قال: سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عبداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمَرَّ من الصبر، لبسوا للناس مُسَوِّك الضَّان من اللين، يَجْتَرُونَ الدنيا بالدين. قال الله تعالى: عليّ تجترئون وبني تغترون!، وعزتي لأبعثنّ عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية، فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية؟ فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد، وهذا الذي قاله القرظي، حسن صحيح.

وأما قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾؛ فمعناه: أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَحْفَوْنَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفَوْنَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] هذا معنى ما روى ابن عباس، وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ الألد في اللغة الأعوج، ﴿وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]؛ أي: عوجاً، وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب ويؤرّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) [البخاري بلفظ قريب/٣٠٠٧ ومسلم نحوه/٥٨]، وروى

البخاري [٢٣٢٥] عن عائشة ترفعه، قال: (أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصْمَ).

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَادَ﴾؛ أي: هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعي هاهنا هو القصد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِنَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]؛ أي: اقصدا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية: (إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ) [البخاري نحوه/ ٨٦٦ ومسلم/ ٦٠٢]، فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما، وقال مجاهد: إذا سعي في الأرض فسادًا، منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَادَ﴾؛ أي: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾؛ أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعله، وقيل له: اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم؛ أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادِرُونَ يَسْطُرُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ يَشْرُونَ ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسْأَلُ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ﴾؛ أي: هي كافية عقوبة في ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس، وأنس، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صُهيب بن سنان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر ففعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة، فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: (رَبِيعُ الْبَيْعِ صُهَيْبُ، رَبِيعُ الْبَيْعِ صُهَيْبُ) [أخرجه ابن سعد وأبو نعيم والحاكم/ ٥٧٠٥ وابن مردويه من طرق يشد بعضها بعضًا].

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مُجاهد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لِهَيِّئَةِ الْجَنَّةِ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب، وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾ [ذكره ابن أبي شيبة/ ١٩٤٣٩].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك.

عن ابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد في قوله: ﴿اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾؛ يعني: الإسلام، وعن ابن عباس، وأبي العالية، والربيع بن أنس: ﴿اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾؛ يعني: الطاعة، وقال قتادة أيضاً: الموادة.

وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك [وغيرهم]: جميعاً، وقال مجاهد: أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿كَآفَّةً﴾ حالاً من الداخلين؛ أي: ادخلوا في الإسلام كلكم والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها.

وعن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ كذا قرأها بالنصب؛ يعني: مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

قال مطرف: أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان.

وقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز؛ أي: في انتقامه، لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب. حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه؛ ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نعمته، حكيم في أمره، وقال محمد بن إسحاق: العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم في عذره وحجته إلى عباده.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُصِيَ الْأُمُورُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠).

يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾؛ يعني: يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين،

فيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَكُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: (يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ، قِيَامًا شَاطِئَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَضْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ) [الطبراني/٩٧٦٣ وحسن الذهبي إسناده]، وعن مجاهد: ﴿فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ قال: هو غير السحاب. ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا، وعن أبي العالية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَكُ﴾ يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء، وهي في بعض القراءات: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَكُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ» وهي كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ وَغَمَمٌ وَرَزَقٌ مِنَ السَّمَاءِ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

يقول تعالى مُخْبِرًا عن بني إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى من آية بينة؛ أي: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كَيْدِهِ وَعَصَاهُ وَفَلَقَهُ الْبَحْرَ وَضَرْبَهُ الْحَجَرَ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المَنَّ والسُّلُوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفرًا؛ أي: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها. ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كما قال تعالى إخبارًا عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢١١﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَاقَ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها، مما يُرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: يزرق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلًا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: (ابْنُ آدَمَ، أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ) [البخاري/٥٠٣٧ ومسلم/٩٩٣]، وقال النبي ﷺ: (أَنْفَقَ بِلَالٌ وَلَا تَخْشَى مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَالًا) [أخرجه الطبراني/١٠٢٥ وحسنه المنذري وابن حجر]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفي «الصحيح»: (أَنَّ مَلَكَ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا)

[البخاري نحوه/ ١٣٧٤ مسلم/ ١٠١٠]، وفي «صحيح [مسلم] [٢٩٥٩]»: (يقول: ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي! وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْتَيْتَ، وَمَا لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، وَمَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا»، وعن أبي بن كعب أنه كان يقرأها «كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، وعن قتادة في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً، فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول نبي بعث نوح، وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً، وروي عن ابن عباس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: كانوا كفاراً ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وعن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ قال: قال النبي ﷺ: (نَحْنُ الْأَخِيرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّنَاتُ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأَوْتِنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، فَعَدَا لِلْيَهُودِ، وَبَعَدَ عَدٍ لِلنَّصَارَى) [البخاري/ ٨٥٦ مسلم/ ٨٥٥]، وعن زيد بن أسلم في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فاختلَفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة، واختلَفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة، واختلَفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلَفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلَفوا في

إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت النصارى: كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك.

وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون، أن أرسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم، وفي قراءة أبي بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»، وكان أبو العالية يقول في هذه الآية: المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله: ﴿بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: بعلمه بهم وبما هداهم له، قاله ابن جرير ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: وله الحكمة والحجة البالغة، وفي «صحيح مسلم» [٧٧٠] عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: (اللَّهُمَّ، رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، وفي الدعاء المأثور: (اللَّهُمَّ، أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا، وَارْزُقْنَا تَبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَوَفَّقْنَا لَاجْتِنَائِهِ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبِسًا عَلَيْنَا فَتَضِلَّ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤).

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبْتَلُوا وتُخْتَبَرُوا وتُمْتَحَنُوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب. قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة ومرة الهمداني والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حيان ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ الفقر.

قال ابن عباس: ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ السقم. ﴿وَزُلْزَلُوا﴾ خوفًا من الأعداء زلزالًا شديدًا، وامْتَحَنُوا امتحانًا عظيمًا، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الارت، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: (إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوَضَّعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخْلَصُ إِلَى قَدَمَيْهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ)، ثم قال: (وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ

صَنَعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ) [أخرجه البخاري بلفظ قريب/٣٦٣٩]. وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُقُولُونَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِمْ فَتَتَذَكَّرُ الْآيَةُ الَّتِي أَنْذَرْتُمْ﴾ [١]. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْصِكُمْ مِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِمَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٢]، ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل بُتِلَى ثم تكون لها العاقبة. [أخرجه البخاري].

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: سنتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ؟﴾؛ أي: يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [١٥٥].

قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع. وقال السدي: نسختها الزكاة، وفيه نظر ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس، ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: اصرفوها في هذه الوجوه، كما جاء الحديث: (أُمُّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ) [أخرجه النسائي/٢٣١١، وأبو داود نحوه/٥١٤٠، وأحمد/٧١٥٥ وسنده صحيح]، وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طيلاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؛ أي: مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٥٦].

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام، وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزاً أو قعداً، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استُعِث أن يُغِيث، وإذا استُنْفِر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد.

قلت: ولهذا ثبت في «صحيح [مسلم] [بلفظ قريب/١٩١٠]: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)، وقال ﷺ يوم الفتح: (لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، إِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَأَنْفِرُوا) [البخاري/١٧٣٧ ومسلم/١٨٦٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾؛ أي: شديد عليكم ومشقة، وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالد الأعداء، ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم، ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَحْرِ الْفَحْرِ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْأَحَرِّ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَأُونَ يَنْفِلُوكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

عن ابن عباس، وعن ابن مسعود: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَحْرِ الْفَحْرِ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية، وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله البربوعي حليف لعمر بن الخطاب، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن ملل فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه: (أَنْ سِرَ حَتَّى تَنْزَلَ بَطْنُ نَخْلَةٍ) فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإنني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فسار، فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة، أضلا راحلة لهما فتخلفا فأتيا بحران يطلبانها، سار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعمرو بن الحضرمي وعبد الله بن المغيرة، وانفلت ابن المغيرة فأسروا الحكم بن كيسان والمغيرة وقتل عمرو، قتله واقد بن عبد الله، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبي ﷺ: (حَتَّى نَنْظُرَ مَا فَعَلَ صَاحِبَانَا) فلما رجع سعد وصاحبه، فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب، فقال

المسلمون: إنما قتلناه في جمادى، وقيل في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى، وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب، وأنزل الله يُعَيِّرُ أَهْلَ مَكَّةَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ لا يحل، وما صنعتُم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عنه محمدًا ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمدًا ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله. [إسناده حسن]، [ونحوه عن ابن عباس وابن إسحاق مطولاً].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا، وهكذا رواه أبو داود [٦٣٧٠] والترمذي [٣٠٤٩] وصححه والنسائي [٥٥٤٠].

فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أما الخمر، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كل ما خامر العقل، كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر وهو القمار.

وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيد بعض الأذهان ولذة الشدة المطربة التي فيها، وكذا بيعها والانتفاع بشمنها، وما كان يُقَمِّشُهُ بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، ولهذا كانت هذه الآية مهمة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِلَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه

الثقة. قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر.

قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عن ابن عباس ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾ قال: ما يفضل عن أهلك، وكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وعطاء، والحسن، والربيع بن أنس وغير واحد، أنهم قالوا في قوله: ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾؟ يعني: الفضل، وعن طاوس: اليسير من كل شيء، وعن الربيع أيضًا: أفضل مالك وأطيبه، والكل يرجع إلى الفضل، وعن الحسن قال: ذلك ألا تجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس، ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير [الطبري ٣٦٦/٢] عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار؟ قال: (أَنْفَقْهُ عَلَى نَفْسِكَ) قال: عندي آخر؟ قال: (أَنْفَقْهُ عَلَى أَهْلِكَ) قال: عندي آخر؟ قال: (أَنْفَقْهُ عَلَى وَلَدِكَ) قال: عندي آخر؟ قال: (فَأَنْتَ أَبْصَرُ)، وقد رواه مسلم في «صحيحه»، وأخرج مسلم [٩٩٧] أيضًا عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: (ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا)، وعنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرٍ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ) [١٠٣٤]، وفي الحديث أيضًا: (ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَبَدَّلَ الْفَضْلُ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكُهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامَ عَلَى كَفَافٍ) [أخرجه مسلم/١٠٣٦]، ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة، كما روي عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراساني، والسدي، وقيل: مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعدته ووعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة، عن ابن عباس: يعني: في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها، وعن الحسن قال: هي والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء، وهكذا قال قتادة، وابن جريج وغيرهما، وعن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا، فأثروا الآخرة على الأولى.

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَخَذْتُمْ وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُنْفِسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتُكُمْ﴾ الآية: روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَامَى إِلَّا بِالْيَتَمَى﴾ [الإسراء: ٣٤]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَخَذْتُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم، ورواه أبو داود

[٢٨٧١]، والنسائي [نحوه/٦٤٩٧]، والحاكم في «مستدرکه» [٢٤٩٩] [وصححه]، وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبي، وابن أبي ليلى، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي عُرةً، حتى أخلط طعامه بطعامي، وشرابه بشرابي.

فقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ خَيْرٌ﴾؛ أي: على حدة، ﴿وَأَنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾؛ أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾؛ أي: يعلم مَنْ قُضِدَ ونيته الإفساد أو الإصلاح.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وَسَّعَ عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتّي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّى مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ [المائدة: ٥].

عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وهكذا قال مجاهد والحسن وزيد بن أسلم وغيرهم، وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يُرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. قال أبو جعفر بن جرير رحمته الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك لثلاث يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني، فعن شقيق، قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أنزعم أنها حرام، فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن، وهذا إسناده صحيح، وعن زيد بن وهب، قال: قال عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة [الطبري ٣٧٨/٢]، قال: وهذا أصح إسناداً من الأول، وعن ابن عمر، أنه كره نكاح أهل الكتاب، وسئل أحمد بن حنبل عن قول الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام.

وقوله: ﴿وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّى مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٤٨٠٢ ومسلم/١٤٦٦] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (تَنْكِحُ الْمَرْءَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا

وَلَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا؛ فَأَظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ)، ولمسلم عن جابر مثله [٧١٥]، وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) [مسلم/١٤٦٧].
 وقوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾؛ أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ [الممتحنة: ١٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾؛ أي: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سريراً ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: معاشرتهم ومخالطتهم، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: بشره وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُتَيْنُ عَائِيَتَهُ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾
 نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكَلَّفُوهُ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

روى الإمام أحمد [١٢٣٧٦] عن أنس، أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي النبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ: (اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ)، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما، ورواه مسلم.

فقوله: ﴿فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾؛ يعني: في الفرج، لقوله: (اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ)؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج، فعن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً. [أخرجه أبو داود وهو صحيح الإسناد].

وأخرج ابن جرير [في تفسيره ٣٨٣/٢] عن مسروق أنه قال لعائشة رضي الله عنها: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحيي، فقالت: إنما أنا أمك وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت له: كل شيء إلا فرجها، وهذا قول ابن عباس ومجاهد، والحسن، وعكرمة، وعن عائشة [أيضاً] قالت له: ما فوق الإزار. قلت: ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ، يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن [مسلم/٣٠١]، وفي «صحيح [مسلم] [٣٠٠]» عنها، قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب

الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه، وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في «الصححين» [البخاري/٢٩٧ ومسلم نحوه/٢٩٤] عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتترت وهي حائض، وهذا لفظ البخاري، ولهما عن عائشة نحوه، والتعفف عن ذلك أفضل وهو رواية عن عائشة، وابن عباس، وسعيد بن المسيب وشريح.

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لثلاث يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله ﷻ الذي أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة في الفرج، ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه، وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض، يتصدق بدينار أو نصف دينار، وفي لفظ للترمذي [١٣٧]: (إِذَا كَانَ دَمًا أَحْمَرَ فِدِينَارًا، وَإِنْ كَانَ دَمًا أَصْفَرَ فَنِصْفُ دِينَارٍ) [وقال: قد روي عن ابن عباس موقوفًا ومرفوعًا]، وللإمام أحمد [٣٤٧٣] أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ، جعل في الحائض تصاب دينارًا، فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار. والقول الثاني: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي، وقول الجمهور: أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله ﷻ؛ لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روي مرفوعًا كما تقدم، وموقوفًا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَاعْتَرِلُوا الْبَسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجودًا، ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند؛ لأن هذا أمر بعد الحظر، والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدُّ عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجبًا، فواجب كقوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، أو مباحًا فمباح كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء. إلا أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللهُ يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده: أنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تنقصر إلى غسل، والله أعلم.

وقال ابن عباس: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾؛ أي: من الدم ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ أي: بالماء، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد وغيرهم.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني: الفرج، وقال

ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: أن تعتزلوهن، وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى، وقال أبو رزين، وعكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ يعني: طاهرات غير حِيض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾؛ أي: من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ أي: المنتهزين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأثي.

وقوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فَأَتَوْا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾؛ أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. روى البخاري عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ ورواه مسلم، وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: (حَرْثُكَ، أَنْتَ حَرْثُكَ أَنْتَ شِئْتَ، غَيْرَ إِلَّا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْمَمِيَةِ) الحديث، رواه أحمد [٢٠٠٥٧] وأهل السنن [وقال الترمذي: حسن].

وعن عبد الرحمن بن سابط، قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت: إني سائلك عن أمر واني أستحيي أن أسألك، قالت: فلا تستحي يا ابن أخي، قال: عن إتيان النساء في أدبارهن؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يَجُبُّونَ النساء وكانت اليهود تقول: إنه من جَبَّى امرأته، كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فجَبَّوهُنَّ، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ، استحث الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: ادعي «الأنصارية» فدُعِيَتْ، فتلا عليها هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (صِمَامًا وَاحِدًا)، رواه أحمد [٢٦٦٥٣] والترمذي [١١١٩] وقال: حسن. وعن ابن عباس، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله هلكت، قال: (مَا الَّذِي أَهْلَكَكَ؟) قال: حولت رحلي البارحة، قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة. [رواه أحمد/ ٢٧٠٣ والترمذي/ ٢٩٨٠ وقال: حسن غريب].

وعن نافع، قال: قرأت ذات يوم: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن، وهذا محمول على ما تقدم وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي [٨٩٧٨] عن أبي النضر، أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: إنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن، قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِّي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منها مثل ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمه، وكانت

نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿سَأَوْكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ وهذا إسناده صحيح، وقد رُوينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمته الله، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه، فعن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: (اسْتَحْيُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا يَحِلُّ مَا تَتَى النِّسَاءُ فِي حُشُوشِهِنَّ) [أخرجه الدارقطني/١٦٠ وله طرق كثيرة]، وعن طاووس، أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها، قال: تسألني عن الكفر. إسناده صحيح.

وروى الإمام أحمد [٦٩٦٧] عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ، قال: (الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ فِي دُبْرِهَا هِيَ اللَّوْطِيَّةُ الصُّغْرَى)، وقد روى هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله وهذا أصح، والله أعلم.

وعن علي بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن، فإن الله لا يستحي من الحق. [أخرجه أحمد/٢١٩٠٧ والترمذي وقال: حسن]، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي دُبْرِهَا) [أخرجه أحمد/٨٥١٣ وابن ماجه/١٩٢٣ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ) [أخرجه النسائي/٩٠١٠ وهو قابل للتحسين وروى عن عمر مرفوعاً والموقوف أصح].

وعن أبي جويرية، قال: سأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت، سفل الله بك! ألم تسمع قول الله ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] [البهقي/١٣٩٠٥]، وهو قول ابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه، فعن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدُّبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ [أخرجه الدارمي/١١٤٣] وهذا إسناده صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم.

وعن إسماعيل بن روح، سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدوا الفرج. قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون إنك تقول ذلك. قال: يكذبون علي يكذبون علي [ذكره في تاريخ دمشق ٣٢٤/٨]، فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن وغيرهم من السلف، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء.

وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك، وفي صحته عنه نظر.

فقد روى الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك، ولكن في الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك، فإله أعلم، وقال الطحاوي: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال. قال أبو نصر الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو، لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك؛ لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه، والله أعلم.

وقال القرطبي في «تفسيره»: وممن ينسب إليه هذا القول - هو إباحة وطء المرأة في دبرها - سعيد بن المسيب، ونافع، وابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك بن الماجشون. قال: وحكى الكيا الهراسي الطبري عن محمد بن كعب القرظي أنه استدل على جواز ذلك بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿الشعراء: ١٦٥، ١٦٦﴾.

يعني مثله من المباح ثم رده بأن المراد بذلك من خلق الله لهم من فروج النساء لا أدبارهن، قلت: وهذا هو الصواب وما قاله القرظي إن كان صحيحاً إليه فخطأ، وقد صنف الناس في هذه المسألة مصنفات منهم أبو العباس القرطبي وسمى كتابه إظهار إدبار من أجاز الوطء في الأدبار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾؛ أي: فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم، وعن ابن عباس: ﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع، وقد ثبت في «صحيح البخاري» [٦٩٦١] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، لَلَّهِمْ جَنَّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يَقْدَرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَقُولُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾.

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتكم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير، كما روى البخاري [٦٢٥٠] عن أبي هريرة

عن النبي ﷺ قال: (وَاللَّهُ لَأَنْ يَلْجَأَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ أَمَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ) [رواه مسلم/١٦٥٥].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وكذا قال مسروق ومجاهد، ومكحول، والحسن، والربيع بن أنس [وغيرهم] رحمهم الله، ويؤيد ما قاله الجمهور ما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٩٦٤ ومسلم/١٦٤٩] عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا)، وثبت فيهما أيضًا أن رسول الله ﷺ، قال لعبد الرحمن بن سمره: (إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ) [البخاري/٦٣٤٣]، وروى ابن جرير، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا: لا يمين في معصية ولا كفارة عليها.

وقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾؛ أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللغوية، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٥٧٥٦ ومسلم/١٦٤٧] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: (مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حِلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية، وفي الآية الأخرى: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وعن عائشة في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] قالت: لا والله، بلى والله وقالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، بلى والله، وكلا والله، يتدارؤون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم، وروى عن ابن عمر، وابن عباس في أحد قوليه، والشعبي، وعكرمة في أحد قوليه وعطاء، والقاسم بن محمد، ومجاهد في أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبي صالح والضحاك في أحد قوليه، وأبي قلابة والزهري نحو ذلك.

والوجه الثاني: عن عائشة [أيضًا] أنها كانت تتأول هذه الآية؛ يعني: قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه، وروى عن أبي هريرة، وابن عباس في أحد قوليه، وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد في أحد قوليه، وإبراهيم النخعي في أحد قوليه، والحسن وزرارة بن أوفى وأبي مالك وعطاء الخراساني وبكر بن عبد الله، وأحد قوليه عكرمة، وحبيب بن أبي ثابت والسدي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد وربيعه نحو ذلك.

وعن الحسن بن أبي الحسن قال: مر رسول الله ﷺ بقوم يتنصلون؛ يعني: يرمون، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله،

فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله، قال: (كَلَّا، أَيْمَانُ الرُّمَةِ لَعُو لَا كَفَّارَةٌ فِيهَا وَلَا عُقُوبَةٌ) [المعجم الصغير/١١٥١] هذا مرسل حسن عن الحسن، وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عائشة القولان جميعاً، فعن عائشة، قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك.

وهناك أقوال أخرى: فعن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه، وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل أعمى الله بصري إن لم افعل كذا وكذا، أخرجني الله من مالي إن لم أتك غداً، فهو هذا، وعن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان، وعن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحرّم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك، وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَمِينَ عَلَيْكَ، وَلَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةِ الرَّبِّ ﷻ، وَلَا فِي قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَلَا فِيمَا لَا تَمْلِكُ) [أخرجه أبو داود/٣٢٧٢ وسنده صحيح إلا أنه منقطع بين ابن المسيب وعمر].

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد وغيره، وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩]. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾؛ أي: غفور لعباده حلیم عليهم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَبُصُّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾.

الإيلاء الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبة بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣٧١ ومسلم/١٠٨٣] عن عائشة أن رسول الله ﷺ، ألى من نسائه شهراً فنزل لتسع وعشرين، وقال: (الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ) ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفيء؛ أي: يجامع، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾؛ أي: يحلفون على ترك الجماع عن نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور ﴿تَبُصُّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾؛ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال: ﴿إِنْ فَاءُوا﴾؛ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس ومسروق، والشعبي، وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رَحِمَهُمُ اللَّهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢٦)؛ أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

وقوله: ﴿فَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء، وهو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه، والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم في الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رحمته الله في الموطأ عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسْوَدَ جَانِبُهُ وَأَرْقَنِي أَلَّا خَلِيلُ الْأَعْبَةِ
فَوَاللهِ لَوْلَا اللهُ أَنِّي أَرَأَيْتُ لِحُرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك، وقد روي هذا من طرق، وهو من المشهورات [البيهقي نحوه/١٧٦٢٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَّوْا الطَّلَاقَ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، كقول الجمهور من المتأخرين، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي الأربعة أشهر تطليقة، وكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روي عن ابن عباس، وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعي، والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق، فعن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإذا أن يطلق وإما أن يفيء. أخرجه البخاري [نحوه/٤٩٨٥]، وروى الشافعي رحمته الله عن سليمان بن يسار، قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يوقف المولي، قال الشافعي: وأقل ذلك ثلاثة عشر، ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه يوقف المولي، ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما روينا عن عمر، وابن عمر وعائشة، وعثمان، وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، هكذا قال الشافعي رحمته الله، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأبي ثور وداود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفيء ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية، له رجعتها في العدة، وانفرد مالك بأن قال: لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة وهذا غريب جداً.

﴿وَالطَّلَاقُ يُتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْلَمْنَ أَنَّ بَرِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذا أمر من الله صلى الله عليه وسلم للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء؛ أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن

شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت، فإنها تعتد عندهم بقرين؛ لأنها على نصف من الحرية، والقرء لا يتبعض فكمّل لها قرءان، قاله ابن عمر، وهكذا روي عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصجابة خلاف، وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية؛ ولأن هذا أمرٌ جبلي، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء والله أعلم، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه.

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين: أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، رواه مالك في الموطأ عن عائشة، وروى مالك، عن ابن شهاب قال: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحدًا من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة، وروى مالك [١٢٠١] عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها، وقال مالك: وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم، والقاسم، وعروة، وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، والزهري، وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد، وداد، وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَطَلَّوْهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ أي: في الأطهار ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسبًا، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطنن في الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يومًا ولحظتان. والقول الثاني: أن المراد بالأقراء، الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها، وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يومًا ولحظة، وهذا القول روي عن أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي الدرداء، وعبد الله بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وسعيد بن المسيب وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبي، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، ومكحول، والضحاك، وعطاء الخراساني أنهم قالوا: الأقراء: الحيض، وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثر أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض، وهو مذهب الثوري، والأوزاعي، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح، وأبي عبيد، وإسحاق بن راهويه.

وقال ابن جرير: أصلُ القرء في كلام العرب الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم، وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركًا بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض العلماء الأصوليين، فالله أعلم، وهذا قول الأصمعي أن القرء هو الوقت، وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمي الحيض قرءًا، وتسمي الطهر قرءًا وتسمي

الطهر والحيض جميعاً قرءاً، وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض، ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾؛ أي: من حبل أو حيض، قاله ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، والشعبي وغير واحد.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجح في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جنتين ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لثلاث تخبر بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَيُؤْلِنُ أَحَقُّ بِرَوْحٍ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾؛ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها، ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حصروا في الطلاقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث طلاقات، صار للناس مطلقة بائن، وغير بائن.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في «صحيح مسلم» [١٢١٨] عن جابر، أن رسول الله ﷺ، قال في خطبته في حجة الوداع: (فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)، وفي حديث معاوية بن حيدة أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال: (أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ) [أخرجه أبو داود/٢١٤٣ وإسناده حسن]، وعن ابن عباس، قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾؛ أي: في الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر والإنفاق، والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله ﷻ إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلفة في الثالثة، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ روى أبو داود، عن ابن عباس قال: ﴿وَالطَّلَاقُ يَرَبِّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يُحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ الآية. رواه النسائي [برقم: ٥٧٤٨ وهو حسن]، عن عروة، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فأنزل الله ﷻ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ [وهو مرسل حسن]، وعن عائشة نحوه، وروي عن قتادة مرسلًا، ذكره السدي، وابن زيد، وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير هذه الآية.

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾؛ أي: إذا طلقها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تُضَارَّ بها.

قال ابن عباس: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليترك الله في ذلك؛ أي: في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صاحبته، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً، وعن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: (إِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [أخرجه الدارقطني ٣/٤ وصححه ابن القطان].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يحل لكم أن تُضَاجِرُوهُنَّ وتضيّقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها، فقال قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاه، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴿٢٢٩﴾ الآية، فأما إذا لم يكن لا عذر، وسألت الافتداء منه، فعن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ) [أخرجه الترمذي/ ١١٨٧ وحسنه وأبو داود/ ٢٢٢٦ وابن ماجه وأحمد/ ٢٢٤٣٣ وصححه الألباني].

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ قالوا: فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، والجمهور حتى قال مالك، والأوزاعي: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها، وجب رده إليها، وكان الطلاق رجعيًا، قال مالك: وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حالة الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته فعن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟) قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: (اقْبَلِ الْحَدِيثَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً) [رواه البخاري/ ٤٩٧١ وللحديث طرق متعددة].

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفادها بأكثر مما أعطائها، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فقد أتى عمر بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني، فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها، وفي رواية قال: خذ ولو عقاصها، وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها.

ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها، وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي وقبيصة بن ذؤيب، والحسن بن صالح وعثمان البتي، وهذا مذهب مالك والليث، والشافعي، وأبي ثور، واختاره ابن جرير، وقال أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى: إن كان الإضرار من قبلها، جاز أن يأخذ منها ما أعطائها، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ، جاز في القضاء، وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطائها، وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء، وعمرو بن شعيب، والزهرري، وطاوس، والحسن، والشعبي، وحمام بن أبي سليمان والربيع بن أنس، وقال مَعْمَرُ والحكم: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطائها، وقال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها، وحملوا معنى الآية على معنى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ أي: من الذي أعطائها لتقدم قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا

حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ؛ أَي: من ذلك، وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس: «فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه» رواه ابن جرير؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فصل

عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله قال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ وقرأ: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنه من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ، هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وابن عمر، وهو قول طاوس وعكرمة، وبه يقول أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، وداود بن علي الظاهري، وهو مذهب الشافعي في القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة، والقول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك، فعن جمهان مولى الأسلميين، عن أم بكر الأسلمية: أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان في ذلك، فقال: تطليقة إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ما سميت. [البهقي/ ١٤٦٤١]. قال الشافعي: ولا أعرف جمهان، وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر، والله أعلم، وقد روي نحوه عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء، وشريح، والشعبي، وإبراهيم، وجابر بن زيد، وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والأوزاعي، وعثمان البتي، والشافعي في الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالعة بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق، فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثاً فثلاث، وللشافعي قول آخر في الخلع، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعري عن النية، فليس هو بشيء بالكلية.

مسألة: وذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، وإسحاق في رواية عنهما، وهي المشهورة، إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض، وروي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وعروة، وسالم، وأبو سلمة، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب، والحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وأبو عياض، وجلاس بن عمرو وقتادة، وسفيان الثوري والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبو عبيد. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم، ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات، والقول الثاني: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها، فعن نافع: أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان رضي الله عنه، فقال: تعتد بحيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به، ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا، وعن ابن عباس، قال: عدتها حيضة، وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول إن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا،

واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود [٢٢٢٩]، والترمذي [١١٨٥] وحسنه عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة. [وروي مرسلًا وله شواهد].

مسألة: وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء؛ لأنّها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء، وروي عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفي، وسعيد بن المسيب، والزهري أنهم قالوا: إن رد إليها الذي أعطاهما جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، وهو اختيار أبي ثور رحمته الله، وقال سفيان الثوري: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها، وإن كان يسمى طلاقًا فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة، وبه يقول داود بن علي الظاهري، واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها في العدة، وحكي الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن فرقة: أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره، وهو قولٌ شاذٌّ مردود.

مسألة: وهل له أن يوقع عليها طلاقًا آخر في العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: أحدها: ليس له ذلك؛ لأنّها قد ملكت نفسها وبانت منه، وبه يقول ابن عباس، وابن الزبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور. والثاني: قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقًا من غير سكوت بينهما، وقع، وإن سكت بينهما، لم يقع، قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه. والثالث: أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري، والأوزاعي، وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح، وطاوس، وإبراهيم، والزهري، والحكم، وحماة بن أبي سليمان، وروي ذلك عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وقال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم، هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: (إِنَّ اللَّهَ حَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحِمَةً لَّكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا) [أخرجه الحاكم بلفظ قريب/ ٧١١٤ وحسنه النووي في الأربعين]، وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السُّنَّة عندهم أن يطلق واحدة واحدة لقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ أي: أنه إذا طلق الرجل امرأته طليقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنّها تحرم عليه ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ أي: حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين، لم تحل للأول؛ لأنّه ليس بزواج، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول.

عن عائشة، قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ، فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ، فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم، قال رسول الله ﷺ: (كَأَنَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ) [البخاري/ ٤٩٦٠ ومسلم/ ١٤٣٣].

فصل

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عسرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك، أن يطأها الثاني وطاً مباحاً، فلو وطئها وهي مُحْرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو مُحْرِم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء، وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده، واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني وكأنه تمسك بما فهمه من قوله ﷺ: (حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ) ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً، فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو الْمُحَلَّل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه [عن جمع من الصحابة]، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

فعن عبد الله [بن مسعود] قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَأَشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ وَالْوَأَصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ، وَآكَلَ الرَّبَا وَمُؤْكِلَهُ). رواه أحمد [نحوه/ ٤٢٨٣] والترمذي [نحوه/ ١١٢٠] والنسائي [٥٥٣٦]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر، وعثمان، وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس.

وعن عقبة بن عامر، قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (هُوَ الْمُحَلَّلُ، لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ) تفرد به ابن ماجه [برقم: ١٩٣٦] وسنده قوي وله متابع.

وعن نافع أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ [البيهقي/ ١٣٩٦٧]، ثم قال [الحاكم/ ٢٨٠٦]: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. [وهذه الأحاديث شواهدا كثيرة].

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾؛ أي: الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا﴾؛ أي: المرأة والزوج الأول ﴿إِنْ طَلَّأَ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: يتعاشرا بالمعروف، وقال مجاهد: إن طلنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: شرائعه وأحكامه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾؛ أي: يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلاقاً أو طلقين، وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر، فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلا ينهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجْلِهِنَّ أَجَلَهُنَّ فَانْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهِنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدَتِكُمْ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

هذا أمر من الله تعالى للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإذا أن يمسكها؛ أي: يرتجعها، إلى عصمة نكاحه، بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها؛ أي: يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدَتِكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها، ضراراً لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ قال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزم الله بذلك، والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود [٢١٩٤]، والترمذي [١١٨٤]، وابن ماجه [٢٠٣٩] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثُ جَدُّهِنَّ جَدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النَّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ)، وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: في إرساله الرسول بالهدى والبيات إليكم ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾؛ أي: السنة ﴿لِيُعْظَمَ بِهِ﴾؛ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيما تأتون وفيما تذررون ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين، فتتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهاى الله أن يمنعوها، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي، والزهري والضحاك: إنها نزلت في ذلك، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في النكاح من ولي، كما قاله الترمذي [١١٠١]، وابن جرير عند هذه الآية، وكما جاء في الحديث: (لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ) [الحاكم/٢٧١٠] وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء، محرر في موضعه من كتب الفروع.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فروى البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٤٢٥٥] في كتابه «الصحيح» عند تفسير هذه الآية عن الحسن، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ورواه وصححه الترمذي [٢٩٨١] أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار، أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهو بها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا كُعب، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلُهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سَمِعْتُ لِرَبِّي وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَاهُ، فقال: أزوجك وأكرمك.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه، في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾؛ أي: اتباعكم شرع الله، في رد الموليّات إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾؛ أي: من المصالح، فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الخيرة فيما تأتون، ولا فيما تذرّون.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْفَقْوُ اللَّهُ وَأَعْمَلُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْلَمُونَ بَصِيرٌ﴾.

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان فلا

اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يُحَرِّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يُحَرِّم.

روى الترمذي [١١٥٢] في: (باب ما جاء أنَّ الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: (لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءُ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئاً. قلت: تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله: (إِلَّا مَا كَانَ فِي الثَّدْيِ)؛ أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد [١٨٦٨٦] عن البراء بن عازب، قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ قال: (إِنَّ لَهُ مُرَضِعًا فِي الْجَنَّةِ)، وهكذا أخرجه البخاري [١٣١٦]، وإنما قال ﷺ ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: (إِنَّ لَهُ مُرَضِعًا)؛ يعني: تكمل رضاعه.

والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين، يروى عن علي، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبي هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء والجمهور، وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبي يوسف، ومحمد، ومالك في رواية، وعنه أن مدته سنتان وشهران، وفي رواية: وثلاثة أشهر، وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر، وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعي، قال مالك: ولو فطم الصبي دون الحولين، فأرضعته امرأة بعد فصاله، لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعي، وقد روي عن عمر وعلي أنهما قالاً: لا رضاع بعد فصال [البيهقي/١٥٤٣٥]، فيحتمل أنهما أرادا الحولين، كقول الجمهور: سواء فُطم أو لم يُفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك، والله أعلم.

وقد روي في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساها، فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور، وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ، سوى عائشة، ما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٥٠٤ ومسلم/١٤٥٥] عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (أَنْظُرْنَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ).

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف؛ أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾

وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا [الطلاق: ٧] قال الضحاك: إذا طلق الرجل زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَاكِرْ وَالِدَتُكَ يَوْلِيَهَا﴾؛ أي: بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلِيهِ﴾؛ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، والزهري، والسدي، والثوري، وابن زيد وغيرهم.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد، والشعبي، والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدته الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في «تفسيره»، وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وجمهور السلف، وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله، وقال علقمة لامرأة ترضع بعد الحولين: لا ترضعيه.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدتهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْوِهُنَّ أُولَهُنَّ وَأَمْرُؤُنَّ يَنْتَكُمُ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَ رِمْتُمْ فْسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ سَرَضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو عذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجزتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد.

وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أحوالكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن، أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٨٤٨٣]، وأهل

السُّنَنُ وصححه الترمذي [١١٤٥]: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها، ولم يدخل بها ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مرارًا في ذلك، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: أرى لها الصداق كاملاً، وفي لفظ: لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً، ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذٌ جيد ومسلِّكٌ قوي، لولا ما ثبتت به السُّنَّةُ في حديث سبيعة الأسلمية المخرَّج في «الصحيحين» [البخاري بألفاظ قريبة/ ٣٧٧٠ ومسلم أيضاً/ ١٤٨٥] من غير وجه: أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها، تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكْ، فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح، والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة؛ يعني: لما احتج عليه به، قال: ويصح ذلك عنه، أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة، وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال على قول الجمهور؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة، ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية؛ ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة، وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا، لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة، ظهر إن كان موجودًا، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في «الصحيحين» وغيرهما: (إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْقَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ) [البخاري/ ٧٠١٦ ومسلم نحوه ٢٦٤٣]، فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا؛ لأنها صارت فراشًا كالحرائر، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٧٨٣٦] عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تُلْبِسُوا عَلَيْنَا سُنَّةَ نَبِينَا، عدة أم الولد، إذا تُوفِّي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر، ورواه أبو داود، وقد روي عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل: إن قبصة لم يسمع عمراً،

وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم سعيد بن المسيب ومجاهد، والحسن، وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين، وبه يقول الأوزاعي وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقال طائفة: عدة أم الولد إذا تُوفِّي عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال، وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح: تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي.

وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، وبه يقول ابن عمر والشعبي، ومكحول، والجمهور، وقال الليث: ولو مات وهي حائض، أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض، فثلاثة أشهر، وقال الشافعي والجمهور: شهر، وثلاثة أحب إلي، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في «الصحاحين» [البخاري/ ١٢٢١ ومسلم/ ١٤٨٦] عن غير وجه عن أم حبيبة، وزينب بنت جحش أمي المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: (لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحَدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)، وفي «الصحاحين» [البخاري نحوه/ ٥٠٢٤ ومسلم بلفظ قريب/ ١٤٨٨] أيضًا عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي تُوفِّي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحها؟ فقال: (لَا) كل ذلك يقول - لا - مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: (إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَمُكُّ سَنَةً) قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا تُوفِّي عنها زوجها، دخلت حفشًا ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بكرة فترمي بها، ثم توتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتقتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ومن هاهنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠]، كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره.

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولًا واحدًا، ولا يجب في عدة الرجعية قولًا واحدًا، وهل يجب في عدة البائن فيه قولان، ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والأيسة، والحرة والأمة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية، وقال الثوري، وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة، وبه يقول أشهب، وابن نافع من أصحاب مالك، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ: (لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحَدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا). [البخاري/ ١٢٢١ ومسلم/ ١٤٨٦] قالوا: فجعله تعبدًا، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة

بها لعدم التكليف، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾؛ أي: انقضت عدتهن، قاله الضحاك، والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهري: أي: على أوليائها ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾؛ يعني: النساء اللاتي انقضت عدتهن، عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف، وروي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: هو النكاح الحلال الطيب، وروي عن الحسن، والزهري، والسدي نحو ذلك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ ذَلِيلٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تعرضوا بخطة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال ابن عباس: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، ونحو هذا، ولا ينصب للخطة، وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولوددت أني وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت في عدتها. رواه البخاري تعليقاً، وهكذا قال مجاهد، وطاوس، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، والحسن وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم [أبو داود/٢٢٨٤]، وقال لها: (فَإِذَا حَلَلْتَ فَأَذِينِي)، فلما حلت، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوجه إياه، فأما المطلقة الرجعية فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصاص: ٦٩]، وكقوله: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ [المتحنة: ١]؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُهُنَّ﴾؛ أي: في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال أبو مجلز، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وقتادة والضحاك، والربيع بن أنس، وسليمان التيمي، ومقاتل بن حيان والسدي: يعني: الزنا، وهو معنى رواية ابن عباس، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لا تقل لها: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي

غيري، ونحو هذا، وكذا رُوي عن سعيد بن جبير، والشعبي، وعكرمة، وأبي الضحى، والضحاك، والزهري، ومجاهد، والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره، وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك، وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك، وقدم فيه وأحل الخطبة، والقول بالمعروف. وقال ابن زيد: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هو أن يتزوجها في العدة سرًا، فإذا حلت أظهر ذلك.

وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي، والثوري، وابن زيد: يعني به: ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إني فيك لراغب ونحو ذلك، وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها؛ يعني: لا تزوجها حتى تعلمني.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾؛ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والربيع بن أنس [وغيرهم]: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾؛ يعني: حتى تنقضي العدة.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة، واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها، فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبدًا؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها، وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد، واحتج في ذلك بما رواه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أيما امرأة نكحت في عدتها، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها ففرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطبًا من الخطاب، وإن كان دخل بها ففرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبدًا [البيهقي/١٥٣١٦]. وقالوا: ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يُحرم الميراث، وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد، لقول علي إنها تحل له. ثم هو منقطع عن عمر، وعن مسروق، أن عمر رجع عن ذلك، وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾، توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدتهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يُؤيِّسْهم من رحمته، ولم يُقنطهم من عائلته، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها. قال ابن عباس،

وطاوس، وإبراهيم، والحسن البصري: المس النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مُفَوَّضَةً وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تُعْطَاهُ من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، وقال ابن عباس: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورد، ودون ذلك الكسوة، وعن ابن عباس [أيضاً]: إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب، وقال الشعبي: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب، قال: وكان شريح يمتع بخمسائة، وعن ابن سيرين، قال: كان يُمتَّع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة. قال: ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: متاع قليل من حبيبٍ مُفَارِقٍ، وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها، وقال الشافعي في الجديد: لا يجبر الزوج على قدر معلوم، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة، وقال في القديم: لا أعرف في المتعة قدراً، إلا إني أستحسن ثلاثين درهماً؛ لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، على أقوال:

أحدها: أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَيَاتِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، ولقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رَدَّ لَهَا فِي كُنُوتِ كُنُوتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَمَّا يُغَايِرُكُمْ وَسَرَّحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جبير، وأبي العالية، والحسن البصري، وهو أحد قولي الشافعي ومنهم من جعله الجديد الصحيح، والله أعلم.

والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها، لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فعن سعيد بن المسيب، قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة، وقد روى البخاري في «صحيحه» [٤٩٥٧]، عن سهل بن سعد، وأبي أسيد، أنهما قالوا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه، بسط يده إليها، فكأنما كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين.

والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها، وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها، فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها، وهذا قول ابن عمر ومجاهد.

ومن العلماء من استحبهها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول، وهذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾

حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ٢٤١﴾، ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً، فعن الشعبي، قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقراً: ﴿عَلَى الْوُسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧).

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لا سيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الحالة، والله أعلم، وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق، لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الشافعي: هذا أقوى، وهو ظاهر الكتاب.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾؛ أي: النساء، عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ قال: إلا أن تعفو الشيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمته الله: وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس والسدي [وغيرهم] نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾؛ يعني: الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه، انتهى كلامه.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ عن شريح قال: سألتني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح، فقلت له: هو ولي المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج [البهقي/ ١٤٢٢٣]، وفي إحدى الروايات عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوليه، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان [وغيرهم]، أنه الزوج.

قلت: وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه، واختاره ابن جرير، ومأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولي، أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، وكذلك في الصداق.

والوجه الثاني: عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو

أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه، وروي عن علقمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وإبراهيم النخعي أنه الولي، وهذا مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها، وعن عكرمة، قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأبي امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها جاز عفو، وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت رشيدة، وهو مروي عن شريح، لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال والنساء، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو، وكذا روي عن الشعبي وغيره، وقال مجاهد، والنخعي، والثوري [وغيرهم]: الفضل - هاهنا - أن تغفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك، وقتادة، والسدي، وأبو وائل المعروف: يعني: لا تهملوه بل استعملوه بينكم، عن عون بن عبد الله قال: صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همًا حين رأيتهم أحسن ثيابًا، وأطيب ريحًا، وأحسن مركبًا مني، وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ حَفِظْتُمْ فَرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: (الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا). قلت: ثم أي؟ قال: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). قلت: ثم أي؟ قال: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ). قال: حَدَّثَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزِدْتَهُ لَزَادَنِي [رواه البخاري/٥٠٤ مع تقديم البر على الجهاد، وكذلك عند مسلم/٨٥].

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ [٣١٦] بلاغًا عن علي، وابن عباس، قال مالك: وذلك رأيي، وعن ابن عباس، أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع، وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، وعن جابر بن عبد الله، قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح، وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر، وأبي أمامة، وأنس، وأبي العالية، ومجاهد، وجابر بن زيد [وغيرهم]، وهو الذي نص عليه الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، محتجًا بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح، ومنهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر،

وهي بين صلاتين ورباعيتين مقصورتين، [أي] وتر المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتي ليل جهريتين وصلاتي نهار سريتين، وقيل: إنها صلاة الظهر، روى أبو داود الطيالسي [٦٢٨]، عن زهرة؛ يعني: ابن معبد، قال: كنا جلوسًا عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير. [وإسناده صحيح]، وعن زيد بن ثابت، قال: الصلاة الوسطى: صلاة الظهر، وهو قول عروة بن الزبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ورواية عن أبي حنيفة رحمهم الله.

وقيل: إنها صلاة العصر، قال الترمذي، والبغوي رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين، وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر، وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: وهو قول جمهور الناس، وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياني في كتابه المسمى «كشف المغطى في تبين الصلاة الوسطى»، وقد نصر فيه: أنها العصر، وحكاها عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وعن ابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم، وبه قال عبيدة، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وابن سيرين، والحسن، وقتادة وغيرهم، وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي والشافعي: قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبي حنيفة، وأبي يوسف ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكي، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك

روى الإمام أحمد عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: (شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا) [أحمد/٦١٧ بلفظ: قبورهم بدل قلوبهم]. ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء، وكذا رواه مسلم، وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته، أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وقد رواه مسلم أيضًا من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب رضي الله عنهما. فهذه [من] نصوص المسألة لا تحتمل شيئًا.

ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ) [أخرجه مسلم/٦٢٦]، وفي «صحيح [البخاري/٥٦٩]» أيضًا من حديث بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب، عن النبي ﷺ، قال: (بَكَّرُوا بِالصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْغَيْمِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ)، وروى الإمام أحمد [٢٧٢٧٠] عن أبي بصرة الغفاري، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم، يقال له: المَحْمَص، صلاة العصر، فقال: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ صَلَاةُ الْعَصْرِ غُرِضَتْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فَضَيَعُوهَا، أَلَا وَمَنْ صَلَّاهَا ضَعَّفَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، أَلَا وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى تَرَوْا الشَّاهِدَ)، ورواه مسلم [٨٣٠]. وروى الإمام أحمد [٢٥٤٨٩]، ومسلم [٦٢٩] عن أبي يونس مولى عائشة، قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفًا، قالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾

وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴿فَإَذْنِي، فَلَمَّا بَلَغْتَهَا أَذْنَتَهَا، فَأَمَلْتُ عَلَيَّ﴾: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ، وقد روى الإمام مالك أيضًا [٣١٤] عن عمرو بن رافع، قال: كنت أكتب مصحفًا لحفصة زوج النبي ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلما بلغت أذنتها، فأملت علي: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) [وإسناده صحيح].

وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها، وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها: أن هذا إن روي على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضَ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: ١ - ٤] وأشبه ذلك كثيرة.

وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك وصاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم، وأما إن روي على أنه قرآن، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن، ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصحف الإمام، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة ولا من غيرهم، ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث، روى مسلم [٦٣٠] عن البراء بن عازب، قال: نزلت: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله ﷻ، فأنزل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فقال له زاهر رجل كان مع شقيق: أفهي العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله ﷻ، فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة، وإلا فللفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب، وحكى هذا القول ابن جرير، عن قبيصة بن ذؤيب، وحكى أيضًا عن قتادة على اختلاف عنه، ووجه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: إنها العشاء الآخرة، اختاره الواحدي في تفسيره، وقيل: هي واحد من الخمس لا بعينها، وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر، ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضي، ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خثيم، ونقل أيضًا عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجويني.

وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر إذا اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر، وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر، وقيل: بل هي صلاة الجماعة، وقيل: صلاة الجمعة، وقيل: صلاة الخوف،

وقيل: بل صلاة عيد الفطر، وقيل: بل صلاة عيد الأضحى، وقيل: الوتر، وقيل: الضحى، وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح، ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل التنازع فيها موجوداً من زمن الصحابة وإلى الآن. روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا وشبك بين أصابعه، وقد حكى فخر الدين الرازي في «تفسيره» قولاً عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت وربيع بن خثيم أنها لم يرد بيانها وإنما أريد إبهامها كما أبهمت ليلة القدر في شهر رمضان وساعة الإجابة في يوم الجمعة والاسم الأعظم في أسماء الله تعالى ووقت الموت على المكلف ليكون في كل وقت مستعداً، وكذا أبهمت الليلة التي ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس ويعطوا الأهبة دائماً وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه فلا تأتي إلا بغتة.

وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصباح والعصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾؛ أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ففي «صحيح مسلم» [٥٣٧] أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَذِكْرُ اللَّهِ)، وروى الإمام أحمد [١٩٢٩٧] عن زيد بن أرقم، قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ أي: فصلوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً؛ يعني: مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها، فعن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوفٌ أشدَّ من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلتي القبلة أو غير مستقبلتيها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ، رواه البخاري [٤٢٦١] ومسلم [٨٣٩]، وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقته، وكان نحو عرفة أو عرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتني فجعلت أصلي وأنا أومئ إيماء الحديث بطوله رواه أحمد [بمعناه/١٦٠٩١]، وأبو داود [١٢٤٩] بإسناد جيد، وهذا من رخصة الله التي رخص لعباده ووضعها الآصار والأغلال عنهم، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: في هذه الآية يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه. قال: وروي عن الحسن، ومجاهد، ومكحول، والسدي، والحكم، ومالك، والأوزاعي، والثوري، والحسن بن صالح، نحو ذلك - وزادوا: يومئ برأسه أينما توجه، ثم روى عن جابر بن عبد الله، قال:

إذا كانت المسايقة فليومئ برأسه إيماءً حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿فَجَآلَا أَوْ رُكَبْنَا﴾، وروى عن الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعطية، والحكم، وحماد، وقتادة، نحو ذلك، وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم [٦٨٧] عن ابن عباس، قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وبه قال: الحسن البصري، وقتادة، والضحاك وغيرهم، وروى ابن جرير، عن شعبة، قال: سألت الحكم وحماداً، وقتادة عن صلاة المسايقة، فقالوا: ركعة، وروى ابن جرير [٥٧٥/٢] أيضاً عن جابر بن عبد الله، قال: صلاة الخوف ركعة، واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخاري: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» وقال الأوزاعي: إن كان تهياً للفتح ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماءً كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخرّوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها، هذا لفظ البخاري [في الترجمة ١/٣٢٠]، ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق بعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة: (لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ) [البخاري/٣٨٩٣]، فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين، وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك، وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد وغيره، وأما مكحول، والأوزاعي، والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها، ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: مثل ما أنعم عليكم وهذاكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٤٠] وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾.

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿يَرِثُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. روى البخاري [٤٢٥٦] عن ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال يا ابن أخي: لا أغير شيئاً منه من مكانه؛ ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها. روى ابن أبي حاتم [٢٣٩٠] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنائها في الدار سنة، فنسختها آية المواريث فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج، ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس: أنها منسوخة، وروي عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته يُنفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِثُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ أَرْبَعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة. قال: وروي عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال: وروي عن سعيد بن المسيب، قال: نسختها التي في الأحزاب: ﴿بِتَأْيِيدِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٩] [ابن أبي حاتم/ ٢٣٩١].

قلت: وروي عن مقاتل وقتادة: أنها منسوخة بآية الميراث، وروى البخاري [٤٢٥٧] عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فالعدة كما هي واجب عليها، وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت،

وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، لقول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعدت حيث شاءت، ولا سكنى لها، فهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة، كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات بأن يَمَكَّنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً، إن اخترن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةٌ لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾؛ أي: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وقوله: ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى فلتوصوا بهن وصية، وقرأ آخرون بالرفع «وصية» على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير، ولا يمنع من ذلك، لقوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك، لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر، وقول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعي رحمته الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج، بما رواه مالك في موطئه [١٢٢٩] أن الفريضة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خُدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقا حتى إذا كان بطرف القُدوم لحقهم فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خُدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: (نَعَمْ) قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له فقال: (كَيْفَ قُلْتِ؟) فرددت عليه القصة التي ذكرت له شأن زوجي، فقال: (امْكُثِي فِي بَيْتِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ). قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتبعه وقضى به، وكذا رواه أبو داود [٢٣٠٠]، والترمذي [١٢٠٤]، والنسائي [١١٠٤٤]، وابن ماجه [٢٠٣١]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وقد استدل بهذه الآية، من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضا لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولا بها، وهو قول عن الشافعي رحمته الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير، ومن لم

يوجبها مطلقاً، يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: في إحلاله وتحريمه وفروضة وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه ووضحه وفسره، ولم يتركه مُجمالاً في وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تفهمون وتتدبرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٦﴾ وَفَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه كانوا ثمانية آلاف، وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس: أربعون ألفاً، وقال وهب بن منبه، وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً، وروى ابن أبي حاتم [٢٤٠٩]، عن ابن عباس، قال: كانوا أهل قرية يقال لها داوردان، وكذا قال السدي، وأبو صالح وزاد: من قبل واسط، وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج، عن عطاء قال: هذا مثل، وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من واسط، وعن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله ﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية، وذكر غير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملؤوا ما بين عدوتي، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما: من أسفل الوادي، والآخر: من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم مائة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت عمره فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ؛ أَي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أَي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم، وفي هذه القصة عبرة ودليل، على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آنٍ واحد.

ومن هذا القبيل، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد [١٦٨٣] عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرخ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيّباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ) فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٥٣٩٨ ومسلم/٢٢١٩].

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أَي: كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدّر مقيّن لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه: أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وما أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء؛ يعني: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع.

وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ روي عن عمر وغيره من السلف: هو النفقة في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، وقيل: هو التسبيح والتعديس.

وقوله: ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]، وسيأتي الكلام عليها.

عن ابن عمر، قال: لما نزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ إلى آخرها، فقال رسول الله ﷺ: (رَبِّ زِدْ أُمَّتِي)، فنزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، قال: (رَبِّ زِدْ أُمَّتِي)، فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] [صححه ابن حبان/٤٦٤٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَصْطُطُ﴾؛ أَي: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرازق، يضيق على من

يشاء في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَلَيْسَ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

قال قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون، وهذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم، وقال السدي ومجاهد: هو شمويل عليه السلام، وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرًا. [وكانت امرأة منهم] تدعو الله تعالى أن يرزقها غلامًا [يكون نبيًا]، فسمع الله لها ووهبها غلامًا، فسمته شمويل؛ أي: سمع الله، فشب ذلك الغلام، ونشأ فيهم، وأنبته الله نبيًا حسنًا، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضًا قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تفوا بما التزمت من القتال معه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾؛ أي: وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ أي: ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلًا من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم، فلهذا قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: كيف يكون ملكًا علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾؛ أي: ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغًا، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من

تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾؛ أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبّل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها؛ أي: أتم علماً وقامة منكم، ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)

يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: معناه: فيه وقار. قاله قتادة: وقال الربيع: رحمة، وكذا روي عن ابن عباس، وعن عطاء قال: ما يعرفون من آيات الله فيسكنون إليه، وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاه الله موسى ﷺ، فوضع فيها الألواح، رواه السدي عن ابن عباس، وعن علي قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هي ريح هفافة، وقال مجاهد: لها جناحان وذنب، وعن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر، وجاءهم الفتح، وعن وهب بن منبه [أيضاً]: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تكلم، فتخبرهم ببيان ما يريدون.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ عن ابن عباس قال: عصاه، ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة، والسدي، والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة، وقال أبو صالح: ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾؛ يعني: عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين من التوراة، والمن، وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح، وعن الثوري قال: منهم من يقول: قفيز من منى، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان.

وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فأمنوا بنبوة شمعون [أو شمويل]، وأطاعوا طالوت، وذكر أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم، ملقى بعيداً، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه في بعض القرى، فأصاب أهلها داء في رقابهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين فسارتا به، لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا، وجاء بنو إسرائيل

فأخذه، فقيل: إنه تسلمه داود عليه السلام، وإنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك، وقيل: شابان منهم، فالله أعلم، وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدرد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾؛ أي: على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّادُنِ اللَّهَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده، ومن أطاعه من ملا بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾؛ أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾؛ أي: فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو، وكذا رواه السدي عن أبي مالك، عن ابن عباس، وكذا قال قتادة، وابن شوذب، وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف كذا قال، وعن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، رواه البخاري [٣٧٤٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾؛ أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد، ولهذا قالوا: ﴿كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّادُنِ اللَّهَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَأً وَكَتَبْتَ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَّادُنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم

عدد كثير ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أي: أنزل علينا صبرًا من عندك ﴿وَتَكُنَّ أَقْدَامُنَا﴾؛ أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾؛ أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوْمِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَكُنَّ اللَّهُ دُو فَضْلِي عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: من عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق؛ أي: بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال هاهنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في «صحيح ابن حبان» [٤٨] عن أبي ذر عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ، الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: (لَا تُفْضِلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى

بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟ فَلَا تُفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ [البخاري نحوه/ ٦٥١٩ ومسلم كذلك/ ٢٣٧٣]، وفي رواية: (لَا تُفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ) فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل، وفي هذا نظر. الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع. الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر. الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية. الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله ﷻ، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾؛ يعني: أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُوا﴾؛ أي: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤).

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكمهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾؛ أي: لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا، ولا تنفعه خلة أحد؛ يعني: صداقته بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ولا شفاعة؛ أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مبتدأ محصور في خبره؛ أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرًا، وقد روى ابن أبي حاتم [٢٥٦٧] عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥).

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله. روى الإمام أحمد [٢١٣٣٥] عن أبي بن كعب، أن النبي ﷺ، سأله: (أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟) قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مرارًا، ثم قال: آية الكرسي، قال: (لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُثَنِّرِ) وقد رواه مسلم [بلفظ قريب/ ٨١٠].

وقد ذكر البخاري [٢١٨٧] عن أبي هريرة، قال: وكُنِّي رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، أخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعني فإنني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟) قال: قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته وخليت سبيله، قال: (أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ) فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّهُ سَيَعُودُ) فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فأنا محتاج وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟) قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالا، فرحمته وخليت سبيله. قال: (أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ)، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: (مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟) قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله. قال: (مَا هِيَ؟) قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: (أَمَّا إِنَّهُ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُذْ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟) قلت: لا. قال: (ذَاكَ شَيْطَانٌ). كذا رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم، وقد رواه النسائي [٩٥٩] في اليوم والليلة.

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: (إِنَّ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمَ)، وكذا رواه أبو داود [نحوه/١٤٩٦] ولكن الآية الأولى هي: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. والترمذي [٣٤٧٨] مثل حديث أبي داود، وابن ماجه [كذلك/٣٨٥٥]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ورد في فضلها أحاديث آخر، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالالهية لجميع الخلائق ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؛ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ «الْقِيَامَ»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ عَائِدَةٍ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؛ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل

هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنَّةٌ ولا نوم.

فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُكُمْ﴾؛ أي: لا تغلبه سِنَّةٌ وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السَّنة، وفي «صحيح [مسلم/١٧٩]» عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَتَبَغَّى لَهُ أَنْ يَنَامَ، يُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ).

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (٩٤) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَنِيَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: (آتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرِجُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسَمِعُ وَاشْفَعُ تُشْفَعُ) قال: (فَيَجِدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ) [البخاري نحوه/٤٢٠٦ ومسلم كذلك/١٩٣].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾؛ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله ﷻ وأطلعه عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسي: موضع القدمين، رواه ابن جرير [١٠/٣] عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين، وعن ابن عباس، قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره، رواه الحاكم في «مستدرکه» [٣١١٦] وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وعن أبي مالك: الكرسي تحت العرش. وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش، وعن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة.

وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء، والظاهر أن ذاك غير المذكور في هذه الآية.

والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار.

وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذُهُ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: لا يثقله ولا يُكْرِثُهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما

ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه.

فقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وكقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْمُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؛ أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً.

عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، وقد رواه أبو داود [٢٦٨٢]، والنسائي [١١٠٤٨]، وابن حبان في «صحيحه» [١٤٠]، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري وغيرهم، أنها نزلت في ذلك، وعن ابن عباس قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك. وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، ولم ينقل له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى الإكراه، قال الله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلَمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وفي «صحيح البخاري بلفظ قريب [١٣٤]»: ﴿عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ﴾؛ يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة، فأما الحديث الذي رواه الإمام

أحمد [١٢٨٩١]: حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ حَمِيدٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: (أَسْلِمَ)، قَالَ: إِنِّي أَجْدَنِي كَارِهًا، قَالَ: (وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا)، فَإِنَّهُ ثَلَاثِي صَحِيحٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكْرَهُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَلْ دَعَاهُ إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَ أَنْ نَفْسَهُ لَيْسَتْ قَابِلَةً لَهُ، بَلْ هِيَ كَارِهَةٌ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَرْزُقُكَ حَسَنَ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَئْتِمُ بِهِ﴾؛ أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾؛ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريقة المثلى، والصراط المستقيم.

وعن عمر رضي الله عنه: إن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، وإن كان فارسياً أو نبطياً، ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها، والاستنصار بها.

وقوله: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾؛ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَئْتِمُ بِهِ﴾.

قال مجاهد: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾؛ يعني: الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني: لا إله إلا الله، وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى: القرآن، وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها، وقال معاذ بن جبل في قوله: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾؛ أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وروى الإمام أحمد [٢٣٨٣٨] عن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه، رأيت كأنني في روضة خضراء. قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها، وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقبل لي اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون: هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأنتيت رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه فقال: (أَمَّا الرُّوضَةُ فَرَوْضَةُ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الْعَمُودُ فَعَمُودُ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ) قال: وهو عبد الله بن سلام.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨).

هذا الذي حَاجَّ إبراهيم في ربه هو ملك بابل: نمرود بن كنعان، كما هو قول مجاهد وغيره، وقال مجاهد: وملك الدنيا مشارقتها ومغاربتها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود بن كنعان وبختنصر، فالله أعلم، ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾؛ أي: في وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثمَّ إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِي﴾ [القصاص: ٣٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة، إلَّا تجبره، وطول مدته في الملك، وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمئة سنة في ملكه، ولهذا قال: ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً، على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: إنما الدليل على وجوده، حدوث هذه الأشياء، المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، فعند ذلك قال المحاج - وهو النمرود -: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾. قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدي، وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما - فيقتل، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة - والظاهر والله أعلم - أنه ما أراد هذا؛ لأنَّه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنَّه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدَّعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك،

وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ ولهذا قال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾؛ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت، فأنت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت؛ أي: أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد، وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ اختلفوا في هذا المار من هو، فعن علي بن أبي طالب، أنه قال: هو عزيز، وحكاه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وسليمان بن بريدة، وهذا القول هو المشهور، وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد: هو إرميا بن حلقيا، وعن وهب بن منبه، أنه قال: وهو اسم الخضر عليه السلام.

وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل، وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن، فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شاباً وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم.

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾؛ أي: ليس فيها أحد.

وقوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ وذلك لما رأى من دورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قالوا: وعمرت البلاد بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله سبحانه بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى

صنع الله فيه: كيف يحيي بدنه، فلما استقل سوياً، قال الله له: ﴿كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير، فوجده كما فقدته لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أتن، ولا العنب تعفن ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ﴾؛ أي: كيف يحييه الله ﷻ، وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾؛ أي: دليلاً على المعاد ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: نرفعهما، فنركب بعضها على بعض، وقرئ ﴿ننشرها﴾؛ أي: نحييها، قاله مجاهد: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصياً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنهق كله بإذن الله ﷻ، وذلك كله بمرأى من العزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك، وقرأ آخرون «قال اعلم» على أنه أمر له بالعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ذكروا لسؤال إبراهيم ﷺ، أسباباً منها أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّ اأَزْىٰ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾.

وقوله: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي، وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان ذلك مهماً لنص عليه القرآن.

وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: قطعهن، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وأبو الأسود الدؤلي ووهب بن منبه، والحسن، والسدي وغيرهم.

وعن ابن عباس: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن وشف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله ﷻ أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله ﷻ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء لياخذ رأسه

الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع؛ لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وعن أيوب في قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها، وعن محمد بن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطُلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَى﴾ فرضي من إبراهيم قوله: ﴿بَلَى﴾ قال فهذا لما يعارض في النفوس ويوسوس به الشيطان. رواه الحاكم في «المستدرک».

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال سعيد بن جبیر: يعني: في طاعة الله، وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك.

وقال ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾، وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله ﷻ لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. روى الإمام أحمد [١٦٩٠] عن أبي عبيدة بن الجراح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِسْبَعِمَائَةٍ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ، أَوْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ أَمَاطَ أَدَى، فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا، وَمَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ ﷻ، بِلَاءٍ فِي جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ) [ورجاله ثقات]، وقد روى النسائي في الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفًا.

وروى الإمام أحمد [١٧١٣٥] عن أبي مسعود أن رجلاً تصدق بناقاة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: (لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ) ورواه مسلم [١٨٩٢]، وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷻ: (إِنْ اللَّهُ ﷻ، جَعَلَ حَسَنَةَ ابْنِ آدَمَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَّا الصَّوْمَ، وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرَحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ وَفَرَحَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) [ولمسلم عن أبي هريرة نحوه/ ١١٥١].

وقوله ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٦﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عِنْدَ حَلِيمٍ ﴿٢٦٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٨﴾﴾.

يمدح تعالى الذين ينفقون في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًّا على من أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿وَلَا أَذًى﴾؛ أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثوابهم على الله لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: على ما خلفوه من الأولاد، وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾؛ أي: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: غفر عن ظلم قلبي أو فعلي ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَ حَلِيمٍ﴾؛ أي: عن خلقه ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، منها ما في «صحيح مسلم» [١٠٦] عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَّاؤُ بِمَا أُعْطِيَ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من رأى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليُشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته منًّا أو أذى، فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الصخر الأملس، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾؛ أي: فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً؛ أي: أملس يابساً؛ أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله؛ أي: وكذلك أعمال

المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥).

وهذا مثل المؤمنين المنفقين: ﴿أَمْوَالُهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ عنهم في ذلك ﴿وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: وهم متحققون مثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا) [البخاري/ ٣٨ ومسلم/ ٧٦٠]؛ أي: يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه. قال الشعبي: ﴿وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: تصديقًا ويقينًا، وكذا قال قتادة، وأبو صالح، وابن زيد، واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن: أي: يتثبتون أين يضعون صدقاتهم.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ﴾؛ أي: كمثال بستان بربرة، وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوي من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار. وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، ﴿فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا﴾؛ أي: ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرِّدَادُ، وهو اللين من المطر؛ أي: هذه الجنة بهذه الربرة لا تمحل أبدًا؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيًا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا، بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦).

روى البخاري [٤٢٦٤] عند تفسير هذه الآية عن عمر بن الخطاب أنه قال يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس ﷺ: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله، وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولًا ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عيادًا بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من

الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل منه شيء وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّتٌ ضَعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾؛ أي: أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فأبي حال يكون حاله، وعن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلاً حسناً وكل أمثاله حسن، قال: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَتْ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا ردّ إلى الله ﷻ، ليس له خير فيستعقب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدّم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحرّم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرّم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَيَٰلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنَىٰ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة هاهنا، قاله ابن عباس: من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، قال مجاهد: يعني: التجارة بتسييره إياها لهم، وقال علي والسدي: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ يعني: الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾؛ أي: تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ فِيهِ﴾؛ أي: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل: معناه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾؛ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه، والصحيح القول الأول، روى ابن جرير [٨٢/٣] عن البراء بن عازب، في قول الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقتاء البُسْر فعلقوه على حبل، بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقتاء البُسْر، يظن أن ذلك

جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾، وبنحوه رواه ابن ماجه [١٨٢٢]، والترمذي [٢٩٨٧] وحسنه، والحاكم في «مستدرکه» [٣١٢٧]، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وعن عبد الله بن معقل، في هذه الآية: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه، وروى الإمام أحمد [٢٤٧٨٠] عن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ بضرب، فلم يأكله ولم ينه عنه، قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال: (لَا تُطْعِمُوهُمْ مِمَّا لَا تَأْكُلُونَ) [سند حسن]، وعن البراء: ﴿وَلَسْتُمْ بِبَاغِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك، لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه، وعن ابن عباس: ﴿وَلَسْتُمْ بِبَاغِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم، لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال فذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!! وهو قوله: ﴿لَنْ نَأْثُلَ الْيَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وكذا ذكر غير واحد.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ﴾؛ أي: وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها، فهو غني عنها، وما ذاك إلا أن ليساوي الغني الفقير، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاقَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، سيجزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد؛ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ روى ابن أبي حاتم [٢٨١٠] عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَلْمَّةَ بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِعَادُ بِالْشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فَلْيَتَّعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ)، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ الآية، ورواه الترمذي [٢٩٨٨] والنسائي [١١٠٥١]، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» [٩٩٧]، وقال الترمذي: حسن غريب، ومعنى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؛ أي: يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾؛ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء، ﴿وَفَضْلاً﴾؛ أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس: يعني: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله، وقال مجاهد: يعني: بالحكمة الإصابة في القول، وعن مجاهد [أيضاً]: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن، وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة، وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة الكتاب والفهم، وقال إبراهيم النخعي: الحكمة الفهم، وقال أبو مالك: الحكمة السُّنَّة، وقال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل، وقال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمرٌ يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه بصيراً به، ويؤتاه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله، وقال السدي: الحكمة النبوة، والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)، وهكذا رواه البخاري [٧٣] ومسلم [٨١٦].

وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧١) **﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** (٢٧٢).

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾؛ أي: إن أظهرتموها فنعم شيء هي.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ: (الْبَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْبَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ) [رواه أحمد/١٧٤٠٦ وأبو داود/١٣٣٣ والترمذي/٢٩١٩ وقال:

حسن غريب]، والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٦٢٩ ومسلم/١٠٣١] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ،

وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وفي الحديث المروي: (صَدَقَةُ السَّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ﷻ) [أخرجه الترمذي [٣٤٥٠] وقال: حسن غريب]، وعن عامر الشعبي في قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال: أنزلت في أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: (مَا خَلَفْتَ وَرَأَاكَ لِأَهْلِكَ يَا عُمَرُ؟) قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (مَا خَلَفْتَ وَرَأَاكَ لِأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟) فقال: عدة الله وعدة رسوله، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقًا، وهذا الحديث مروي من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه [أخرجه أبو داود بلفظ قريب/ ١٦٧٨ والترمذي كذلك/ ٣٦٧٥ وقال: حسن صحيح]، وإنما أوردناه هاهنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك، ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة، لكن روى ابن جرير عن ابن عباس في «تفسيره» هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها فقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها فقال بخمسة وعشرين ضعفًا.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أي: بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سرًا، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزىكم عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤).

عن ابن عباس، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦، الجانية: ١٥] ونظائرها في القرآن كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، وقال عطاء الخراساني: يعني: إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ألبَرُّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، وهو مثاب على قصده.

ومستند هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ والحديث المخرج في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قال رجلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيِّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ، فَأَتَيْتُ فَقِيلَ لَهُ: أَمَا صَدَقْتِكَ فَقَدْ قُبِلَتْ؛ وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زَنَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَغْتَبِرُ فَيَنْفِقَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرَقَتِهِ) [البخاري/١٣٥٥ ومسلم/١٠٢٢].

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ يعني: المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم ولا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ؛ يعني: سفرًا للتسبب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَأَخْرَجُوا بِضِرَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالْأُكْلَةُ وَالْأُكْلَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا) [بلفظ قريب/٨١٧٢]، وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضًا [٣٦٣٦].

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾؛ أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾؛ أي: لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن سأل وله ما يغنيه عن المسألة، فقد ألحف في المسألة، روى البخاري [٤٢٦٥] عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ،

وَلَا اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ؛ اقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ - يَعْنِي قَوْلَهُ -: ﴿لَا يَسْكُوتُ النَّاسُ إِلَّا كَفَافًا﴾، ورواه مسلم [١٠٣٩].

وروى الإمام أحمد [١١٠٧٥] عن أبي سعيد الخدري، قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فعدت، قال: فاستقبلني فقال: (مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْفَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَكْفَفَ كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةٌ أُوقِيَتْ فَقَدْ أَلْحَفَ). قال: فقلت ناقتي الباقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله، وهكذا رواه أبو داود [نحوه/١٦٢٨]، والنسائي نحوه [٢٣٧٦]، وروى ابن أبي حاتم [٢٨٧٧]، عن أبي سعيد الخدري، قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةٌ أُوقِيَتْ فَهُوَ مُلْحَفٌ) [رواه ابن خزيمة/٢٤٤٧ وابن حبان/٣٣٩٠ في «صحيحهما»]، والأوقية: أربعون درهماً، وقال أحمد [١٦٤٥٨]: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بني أسد، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أُوقِيَةٌ - أَوْ عَذْلُهَا - فَقَدْ سَأَلَ إِلَّا كَفَافًا).

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه شيء منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهر، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع: (وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدَتْ بِهَا دَرَجَةً وَرَفَعَةً، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي أَمْرَاتِكَ) [البخاري نحوه/٤١٤٧ ومسلم كذلك/١٦٢٨]، وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: (إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً) [البخاري/٥٠٣٦ ومسلم/١٠٠٢].

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧٥).

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقربات في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها، إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ

الْمَسِّ؛ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قيامًا منكراً، وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخَنَّقُ، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وحكي عن عبد الله بن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾؛ يعني: لا يقومون يوم القيامة، وكذا قال ابن أبي نجيع عن مجاهد والضحاك، وابن زيد، وعن عبد الله بن مسعود، أن كان يقرأ: «الذي يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة»، وعن ابن عباس، قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب، وقرأ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وذلك حين يقوم من قبره.

وقد روى البخاري [٦٦٤٠] عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: (فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِّ وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الْحِجَارَةَ عِنْدَهُ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِيهِمْ حَجَرًا)، وذكر في «تفسيره» أنه أكل الربا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾؛ أي: إنما جُوزُوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾؛ أي: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع؛ أي: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم؛ أي: على ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكمًا، وهو الحكيم العليم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم ينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبي ﷺ: (وَكُلُّ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ، وَأَوَّلُ رِبَا أَضْعُ رِبَا الْعَبَّاسِ) [أخرجه أبو داود قريبًا/ ١٩٠٥ والترمذي نحوه/ ٣٠٨٧ وقال: حسن صحيح] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي: فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم، وعن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت لها أم محبة أم ولد لزيد بن أرقم:

يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبدًا إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة، فقالت: بئس ما شريت وبئس ما اشتريت، أبلغني زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إن لم يتب، قال: فقلت أرايت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّخِذْهَا سَلَفًا﴾ وهذا الأثر مشهور [رواه البيهقي/١٠٥٨٠] وهو دليل لمن حرم مسألة العينة [وضعه السهلي ص ٧١٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقد روى أبو داود عن جابر، قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَمْ يَذْرِ الْمُخَابَرَةَ، فَلْيَأْذَنْ بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ورواه الحاكم في «مستدركه» [٣١٢٩]، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه.

وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاقلة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسمًا لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشئيين قبل الجفاف، ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المفوضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاثٌ وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهدًا تنتهي إليه: الجَد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا؛ [مسلم/٣٠٣٢] - يعني: بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا - والشرعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٥٢ ومسلم/١٥٩٩] عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيِّنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ)، وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ) [الترمذي/٢٥١٨ وقال حسن صحيح]، وفي الحديث الآخر: (إِلَّا نُمَّ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَتْ فِيهِ النَّفْسُ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) [رواه مسلم نحوه/٢٥٥٣]، وعن ابن عباس، قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، آية الربا، رواه البخاري [٤٢٧٠]، وروى ابن ماجه [٢٢٧٥] عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: (الرَّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا) ورواه الحاكم في «مستدركه» [٢٢٥٩] وزاد: (أَيَسْرُهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ، وَإِنَّ أَرْبَى الرَّبَا عَرَضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد [١٠٤١٥] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرِّبَا)، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: (مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ) وكذا رواه أبو داود [نحوه/٣٣٣١]، والنسائي [٦٠٤٢]، وابن ماجه [٢٢٧٨].

ومن هذا القبيل وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات، الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٤٧٣٦] عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر، وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي، قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال ﷺ في الحديث المتفق عليه [البخاري/٣٢٧٣ ومسلم/١٥٨٢]: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا)، وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوَّجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قوله ﷺ: (لَعَنَ اللَّهُ أَكْلَ الرِّبَا وَمُوكَلَّهُ، وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ) [مسلم/١٥٩٧]. قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات، وفي «صحيح [مسلم/٢٥٦٤]»: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ).

وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، كتاباً في «إبطال التحليل» تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله، ورضي عنه.

﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ .

يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا؛ أي: يذهب إياه بما أن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيٓوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [الروم: ٣٩]، وقال ابن جرير في قوله: ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾: وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: (الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِلَى قُلٍّ) [الطبري/٣/١٠٤]، وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد [٣٧٥٤] في «مسنده» عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: (إِنَّ الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ)، وقد رواه ابن ماجه [٢٢٧٩]، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات].

وهذا من باب المعاملة، بنقيض المقصود، كما روى الإمام أحمد عن فروخ مولى عثمان، أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين، خرج إلى المسجد فرأى طعاماً منشوراً، فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا، قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل: يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر، قال: من احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نشترى

بأموالنا ونبيع!! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْإِفْلَاسِ أَوْ بِجُدَامٍ)، فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في طعام أبداً، وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع، قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً، ورواه ابن ماجه [٢١٥٥]، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله موثقون].

وقوله: ﴿وَيُرِي الْأَصْدَقَاتُ﴾ قرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و«أرباه يربيه»؛ أي: كثّره ونماه ينميه، وقرئ «يُرِي» بالضم والتشديد من التربية، كما روى البخاري [١٣٤٤] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَلٍ تَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَنْقَبِلُهَا بِمِيزَانِهِ، ثُمَّ يُرَبِّهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوهُ، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ) ورواه مسلم [١٠١٤].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: لا يحب كفّور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم أثم بأكل أموال الناس بالباطل، ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾.

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه وبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾؛ أي: اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك، وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل بن حيان والسدي، أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم، فتشاؤروا وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ فَقَالُوا: نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾؛ أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله، وتقدم عن ابن عباس، قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال ابن عباس: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه، وعن الحسن، وابن سيرين، أنهما قالاً: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح، وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون، وجعلهم بهرجاً أينما أتوا، فإياكم وما خالط هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا تلجئكم إلى معصيته فاقة، وقال الربيع بن أنس: أوعدهم الله أكل الربا بالقتل، وقال السهيلي: ولهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسألة العينة: أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد بطل إلا أن يتوب، فخصت الجهاد؛ لأنه ضد قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: وهذا المعنى ذكره كثير، قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتَغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾؛ أي: بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص منه، وعن سليمان بن عمرو، عن أبيه، قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: (أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رِبَا مَوْضُوعٍ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ) [رواه أبو داود نحوه/ ٣٣٣٤ وابن ماجه كذلك/ ٣٠٥٥].

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ يَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربى، ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَنْ يَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك.

روى الإمام أحمد [٢٦٧٦] أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر وليس عندي شيء، قال: الله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ، أَوْ مَحَا عَنْهُ، كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ورواه مسلم في «صحيحه» [١٥٦٣].

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَتَى اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبِيدِهِ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: مَاذَا عَمِلْتُ لِي فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ لَكَ يَا رَبِّ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا أَرْجُوكَ بِهَا - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - قَالَ الْعَبْدُ عِنْدَ آخِرِهَا: يَا رَبِّ، إِنَّكَ أَعْطَيْتَنِي فَضْلَ مَالٍ، وَكُنْتُ رَجُلًا أَبَايُحِ النَّاسِ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أُبَسِّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَنَا أَحَقُّ مَنْ يُبَسِّرُ، ادْخُلِ الْجَنَّةَ، وقد أخرجه البخاري [نحوه/ ٢٢٦١] ومسلم [١٥٦٠].

ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية أنزلت من القرآن العظيم، فعن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين ليلتين خلتا من ربيع الأول.

وعن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يومًا، وقال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ومات يوم الإثنين.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّوْا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين.

فقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، وعن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، رواه

البخاري، وثبت في «الصحاحين» [البخاري نحوه/ ٢١٣٥ ومسلم/ ١٦٠٤] عن ابن عباس، قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسْلِفُونَ في الثمار الستين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلَفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ).

وقوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة والحالة هذه للتوثقة والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في «الصحاحين» [البخاري/ ١٨١٤ ومسلم/ ١٠٨٠] عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ)، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب أن الذين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً، لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسُنَنُ أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر الله بكتابتها إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرُوا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم، قال ابن جريج: من اذَّان فليكتب، ومن ابتاع فليشهد، وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي كان رجلاً صاحب كعباً، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يُشْهِد ولم يَكْتُب فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له؛ لأنَّه قد عصى ربه، وقال أبو سعيد، والشعبي، والحسن وغيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

روى الإمام أحمد [٨٥٧١] عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: (أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: اثْنَيْنِ بِشَهْدَاءَ أَشْهَدُهُمْ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ: اثْنَيْنِ بِكَفِيلٍ. قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَقْدِمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَلُهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشْبَةً فَتَقَرَّهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مَعَهَا إِلَى صَاحِبِهَا، ثُمَّ رَجَعَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا الْبَحْرَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي اسْتَسْلَفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِي بِذَلِكَ؛ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِي بِذَلِكَ؛ وَإِنِّي قَدْ جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثَ بِهَا إِلَيْهِ بِالَّذِي أُعْطَانِي فَلَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَطْلُبُ مَرْكَبًا إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشْبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسْلَفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِإِتْيَاكِ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتُ بَعَثْتُ إِلَيْ بِشْيءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ؟ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتُ بِهِ فِي الْخَشْبَةِ، فَانْصَرَفَ بِالْأَلْفِ رَاشِدًا)، وهذا إسناده صحيح وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة [منها الحديث رقم/ ٢١٦٩] معلقاً بصيغة الجزم.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ أي: بالقسط والحق ولا يَجُرُّ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾؛ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئِلَ أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: (إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعَيِّنَ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعَ لِأَخْرَقٍ) [أخرجه البخاري بلفظ قريب/ ٢٣٨٢]، وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب.

وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾؛ أي: وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك ﴿وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يكتم منه شيئاً ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾؛ أي: صغيراً أو مجنوناً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لعِي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾. وقوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أمرٌ بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال، وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم في «صحيحه» [٧٩] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: (تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعُسْبِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍ مِنْكُنَّ). قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال: (أَمَّا نَقْصَانُ عَقْلِيهَا، فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تُعَدُّ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نَقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمَكُّثُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي، وَتَنْفَطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نَقْصَانُ الدِّينِ).

وقوله: ﴿مِمَّنْ رَزَّوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيّد حَكَمَ به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً.

وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا﴾؛ يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾؛ أي: يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد، ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة، والربيع بن أنس، وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ ومن هاهنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية، وقيل - وهو مذهب الجمهور - المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ للاداء، لحقيقة قوله: ﴿الشُّهَدَاءُ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمّل، فإذا دعي لأدائها فعليها الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم، وقال مجاهد، وأبو مجلز وغير واحد: إذا دعت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» [١٧١٩]، و«السنن» عن زيد بن خالد، أن رسول الله ﷺ قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا) فأما الحديث الآخر في «الصحيحين»: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا)، وكذا قوله: (ثُمَّ

يَأْتِي قَوْمٌ تَسْبِقُ أَيْمَانُهُمْ شَهَادَتُهُمْ وَتَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانُهُمْ) [الترمذي/٣٨٥٩]، وفي رواية: (ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ) [البخاري/٣٤٥٠]، فهؤلاء شهود الزور، وقد روي عن ابن عباس، والحسن البصري أنها تعم الحالين التحمل، والأداء.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿وَلَا تَسْمُوا﴾؛ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾؛ أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]؛ أي: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾؛ أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾؛ أي: إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾؛ يعني: أشهدوا على حقكم إذا كان في أجل أو لم يكن فيه أجل، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروي عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك نحو ذلك، وقال الشعبي، والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد [٢١٩٣٣] عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ، ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيسأموه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: (أَوَلَيْسَ قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟) قال الأعرابي: لا والله ما بعته، فقال النبي ﷺ: (بَلْ قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ) فطفق الناس يلودون بالنبي ﷺ، والأعرابي، وهما يتراجعان فطفق الأعرابي يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: (يَمْ تَشْهَدُ؟) فقال: بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وهكذا رواه أبو داود [٣٦٠٧]، والنسائي [٦٢٤٣] وهو حسن الإسناد إن شاء الله، ولكن الاحتياط هو الإشهاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن

مردويه، والحاكم في «مستدرکه» [نحوه/٣١٨١] عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: (ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ لَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطْلَقْهَا، وَرَجُلٌ دَفَعَ مَالَ يَتِيمٍ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَرَجُلٌ أَقْرَضَ رَجُلًا مَالًا فَلَمْ يُشْهَدْ)، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قيل: معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتبها بالكلية، وهو قول الحسن، وقتادة وغيرهما، وقيل: معناه لا يضرب بهما، كما روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في هذه الآية: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا، فليس له أن يضارهما، ثم قال: وروي عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطية، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُوكُمْ بِكُمْ﴾؛ أي: إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم؛ أي: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وكقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣).

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾؛ أي: مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلمًا، فرهان مقبوضة؛ أي: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة؛ أي: في يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية، على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري نحوه/٢٧٥٩] ومسلم نحوه أيضاً/١٦٠٣] عن أنس أن رسول الله ﷺ، تُوفِّيَ ودرَّعُهُ مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه

نسخت ما قبلها، وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا. وقوله: ﴿وَلَيْتَنِيَ اللَّهُ رَبَّهُ﴾؛ يعني: المؤتمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٠١٦٨] وأهل السنن من رواية قتادة، عن الحسن، عن سُمرة أن رسول الله ﷺ قال: (عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذْتَ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ) [الترمذي/١٢٦٦ وقال: حسن صحيح].

قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَدَةَ﴾؛ أي: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَازِمٌ قَلْبُهُ﴾ قال السدي: يعني: فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَعْزِزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤).

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سبحانه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَخَفِيَ﴾ [طه: ٧]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم، روى الإمام أحمد [٩٣٣٣] عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَعْزِزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطبقها، فقال رسول الله ﷺ: (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)، فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخره، ورواه مسلم [١٢٥]، وثبت عن ابن عباس، وابن عمر، وهكذا روي عن علي، وابن مسعود، والشعبي، والنخعي، وقاتدة [وغيرهم]، أنها منسوخة بالتي بعدها، وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أَمْتِي مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ) [روى البخاري نحوه/٢٣٩١].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا عَشْرًا)، لفظ مسلم [١٢٨]، والبخاري بلفظ قريب/ [٧٠٦٢].

وعن أبي هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: (وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟) قالوا: نعم، قال: (ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ). لفظ مسلم [١٣٢]، وعن ابن عباس: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فإنها لم تنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، وهو قوله: ﴿وَلَكِن يُوَافِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]؛ أي: من الشك والنفاق، وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا.

وروى ابن جرير عن مجاهد، والضحاك نحوه، وعن الحسن البصري أنه قال: هي مُحْكَمَةٌ لم تنسخ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية عن صفوان بن محرز، قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يَذْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ كَذَا؟ فَيَقُولُ لَهُ: رَبِّ أَعْرِفُ، مَرَّتَيْنِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. قَالَ: فَيُعْطَى صَحِيفَةٌ حَسَنَاتِهِ أَوْ كِتَابَةٌ بِسَمِيئِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وهذا الحديث مخرَّج في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٤٠٨ ومسلم/ ٣٧٦٨ وغيرهما].

﴿عَمَّا مَنِ الرَّسُولُ يَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الكريمتين نفعنا الله بهما:

روى البخاري [٤٧٢٢] عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَّتَاهُ) وقد أخرجه بقية الجماعة.

وروى مسلم [١٧٣] عن عبد الله بن مسعود، قال: لما أسري برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً الْمُفْجَحَاتِ.

وروى أحمد [١٧٣٦٢] عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله ﷺ: (اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَإِنِّي أُعْطِيْتُهُمَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ). هذا إسناد حسن.

وعن علي قال: ما أرى أحداً يعقل، بلغه الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش [صححه النووي على شرطهما].

وتقدم في فضائل الفاتحة من رواية ابن عباس قال: «بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته». رواه مسلم [٨٠٦].

فقوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكَلِمِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سُبُل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نُسَخَ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغفر والرحمة واللفظ، عن ابن عباس في قول الله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم، ﴿وَالِإِنَّكَ أَلَمِيعٌ﴾؛ أي: المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

وقوله: ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكرهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا أَكْسَبَتْ﴾؛ أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيِّئْنَا﴾؛ أي: إن تركنا فرضاً

على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؛ أي: الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال: (قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ) وفي حديث ابن عباس، قال الله: (قَدْ فَعَلْتُ)، وروى ابن ماجه في «سننه» [٢٠٤٥]، وابن حبان في «صحيحه» [٧٢١٩] عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ) وقد روي من طرق أخر وأعله أحمد، وأبو حاتم، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم [٣٠٩٢] عن أم الدرداء، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ الْخَطَأِ، وَالنَّسْيَانِ، وَالِاسْتِكْرَاهِ) قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾؛ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: (قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ) وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال: (قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ) [ابن أبي حاتم/٣١٠٣]، وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) [أحمد/٢٢٣٤٥]، وحسنه الحافظ في الفتح.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾؛ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبئنا بما لا قبل لنا به، وقد قال مكحول في قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: الغربة والعُلمة، رواه ابن أبي حاتم، (قال الله: نَعَمْ)، وفي الحديث الآخر: (قال الله: قَدْ فَعَلْتُ).

وقوله: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾؛ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَارْحَمْنَا﴾؛ أي: فيما يُستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره، وقد تقدم في الحديث أن الله (قال: نَعَمْ)، وفي الحديث الآخر: (قال الله: قَدْ فَعَلْتُ).

وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾؛ أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، (قال الله: نَعَمْ)، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس، (قال الله: قَدْ فَعَلْتُ)، وروى ابن جرير عن معاذ ﷺ، كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: (آمين).



تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية، وآياتها مائتا آية، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ﴾ ١ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ٢ ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ٣ ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ٤ .

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿الْعَمَّ﴾ ١ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسي وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضًا الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾؛ يعني: نزل عليك القرآن يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله ﷻ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبر به، وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبر به، وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾؛ أي: على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾؛ أي: على عيسى ابن مريم ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغى والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات والدلائل الواضحات، وبيّنه ويوضحه، ويرشد إليه، وقال قتادة، والربيع بن أنس: هاهنا الفرقان القرآن، واختار ابن جرير أنه مصدر هاهنا لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو القرآن.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: جحدوا بها وأنكروها، وردّوها بالباطل، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾؛ أي: منيع الجنبات عظيم السلطان، ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾؛ أي: ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياء العظام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ⑤ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑥ .

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾؛ أي: يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام، وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم وخلقها كما يشاء، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارى، عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال؟ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ⑦ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ⑧ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ⑨ .

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب؛ أي: بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾؛ أي: تحتل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتل شيئًا أخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة فقال ابن عباس: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به، وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد وقتادة [وغيرهم] أنهم قالوا: المحكم الذي يعمل به، وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: المحكمات في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١] والآيتان بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها، ورواه ابن أبي حاتم وحكاها عن سعيد بن جبير ثم روى عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر، وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال أبو فاختة: فواتح السور، وقال يحيى بن يعمر: الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام.

وعن سعيد بن جبیر ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن.

وقيل في المتشابهات: إنهن المنسوخة والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به، [قاله] ابن عباس: وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانًى﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال الفجار، ونحو ذلك، فأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمناه وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: ﴿مِنْهُ أَيْتٌ تُحْكَمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق، لهن تصريح وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾؛ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامج لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَتَبِعَاءَ الْفِتْنَةِ﴾؛ أي: الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصراني بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ويقولون: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغير ذلك من الآيات المحكمة المصروفة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾؛ أي: تحريفه على ما يريدون، وقال مقاتل بن حيان والسدي: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن، وروى الإمام أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكَمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَا أَلْبَسَ﴾ فقال: (فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ فَاحْذَرُوهُمْ) [أخرجه البخاري نحوه/ ٤٢٧٣ ومسلم/ ٢٦٦٥].

وروى الإمام أحمد [٢٢٣١٣] عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ قال: (هُمُ الْخَوَارِجُ)، وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: (هُمُ الْخَوَارِجُ)، وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حُنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة،

ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة - بقر الله خاصرته -: اعدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله ﷺ: (لَقَدْ خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل، أيا مني على أهل الأرض ولا تأمنوني)، فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب، وفي رواية خالد بن الوليد - ولا بعد في الجمع -، رسول الله في قتله، فقال: (دَعُهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِطْطِي هَذَا؛ أَي: مِنْ جَنْبِهِ قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ) [نحوه عند البخاري/٣٤١٤ ومسلم/١٠٦٤].

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب وقتلهم بالنَّهروان، ثم تشعبت منهم شعوب، وقبائل وآراء، وأهواء، ومقالات، ونحل كثيرة منتشرة، ثم نبغت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: (وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً) قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: (مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) أخرجه الحاكم في «مستدركه» [٤٤٤] بهذه الزيادة [وصححه الألباني].

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اختلف القراء في الوقف هاهنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ، ويروى هذا القول عن عائشة وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك وغيرهم.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ، قال: (إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ لِيُكَذَّبْ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأَمِّنُوا بِهِ) [الآحاد والمثاني/٨١٤، إسناده حسن حسنه الألباني في تخريج الطحاوية]، وكان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون آمنا به»، وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله، وحكى ابن جرير [١٨٤/٣] أن في قراءة عبد الله بن مسعود: (إِنْ تَأْوِيلُهُ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ)، وكذا عن أبي بن كعب، واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد، وعن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وكذا قال الربيع بن أنس، وعن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضًا، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس، فقال: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ)

[أخرجه الحاكم/٦٢٨٠ وأصله في البخاري/١٤٣ بغير هذا اللفظ].

ومن العلماء من فضّل في هذا المقام فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿هَلْ يُنْظَرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله ﷻ، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ و﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ خبره، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والتعبير فالوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ حالًا منهم، وساغ هذا، وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]؛ أي: وجاءت الملائكة صفوفًا صفوفًا.

وقوله إخبارًا عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾؛ أي: بالمتشابهة ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾؛ أي: الجميع من المحكم والمتشابهة حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، لقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ﴾؛ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمع رسول الله ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَوْنَ، فقال: (إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ كِتَابُ اللَّهِ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) [وأخرجه أحمد/ ٦٧٤١ وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات]، وعن نافع بن يزيد، قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتدللون لله في مرضاته، لا يتعاضمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم مخبرًا أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ أي: لا تملها عن الهدى بعد إذا أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يبتغون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ أي: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ﴾.

وعن الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ﴾ الآية.

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾؛ أي: يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزئ كلًّا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١).

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٦) مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] كما قال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بآيات الله، وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾؛ أي: حطبها الذي تسجر به، وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون، وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة، والدأب بالتسكين والتحريك كنهْر ونَهْر، هو الصنيع والشأن والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك. والمعنى في الآية أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: شديد الأخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي قد غلب كل شيء وذلل له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتَيْنِ اللَّتَانِ فَتَةً تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣).

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ قد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار [عن ابن عباس]، أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: (يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا)، فقالوا:

يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أعمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنت لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَنُحُورُهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْإِهْدَاءُ﴾ - إلى قوله: ﴿لَمَبْرَةٌ لَا تُؤْلَىٰ الْأَبْصَرُ﴾ [أبو داود/٣٠٠١]، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾؛ أي: قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم ﴿آيَةٌ﴾؛ أي: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿فِي فَتْنَيْنِ﴾؛ أي: طائفتين ﴿الَّتَقَتَا﴾؛ أي: للقتال ﴿فِتْنَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْغَيِّ﴾ قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم؛ أي: جعل الله ذلك فيما رآه سببًا لنصرة الإسلام عليهم، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يَحْرِزُ لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون، وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْغَيِّ﴾؛ أي: ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم.

والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، ووجه ابن جرير هذا وجعله صحيحًا كما تقول: عندي ألف، وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجًا إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ الجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَتْنَيْنِ الَّتَقَتَا﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضَعَفُونَ علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ﴾.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيضًا قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراه سبعين؟ قال: أراه مائة. قال: فأسرنا رجلًا منهم، فقلنا، كم كنتم؟ قال: ألفًا [ابن أبي شيبه/٣٦٦٩٨].

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر، رأى المسلمون المشركين مثلهم؛ أي: أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ﷻ، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان، قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدّم كل منهما على الآخر ﴿لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ أي: ليفرق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على

الكفر، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْرُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّدِينٍ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في «صحيح [البخاري/٤٨٠٨]» أنه ﷺ قال: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه (وإنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأَمَةِ كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً) [أي النبي ﷺ، أخرجه البخاري/٤٧٨٢].

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: (تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مُكَائِرٌ بِكُمْ الْأَمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [رواه أبو داود/٢٠٥٠ وصححه الحاكم/٢٦٨٥].

وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً، وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار، وقيل: ألف ومائتا دينار وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: ستون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وقيل: ثمانون ألفاً، وقيل: غير ذلك، وعن معاذ بن جبل وابن عمر، وعن أبي هريرة، وأبي الدرداء، أنهم قالوا: القنطار ألف ومائتا أوقية، وعن الحسن البصري: القنطار ألف ومائتا دينار، وكذا ابن عباس، وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار، ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفاً، وعن أبي سعيد الخدري، قال: القنطار ملء مسك الثور ذهباً.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون رَبطها أصحابها معدة لسبيل الله، متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها، ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر. وأما المسومة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: المسومة الراعية، والمُطَهَّمَةُ الحسان، وكذا روي عن

مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن أبزى، والسدي، والربيع بن أنس، وأبي سنان وغيرهم، وقال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل، وقيل: غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَذَّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجَرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ) [صححه الحاكم/٢٤٥٧ على شرطهما ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾؛ يعني: الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾؛ يعني: الأرض المتخذة للغراس والزراعة، روى الإمام أحمد [١٥٨٨٣] عن سويد بن هُبيرة، عن النبي ﷺ قال: (خَيْرُ مَالٍ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سَيِّئَةٌ مَأْمُورَةٌ) [قال عنه الهيثمي: رجاله ثقات] المأمورة: الكثيرة النسل، والسَيِّئَةُ: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾؛ أي: حسن المرجع والثواب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أنزلت: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أُوْنِتْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِتْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾؛ أي: قل يا محمد للناس: أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: من الدنس والحَبْث والأذى، والحِيض والنفاس، وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: يحل عليهم رضوانه فلا يَسْخَطُ عليهم بعده أبداً؛ ولهذا قال في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]؛ أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾؛ أي: يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦) ﴿الصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧).

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَبِرَسُولِكَ﴾ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ أي: بإيماننا بك وبما شرعته لنا، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات ﴿وَالْقَنِيتِينَ﴾؛ أي: فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونونه من الأعمال الشاقة ﴿وَالْقَنِيتِينَ﴾ والقنوت الطاعة

والخضوع ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾؛ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقربات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ دَلَّ عَلَى فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام، لما قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] إنه أخرهم إلى وقت السحر وثبت في «الصحيحين» وغيرهما من المساند والسُنن عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: (يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأُغْفِرَ لَهُ؟) الحديث [البخاري/ ١٠٩٤ ومسلم نحوه/ ٧٥٨]، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٩٥١ ومسلم/ ٧٤٥] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر، وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح».

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَأَعْيُنٌ وَمَا يَحِطُّونَ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْأَعْبَادِ عَلِيمٌ (٢٠).

شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يرام جنباه عظمة وكبرياء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَأَعْيُنٌ وَمَا يَحِطُّونَ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَأَعْيُنٌ وَمَا يَحِطُّونَ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول، إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة

بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلَهُكَ أَلَا مِنْ بَدٍ مَا جَاءَهُمْ أَلَعَلُّهُمْ أَفْيَا يَبْهَتُهُمْ؟﴾ أي: بغى بعضهم على بعض فاختلَفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم، فحمل بعضهم بُغْضَ البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقًا، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ؟﴾ أي: من جحد بما أنزل الله في كتابه فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ؟﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي؟﴾ أي: فقل: أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي؟﴾ أي: على ديني يقولون كمقالتني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، ثم قال تعالى أمرًا لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا إِلَهُكَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ إِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ؟﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ؟﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْنَهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وفي «الصحيحين» وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميينهم، امتثالًا لأمر الله له بذلك.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) [رواه مسلم/١٥٣] وقال ﷺ: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) [أخرجه أحمد/٢١٣٥٢]، وقال: (كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [رواه البخاري/٣٢٨].

وروى الإمام أحمد [١٢٨١٥] عن أنس رضي الله عنه: أن غلامًا يهوديًا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي ﷺ: (يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ) رواه البخاري في «الصحيح» [١٢٩٠]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿أَوْتَرَىٰ إِلَىٰ الذِّبْرِ أَتَوْنَا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُنْزِلُونَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُهُم مُّعْضِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَعَلْنَاهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿وَعَرَّضْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرَقُونَ﴾؛ أي: ثبتهم على دينهم الباطل، ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه ولم ينزل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ومحاسبهم عليه ومجازيهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد معظمًا لربك وشاركًا له ومفوضًا إليه: ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾؛ أي: لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾؛ أي: أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقليين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبيًا من الأنبياء، ولا رسولًا من الرسل في العلم بالله وشريعته، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في أمره حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿أَمَرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢]؛ أي: نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة البالغة، والحجة التامة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾؛ أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاء.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ أي: تخرج الحبة من الزرع، والزرع من الحبة، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتري على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشئنة والعدل.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨).

نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالموودة من دون المؤمنين، ثم تواعد على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: من يرتكب نهى الله في هذا، فقد برئ من الله، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾؛ أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري (في الترجمة ٢٢٧١/٥) عن أبي الدرداء: أنه قال: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامَ وَقُلُوبِنَا تَلْعَنُهُمْ»، وقال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية، وأبو الشعثاء، والضحاك، والربيع بن أنس، ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ أي: يحذركم نقمته؛ أي: مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه، وعادى أوليائه، ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: إليه المرجع والمنقلب فيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِنْ تُحَقُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** (٣٠).

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآناء واللحظات وجميع الأوقات، بجميع ما في السموات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: وقدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما ييغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر ما أنظر منهم، فإنه يمهل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ الآية؛ أي: يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير ومن شر، كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]،

فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغازه، وود لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشیطانه الذي كان مقترناً به في الدنيا، وهو الذي جرّاه على فعل السوء: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقُرَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ أي: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجحاً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه، وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢).

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [مسلم/١٧١٨] ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاههم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: باتباعكم للرسول ﷺ، يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته، ثم قال تعالى أمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: خالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقليين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالًا عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤).

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم ﷺ خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحًا ﷺ وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانًا، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائي قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزداهم ذلك إلا فرارًا، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به.

واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم ﷺ من ذرية إبراهيم، كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء الله وبه الثقة.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾.

امراة عمران هذه أم مريم ﷺ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يومًا طائرًا يَزُقُّ فرخه، فاشتتهت الولد، فدعت الله ﷻ أن يهبها ولدًا، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل، نذرت أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾؛ أي: خالصًا مفرغًا للعبادة ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لدعائي العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها: أذكرًا أم أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ قرئ برفع الناء، على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقرئ بتسكين الناء، على أنه من قول الله ﷻ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾؛ أي: في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكى مقررًا، وبذلك ثبتت السُّنَّة عن رسول الله ﷺ حيث قال: (وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدَ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ) أخرجاه [رواه مسلم/٢٣١٥]، وكذلك ثبت فيهما: أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله، وفي «صحيح البخاري»: أن رجلاً قال: يا رسول الله ولد لي ولد فما أسميه؟ قال: (أَسْمِ وَلَدِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ).

وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾؛ أي: عَوَّذْتُهَا بالله ﷻ من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى ﷺ، فاستجاب الله لها ذلك، وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا). ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، أخرجاه [البخاري/٣٢٤٨ ومسلم/٢٣٦٦].

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها، وأنه ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: جعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين، ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ أي: جعله كافلًا لها. قال ابن إسحاق: وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة، وذكر غيره: أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جذب، فكفل زكريا مريم لذلك، ولا منافاة بين القولين؛ والله أعلم، وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علمًا جمًا نافعا وعملاً صالحًا؛ ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق، وابن جرير وغيرهما، وقيل: زوج أختها، كما ورد في «الصحيح»: (فَإِذَا بِيَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ) [البخاري/٣٢٤٧] وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضًا توسعًا، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: (الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ) [البخاري/٢٥٥٢].

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية العوفي والسدي: يعني: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

وعن مجاهد ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾؛ أي: علمًا، أو قال: صحفًا فيها علم، والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾؛ أي: يقول: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨)
فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)
قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)
قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْكَارِ (٤١).

لما رأى زكريا ﷺ أن الله يرزق مريم ﷺ فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد وكان شيخًا كبيرًا قد ضعف ووهن منه العظم واشتعل الرأس شيبًا، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَادَّاتَهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾؛ أي: خاطبته الملائكة شفاهًا خطابًا، أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته، ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ﴾؛ أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة وغيره: إنما سمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحياه بالإيمان.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك وغيرهم في هذه الآية: أي: بعيسى ابن مريم، وقال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم، وقال قتادة: وعلى سننه ومنهاجه، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان يحيى، وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، فذلك تصديقه بعيسى تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى ﷺ، وهكذا قال السدي أيضًا.

قوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقاتادة، وسعيد بن جبير وغيرهم: الحكيم.

قال قتادة: سيدًا في العلم والعبادة، وقال ابن عباس، والثوري، والضحاك: السيد الحكيم التقى، وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم، وقال عطية: السيد في خلقه ودينه، وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب، وقال ابن زيد: هو الشريف، وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ روي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد [وغيرهم]، أنهم قالوا: هو الذي لا يأتي النساء، وعن أبي العالية، والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له، وقال الضحاك: هو الذي لا ولد له ولا ماء له.

وعن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ ثم أخذ شيئًا من الأرض، فقال: الحصور ما كان ذكره مثل ذي، وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف أصبعه السبابة.

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوبًا أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء ﷺ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب؛ أي: لا يأتيها كأنه حُصِرَ عنها، وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة في النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله ﷻ كيحيى ﷺ، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه درجة علياء، وهي درجة نبينا محمد ﷺ الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحسينهن وقيامه عليهن واكتسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنياه غيره، فقال: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ) [رواه أحمد نحوه/ ١٢٣١٥]

والمقصود أنه مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله ﷻ أعلم.

وقوله: ﴿وَنَبِّئَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فلما تحقق زكريا ﷺ هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾؛ أي: الملك ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، ولا يتعاضمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾؛ أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾؛ أي: إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾، وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٦)
يَمْرِمُ أَفْتَى لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكِيِّينَ (٤٦) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤).

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم ﷺ عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها؛ أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بَنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ) [البخاري/٣٢٥١ ومسلم/٢٥٢٧]، وعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بَنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بَنْتُ خُوَيْلِدٍ) أخرجاه في «الصحيحين» [مسلم/٢٤٣٠].

وقد أخرج الجماعة إلا أبا داود عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بَنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) [البخاري/٣٢٣٠ ومسلم/٢٤٣١].

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والركوع والسجود والدُّوْب في العمل لها، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره وقضاه مما فيه محنة لها، ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَمْرِمُ أَفْتَى لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾ أما القنوت فهو الطاعة

في خشوع، كما قال تعالى: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها والقنوت هو طول الذكر في الصلاة؛ يعني: امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَمْرِمُ أَفْنِي لَرَبِّكَ﴾ بل قال الحسن: يعني: اعبدني لربك، ﴿وَأَسْبِرِي وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكَاةِ﴾؛ أي: كوني منهم، وقال الأوزاعي: ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها عليها السلام، وعن ابن شوذب، قال: كانت مريم عليها السلام، تغتسل في كل ليلة.

ثم قال تعالى لرسوله بعد ما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ أي: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترحوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر، عن عكرمة، قال: ثم خرجت بها؛ يعني: أم مريم بمريم تحملها، في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليه السلام، قال: وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فإني حررتها، وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا، وكان عمران يؤمهم في الصلاة، وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إلي فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترحوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة، ففَرَعَهُمْ زكريا فكفلها، وقد ذكر عكرمة أيضاً والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس وغير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن، واقترحوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتلها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، ويقال: إنه ذهب صعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيلهم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾.

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾؛ أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله؛ أي: يقول له: كن فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك، وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته، وقيل:

لأنه كان مسيح القدمين، لا أحمص لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ، بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له ﴿وَجِئَهَا فِي الذُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه بذلك ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةً: عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَنِ جُرْنَجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرُ) [أخرجه البخاري/٣٢٥٣ ومسلم/٢٥٥٠ وابن أبي حاتم/٣٥٢١ واللفظ له].

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله ﷻ، قالت في مناجاتها: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ؟﴾ تقول كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله؟ فقال لها الملك عن الله ﷻ في جواب هذا السؤال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء، وصرح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق لثلاث يبقئ شبهة، وأكد هذا بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ أي: فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]؛ أي: إنما تأمر مرة واحدة لا مثوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحْدِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٥١).

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى ﷺ: أن الله يعلمه ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة، والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، فالتوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم ﷺ، وقد كان عيسى ﷺ يحفظ هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلًا لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله ﷻ، الذي جعل هذا معجزة يدل على أن الله أرسله ﴿وَأُتِيَهُ الْأَكْمَه﴾ قيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل بالعكس، وقيل: هو الأعشى، وقيل: الأعمش، وقيل: هو الذي يولد أعمى وهو أشبه؛ لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿وَالْأَبْرَص﴾ معروف، ﴿وَأُتِيَ الْمَوْت﴾ بإذن الله ﷻ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى ﷺ السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار، وأما عيسى ﷺ، فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ، بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأثامهم بكتاب من الله ﷻ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر في بيته لغده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: في ذلك كله ﴿لَايَةً لَكُمْ﴾؛ أي: على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾؛ أي: مقرر لها ومثبت ﴿وَلَأُحَدِّثَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه دلالة على أن عيسى ﷺ نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَأُتَيْنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم. ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ؛ أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾؛ أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي: من يتبعني إلى الله؟ وقال سفيان الثوري وغيره: أي: من أنصاري مع الله، وقول مجاهد: أقرب، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: (مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي

حَتَّىٰ أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي) [أخرجه أحمد بلفظ قريب/ ١٥٢٢٩ وسنده جيد ورجاله رجال مسلم] حتى وجد الأنصار، فأووه ونصروه وهاجر إليهم، فأسوه ومنعوه، وهكذا عيسى ابن مريم ﷺ انتدب له طائفة من بني إسرائيل فأمّنوا به وآزره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَالْحَوَارِيُّونَ كُنُوا أَفْصَاؤَ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٦) رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا آتَيْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿الحواريون قيل: كانوا قصارين، وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين، والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٦٨٣٣ ومسلم/ ٢٤١٥] أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِييَ الزُّبَيْرُ)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ، وهذا إسناد جيد [رواه الحاكم/ ٣٢٢٢].

ثم قال تعالى مخبراً عن ملا بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى ﷺ، وإرادته بالسوء والصّلب، حين تمالؤوا عليه، ووَشَوْا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً فأَنهَوْا إليه، أن هاهنا رجالاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك وَيُقَدِّدُ الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنْكَلُ به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله تعالى من بينهم، ورفعهم من ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى ﷺ، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعهم من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بظليبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَىٰ مَوْفِقِكَ وَرَافِعُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾.

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره إني رافعك إلي ومتوفيك؛ يعني: بعد ذلك، وقال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا، وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه، وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان

رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [أخرجه البخاري/ ٥٩٥٥ ومسلم/ ٢٧١١]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيضَةٍ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (النساء: ١٥٦ - ١٥٩) والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد على عيسى عليه السلام؛ أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، وعن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؛ يعني: وفاة المنام، رفعه الله في منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: (إِنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ، وَإِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [الطبري ٢٨٩/٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَطَّهَرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: برفعي إياك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة، وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن ورد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرّفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين، والأمانة الكبيرة التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المملكيّة منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم؛ لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قصر و سلبوها كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم ﷻ في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿٥٥﴾ الآية [النور: ٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقًا، سلبوا النصراني بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم فلهجوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة، وقد أخبر الصادق الصدوق عليه السلام أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًا، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصراني، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾؛ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فُتِحَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ [مريم: ٢٤، ٢٥] وها هنا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ فَقُلْ نَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَهُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلِلَّهِ اللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾.

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق آدم، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء البنية في عيسى بكونه مخلوقًا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلانًا وأظهر فسادًا، ولكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ لَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقال هاهنا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى أمرًا رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ فَقُلْ نَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَهُمْ وَأَنْفُسَنَا

وَأَنْفُسَكُمْ؛ أَي: نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾؛ أَي: نلتعن ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾؛ أَي: منا أو منكم، وكان سبب نزول هذه المباهلة في وفد نجران، أن النصارى حين قدموا فجعلا يُحَاجُّونَ في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم.

قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وفد نصارى نَجْرَانِ ستون راکبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِجْرَات: جُبَّتْ وَأُزْدِيَّة، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم: وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: (دُعُوهُمْ) فصلوا إلى المشرق. قال: فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، أو السيّد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ: (أَسْلِمَا) قالا: قد أسلمنا، قال: (إِنكُمَا لَمْ تُسْلِمَا فَأَسْلِمَا). قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: (كَذَبْتُمَا، يَمْتَعِكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ ادْعَاؤُكُمَا لِلَّهِ وَلَدًا، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبِ وَأَكْلُكُمَا الْخَزِيرِ) [الطبري في تفسيره ١٦٣/٣]. قال [ابن إسحاق]: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم، دَعْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ، فانصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفُضْل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبيا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صَغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعت معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا، فقال رسول الله ﷺ: (اأْتُونِي الْعَشِيَّةَ أَبْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ) فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الإمارة قط حُبِّي إياها يومئذٍ، رجاء أن أكون صاحبها، فَرُحْتُ إِلَى الظَّهْرِ مُهَجَّرًا، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر، سلّم ثم نظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أظطاول له ليراني، فلم يَزَلْ يَلْتَمِسُ بِبَصَرِهِ حَتَّى رَأَى أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فدعاه: (اخْرُجْ مَعَهُمْ، فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اختلفوا فيه). قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه، [وأخرج البخاري/٣٥٣٥ ومسلم/٢٤٢٠ نحو قصة نكولهم عن المباهلة ونحو قصة بعث أبي عبيدة]، وعن ابن عباس قال: لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون ما لا ولا أهلًا [رواه النسائي/١١٠٦١].

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع؛ لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾؛ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا؛ أي: عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمه.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾.

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال هاهنا، ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرنا بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثناً، ولا صلياً، ولا صنماً، ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال ابن جريج؛ يعني: يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ أَوَّلِي النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾.

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما روي عن ابن عباس عليه السلام، قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الطبري ٣/٣٠٥]؛ أي: كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن

ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿هَتَانِمْ هَتُورَاءَ حَبَجَنْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثه محمد ﷺ، لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليلاتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾؛ أي: متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه وهذا النبي؛ يعني: محمداً ﷺ، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولي جميع المؤمنين برسله.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦)
يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي
أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ
دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهَدْيَ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْهُ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
الْأَفْضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْأَفْضَالِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾.

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين، وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم، ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ أي: تعلمون صدقها وتحققون حقها ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تكتُمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ﴾ هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال مجاهد في قوله تعالى إخبارًا عن اليهود بهذه الآية: يعني: يهود صَلَّتْ مع النبي ﷺ صلاة الفجر، وكفروا آخر النهار مكرًا منهم، لِيُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه، وعن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتهم أصحاب محمد أول النهار فأمّنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا، وهكذا روي عن قتادة، والسدي، والربيع، وأبي مالك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾؛ أي: لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات؛ وإن كنتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله: ﴿أَن يُؤَفِّكَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند الله؛ أي: يتخذوه حجة عليكم مما بأيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يَمُنُّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويُعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل علي بصره غشاوة، وله الحجة التامة والحكمة البالغة ﷻ ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمَهُ﴾ (٧٢) يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؛ أي: اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، بما شرف به نبيكم محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع.

﴿وَمَن أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة ويحذر المؤمنون من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ﴾؛ أي: من المال ﴿يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾؛ أي: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾؛ أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه.

وعن مالك بن دينار، قال: إنما سمي الدينار؛ لأنه دين ونار وقال: معناه أنه من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَكِيلٌ﴾؛ أي: إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا.

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَكَ عَلَى اللَّهِ أَلَكَذِبٌ وَهُمْ يَكْمُونَ﴾؛ أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، واثتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بُهتٌ، وعن أبي صعصعة بن يزيد، أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة؟ قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنَيْنِ سَبِيلٌ﴾، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا يطيب أنفسهم [الطبري في تفسيره ٣/٣١٩].

ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾؛ أي: لكن من أوفى بعهد منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأمهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى، واتبع طاعته وشرعته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عهدهم الله عليه، من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: برحمة منهم لهم: بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة منها: ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعادته رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: (الْمَسْبُولُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَنَانُ)، ورواه مسلم [١٠٦] وأهل السنن [النسائي/٢٣٤٥ وأبو داود/٤٠٨٧ والترمذي/٢٦٠٥]. وروى الإمام أحمد [٣٥٩٧] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ)، فقال الأشعث: في والله كان ذلك؛ كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: (أَلَاكَ بَيِّنَةٌ؟) قلت: لا. فقال لليهودي: (احْلِفْ). فقلت: يا رسول الله، إذا يحلف فيذهب مالي، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، أخرجاه [البخاري/٢٢٢٩ ومسلم/١٣٨].

وروى ابن أبي حاتم [٣٧٢٢] عن عبد الله ابن أبي أوفى، أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يُعْطه، لِيُوقِعَ فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ورواه البخاري.

وروى الإمام أحمد [١٠٢٣١] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ؛ يَعْنِي: كَاذِبًا، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا، فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفْ لَهُ) ورواه أبو داود والترمذي [١٥٩٥]، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْهُ﴾
 ﴿الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨)

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقال مجاهد، والشعبي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس ﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ﴾ يحرفونه، وهكذا روى البخاري [في الترجمة ٢٧٤٥/٦] عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيدون، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنِيَ عِبَادًا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 ﴿الْكِتَابِ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).

قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوّة، أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله؛ أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا؛ يعني: أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورجالهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي «المسند»، والترمذي [يلفظ قريب/٣٠٩٥] أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم. قال: (بلى، إِنَّهُمْ أَحَلَّوْا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ) [وهو حسن بشاهده].

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرهم بما أمر به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، إنما

يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاہُمُ اللَّهُ عَنْهُ وَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ رَسَلُهُ الْكَرَامَ، فَارْسَلْ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمْ السَّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي أَدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاغِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَتَمَّ قِيَامٍ، وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمُ الْحَقَّ.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ أي: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد: أي: حكماء علماء حلماء، وقال الحسن وغير واحد: فقهاء وكذا روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة [وغيرهم] أيضًا: يعني: أهل عبادة وأهل تقوى، وقال الضحاك في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً ﴿تُعَلِّمُونَ﴾؛ أي: تفهمون معناه، وقرئ: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّيِّتَيْنِ أَرْبَابًا﴾؛ أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله: لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنُجْزِيَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢).

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم ﷺ إلى عيسى ﷺ، لَمَهْمَا أَتَى اللَّهُ أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ أَيُّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَهُ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ مِنْ اتِّبَاعٍ مِنْ بَعَثٍ بَعْدَهُ وَنَصْرَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾؛ أي: لَمَهْمَا أُعْطِيْتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ وقال ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي: يعني: عهدي، وقال محمد بن إسحاق: (إصري)؛ أي: ثقل ما حمَلْتُمْ مِنْ عَهْدِي؛ أي: ميثاقي الشديد المؤكد.

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، قال علي بن أبي طالب، وابن عمه عبد الله

ابن عباس رضي الله عنه: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولننصرنه، وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا لا يضاد ما قاله علي، وابن عباس، ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقضيه. [ولهذا روي عن طاوس مثل قول علي وابن عباس].

وقد روى الإمام أحمد [١٥٩٠٣] عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت، قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وقال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ) [وحسنه الألباني].

فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه.

﴿أَفَعَيِّرْ دِينَ اللَّهِ يَجْعُوكَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسوله، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذي له ﴿أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَطِلَافُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع، وعن مجاهد: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: هو كقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وعن ابن عباس: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: حين أخذ الميثاق ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم المعاد فيجازي كلًا بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

وَأَسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ؛ أي: من الصحف والوحي ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾؛ يعني: بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾؛ يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم مصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية؛ أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [أخرجه مسلم/١٧١٨].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩).

عن ابن عباس، قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم. [المستدرک/٢٦٢٨ وعن مجاهد ونحوه].

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: يلعنهم الله، ويلعنهم خلقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾؛ أي: لا يفر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه، تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ (٩١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩١).

يقول تعالى متوعداً ومتهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً؛ أي: استمر عليه إلى

الممات، ومخبراً بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٨]، ولهذا قال ههنا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾؛ أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدعان وكان يُقري الضيف، وَيُفْكُ العاني، وَيُطْعِمُ الطعام: هل ينفعه ذلك؟ فقال: (لَا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [رواه مسلم/٢١٤]، وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْعَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُكَ شَفَعَةُ﴾ [البقرة: ١٢٣]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُفْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ فعطف ﴿وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ به على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: أن الواو زائدة، والله أعلم، ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض أيضاً ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.

وروى الإمام أحمد [١٢٣١١] عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: (يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ) وهكذا أخرجه البخاري [بلفظ قريب/٣١٥٦] ومسلم [نحوه أيضاً/٢٨٠٥].

ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾؛ أي: وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

عن عمرو بن ميمون ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ﴾ قال: البر الجنة، وروى الإمام أحمد [١٢٤٦١] عن أنس بن مالك، قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مُستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: (بَخْ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ)، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه، أخرجاه [البخاري/١٣٩٢ ومسلم/٩٩٨]، وعن عمر قال: يا رسول الله، لم أصب مالاً قط هو أنفُسُ عندي من سهمي الذي هو بخير، فما تأمرني به؟ قال: (حَبْسُ الْأَصْلِ وَسَبْلُ الثَّمَرَةِ) [رواه النسائي/٦٤٣١ والدارقطني ١٩٣/٤ وأصله في الصحيحين].

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥).

روى الإمام أحمد [٢٥١٤] عن ابن عباس [قال]: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: (سألوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرقتموه لتتابعني على الإسلام). قالوا: فذلك لك، قال: (فسألوني عما شئتم). قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه، وقال: (أنشيدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مريض مريضاً شديداً وطال سقمه، فنذر الله نذراً لئن شفاؤه الله من سقمه ليحرم من أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم. قال: (اللهم أشهد عليهم)، وقال: (أنشيدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد، والشبه بإذن الله إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟) قالوا: نعم. قال: (اللهم أشهد عليهم)، وقال: (أنشيدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟) قالوا: اللهم نعم. قال: (اللهم أشهد) قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك قال: (إن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه). قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٧]، وقد رواه الترمذي [٣١١٧] والنسائي [٩٠٧٢] نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب، وعن ابن عباس: كان إسرائيل ﷺ - وهو يعقوب - يعتريه عرق النساء بالليل، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم، ويقلع الوجع عنه بالنهار، فنذر الله لئن عافاه الله لا يأكل عرقاً ولا يأكل ولد ما له عرق، وهكذا قال الضحاك والسدي، كذا حكاه ورواه ابن جرير في «تفسيره» [١/٤]، قال: فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استئناً به واقتداء بطريقه، قال: وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾؛ أي: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة.

قلت: ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان إحداهما: أن إسرائيل ﷺ حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهي، كما قال

تعالى: ﴿وَأَنَّى الْمَالُ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبيين زيف ما ذهبوا إليه وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيبته وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله ﷻ قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً ﷺ لما خرج من السفينة، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى زيادة على ذلك، وكان الله ﷻ قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التَّسْرِي على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب ﷺ جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذاك فليكن ما شرعه الله للمسيح ﷺ، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ أَلْطَعَامٍ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾؛ أي: كان حلالاً لهم، جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾؛ أي: قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أوضح، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ (٣٧)

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس؛ أي: لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾؛ يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجهم، ولا يحجون إلى البيت

الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه، ولهذا قال تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾؛ أي: وضع مباركًا ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وقد روى الإمام أحمد [٢١٣٧١] عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله؛ أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ). قلت: ثم أي؟ قال: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى). قلت: كم بينهما؟ قال: (أَرْبَعُونَ سَنَةً). قلت: ثم أي؟ قال: (ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكْتَنكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ) وأخرجه البخاري [نحوه/٣١٨٦] ومسلم [٥٢٠]، وعن علي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله، وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقًا، والصحيح قول علي رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك؛ لأنها تَبُكُّ أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يَتَبَاكُونَ فيها؛ أي: يزدحمون. قال قتادة: إن الله بكَّ به الناس جميعًا، فيصلي النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جببر، وعمرو بن شعيب، ومقاتل بن حيان، وعن ابن عباس قال: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء، وعن إبراهيم: بكة البيت والمسجد، وكذا قال الزهري، وقال عكرمة، في رواية، وميمون بن مهران: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة، وقال أبو صالح وإبراهيم النخعي، وعطية العوفي ومقاتل بن حيان: بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ﴾؛ أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ يعني: الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت حتى آخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطَّوَّاف، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغني عن إعادتها هاهنا، والله الحمد والمنة، وعن ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: فمنهنَّ مقام إبراهيم والمشاعر، وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بيّنة، وكذا روي عن عمر بن عبد العزيز، والحسن، وقاتدة، والسدي، ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقال أبو طالب في قصيدته:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

وعن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم، وفي لفظ: الْحَجَرُ كله مقام إبراهيم، وروي عن سعيد بن جببر أنه قال: الحج مقام إبراهيم هكذا رأيت في النسخة، ولعله الحجر كله مقام إبراهيم، وقد صرح بذلك مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾؛ يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل

فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجُ حتى يخرج.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يُسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَظِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٢) الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: ٣، ٤]، وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطیاد صيدها وتنفيذه عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً، ففي «الصحاحين» واللفظ لمسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح «فتح مكة»: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَجَلِّ الْقِتَالَ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَجَلِّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْقَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا) فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليبوتهم، فقال: (إِلَّا الْإِذْخَرَ) [البخاري/١٧٣٧ ومسلم/١٣٥٣].

وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَجَلِّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ) رواه مسلم، وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة، يقول: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ). رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح، وكذا صحَّح من حديث ابن عباس نحوه.

وعن يحيى بن جعدة بن هبيرة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: آمناً من النار. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حِجُّ آيَةِ وَجُوبِ الْحَجِّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَقِيلَ: بَلْ هِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْمَعْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والأول أظهر، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا). فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: (لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ)، ثم قال: (ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ)، ورواه مسلم [١٣٣٧].

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارةً بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام، روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: (الرَّأْدُ وَالرَّاحِلَةُ). رواه ابن ماجه [٢٨٩٦] الترمذي [٨١٣] وقال في كتاب الحج: هذا حديث حسن.

وقد روي هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعائشة كلها مرفوعة، ولكن في أسانيدھا مقال، ورواه الحاكم [١٦١٤] عن أنس ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد [٢٨٦٩] عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ؛ - يَعْنِي: الْفَرِيضَةَ - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْزُضُ لَهُ)، وروى أحمد [١٨٣٣] أيضاً عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ)، ورواه أبو داود [١٧٣٢]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلاً، وعن عكرمة مولاه أنه قال: السبيل الصَّحَّة، وعن ابن عباس، قال: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: الزاد والبعير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: أي: ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً، وهذا إسناده صحيح إلى عمر رضي الله عنه [ذكره أبو نعيم في الحلية ٩/٢٥٢].

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوَاجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ .

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدّهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بَشَرُوا به ونوَّهُوا، من ذكر النبي ﷺ الأُمِّي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومقابلتهم الرسول المُبَشِّر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون؛ أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ .

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما مَنَحَهُم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:

[١٠٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾؛ يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] والآية بعدها، وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً: (أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟) قالوا: الملائكة. قال: (وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟) وذكروا الأنبياء، قال: (وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟) قالوا: فنحن. قال: (وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟) قالوا: فأَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إِيْمَانًا؟ قال: (قَوْمٌ يَحْيَوْنَ مِن بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا). [رواه الطبراني في الكبير/ ١٢٥٦٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعُدَّة في مباحدة العَوَاية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا عَهْدَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٢﴾

روى ابن أبي حاتم [٣٩٠٨] عن عبد الله هو ابن مسعود في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وهذا إسناده صحيح موقوف.

ثم قال ابن أبي حاتم: وروي نحوه عن مرة الهمداني والربيع بن خثيم وعمرو بن ميمون، وإبراهيم النخعي وطاوس والحسن، وقتادة، وأبي سنان والسدي، نحو ذلك، وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن من لسانه [الطبراني في الأوسط مرفوعاً نحوه/ ٥٦١٣]، وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال ابن عباس: لم تُنسخ، ولكن ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك.

روى الإمام أحمد [٢٧٣٥] عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابن عباس جالس معه محجن، فقال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّ قُطْرَةَ مِنَ الزُّقُومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِيَشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ؟، وهكذا رواه الترمذي [٢٥٨٥]، والنسائي [١١٠٧٠]، وابن ماجه [٤٣٢٥]، وأبْن حبان في «صحيحه» [٧٤٧٠]، والحاكم في «مستدركه» [٣١٥٨] من طرق عن شعبة به وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَنْ مَا يُفَفُّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]؛ أي: بعهد وذمة، وقيل: ﴿بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ﴾؛ يعني: القرآن.

وعن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين. يا عبد الله بهذا الطريق هلم إلى الطريق، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في «صحيح مسلم» [١٧١٥] عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ).

وقد ضمنت لهم العِصْمَةُ عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة، وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَلَدَّكَ بِصِرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أن هداهم للإيمان، وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فعَتَبَ من عتب منهم، لما فَضَّلَ عليهم في القِسْمَةِ بما أراه الله، فخطبهم فقال: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ يِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ يِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ يِي؟) كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمّن. [أخرجه البخاري/٤٠٧٥].

﴿وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩).

يقول تعالى: ﴿وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ منتصبه للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة؛ يعني: المجاهدين والعلماء، والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في «صحيح مسلم» [٤٩]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)، وفي رواية: (وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ) [مسلم/٥٠].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، مع الآيات الكريمة، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ينهى تعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضية في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم.

روى الإمام أحمد [١٦٩٧٩] عن معاوية بن أبي سفيان قال: إن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِينَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)، وهكذا رواه أبو داود [٤٥٩٧] وقد روي هذا الحديث من طرق [وهو صحيح].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾؛ يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ قال الحسن البصري: وهم المنافقون ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ يعني: الجنة ما كانوا فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً، وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب، قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً - حتى عد سبعا - ما حدثتكموه، ثم قال: هذا حديث حسن، وقد رواه ابن ماجه وأخرجه أحمد [٢٢٢٦٢].

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾؛ أي: هذه آيات الله وحُجُجُه وبيناته ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿إِلْحَقْ﴾؛ أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: ليس بظالم لهم بل هو الحَكَم، العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع ملك له وعبيد له ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة الحاكم في الدنيا والآخرة.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا لِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ روى البخاري [٤٢٨١] عن أبي هريرة [في قوله]: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس [وغيرهم]: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: خير الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. [رواه أحمد/ ٢٤٦٣ والنسائي/ ١١٠٧٢ والحاكم/ ٣١٦٠ وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم].

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: خيارًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

وفي «مسند الإمام أحمد» [٢٠٣٧]، و«جامع الترمذي» [٣٠٠١]، و«سنن ابن ماجه» [٤٢٨٨]، و«مستدرک الحاكم» [٦٩٨٨] من رواية معاوية بن حيدة، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ ﷻ) وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبي سعيد نحوه، وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْقِ إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل، فالعمل على منهجه وسبيله يقوم القليل منه ما

لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد [٧٦٣] عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ)، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ) تفرد به أحمد، وإسناده حسن.

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها هاهنا، روى الإمام أحمد [٢٢٤٧١] عن ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا) تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده رجاله كلهم ثقات، فهو حديث صحيح، والله الحمد.

حديث آخر: روى الإمام أحمد [٣٨٠٦] عن ابن مسعود، قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ثم غدونا إليه، فقال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّقَرُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى عليه السلام، وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَعْجَبُونِي، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ لِي: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ. قَالَ: فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا الْأَفْقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، فَقِيلَ لِي: قَدْ رَضِيتُ؟ فَقُلْتُ، رَضِيتُ يَا رَبِّ، - قَالَ: فَقِيلَ لِي: إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، فقال النبي ﷺ: (فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظَّرَابِ، فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأَفْقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثُمَّ أَنَا سَا يَتَهَاوَشُونَ)، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؛ أي: من السبعين، فدعا له، فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، فقال: (قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ)، قال: ثم تحدثنا فقلنا: من ترون هؤلاء السبعين الألف؟ قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) هكذا رواه أحمد وإسناده صحيح [وأخرجه البخاري بنحوه/ ٥٤٢٠ ومسلم نحوه/ ٢١٨].

حديث آخر: وروى أبو القاسم الطبراني عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: (لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) وأخرجه البخاري [٣٠٧٥] ومسلم [٢١٩].

روى أبو القاسم الطبراني (في المعجم الكبير/ ٣٤٥٥) عن أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُعَنَّيَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يَخْبِطُونَ الْأَرْضَ، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؟) وهذا إسناده حسن.

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة:

ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟) فكبرنا، ثم قال: (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) [البخاري نحوه/٦١٦٣ واللفظ لمسلم/٢٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِيَانَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ غَدًا لِلْيَهُودِ لِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ) رواه البخاري [٨٣٦] ومسلم [نحوه/٨٥٥].

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس رعة [أي: ما يعيب من قلة الاحتشام]، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها، رواه ابن جرير [٤٣/٤].

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ؛ أَي: بما أنزل على محمد ﷺ﴾ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ؛ أَي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.﴾

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿إِنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا أَدْنَىٰ وَإِنْ يَفْتَلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ وهكذا وقع، فإنهم يوم خبير أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قَيْنُقَاعَ وبني النَّضِيرِ وبني قُرَيْظَةَ كلهم أذلهم الله، وكذلك النصاري بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوه ملك الشام، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْتَوُوا لَا يَحْبِلَ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ؛ أَي: ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون﴾ ﴿إِلَّا يَحْبِلَ مِنَ اللَّهِ؛ أَي: بذمة من الله، وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة﴾ ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ؛ أَي: أمان منهم ولهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنت واحد من المسلمين، ولو امرأة، وكذا عبد على أحد قولَي العلماء، قال ابن عباس:﴾ ﴿إِلَّا يَحْبِلَ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ؛ أَي: بعهد من الله

وعهد من الناس وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: أُلْزِمُوا فَالْتَزَمُوا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾؛ أي: أُلْزِمُوا قَدْرًا وَشَرْعًا، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ أي: وإنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدًا متصلًا بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله، وقُبِضُوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ﷻ والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعيادًا بالله من ذلك، والله المستعان.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ، وهكذا قال السدي.

والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، وروي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحرار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عُبيد وثعلبة بن سَعْيَةَ وأسيد بن سَعْيَةَ وغيرهم؛ أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، وهكذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾؛ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾؛ أي: قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي ﴿قَائِمَةٌ﴾؛ يعني: مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: يقومون الليل ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾؛ أي: لا يضع عند الله، بل يجزيكم به أوفر الجزاء ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضع لديه أجر من أحسن عملاً، ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين

بأنه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يُردّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قاله مجاهد، والحسن، والسُّدِّي، فقال تعالى: ﴿مِثْلَ مَا يُفْقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾؛ أي: برد شديد، قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن وغيرهم، وقال عطاء: برد وجليد، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾؛ أي: نار وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ﴾؛ أي: فأحرقته؛ يعني: بذلك السقعة إذا نزلت على حرث قد آن جداده أو حصاده، فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها، كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُضَيِّبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة؛ أي: يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقاتهم، لا يألون المؤمنين خبَالاً؛ أي: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودّون ما يُعْنَتُ المؤمنين ويخرجهم ويشقّ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾؛ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخله أمره، وقد روى البخاري [٦٧٧٣] عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: (مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ).

وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً؟ فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين [ابن أبي حاتم/٤٠٣٨]، ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين وإطّلاع على دواخل أمورهم التي يُخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾؛ أي: قد لاح على

صَفَحَاتٍ وَجُوهَهُمْ، وَفَلَتَاتِ الْأَسْنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمَلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لَبِيبٍ عَاقِلٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾؛ أي: أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين مما يظهرونه لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك، وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهراً ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾؛ أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة.

وعن ابن عباس: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾؛ أي: بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة، وقال ابن مسعود، والسدي، والربيع بن أنس: الأنامل الأصابع، وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحق.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومُكَمِّلٌ دينه، ومُعَلِّمٌ كلمته، فموتوا أنتم بغيطكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمنون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تُمْسِكُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد، وكثروا وعزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَةٌ؛ أي: جذب أو أدبيل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ الآية، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان صبر الصابرين، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) **إِذْ هَمَّتْ طَآئِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (١٢٢) **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (١٢٣).

المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي

وغير واحد، وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. قال قتادة: لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم، وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بدر وُسِّلَت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان فلما رجع قَفَلَهُمْ إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحابيش، وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبًا من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ الجمعة، واستشار الناس: «أَيُخْرَجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ؟»، فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مُحْبَس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورامهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأَمَتَهُ وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: (مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأَمَتَهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ) [روى أحمد نحوه/١٤٨٢٩].

فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان بالشوط، رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مُغْضَبًا لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالًا لاتبعناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم، واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشَّعْب من أحد في غُدْوَةِ الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: (لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ) [الطبري ١٢٦/٤]، وتهايا رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جببر أخا بني عمرو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلًا، فقال لهم: (انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا تُؤْتِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَالزُّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَحْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ) [المغازي لابن إسحاق/٥٠٤]، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَيْر، وتعبأت قريش، ومعهم مائتا فرس قد جَنَّبُوها، فجعلوا على مِيْمَنَةِ الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات، إن شاء الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ﴾؛ أي: تبين لهم منازلهم، وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع لما تقولون، عليم بضمائركم.

وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ روى البخاري [٣٨٢٥] عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، وكذا رواه مسلم [٢٥٠٥]، وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: يوم بدر،

وكان في يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك، وخرب مجله هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والخيلاء، فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزيله، وبَيَّض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وخيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ أي: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ - إلى - ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

وروى الإمام أحمد [٣٤٤] عن عياض الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض وليس عياض هذا الذي حدث به قال: وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله ﷻ فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصِرَ يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا، فقاتلوهم ولا تراجعوني، قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة، قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقال شاب: أنا إن لم تغضب قال: فسبقه فأريت عقيصتي أبي عبيدة تنفزان وهو خلفه على فرس عُري، وهذا إسناده صحيح، وقد أخرجه ابن حبان في «صحيحه» [٤٧٦٦] بنحوه، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه، وبدر: محلّة بين مكة والمدينة تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها، يقال له: بدر بن النارين، قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرًا.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (١٢٥) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا آَلَصَّرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنِ شَاءَ وَيُعَذِّبُ مَنِ شَاءَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد، هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين: أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وروي هذا عن الحسن

البصري وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم، واختاره ابن جرير، فعن عامر الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرِّزَ بن جابر يُمدُّ المشركين، فشق ذلك عليهم، فأَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ﴾ - إلى قوله: ﴿مُسَوِّينَ﴾ قال: فبلغت كُرْزًا الهزيمة، فلم يمدَّ المشركين، ولم يمدَّ اللهُ المسلمين بالخمسة [ابن أبي حاتم/٤٠٩٥]، وقال الربيع بن أنس: أمدَّ اللهُ المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف [ابن أبي حاتم/٤٠٩٦]، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ - إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟ [الأنفال: ٩، ١٠] فالجواب أن التنصيص على الألف - هاهنا - لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ بمعنى: يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوفاً آخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم، وقال قتادة: أمدَّ اللهُ المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد مُتَعَلِّقٌ بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذٍ، زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَوْلَىٰ ظُلْمٍ وَلَا تَتَّقُوا مَوْلَىٰ ظُلْمٍ﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَوْلَىٰ ظُلْمٍ وَلَا تَتَّقُوا مَوْلَىٰ ظُلْمٍ﴾ يعني: تصبروا على مُصَابِرَةِ عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري، وقوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَوْلَىٰ ظُلْمٍ وَلَا تَتَّقُوا مَوْلَىٰ ظُلْمٍ﴾ قال الحسن، وقاتدة، والربيع، والسدي: أي: من وجههم هذا، وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أي: من غضبهم هذا، وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم، وقال ابن عباس: من سفرهم هذا.

وقوله تعالى: ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّينَ﴾؛ أي: معلمين بالسِّمَا، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضًا في نواصي خيلهم [ابن أبي حاتم/٤١٠٧]، وعن أبي هريرة في هذه الآية ﴿مُسَوِّينَ﴾ قال: بالعن الأحمر [ابن أبي حاتم/٤١٠٨]، وقال مجاهد: ﴿مُسَوِّينَ﴾؛ أي: مُحَدِّقَةً أَعْرَافَهَا، مُعَلِّمَةً نَوَاصِيهَا بالصوف الأبيض في أذنان الخيل، وقال ابن عباس: أتت الملائكة محمدًا صلى الله عليه وسلم، مسومين بالصوف، فسَوَّم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف [ابن أبي حاتم/٤١١٢]، وقال قتادة، وعكرمة: ﴿مُسَوِّينَ﴾؛ أي: بسيما القتال، وقال مكحول: مسومين بالعمائم، وعن ابن عباس، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وعن ابن عباس [أيضًا] قال: كان سيما الملائكة يوم بدر، عَمَائِمٌ بيض قد أَرْسَلُوها في ظهورهم، ويوم حنين عَمَائِمٌ حُمْرًا، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدَدًا ومددًا لا يضربون، وعن يحيى بن عباد أن

الزبير عليه السلام، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجِرًا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمام صُفْر [ابن أبي حاتم/٤١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِذِهِ﴾؛ أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لا انتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْلُكُمُ بِهِمْ ۖ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا هُمْ ۖ﴾ [محمد: ٤-٦]، ولهذا قال هاهنا ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۖ وَمَا لَانتَصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والإحكام.

ثم قال تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾؛ أي: ليهلك أمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُونَ﴾؛ أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْتُمُونَ فَيَنْقَلِبُوا﴾؛ أي: يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾؛ أي: لم يحصلوا على ما أملوا، ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: بل الأمر كله إلي، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام، فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي: يستحقون ذلك، وروى البخاري [٣٨٤٢] عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: (اللَّهُمَّ الْعَنَ فُلَانًا وَفُلَانًا) بعدما يقول: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وروى الإمام أحمد [١١٩٧٤] عن أنس عليه السلام، أن النبي ﷺ، كسرت رباعيته يوم أُحُد، وشَجَّ في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَٰذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ)، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [ورواه مسلم نحوه/١٧٩١].

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو المتصرف فلا مُعَقَّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿وَاللَّهُ عَفُوٌّ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا
إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ
اللَّهُ تَوَكَّلْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون: إذا حل أجل الدين، إما أن يقضي وإما أن يُرَبِّي، فإن قضاءه وإلا زاده في المدة، وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلمهم يفلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارة إلى نيل القربات، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: كما أعدت النار للكافرين، وقد قيل إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]؛ أي: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المُقَبَّب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في «صحيح [البخاري نحوه/ ٢٦٣٧]»: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ)، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [٢١].

وقد رَوينا في «مسند الإمام أحمد» [١٥٦٩٣] أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: (سُبْحَانَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّيْلَ إِذَا جَاء النَّهَارُ؟) [قال ابن كثير في «تاريخه»: وإسناده لا بأس به]، وعن طارق بن شهاب: أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرايتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة، وعن يزيد بن الأصم: أن رجلاً من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟، وقد روي هذا مرفوعاً، رواه البزار عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرايت قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: (أرايت اللَّيْلَ إِذَا جَاء لَبَسَ كُلُّ شَيْءٍ، فَإِنَّ النَّهَارَ؟) قال: حيث شاء الله، قال: (وَكَذَلِكَ النَّارُ

تَكُونُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ﷻ [وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٢٧/٦: رجاله رجال الصحيح].

وهذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله ﷻ، وهذا أظهر.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها، كما قال الله ﷻ: ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْفَرَاءِ﴾؛ أي: في الشدة والرخاء، والمُنْشَطِ والمَكْرَهِ، والصحة والمرض وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالْهَكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]؛ والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾؛ أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه؛ بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. روى الإمام أحمد [٧٢١٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)، وقد رواه الشيخان [البخاري/٥٧٦٣ ومسلم/٢٦٠٩].

وروى الإمام أحمد [١٦٠٠٦] عن جارية بن قدامة السعدي، أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ لعلني أعيه، فقال رسول الله ﷺ: (لَا تَغْضَبْ) فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول: (لَا تَغْضَبْ) [وصححه ابن حبان/٥٦٨٩]، وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: (إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ)، ورواه أبو داود [٤٧٨٢].

روى الإمام أحمد [٣٠١٧] عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ، وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ - ثَلَاثًا - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ، وَالسَّيِّدُ مَنْ وَفَى الْفِتْنَ، وَمَا مِنْ جَرَعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَرَعَةٍ غَيِظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ جَوْفُهُ إِيْمَانًا) انفراد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتمنه حسن.

فقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾؛ أي: لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله ﷻ، ثم قال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾؛ أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث: (ثَلَاثُ أَفْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ) [رواه مسلم بلفظ قريب/٢٥٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. روى الإمام أحمد [٧٩٣٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ). أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٧٠٦٨ ومسلم/٢٧٥٨] بنحوه.

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الإمام أحمد بن حنبل [٢]، عن علي رضي الله عنه، قال: إن أبا بكر رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ﷻ إِلَّا غَفَرَ لَهُ)، ورواه أهل السنن، وقال الترمذي [٤٠٦]: هو حديث حسن، ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في «صحيحه» [٢٣٤] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ فَيُسَبِّحُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ)، وفي «الصحيحين» [البخاري/١٥٨ ومسلم/٢٢٦] عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَحْدِثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)، فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» [١١٢٥٥] عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: (قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا أَزَالُ أَغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَلَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي) [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ أي: لا يغفرها أحد سواه، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمته الله في «مسنده» عن أبي بكر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً)، ورواه أبو داود [١٥١٤]، والترمذي [٣٥٥٩]، والبخاري [١٧١/١]، في مسنده، وهو حديث حسن، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من

تاب تاب الله عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جدًا، وروى الإمام أحمد [٦٥٤١] عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال وهو على المنبر: (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ، وَبِلِّ لَأَقْمَعَ الْقَوْلُ، وَبِلِّ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [وقال المنذري بإسناد جيد]، ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ﴾؛ أي: جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: من أنواع المشروبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكتين فيها ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ١٣٧ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ١٤٢ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ١٤٣ .

يقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾؛ أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾؛ يعني: القرآن فيه بيان للأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ يعني: القرآن فيه خبر ما قبلكم. و﴿وَهَدًى﴾ لقلوبكم و﴿مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: زاجر عن المحارم والمآثم، ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ﴾؛ أي: إن كنتم قد أصابتمكم جراح وقتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ أي: نُدِيل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ يعني: يقتلون في سبيله، ويبدلون مهجهم في مرضاته ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب، وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وقوله: ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقتهم وفنائهم.

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾؛ أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَاءُ وَزُلُوفًا﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾؛ أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلُوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾؛ أي: قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم، تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فهذا قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٢٨٠٤ ومسلم/ ١٧٤٢] أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهُ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾؛ يعني: الموت شاهدتموه في وقت لمعان السيوف وحد الأمانة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَالْتَمَسُوا اللَّهَ يَوْمَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) .

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجَوَّزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء ﷺ، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾؛ أي: رجعتم القهقري ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ﴾؛ أي: الذين

قاموا بطاعته وقتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيًّا وميتًا، وكذلك ثبت في «الصحيح»، و«المسانيد»، و«السنن» وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، أن الصديق (عليه السلام)، تلا هذه الآية لما مات رسول الله (ﷺ)، فروى البخاري [٤١٨٧] عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة أن عائشة (رضي الله عنها)، أخبرته أن أبا بكر (رضي الله عنه)، أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيَّم رسول الله (ﷺ) وهو مُعْشَى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقَبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها، وقال الزهري: حدَّثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يُحدِّث الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ - إلى قوله - ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها، وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقِرْتُ حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هَوَيْتُ إلى الأرض.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُّوجِلًا﴾؛ أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: ﴿كِنَبَأٌ مُّوجِلًا﴾ كقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾؛ أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم، ثم قال تعالى مسلمًا للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد: ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ عن ابن مسعود قال: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ أي: ألوف، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة [وغيرهم]: الربيون الجموع الكثيرة، وعن الحسن: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ أي: علماء كثير، وعنه أيضًا: علماء ضُبر أبرار أتقياء، وقال ابن زيد: الربيون: الأتباع والرعية، والربانيون: الولاة.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال قتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله، وقال ابن عباس: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ تَحَشَّعُوا، وقال السدي، وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم، وقال محمد بن إسحاق، والسدي، وقتادة: أي: ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

دُونَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْكُفَرِ؛ أَي: لم يكن لهم هجيري إلا ذلك ﴿فَنَالَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾؛ أَي: النصر والظفر والعاقبة ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾؛ أَي: جمع لهم ذلك مع هذا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَتَّيْنُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْخِلُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَغَصَبْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَتْبَكُمُ غَمًّا بَعِيدًا لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْخِلُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه، فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم، مع ما أذخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال، فقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾، وقد ثبت في «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُيْعَتْ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٤٢٧ ومسلم نحوه/٥٢١].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ) [تفسير الطبري ٤/١٧٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ قال ابن عباس: وعدهم الله النصر، وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥] أن ذلك كان يوم أحد؛ لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما

حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَهُ وِعْدَهُ﴾؛ أي: أول النهار ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾؛ أي: تقتلونهم ﴿بِأَذْنِهِ﴾؛ أي: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ قال ابن عباس: الفشل: الجبن ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كما وقع للرماة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْكَبْتُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر منهم ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أدا لهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾؛ أي: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك، والله أعلم، لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم، قال ابن جريج: قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ قال: لم يستأصلكم، وكذا قال محمد بن إسحاق ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وروى الإمام أحمد [٢٦٠٩] عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله النبي ﷺ في موطن كما نصره يوم أحد، قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ آلَهُ وِعْدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ﴾ يقول ابن عباس والحس: القتل ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْكَبْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ الآية، وإنما عني بهذا الرماة، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال: (احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقُتِلْ فَلَا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تُشْرِكُونَا) فلما غنم النبي ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعاً دخلوا في العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ فهم هكذا - وشبك بين يديه - وانتشبا، فلما أخل الرماة تلك الخلعة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا وقتل من المسلمين، ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار، إنما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قتل محمد، فلم يُشك فيه أنه حق، فلا زلنا كذلك ما نشك أنه حق حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين نعرفه بتكفئه إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، قال: فرقى نحونا وهو يقول: (اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا) حتى انتهى إلينا، وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وهو من مراسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحداً ولا أبوه، وقد أخرجه الحاكم في «مستدرکه» [٣١٦٣] ولبعضه شواهد في «الصحاح» وغيرها عن ابن مسعود، والبراء، والزبير بن العوام.

وعن عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [ابن أبي حاتم/٤٣٣٠] وكذا روي عن عبد الرحمن بن عوف وأبي طلحة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ روى البخاري [٣٨٢٢] عن أنس بن مالك أن عمه؛ يعني: أنس بن النضر، غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن

أشهدني الله مع رسول الله ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال: اللَّهُمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عُرف حتى عرفته أخته ببنائه بشامة، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم، هذا لفظ البخاري، وأخرجه مسلم [١٩٠٣] بنحوه.

وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾؛ أي: صرفكم عنهم إذ تصعدون؛ أي: في الجبل هارين من أعدائكم ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾؛ أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ﴾؛ أي: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة. قال السدي: لما شدد المشركون على المسلمين بأحد فهزمهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم [فوق] الجبل [إلى] الصخرة فقاموا عليها، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: (إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم، فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ﴾ [الطبري ١٣٣/٤] وكذا قال ابن عباس، وقتادة، والربيع، وابن زيد.

وقد كان النبي ﷺ قد أُفِرِدَ في اثني عشر رجلاً من أصحابه كما روى الإمام أحمد [١٨٦١٦] عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير قال: ووضعهم موضعاً، وقال: (إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَانَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ)، قال: فهزمهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن، فقال: أصحاب عبد الله الغنيمة؛ أي: قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قاله لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لنأتين الناس، فلنصيب من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فأصابوا من سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ - ثلاثاً - قال: فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عدت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وإنكم ستجدون في القوم مثلة لم أمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز يقول: اعل هبل اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: (أَلَا تُحْيِيُوهُ؟) قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ) قال: لنا العزى ولا عزى لكم. قال رسول الله ﷺ: (أَلَا تُحْيِيُوهُ؟) قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ)، وقد رواه البخاري [٢٨٧٤] بأبسط من هذا، والله أعلم.

وفي «الصحيحين» [البخاري/٣٥١٧ ومسلم نحوه/٢٤١٤] عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ، في بعض الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ، غير طلحة بن عبيد الله، وسعد عن حديثهما، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ - أَوْ - وَهُوَ رَفِيقِي بِالْجَنَّةِ؟) فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضًا فقال: (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟) فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضًا فقال: (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟) فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: (مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا)، ورواه مسلم به [١٧٨٩] نحوه، وعن سعد بن أبي وقاص يقول: نُثِّلَ لِي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال: (ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي)، وأخرجه البخاري [٣٨٢٩].

وثبت في «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده [البخاري/٣٨٢٨ ومسلم/٢٣٠٦]؛ يعني: جبريل وميكائيل ﷺ، وعن عروة بن الزبير، قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله حلفته، قال: (بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) فلما كان يوم أحد، أقبل أبي في الحديد مقنعًا وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مُصْعَبُ بن عمير، أخو بني عبد الدار، بقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْفُوةَ أَبِي بن خلف، من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة وطعنه فيها بحرته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأناه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: (أَنَا أَقْتُلُ أَبِيًّا) ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي، بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات إلى النار فسحقًا لأصحاب السعير [الحاكم نحوه/٣٢٦٣].

وثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣٨٤٥ ومسلم/١٧٩٣] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ حَيْثُ يُشِيرُ إِلَى رِبَاعِيَّتِهِ - اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، وقال محمد بن إسحاق بن يسار: أصيبت رباعية رسول الله ﷺ، وشج في وجنته، وكُلِّمَتْ شَفَتُهُ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص.

وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٧٥٤ ومسلم/١٧٩٠] عن سهل بن سعد، أنه سئل عن جُرح رسول الله ﷺ فقال: جُرح وجه رسول الله ﷺ وكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ ﷺ، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم وكان علي يسكب عليه الماء بِالْمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رمادًا ألصقته بالجُرح فاستمسك الدم.

وقوله: ﴿فَأَنْتَبَكُمُ عَمَّا يُعْمَرُونَ﴾؛ أي: فجزاكم غمًا على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، ونزلت على بني فلان، وقال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل، قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، وحين قيل قتل

محمد ﷺ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: (اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلَوْنَا) [الحاكم/٣١٦٣] وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني حين قتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد من الهزيمة، وروي عن عمر بن الخطاب، وعن قتادة نحو ذلك أيضًا، وقال السدي: الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثاني بإشراف العدو عليهم، وقال محمد بن إسحاق ﴿فَأَثْبَكُمْ غَمًّا يَغْمِرُ﴾؛ أي: كربًا بعد كرب، قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَعُلُوُّ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ، وما وقع في أنفسكم من قول من قال: قُتِلَ نَبِيِّكُمْ، فكان ذلك متتابعًا عليكم غمًّا بغم، وقال مجاهد، وقاتدة: الغم الأول سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح، وعن قتادة، والربيع بن أنس عكسه.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: ﴿فَأَثْبَكُمْ غَمًّا يَغْمِرُ﴾ فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح، يومئذ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ غم ظنكم أن نبيكم قد قتل وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيْكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾؛ أي: على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف، والحسن، وقاتدة، والسدي ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

يقول تعالى مُمْتَنًا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمانة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مُسْتَلْثَمُو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، وعن عبد الله بن مسعود، قال: النعاس في القتال من الله وفي الصلاة من الشيطان، وروى البخاري [٣٨٤١] عن أبي طلحة، قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ورواه البيهقي [لم أجده عنده، ورواه الترمذي/٣٠٠٨] عن قتادة عن أنس بن مالك أن أبا طلحة قال: غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي

يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق ﴿يَطْئُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كَذْبَةً، أهل شك وريب في الله ﷻ، هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو كما قال، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ أَلْغَمٍ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ﴾؛ يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن الله ﷻ سينصر رسوله ويُنجِز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾؛ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَطْئُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَقْلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَٰهَ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] إلى آخر الآية، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾؛ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ، عن عبد الله بن الزبير، قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ ما أسمعُه إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ لقول معتب [ابن أبي حاتم/٤٣٧٣].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ أي: هذا قدر مقدَّر من الله ﷻ وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: عما كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾؛ أي: يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم.

روى الإمام أحمد [٤٩٠] عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان، فقال له عبد الرحمن: أبلغه أنني لم أفر يوم حنين، قال عاصم: يقول يوم أحد: ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر، قال: فانطلق فأخبر بذلك عثمان، قال: فقال عثمان: أما قوله إني لم أفر يوم حنين، فكيف يعيرني بذنبي قد عفا الله عنه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ. وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد،

وأما قوله إني تركت سنة عمر فإني لا أطيقها ولا هو، فآته فحدثه بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَٰكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَٰكِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار وفي الحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾؛ أي: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا غُرَىٰ﴾؛ أي: في الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾؛ أي: في البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾؛ أي: ما ماتوا في السفر، ولا قتلوا في الغزو.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم، ثم قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزَاد في عمر أحد ولا يُنْقَص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: وعلمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضًا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني، ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجه إلى الله ﷻ، فيجزيه بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فقال: ﴿وَلَٰكِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَٰ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخاطبًا رسوله، ممتنًا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين

لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ لَكُنْتُمْ أَفْهَامًا﴾؛ أي: أي شيء جعلك لهم لينًا، لولا رحمة الله بك وبهم، قال قتادة: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ لَكُنْتُمْ أَفْهَامًا﴾ فبرحمة من الله لنت لهم، و«ما» صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا هاهنا قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ لَكُنْتُمْ أَفْهَامًا﴾؛ أي: برحمة من الله، وقال الحسن البصري: هذا خُلِقَ محمد ﷺ بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ والفظ الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾؛ أي: لو كنت سيئ الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، ولأن جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: «إنه رأى رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سَخَاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» [أخرجه البخاري/ ٤٥٥٨]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَث، تطييبًا لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك، وبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك مقاتلون، وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذٍ، فأبى عليه ذلك السعدان سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذاريي المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال، وقال ﷺ في قصة الإفك: (أُشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ ابْنِ أَبِي هَالِيٍّ وَمَوْمِهِمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا) [روى أبو يعلى نحوه/ ٤٩٣١]، واستشار عليًا وأسماء في فراق عائشة رضي الله عنها، فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبًا عليه أو من باب الندب تطييبًا لقلوبهم؟ على قولين.

وقد روى الحاكم في «مستدركه» [٤٤٣٦] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى ابن ماجه [٣٧٤٥] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ)، ورواه أبو داود [٥١٢٨]، والترمذي [٢٣٦٩]، وحسنه، والنسائي.

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا أَلْنَصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ثم أمرهم بالتوكل عليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. عن ابن عباس قال: نزلت في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها، فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وكذا رواه أبو داود [٣٩٧١]، والترمذي [٣٠٠٩]، وقال: حسن غريب، وهذه تبرئة له صلوات الله وسلامه عليه عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك. وعن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾؛ أي: بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً، وكذا قال الضحاك، وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته، وقرأ الحسن البصري، وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ بضم الياء؛ أي: يخان، وقال قتادة، والربيع بن أنس: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غلَّ بعض أصحابه، رواه ابن جرير عنهما، ثم حكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى يُتَّهم بالخيانة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السُّنَّة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة.

روى الإمام أحمد [١٧٢٩٤] عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: (أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [وحسن إسناده الهيثمي].
روى الإمام أحمد [٢٣٦٤٦] عن أبي حميد الساعدي: قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: (مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبَعْتُهُ فَبِجِيءٍ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي لِي: أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَبْهَدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رَعَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ) ثم رفع يديه حتى رأينا غُفْرَةً إبطيه ثم قال: (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ) ثلاثاً [أخرجه البخاري ٦٥٧٨ ومسلم ١٨٣٢].

روى الإمام أحمد [١٧٧٥٣] عن عدي بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلًا فَكَتَمْنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا قُوَّةُ، فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) قال: فقام رجل من الأنصار أسود فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: (وَمَا ذَاكَ؟) قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: (وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلْبِيهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى) وكذا رواه مسلم [١٨٣٣].

روى الإمام أحمد [١٤٤] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ وَجَدْتُمْ فِي مَتَاعِهِ غُلُولًا فَأَحْرِقُوهُ) قال: وأحسبه قال: (واضربوه)، ورواه أبو داود [نحوه/٢٧١٣]، والترمذي

[نحوه/ ١٤٦١] عن أبي واقد الليثي الصغير، وقد قال علي بن المديني والبخاري وغيرهما: هذا حديث منكر من رواية أبي واقد هذا، وقال الدارقطني: الصحيح أنه من فتوى سالم فقط، وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله ومن تابعه من أصحابه، وخالفه أبو حنيفة، ومالك، والشافعي والجمهور فقالوا: لا يحرق متاع الغال بل يعزر تعزير مثله، وقال البخاري: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال، ولم يحرق متاعه، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجبر من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير، وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْفٌ كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصر: ٦١].

ثم قال: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق؛ يعني: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل؛ يعني: متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وسيؤفهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كلًا بعمله.

وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]؛ أي: من جنسكم، وقال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾؛ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ يعني: القرآن والسنة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لفي غي وجهل ظاهر جلبي بين لكل أحد.

﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْفِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَهَا﴾؛ يعني: يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً ﴿قُلْنَا أَيْنَ هَذَا؟﴾ أي: من أين جرى علينا هذا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

عن علي رضي الله عنه، قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمركم أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يُقدّموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يُقتل منهم عدّتهم، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، فذكر ذلك لهم فقالوا: يا رسول الله، عشائرنّا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدّتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً، عدة أسارى أهل بدر، رواه الترمذي [نحوه/١٥٦٧]، والنسائي [نحوه/٨٦٦٢]، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدي: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: بسبب عصيانكم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم؛ يعني: بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ؟﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحاتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُكَلِّمُنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾؛ يعني: بذلك أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَدْفَعُوا﴾ قال ابن عباس، وعكرمة وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو صالح، والحسن، والسدي: يعني: كثروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفخوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً.

قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، لقوله: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾، فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ثم قال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا﴾؛ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ (١٦٩) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥).

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. روى مسلم في «صحيحه» [١٨٨٧] عن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: (أَرَوَّاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعُرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيْ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَقَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا،) وقد روي نحوه من حديث أنس، وأبي سعيد.

وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣٨٥٢ ومسلم/٢٤٧١] عن جابر قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني، والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبي ﷺ: (لَا تَبْكِيه - أَوْ مَا تَبْكِيه - مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ).

وروى الحاكم في «مستدركه» [٣٤٥٧] عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وكذا قال قتادة، والربيع، والضحاك: أنها نزلت في قتلى أحد.

روى الإمام أحمد [٢٣٩٠] عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكَرَةً وَعَشِيًّا). تفرد به أحمد، وقد رواه ابن جرير [١٧١/٤] وإسناده جيد.

وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا في «مسند الإمام أحمد» حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكُل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله

لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رحمته الله، رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمته الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمته الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رحمته الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ) [أحمد/١٥٨١٦] قوله: «يلق»؛ أي: يأكل، وفي هذا الحديث: (إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ).

وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكوكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يمتينا على الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ يَمَآءَاتَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية؛ أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون مما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم. قال محمد بن إسحاق: ﴿وَسَتَّبَشِرُونَ﴾؛ أي: ويسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم.

وقال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه: يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بقدوم غيائهم، وقال سعيد بن جبیر: لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء، قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال بأشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم؛ أي: ربهم، أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿وَسَتَّبَشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٨٩٩ ومسلم/٦٧٧] عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن وقرأناه حتى رفع: (أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا).

ثم قال: ﴿يَسْتَبَشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم، إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كرّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تندموا لم لا تمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرْعِبَهُمْ ويريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فانتدب المسلمون

على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ، عن عكرمة، قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواكب أردفتهم، بشمما صنعتهم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد - أو بئر أبي عبيدة فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليطنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يؤهنهم عن عدوهم.

روى البخاري [٣٨٤٩] عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية، قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: (مَنْ يَرْجِعْ فِي إِيْرِهِمْ؟) فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر، والزبير رضي الله عنهما.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ رَجَعَ وَقَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ، فَمَنْ يَنْتَدِبُ فِي طَلْبِهِ؟)، فقام النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فاتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقي عيراً من التجار فقال: ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا، وأخبروهم أنني قد جمعت لهم جموعاً وأناي راجع إليهم، فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك، قال النبي ﷺ: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، فأنزل الله هذه الآية [ابن أبي حاتم/٤٥١٢]، وهكذا قال عكرمة، و قتادة وغير واحد: إن هذا السياق نزل في شأن حمراء الأسد، وقيل: نزلت في بدر الموعد، والصحيح الأول.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية؛ أي: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكثرثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

روى البخاري [٤٢٨٧] عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين [قالوا]: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وروى الإمام أحمد [٣٠١٠] عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾ [المندر: ٨]، قال:

قال رسول الله ﷺ: (كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقُرْنُ وَحَتَّى جَبَهَتُهُ، يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ؟) فقال أصحاب [محمد] ﷺ، فما نقول؟ قال: (قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) وقد روي هذا من غير وجه، وهو حديث جيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾؛ أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ قال: هذا أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ موعدهم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فقال محمد ﷺ: (عَسَى)، فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرًا، فوافقوا السوق فيها، فابتاعوا، فذلك قول الله ﷻ: ﴿فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾. قال: وهي غزوة بدر الصغرى [الطبري ١٨١/٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ أي: يخوفكم أوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: فإذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجاؤا إلي، فأنا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧٨) ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَاللَّهُ يَبْرِئُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثم قال تعالى مخبرًا عن ذلك إخبارًا مقررًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾؛ أي: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ أي: ولكن يضررون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ كقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (٥٥) ﴿سَارِعٌ لَّهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾؛ أي: لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر؛ يعني: بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد، وقال قتادة: مَيَّزَ بينهم بالجهاد والهجرة، وقال السدي: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾؛ أي: حتى يُخرج المؤمن من الكافر، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾؛ أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يُميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك. ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ كقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفَهُ رِصْدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، ثم قال: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾؛ أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَتَقَبَّلْوا فَلََكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه، ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة، فقال: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوبِهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، روى البخاري [١٣٣٨] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ شَجَاعًا أَفْرَعَ لَهُ رَبِّبَتَانِ، يُطَوِّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ) ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله ﷻ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: بنياتكم وضمايركم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ أَنَاذُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْبَلِيبَتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَلِيبَتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤).

عن ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك. يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية [ابن أبي حاتم/ ٢٤٢٩].

وقوله: ﴿سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعد؛ ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ أي: هذا قولهم في الله وهذه معاملتهم لرسول الله وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨٦) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ؛ أي: يقال لهم ذلك تقرعاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بُرْهَانٌ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى: تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فتقبلت منه، أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس، والحسن وغيرهما.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج والبراهين ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾؛ أي: وبنار تأكل القرايين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسول، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؛ أي: لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؛ أي: البين الواضح الجلي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحَّجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦).

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَإِنَّ (١٨٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحمة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولاً.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وقرعت النطفة التي قدر الله وجودها في صلب آدم وانتهت البرية، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وقوله: ﴿فَمَن زُحَّجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز، روى ابن أبي حاتم [٤٦١٠] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَوْضِعُ سَوِّطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤُوا إِن شَاءَ) ﴿فَمَن زُحَّجَ

عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿﴾ هذا حديث ثابت في «الصحيحين» [البخاري/٣٠٧٨] بدون هذه الزيادة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَّزَحَ عَنِ النَّارِ وَأَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَيِّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ) [أخرجه أحمد/٦٨٠٧ ومسلم نحوه/١٨٤٤].

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية، قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الاعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠]، وفي الحديث: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بيم ترجع إليه؟) [رواه مسلم بنحوه/٢٨٥٨]، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ قال: هي متاع هي متاع، متروكة أوشكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿تَتَلَوَّنَا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَّتِ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥] إلى آخر الآيتين؛ أي: لا بد أن يتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿وَلَنَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلماً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وأمرهم لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَفَقَّوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

روى البخاري [٤٢٩٠] عند تفسير هذه الآية عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكئة، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، حَمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تُعْبَرُوا علينا، فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله ﷻ وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتتأرون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفصهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد، فقال له النبي ﷺ: (يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ) يريد عبد الله بن أبي، قال: كذا وكذا، فقال سعد: يا رسول الله،

اعف عنه واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلاح أهل هذه البُحيرة على أن يُتَوَجَّوه وَيُعَصَّبُوهُ بالعصاة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَسَمِعْنَا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبد الأوثان: هذا أمر قد تَوَجَّه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام وأسلموا.

فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤدي فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله والرجوع إلى الله ﷻ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩).

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والخط الديني السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسَلِّكَ بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ، أنه قال: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَجَامٍ مِنْ نَارٍ) [رواه أحمد/٧٥٦١ وأبو داود/٣٦٥٨ والترمذي/٢٦٤٩ وقال: حسن وابن ماجه/٢٦٤٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ أَعْدَابُ﴾؛ يعني: بذلك المرائين المتكثرين بما لم يُعْطُوا، كما جاء في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: (مَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةٍ لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قَلَّةً) [مسلم/١١٠]، وفي «الصحيح» أيضًا: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَايَسِ نَوْبِي زُورٍ) [البخاري/٤٩٢١]، وروى الإمام أحمد [٢٧١٢] عن مروان أنه قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح

بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذب أجمعون، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ وقال ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية، وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموا إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه، وهكذا رواه البخاري في «التفسير» [٤٢٩٢]، ومسلم [٢٧٧٨]، وروى البخاري [٤٢٩١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَقَادِرٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم؛ أي: لا تحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لا بد لهم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٦) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩٦) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٦) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٦) رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٦).

معنى الآية أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات، وزروع وثمار، وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُوتَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٩٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٩٦﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثم وصف تعالى أولي الألباب، فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، كما ثبت في «صحيح البخاري» [١٠٦٦] عن عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبِكَ)؛ أي: لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم وألستهم ﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته، وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت الله علي فيه نعمة أو لي فيه عبرة، وعن الحسن البصري أنه قال: تَفَكَّرْ ساعة خير من قيام ليلة، وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ولا فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل، وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله ﷻ حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة، وقال عبد الله بن المبارك: مر رجل براهب عند مقبرة ومزيلة، فناده فقال: يا راهب، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر: كنز الرجال، وكنز الأموال، وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخبرة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين، فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وعن ابن عباس أنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكير، خير من قيام ليلة والقلب ساه، وقال الحسن: يا ابن آدم، كل في ثلث بطنك، واشرب في ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة، وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه، وعن عامر بن عبد قيس، قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر، وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أنه بكى يومًا بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن اذكر.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُوتَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٩٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾؛ أي: ما خلقت هذا الخلق عبثًا، بل بالحق لتجزئ الذي أسأوا بما عملوا، وتجزئ الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: عن أن تخلق شيئًا باطلاً ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ أي: يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو مُنَزَّهٌ عن النقائص والعيب والعبث. قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقِيضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾؛ أي: أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾؛ أي: يوم القيامة لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عما أردت بهم

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾؛ أي: داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ يقول أن ﴿ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾؛ أي: فاستجبنا له واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ أي: بإيماننا واتباعنا نبيك، فاعفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا؛ أي: استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فيما بيننا وبينك ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾؛ أي: ألحقنا بالصالحين ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على السنة رسلك، وهذا أظهر ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾؛ أي: لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رُسُلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري [٤٢٩٣] عن ابن عباس، قال: بثُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح، وكذا رواه مسلم [بنحوه/٢٥٦].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: فأجابهم ربهم، روى سعيد بن منصور، عن أم سلمة قالت: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي﴾ إلى آخر الآية، وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا، وقد رواه الحاكم في «مستدركه» [٣١٧٤] وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه.

ومعنى الآية أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي﴾ هذا تفسير للإجابة؛ أي: قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنفى.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾؛ أي: جميعكم في ثوابي سواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾؛ أي: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾؛ أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾؛ أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال

تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَنَنْصُرُنَّهُ بِمَا هُوَ يُدْعَىٰ إِلَيْهِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقُومُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتُكْفِرَ عَنْكُمْ ذُنُوبُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيُكَفَّرَ جَوَادُهُ وَيَعْفَرَ وَجْهَهُ بِدَمِهِ وَتَرَابِهِ، وقد ثبت في «صحيح [مسلم/١٨٨٥]» أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرايت إن قُتِلْتُ في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدْبِرٍ، أَيْكَفَّرَ اللهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قال: (نَعَمْ) ثم قال: (كَيْفَ قُلْتَ؟) فأعاد عليه ما قال، فقال: (نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ، قَالَهُ لِي جَبْرِيلُ أَنْفًا)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿تَوَّابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلًا كثيرًا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾؛ أي: عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا، وعن شداد بن أوس أنه كان يقول: يا أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يحب، فليحمد الله، وإذا أنزل به شيء مما يكره، فليصبر وليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب [ابن أبي حاتم/٤٦٧١].

﴿لَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦) ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٩٧) ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٨).

يقول تعالى: لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مُتَرَفُونَ فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ وَيَصْبَحُونَ مُرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا نَمُدُّ لَهُمْ فِيْمَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعُ مَا هُمْ فِيهِ ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي إِيمَانِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار، قال بعده: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

عن ابن عمر، قال: إنما سَمَّاهُمُ اللهُ أَبْرَارًا؛ لأنَّهم بَرَّوْا الآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ، كَمَا أَنَّ لَوْلَايَكَ عَلَيْكَ حَقًّا كَذَلِكَ لَوْلَكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، وعن الحسن، قال: الأبرار الذين لا يؤذون الذُّرَّ، وعن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ ويقول: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلُ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] [الطبري ٢١٨/٤] وعن ابن مسعود نحوه.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ .

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله؛ أي: مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى، وقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ ءَايَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا بُلِغَ عَلَيْهِمْ قَوْلًا ءَامَنُوا بِهِ ءِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ۖ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ يَمَّا صَبَرُوا ﴿الآية [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلًا كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُهُمُ الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ يَمَّا قَالُوا جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية [المائدة: ٨٢ - ٨٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الآية.

وثبت في «الصحيحين» أن النجاشي لما مات نَعَاهُ النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: (إِنَّ أَخَاكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ) [البخاري نحوه/ ٣٦٦٤ ومسلم/ ٩٥٣].

وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في «مستدركه» [٣١٧٥] عن عبد الله بن الزبير، قال: نزل بالنجاشي عدو من أرضهم، فجاء المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جراتنا ونجزيك بما صنعت بنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله ﷻ خير من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وعن مجاهد: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ يعني: مسلمة أهل الكتاب، وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ وبالذي اتبعوا محمدًا ﷺ، وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ) فذكر منهم: (وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي) [البخاري/ ٢٨٤٩ ومسلم/ ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم

كما فعله الطائفة المردولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ يعني: سريع الإحصاء، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قال الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء، وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المراقبة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس وسهل بن حنيف ومحمد بن كعب القُرَظِي وغيرهم، وروى ابن أبي حاتم [٤٧٠٣] ومسلم [٢٥١] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ).

وقيل: المراد بالمراقبة هاهنا مراقبة الغزو في نُحُورِ العدو وحفظ ثُغُورِ الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَةِ بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في «صحيحه» [٢٧٣٥] عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا).

وروى مسلم [١٩١٣] عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجِرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَنَ)، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [رواه الترمذي/١٦٣٩] ثم قال: حسن غريب.

وعن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه، قال: أملى علي عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وودعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، وفي رواية سنة سبع وسبعين ومائة:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا	لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ	فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلِ	فَخَيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تُتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا	رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا	قَوْلُ صَحِيحٍ صَادِقٍ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي	أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تُلْهَبُ

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يُكْذِبُ

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا، وأملى علي الفضيل بن عياض: حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ الْمَعْتَمِرِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي عَمَلًا أَنَالُ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: (هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَلِّيَ فَلَا تُفْطِرَ، وَتَصُومَ فَلَا تُفْطِرَ؟) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ طَوَّقْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَرَسَ الْمُجَاهِدَ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيَكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ الْحَسَنَاتُ) [أخرج البخاري أوله/٢٦٣٣ مرفوعًا وآخره موقوفًا عن أبي هريرة بهذا اللفظ أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢/٤٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) [أخرجه الترمذي/١٩٨٧ وقال: حسن صحيح].

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: واتقوا الله فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.



تفسير سورة النساء

وهي مدنية

عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة، وكذا روي عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت، وروي عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء لهن أحب إلي من الدنيا جميعاً: ﴿إِنْ تَجَتَبَوُا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [٣١]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا﴾ [٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [٤٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١١٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقْرِفُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١٥٢]، وعن ابن عباس قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولاهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ سُنَنِ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٦]، والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [٢٧]، والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [٢٨]، ثم ذكر قول ابن مسعود سواء؛ يعني: في الخمسة الباقية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [١].

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليه السلام خلقت من ضلعه الأيسر، ومن خلفه وهو نائم، فاستيقظ فراها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه، وعن ابن عباس، قال: خلقت المرأة من الرجل فجعل نهمتها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض فجعل نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم، وفي الحديث الصحيح: (إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَغْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ) [رواه مسلم نحوه/١٤٦٨].

وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾؛ أي: وذراً منهما؛ أي: من آدم وحواء رجلاً كثيراً ونساءً، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾؛ أي: واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾؛ أي: كما يقال: أسألك بالله

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾؛ أي: هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وفي الحديث الصحيح: (اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [في مسلم/ ٨ بمعناه]، وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض، ويحسنهم على ضعفائهم، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [١٠١٧] من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر وهم مُجْتَابُوا النَّمَارِ -؛ أي: من غُرَيْبِهِمْ وفقَرِهِمْ - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، حتى ختم الآية. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، ثم حضهم على الصدقة فقال: (تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ)، وذكر تمام الحديث، وهكذا روى الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ الآية.

﴿٢﴾ وَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمْنِ فَادْكُحُوا مَا طَاب لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبْعٍ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنُكُمْ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ مِنْ خِلْفَةٍ فَإِن طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَاءً مَّرِيًّا ﴿٤﴾ .

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والسدي، وسفيان بن حسين: أي: لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أي: إثماً كبيراً عظيماً، وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير،

والحسن، وابن سيرين، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وأبي مالك، وزيد بن أسلم، وأبي سنان مثل قول ابن عباس؛ والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبِئِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً﴾؛ أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه. روى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبِئِ﴾، قالت: يا ابن أخي هذه التيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبها مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنها أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

وقوله: ﴿مَثْنً وَتِلْكَ وَرَبْعٌ﴾؛ أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً. كما قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَيْكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مَثْنً وَتِلْكَ وَرَبْعٌ﴾ [فاطر: ١]؛ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وهذا الذي قاله الشافعي رحمه الله مجمع عليه بين العلماء إلا ما حكي عن طائفة من الشيعة، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع، وقال بعضهم: بلا حصر، وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في «الصحيحين»، وإما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري، وهذا عند العلماء من خصائص الرسول ﷺ دون غيره من الأمة لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع.

ذكر الأحاديث في ذلك:

منها ما روى الإمام أحمد [٤٦٣١] عن عبد الله بن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: (اخْتَرُ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا) فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقفذه في نفسك، ولعلك لا تمكث إلا قليلاً، وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن في مالك أو لأورثنهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال، وهكذا رواه الشافعي [نحوه ص ٢٧٤]، والترمذي، وابن ماجه [١٩٥٣]، والدارقطني [٣/ ٢٧٠]، والبيهقي [١٣٦٢٤ نحوه] [وروي مرسلاً وصححه ابن كثير بشواهد].

فوجه الدلالة: أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن معه فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز

الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى، والله ﷻ أعلم بالصواب.

حديث آخر في ذلك: روى أبو داود [٢٢٤١]، وابن ماجه [١٩٥٢] في «سننهما» عن الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي قال: أسلمت وعندي ثمانى نسوة فذكرت للنبي ﷺ فقال: (اخْتَرِ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا)، وهذا إسناد حسن.

حديث آخر في ذلك: روى الشافعي [ص٢٧٤] عن نوفل بن معاوية الديلي ﷺ، قال: أسلمت وعندي خمس نسوة فقال لي رسول الله ﷺ: (اخْتَرِ أَرْبَعًا أَيَّتُهُنَّ شِئْتَ، وَفَارِقِ الْأُخْرَى) فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معي منذ ستين سنة فطلقتها، فهذه كلها شواهد بصفة ما تقدم من حديث غيلان كما قاله البيهقي رحمه الله.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: فإن خشيتن من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجواري السراي؛ فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب فمن فعل فحسن، ومن لا فلا حرج، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾ قال بعضهم: ذلك أدنى ألا تكثر عائلتكم، قاله زيد بن أسلم، وسفيان بن عيينة، والشافعي رحمهم الله، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾؛ أي: فقرًا ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَأَكُمْ﴾ [التوبة: ٢٨] ولكن في هذا التفسير هنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراي أيضًا، والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾؛ أي: لا تجوروا، يقال: عال في الحكم: إذا قسط ظلم وجار.

وعن أبي إسحاق قال: كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة في شيء عاتبوه فيه: إني لست بميزان لا أعول، وروي عن ابن عباس وعائشة ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وأبي مالك، وأبي رزين، والنخعي، والشعبي، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: لا تميلوا.

وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ قال ابن عباس: النحلة المهر، وعن عائشة: نحلة فريضة، وقال مقاتل وقتادة، وابن جريج: نحلة؛ أي: فريضة. زاد ابن جريج: مسماء، وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذبًا بغير حق، ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتمًا، وأن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيبًا بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبًا بذلك فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالًا طيبًا؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾، عن علي قال: إذا اشتكى أحدكم شيئًا فليسأل امرأته ثلاثة دراهم أو نحو ذلك فليبتع بها عسلًا ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنيئًا مريئًا شفاء مباركًا، وعن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾
 ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الَّذِينَ أَلْيَنْتُمْ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾
 ﴿٦﴾

ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً؛ أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن هاهنا يُؤخذ الحَجْرُ على السفهاء وهم أقسام، فتارة يكون الحَجْرُ للصغير، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل، وتارة يكون الحجر للفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه، حَجَرَ عليه، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بَنُوكِ والنساء، وكذا قال ابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك، وقال سعيد بن جبيرة: هم اليتامى، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء، وعن أبي هريرة: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم الخدم، وهم شياطين الإنس.

وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: لا تَعْمَدَ إِلَى مَالِكَ وَمَا حَوْلَكَ اللَّهُ وجعله معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم، وعن أبي موسى، قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهاً، وقد قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشْهِد عليه، وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ يعني: في البر والصلة، وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحَجْرُ بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق والكلام الطيب وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ أَلْيَنْتُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي، ومقاتل بن حيان: أي: اختبروهم ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال مجاهد: يعني: الحُلُم، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحُلُم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، وفي الحديث عن عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهن عن النبي ﷺ قال: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ) [أخرجه أبو داود نحوه/٤٣٩٨، والنسائي/٣٤٣٢، وابن ماجه/٢٠٤١، وقواه بطرقه الحافظ ابن حجر].

أو يستكمل خمس عشرة سنة وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في «الصحيحين» [مسلم/١٨٦٨] عن [عبد الله] بن عمر، قال: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ فَلَمْ يَجْزِنِي، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةٍ فَأَجَازَنِي، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَاخْتَلَفُوا فِي إنبَاتِ الشَّعْرِ الْخَشَنِ حَوْلَ الْفَرْجِ، هَلْ تَدُلُّ عَلَى بُلُوغِ أَمْ لَا؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: يَفْرُقُ فِي الثَّالِثِ بَيْنَ صَبِيَّانِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا

يدل على ذلك لاحتمال المعالجة، وبين صبيان أهل الزمة فيكون بلوغاً في حقهم؛ لأنه لا يتعجل بها إلى ضرب الجزية عليه، فلا يعالجها، والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع؛ لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس واحتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السُّنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي رضي الله عنه، قال: عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قَرِيظَةَ، فَكَانَ مِنْ أَنْبَتِ قَتْلٍ وَمَنْ لَمْ يَنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلَهُ، فَكَنتَ فِيمَنْ لَمْ يَنْبِتْ فَخْلِي سَبِيلِي، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةَ بِنَحْوِهِ، الترمذي [١٥٨٤] وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿فَإِنْ عَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ يُنَادُوا فَادْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال سعيد بن جبیر: يعني: صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم، وكذا روي عن ابن عباس، والحسن البصري وغير واحد من الأئمة وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه، **وقوله:** ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامي من غير حاجة ضرورية إسرافاً ومبادرة قبل بلوغهم، ثم **قال تعالى:** ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من كان في غنى عن مال اليتيم فليستعفف عنه ولا يأكل منه شيئاً، وقال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ عن عائشة قالت: نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. رواه البخاري [٤٢٩٩]. قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله أو قدر حاجته، واختلفوا هل يرد إذا أيسر؟ على قولين: أحدهما: لا، لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل، وقد روى الإمام أحمد [٧٠٢٢] عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم؟ فقال: (كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَذِّرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقْيَ مَالَكَ - أَوْ قَالَ: تَقْدِي مَالَكَ بِمَالِهِ) [وهو صحيح بطريقه] ورواه أبو داود [٢٨٧٢]، والنسائي [٣٦٦٨]، وابن ماجه [٢٧١٨] بنحوه، وبهذا القول - وهو عدم أداء البدل - يقول عطاء بن أبي رباح، وعكرمة، وإبراهيم النخعي وعطية العوفي والحسن البصري. والثاني: نعم، لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيح للحاجة فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة، فعن البراء قال: قال لي عمر رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته، وإن استغنيت استعففت، إسناده صحيح وروى البيهقي [١٠٧٨٣] عن ابن عباس نحو ذلك، قال [ابن أبي حاتم]: وروي عن عبدة، وأبي العالية، وأبي وائل، وسعيد بن جبیر في إحدى الروايات ومجاهد والضحاك والسدي نحو ذلك، وعن ابن عباس أيضاً في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يأكل بثلاث أصابع، وعنه أيضاً: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يأكل من ماله، يقوت على يتيمة، حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، قال: وروي عن مجاهد وميمون بن مهران في إحدى الروايات والحكم نحو ذلك، وقال عامر الشعبي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة فإن أكل منه قضاه، وعن يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعه: إن كان فقيراً أنفق عليه بقدر فقره، ولم يكن للولي منه شيء، وهذا بعيد من السياق؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ يعني: من الأولياء: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا﴾؛ أي: منهم: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛

أي: بالتي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ أي: لا تقربوه إلا مصلحين له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾؛ يعني: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد منهم فحينئذ سلموهم أموالهم فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لثلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه، ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَٰصِبًا﴾؛ أي: وكفى بالله محاسبًا وشهيدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم للأموال هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم» [١٨٢٦] أن رسول الله ﷺ قال: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمَرَنَّ عَلَىٰ اثْنَيْنِ، وَلَا تَلِينَ مَالَ يَتِيمٍ).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية؛ أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لُحمة كُلُّحمة النسب.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل: المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فليُرْضَخْ لهم من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام، وقيل: يستحب. واختلفوا هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين، فروى البخاري [٤٣٠٠] عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾. قال: هي محكمة وليست بمنسوخة، وعن مجاهد قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، وهكذا روي عن ابن مسعود، وأبي موسى، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبي العالية، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، وسعيد بن جبير، ومكحول، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، ويحيى بن يعمر: إنها واجبة، وعن محمد بن سيرين قال: ولي عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي، وعن الزهري: أن عروة أعطى من مال مصعب حين قسم ماله، وقال الزهري: وهي محكمة، وعن مجاهد قال: هي حق واجب ما طابت به الأنفس.

وروي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، أنه قسم ميراث أبيه عبد الرحمن، وعائشة حبة فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه، وتلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ قال القاسم بن محمد: فذكرت ذلك لابن عباس، فقال: ما أصاب، ليس ذلك له إنما ذلك إلى الوصية وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم، رواه ابن أبي حاتم [٤٨٦٣].

وممن قال أن هذه الآية منسوخة بالكلية:

عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها ﴿يَوْمَئِذٍ يُكْرِهُهُ اللَّهُ فِيهِ أَكُلِدْكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وعنه أيضًا: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذي حقَّ حقه، فجعلت الصدقة فيما سَمَى المتوفى، وعن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أُعطي منه اليتيم والفقير والمسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة، ثم نسخ بعد ذلك نسختها الموارث، فألحق الله بكل ذي حقَّ حقه، وصارت الوصية من ماله يوصي بها لذوي قرابته حيث شاء، وهكذا روي عن عكرمة وأبي الشعثاء والقاسم بن محمد وأبي صالح، وأبي مالك، وزيد بن أسلم والضحاك وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وربيعه بن أبي عبد الرحمن أنهم قالوا: إنها منسوخة، وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم.

والمعنى أنه إذا حضر الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يُرْضَخَ لهم شيء من الوسط يكون برًا بهم وصدقة عليهم، وإحسانًا إليهم وجبرًا لكسرهم. كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فمن جحد حق الله عليه عاقبه الله في أعز ما يملكه.

وقوله: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: هذا في الرجل يَحْضُرُه الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة، وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لَا). قال: فالشطر؟ قال: (لَا). قال: فالثلث؟ قال: (الثُلُثُ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ). ثم قال رسول الله ﷺ: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) [البخاري/ ٣٧٢١ ومسلم/ ١٦٢٨]، وفي «الصحيح» عن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُّوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: (الثُلُثُ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ) [مسلم/ ١٦٢٩] قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء، استُحِبَّ للميت أن يستوفي الثلث في وصيته، وإن كانوا فقراء استُحِبَّ أن يَنْقُصَ الثلث.

وقيل المراد بقوله: ﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضَعْفًا حَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: ٦] حكاية ابن جرير، عن ابن عباس، وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل مال اليتامى ظلماً؛ أي: كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرايرهم إذا وليتهم، ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً، فإنما يأكل في بطنه ناراً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾؛ أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، وثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ) قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْفَافِلَاتِ) [البخاري/٢٦١٤ ومسلم/٨٩].

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ومن الأحاديث الواردة مما هي كالتفسير لذلك، ولندكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتاب الأحكام، والله المستعان.

روى البخاري [٤٣٠١] عند تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله قال: عاذني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد [١٤٨٤٠] عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا يُنكحان إلا ولهما مال، قال: فقال: (يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ) فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: (أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدِ الثُّلُثَيْنِ، وَأُمَّهُمَا الثُّمَنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ)، وقد رواه أبو داود [نحوه/٢٨٩١]، والترمذي [٢٠٩٢] وصححه، وابن ماجه [٢٧٢٠].

والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي،

فإنَّه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلاله، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعاً للبخاري رحمته الله فإنَّه ذكره هاهنا، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم.

ف قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كُرُ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشم المشقة، فناسب أن يُعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى، وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ رأى امرأة من السَّبْي فرق بينها وبين ولدها، فجعلت تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟) قالوا: لا يا رسول الله. قال: (فَوَاللَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوَلَدِهَا) [البخاري/٥٦٥٣ ومسلم/٢٧٥٤]، وروى البخاري [٢٥٩٦] عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فَنَسَخَ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

وقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة، وتقديره فإن كن نساء اثنتين، كما في قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]، وهذا غير مُسَلَّم لا هنا ولا هناك، فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿لَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك وإنما استفيد كون الثلثين للبتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين، وإذا ورثت الأختان الثلثين فلا ن ترث البنتان الثلثين بطريق الأولى، وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب والسنة على ذلك، وأيضًا فإنه قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فلو كان للبتين النصف لنص عليه، فلما حكم به للواحدة على انفرداها، دل على أن البنتين في حكم الثلاث، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَةُ أَبَاؤُهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ الأبوان لهما في الميراث أحوال: أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلى بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس؛ وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب. الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم والحالة هذه الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفي ما فرض للأم، وهو الثلثان، فلو كان معهما - والحالة هذه - زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع، ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد فرض الزوج

والزوجة، على ثلاث أقوال: أحدها: أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما، وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب، فتأخذ ثلث الباقي وتأخذ ثلثيه، وهو قول عمر وعثمان، وأصح الروایتين عن علي، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء رحمهم الله، والقول الثاني: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فَإِنَّ الْآيَةَ أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا، وهو قول ابن عباس، وروي عن علي ومعاذ بن جبل نحوه، وبه يقول شريح وداود الظاهري، وهذا فيه نظر، بل هو ضعيف؛ لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبد بجميع التركة، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقي كأنه جميع التركة تأخذ ثلثه كما تقدم. والقول الثالث: أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى خمسة للأب، وأما في مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي لثلاث تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة وللأم ثلث الباقي وهو سهم، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان، ويحكي هذا عن ابن سيرين، وهو قول مركب من القولين الأولين، موافق كلاً منهما في صورة وهو ضعيف أيضاً، والصحيح الأول، والله أعلم.

والحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب، أخذ الأب الباقي، وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

عن زيد بن ثابت قال: الأخوان تسمى إخوة، وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة، وعن قتادة قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم، ونفقته عليهم دون أمهم، وهذا كلام حسن. لكن روي عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم؛ وهذا قول شاذ. قال ابن جرير: وهذا قول مخالف لجميع الأمة.

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ أجمع العلماء سلفاً خلفاً: أن الدَّيْن مقدم على الوصية وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة، وقد روى الإمام أحمد [١٢٢١] والترمذي [٢٠٩٤]، وابن ماجه [٢٧١٥] وأصحاب التفاسير من حديث علي بن أبي طالب، قال: إنكم تقرؤون ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه، ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ أي: إنما فرضنا للآباء والأبناء، وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية وعلى خلاف

ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأنَّ الإنسان قد يأتيه النفع الديني أو الأخروي أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس، فلهذا قال: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي: كأن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنْ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض، هو فرض من الله حكم به وقضاه، والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها، ويعطي كلًّا ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّوْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُّوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُّوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢﴾.

يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا مُتْنَ عن غير ولد، فإن كان لهن ولد، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ إلخ الكلام عليه كما تقدم، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الكلاله مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروع، كما روى الشعبي، عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن الكلاله، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلاله: من لا ولد له ولا والد، فلما ولي عمر قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه [الدارمي/٢٩٧٢]، وعن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعتة يقول: القول ما قلت وما قلت، قال: الكلاله من لا ولد له ولا والد [ابن أبي حاتم/٤٩٣٣]، وهكذا قال علي، وابن مسعود وصح عن غير وجه عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي، والحسن البصري، وقتادة، وجابر بن زيد والحكم، وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة

وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، قال أبو الحسين بن اللبان: وقد روي عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو أنه من لا ولد له، والصحيح عنه الأول، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد.

وقوله: ﴿وَلَهُ أَحٌ أَوْ أُخْتُ﴾؛ أي: من أم كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه ﴿فَلِكُلٍّ وَجِدْ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه. أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به، وهي الأم. الثاني: أن ذكركم وأنثاهم سواء. الثالث: أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلاله، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ابن. الرابع: أنهم لا يزدادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإنثاهم. عن الزهري، قال: قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم، للذكر مثل الأنثى، قال الزهري: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم بذلك من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية هي التي قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين، فعلى قول الجمهور للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم، وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حمارًا، ألسنا من أم واحدة؟ فشرك بينهم وصح التشريك عنه وعن عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت، وابن عباس رضيهما، وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح القاضي وإبراهيم النخعي [وغيرهم]، وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق بن راهويه، وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه لأنهم عصبه، وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك، وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري، وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، والإمام أحمد بن حنبل، وداد بن علي الظاهري [وغيرهم].

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ غَيْرِ مُضَكَرٍ﴾؛ أي: لتكون وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيث بأَنْ يحرم بعض الورثة أو ينقصه، أو يزيده على ما قدر الله له من الفريضة، فمتى سعى في ذلك، كان كمن ضاد الله في حكمته، وقسمته. عن ابن عباس: الإضرار في الوصية من الكبائر.

ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث، هل هو صحيح أم لا؟ على قولين: أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِّوَارِثٍ) [الترمذي/٢١٢٠، وهو صحيح بطرقه وقيل: المتن متواتر]، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعي رحمهم الله، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار، وهو مذهب طاوس

وعطاء، والحسن، وعمر بن عبد العزيز، وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في «صحيحه» [٣/ ١٠٠٩]، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية [زوجته] عما أغلق عليه بابها، قال: وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، وقد قال النبي ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) [٤٨٤٩] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْتَنَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء: ٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره، انتهى ما ذكره، فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر، جرى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةَ مَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قُرْبهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ أي: لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت وثبت زناها بالبيّنة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ﴾؛ يعني: الزنا ﴿مِّنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فالسبيل الذي جعل الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطاء الخراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك، أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه. روى الإمام أحمد، عن عبادة بن الصامت، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، أثر عليه، وكرب لذلك، وتربّد وجهه، فأنزل الله ﷻ عليه ذات يوم، فلما سُري عنه، قال: (خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا

الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، وَالْبَكْرُ بِالْبَكْرِ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ، وَرَجَمٌ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبَكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفَى سَنَةً رَوَاهُ مُسْلِمٌ [١٦٩٠].

وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزًا والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الرجم ليس يحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِفُوهُمَا﴾؛ أي: والذنان يأتیان الفاحشة فأزويهما، قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر وغيرهما؛ أي: بالثبم والتعيير والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك، حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم، وقال عكرمة وعطاء، والحسن، وعبد الله بن كثير: نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا، وقال السدي: نزلت في الفتیان من قبل أن يتزوجوا. وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يکني، وكأنه يريد اللواط - والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾؛ أي: أقبلنا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾؛ أي: لا تعنّفوهما بكلام قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد ثبت في «الصحيحين»: (إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا) [البخاري/٢١١٩ ومسلم نحوه/١٧٠٣]؛ أي: لا يُعَيِّرُهَا بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

يقول ﷺ: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو قبل معاينة الملك لقبض روحه قبل الغرغرة. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمدًا، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وعن أبي العالية أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، رواه ابن جرير [٢٩٨/٤]، وعن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به، فهو جهالة عمدًا كان أو غيره، وعن مجاهد، قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها، وعن عطاء بن أبي رباح، نحوه، وعن ابن عباس: مِنْ جَهَالَتِهِ عَمَلُ السُّوءِ.

وعن ابن عباس: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب، وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته، وهو مروي عن ابن عباس، وقال الحسن البصري: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، ما لم يغرغر، وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

روى الإمام أحمد [٦١٦٠] عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرِغِرْ) رواه الترمذي [٣٥٣٧]، وابن ماجه [٤٢٥٣]، وقال الترمذي: حسن غريب [والأحاديث في هذا المعنى كثيرة].

فقد دل [ذلك] على أن من تاب إلى الله ﷻ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحشرجت الروح في الحلق وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس فلا توبة مقبولة حينئذٍ، ولات حين مناص، ولهذا قال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَنًا قَالُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ الآية [غافر: ٨٤].

وقوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ يعني: أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو يملء الأرض. قال ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: موجعًا شديدًا مقيمًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝٢١ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾

روى البخاري [٤٣٠٣] عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك، وعن ابن عباس أيضًا قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، وينحوه عن عطاء ومجاهد والسدي.

وقال زيد بن أسلم في الآية: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية، ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجها من أراد، وكان أهل ثهامة يُسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

وقال مجاهد في الآية: كان الرجل يكون في حجره اليتيمة هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها أو يزوجه ابنه، رواه ابن أبي حاتم [٥٠٣٢]. ثم [حكى عن] الشعبي، وعطاء، والزهري [وغيرهم]، نحو ذلك. قلت: فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية وما ذكره مجاهد، ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْصُلُوهُمْ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: لا تُضَارَوْهِن في العشرة، لتترك لك ما أصدقتهن أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَعْصُلُوهُمْ﴾ يقول: ولا تقهروهن ﴿لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾؛ يعني: الرجل، تكون له امرأة وهو كاره لصحبتهن، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي [ابن أبي حاتم/٥٠٣٧]، وكذا قال الضحاك وقتادة، واختاره ابن جرير، وعن ابن البيلماني قال: نزلت هاتان الآيتان، إحداهما في أمر الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام. قال عبد الله بن المبارك: يعني: قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَهًا﴾ في الجاهلية، ﴿وَلَا تَعْصُلُوهُمْ﴾ في الإسلام.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد [وغيرهم]: يعني: بذلك الزنا؛ يعني: إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها، وتُضَاجِرُها حتى تتركه لك، وتخالعها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٩]، وقال ابن عباس، وعكرمة والضحاك: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا والعصيان، والنشوز وبذاء اللسان، وغير ذلك؛ يعني: أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم، وعن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَهًا وَلَا تَعْصُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قال: وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله عن ذلك؛ أي: نهى عن ذلك، وهكذا قال عكرمة والحسن البصري، وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية، ولكن نهى المسلمون عن فعله في الإسلام. قال عبد الرحمن بن زيد: كان العَصْلُ في قريش بمكة، ينكح الرجل المرأة الشريفة، فلعلها لا توافق، فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا خطبها الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها قال: فهذا قوله: ﴿وَلَا تَعْصُلُوهُمْ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾ الآية، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَعْصُلُوهُمْ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾ هو كالعضل في سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحَسِّنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْكَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) [أخرجه الترمذي/٣٨٩٥] وقال: حسن صحيح غريب، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يُدَاعِبُ أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين،

يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني، فقال: (هَذِهِ بَيْتُكَ) [أخرجه النسائي في «الكبرى»/٨٩٤٤، وابن ماجه نحوه/١٩٧٩ وسنده جيد]، ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نساؤه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُرُ مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله: ﴿إِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ أي: فعسى أن يكون صبركم مع إمساكم لهن وكرهتهن فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدًا، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: (لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ) [أخرجه مسلم/١٤٦٩].

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُمِيتًا﴾؛ أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئًا ولو كان قنطارًا من مال، وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما روى الإمام أحمد [٢٨٥] عن أبي العجفاء السلمي، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تُغْلُوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مَكْرُومَةً في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نساؤه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه وحتى يقول: كَلِيفْتُ إِيكَ عِلْقَ الْقُرْبَةِ، ثم رواه الإمام أحمد وأهل السنن [أبو داود/٢١٠٦ والنسائي/٥٥١١ وابن ماجه/١٨٨٧] من طرق عن أبي العجفاء واسمه هرم بن مُسَيْب البصري، وقال الترمذي [١١١٤]: هذا حديث حسن صحيح.

ولهذا قال الله منكرًا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي وغير واحد: يعني: بذلك الجماع، وقد ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: (اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟) ثلاثًا، فقال الرجل: يا رسول الله مالي - يعني: ما أصدقها - قال: (لَا مَالَ لَكَ. إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا) [البخاري/٥٠٣٤ ومسلم/١٤٩٣].

فالصداق في مقابلة البضع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. **وقوله:** ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، أن المراد بذلك العقد، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال: قوله: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة

ومجاهد، وأبي العالية والحسن، وقتادة، ويحيى بن أبي كثير، والضحاك، والسدي، نحو ذلك، وعن الربيع بن أنس «كلمة الله» هي التشهد في الخطبة، وفي «صحيح مسلم» [١٢١٨]، عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها: (وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ).

وقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية، يُحَرِّمُ الله تعالى زوجات الآباء تكرمه لهم، وإعظامًا واحترامًا أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم عن الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه.

وعن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت خلف على أم عبيد الله بنت صخر، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولًا به في الجاهلية، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ كما قال: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: (وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ) [الطبراني في الكبير نحوه/ ١٠٨١٢] قال: فدل على أنه كان سائغًا لهم ذلك، فإن أراد أن ذلك كان عندهم يعدونه نكاحًا فيما بينهم، فقد روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأخنتين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وهكذا قال عطاء وقتادة، ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم، وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبَشَّع غاية التبشيع، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فزاد هاهنا ﴿وَمَقْتًا﴾؛ أي: بغضًا؛ أي: هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه.

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَمَقْتًا﴾؛ أي: يمقت الله عليه، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: وبئس طريقًا لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئًا لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد [١٨٥٨٠]، وأهل السنن [الترمذي/ ١٣٦٢ وابن ماجه/ ٢٦٠٧ والنسائي/ ٥٤٨٨] عن البراء بن عازب، عن أبي بردة [بن نيار] أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله. [وقال الترمذي: حسن غريب]. وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو بشبهة أيضًا، واختلفوا

فيمن باشرها بشهوة دون الجماع، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية، فعن الإمام أحمد رحمته الله أنها تحرم أيضًا بذلك.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُتُم مِّنَ بُرْنِكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّنْ بُسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَتَزَوَّجُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَاضِيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحامرم بالصهر، كما روى ابن أبي حاتم [٥٠٨١]، عن ابن عباس قال: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبًا وَسَبْعُ صَهْرًا، وقرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية.

وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ فإنها بنت، فندخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك، وأحمد بن حنبل، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتًا شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ﴾؛ أي: كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، ولهذا روى البخاري [٢٩٣٨]، ومسلم [١٤٤٤] عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الرِّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ)، وقد قال بعض الفقهاء: كل ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع إلا في صور مذكورة في كتب الفروع، والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر، فلا يرد على الحديث شيء أصلاً البتة، والله الحمد.

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية، وهذا قول مالك، ويروى عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، والزهرري، وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات، لما ثبت في «صحيح مسلم» [١٤٥٠] عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَالْمَصَّتَانِ)، وعن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ: (لَا تُحَرِّمُ الرِّضْعَةُ وَلَا الرِّضْعَتَانِ، وَلَا الْمَصَّةُ وَلَا الْمَصَّتَانِ) [رواه مسلم/١٤٥١]، ومن ذهب إلى هذا القول: الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، وأبو ثور، وهو محكي عن علي، وعائشة وأم الفضل، وابن الزبير، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير رحمهم الله.

وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في «صحيح مسلم» [١٤٥٢] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن، وفي حديث سَهْلَةَ بنت سهيل، أن رسول الله ﷺ أمرها أن تُرَضَّع مولى أبي حذيفة خمس رضعات، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يُرَضَّع خمس رضعات [المستدرک/٢٦٩٢]، وبهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى وأصحابه.

ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب، كما هو لبعض السلف؟ على قولين، تحرير هذا كله في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَأَمَهُتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابتناها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها، وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها؛ ولهذا قال: ﴿وَرَبَّيْكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها، لقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وعن علي رضي الله عنه، في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبة [ابن أبي حاتم/٥٠٨٥]، وعن زيد بن ثابت، قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها. [وعنه] أنه كان يقول: إذا ماتت عنده وأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل، وعن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف، قال: فلم أجامعها حتى تُوفِّيَ عَمِي عن أمها، وأمها ذات مال كثير، فقال أبي: هل لك في أمها؟ قال: فسألت ابن عباس وأخبرته الخبر، فقال: انكح أمها؟ قال: فسألت ابن عمر، فقال: لا تنكحها، فأخبرت أبي ما قال ابن عباس، وما قال ابن عمر، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قالوا، فكتب معاوية: إني لا أحل ما حرم الله، ولا أحرم ما أحل الله، وأنت وذاك والنساء سواها كثير، فلم ينه ولم يأذن لي فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها.

وعن مجاهد قال: ﴿وَأَمَهُتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أراد بهما الدخول جميعاً، فهذا القول كما ترى مروى عن علي وزيد بن ثابت، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية، وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابوني فيما نقله الرافي عن العبادي.

وقد خالفه جمهور العلماء من السلف والخلف، فأروا أن الربيبة لا تحرم بمجرد العقد على

الأم، وأنها لا تحرم إلا بالدخول بالأم، بخلاف الأم، فإنها تحرم بمجرد العقد على الربيبة.
عن ابن عباس، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، وروي أنه قال: إنها مبهمة، فكرهها. قال [ابن أبي حاتم]: وروي عن ابن مسعود، والحسن ومكحول [وجماعة] نحو ذلك، وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة.

قال ابن جرير: والصواب قول من قال: الأم من المبهمات؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما شرط ذلك مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه.

وأما قوله: ﴿وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ حَضَآكُمُ﴾ [النور: ٢٣]، وفي «الصحاحين» أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، وفي لفظ لمسلم [١٤٤٩] عزة بنت أبي سفيان، قال: (أَوْ تُحِبِّينَ ذَلِكَ؟) قالت: نعم لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، قال: (فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِي). قالت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: (بَنَتْ أُمَّ سَلَمَةَ؟) قالت: نعم. قال: (إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنَّهَا لَبِنْتُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ، أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوْبِيَّةَ، فَلَا تَعْرِضَنَّ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ)، وفي رواية للبخاري [٤٨٣١]: (إِنِّي لَوْ لَمْ أَتَزَوَّجْ أُمَّ سَلَمَةَ مَا حَلَّتْ لِي)، فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة، وحكم بالتحريم لذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف، وقد قيل: بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم، وروي ابن أبي حاتم [٥٠٨٧] عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي، فوجدت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: ما لك؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، هي بالطائف قال: فانكحها، قلت: فأين قول الله: ﴿وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن في حجرك إنما ذلك إذا كانت في حجرك، هذا إسناده قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه، وحكاه أبو القاسم الرافعي، عن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاستشكله وتوقف في ذلك، والله أعلم، وعن أبي عبيدة قوله: ﴿أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾، قال: في بيوتكم.

وأما الربيبة في ملك اليمين فعن ابن عباس (سئل): أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له؟ فقال: أحلتها آية وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله، وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿وَأَمْهَنَّتْ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين هم تبع

للنكاح، إلا ما روي عن عمر، وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وعن قتادة: بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح، وإن كانت أسفل ببطون كثيرة، وكذا قال أبو العالية، ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ أي: نكحتموهن، قاله ابن عباس وغير واحد، وقال عطاء: هو أن تهدي إليه فيكشف ويعتس [أي: يلمس] ويجلس بين رجلها، وقلت: أرايت إن فعل ذلك في بيت أهلها؟ قال: هو سواء، وحسبه قد حَرَّمَ ذلك عليه ابنتها، وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا يحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾؛ أي: وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيائِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾. قال: كنا نُحَدِّثُ - والله أعلم - أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، ونزلت: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وعن الحسن بن محمد: أن هؤلاء الآيات مبهمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ ثم قال: وروي عن طاوس وإبراهيم والزهري ومكحول، نحو ذلك.

قلت: معنى مبهمات؛ أي: عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه، فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاة كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه، فالجواب من قوله ﷻ: (يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ) [رواه مسلم/١٤٤٤].

وقوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية؛ أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه، فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف، كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان، خير فيمسك إحدهما ويطلق الأخرى لا محالة. روى الإمام أحمد [١٨٠٧٠] عن فيروز الديلمي قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحدهما. رواه الإمام أحمد، وأبو داود [٢٢٤٣]، والترمذي [١١٢٩]، وحسنه، وابن ماجه [١٩٥٠].

وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية، فعن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه فقال له - يعني: السائل -: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ فقال له ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وبغيرك مما ملكت يمينك

[ابن أبي حاتم/٥٠٩٩]، وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك.

وعن ابن مسعود، قال: يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد، وعن ابن سيرين والشعبي نحو ذلك. قال أبو عمر [ابن عبد البر]: وقد روي مثل قول عثمان، عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفي القياس، وقد ترك من يعمل ذلك ما اجتمعنا عليه، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما لا يحل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذا يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب، وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها، والله المحمود.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾؛ أي: وحرّم عليكم من الأجنبية المحصنات، وهن المزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾؛ يعني: إلا ما ملكتموهن بالسبي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. روى الإمام أحمد [١١٧٠٩]، عن أبي سعيد الخدري، قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نفع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ: فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ فاستحللنا بها فروجهن. [ورواه مسلم/١٤٥٦].

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية، فعن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج؟ قال: كان عبد الله يقول: بيعها طلاقها، ويتلو هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾، وعن أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، قالوا: يبيعها طلاقها، وعن ابن عباس، قال: طلاق الأمة: يبيعها طلاقها، وعقها طلاقها، وهبتها طلاقها، وبرأتها طلاقها، وطلاق زوجها طلاقها، وعن ابن المسيب. قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: هنّ ذوات الأزواج حرّم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك، فبيعها طلاقها، وقال الحسن مثل ذلك.

فهذا قول هؤلاء من السلف، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لهما؛ لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوبة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في «الصحيحين» وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشتريتها ونَجَزَتْ عَقْهَها [البخاري/٤٩٧٩]، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيب، بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاخترت الفسخ وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء لما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسبيات فقط، والله أعلم. وقد قيل: المراد بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ يعني: العفاف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهم بنكاح وشهود ومهور وولي،

واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، حكاه ابن جرير، عن أبي العالية، وطاوس وغيرهما. وقال عبيدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيما نكم.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: هذا التحريم كتاب كتبه عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه، وقال عبيدة وعطاء، والسدي في قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: الأربع، وقال إبراهيم: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: ما حرم عليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ أي: ما عدا من ذكرن من المحارم، هن لكم حلال، قاله عطاء وغيره، وقال عبيدة والسدي: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ ما دون الأربع، وهذا بعيد، والصحيح قول عطاء كما تقدم. وقال قتادة: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ يعني: ما ملكت أيما نكم، وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتها آية وحرمتها آية.

وقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾؛ أي: تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراي ما شئتم بالطريق الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾؛ أي: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، وكقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِنَ نَحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وكقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح، ثم أبيح، ثم نسخ مرتين. وقال آخرون: أكثر من ذلك، وقال آخرون: إنما أبيح مرة، ثم نسخ، ولم يبح بعد ذلك، وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، وهو رواية عن الإمام أحمد، وكان ابن عباس، وأبي بن كعب، وسعيد بن جبير، والسدي يقرؤون: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة» [المستدرک نحوه/ ٣١٩٢]، وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت في «الصحيحين» عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية [البخاري/ ٤٨٢٥ ومسلم/ ١٤٠٧] يوم خيبر، وفي «صحيح مسلم» [١٤٠٦] عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه، أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كُنْتُ أَذْنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عَنْدهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلِ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا)، وفي رواية لمسلم: في حجة الوداع.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَاضِيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى، قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به، وزيادة للجعل، قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى؛ يعني: الأجر الذي أعطاه على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا، فازداد

قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة، وهو قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيشَةِ﴾. قال السدي: إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة وعليها أن تستبرئ ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه، ومن قال بالقول الأول جعل معناه كقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ الآية [النساء: ٤]؛ أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه، فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك. وروى ابن جرير عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال: زعم الحضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيشَةِ﴾؛ يعني: إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ، واختار هذا القول ابن جرير، وعن ابن عباس: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيشَةِ﴾ والتراضي أن يُوفىها صداقها ثم يخيرها بعد في المقام أو الفراق.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ أَلْعَنَتُ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ومن لم يجد ﴿طَوْلًا﴾؛ أي: سعة وقدرة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: الحرائر ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ فَيِّئَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، قال ابن عباس وغيره: فليكنح من إماء المؤمنين، وكذا قال السدي ومقاتل بن حيان.

ثم اعترض بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ أي: هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور، ثم قال: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث: (أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ فَهُوَ عَاهِرٌ)؛ أي: زان [رواه أبو داود/ ٢٠٧٨ والترمذي/ ١١١١ وحسنه]، فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها.

وقوله: ﴿وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: وادفعوا مهورهن بالمعروف؛ أي: عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾؛ أي: عفاف عن الزنا لا يتعاطينه، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ﴾ وهن الزواني اللاتي لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة.

وقوله: ﴿وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ﴾، قال ابن عباس: المسافحات هن الزواني المعلنات؛ يعني: الزواني اللاتي لا يمتنعن أحداً أرادهن بالفاحشة. و﴿مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ﴾؛ يعني: أخلاء،

وكذا روي عن أبي هريرة، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وعطاء الخراساني ويحيى بن أبي كثير، ومقاتل بن حيان والسدي، قالوا: أخلاء. وقال الحسن البصري: يعني: الصديق، وقال الضحاك أيضًا: ﴿وَلَا تُنْخَذَبِ أَخْدَانُ﴾ ذات الخليل الواحد المقرة به، نهى الله عن ذلك؛ يعني: تزويجها ما دامت كذلك.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَلَعْنَهُنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ واختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أن المراد بالإحصان هاهنا الإسلام، وروي ذلك عن عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وأنس، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي [وغيرهم]، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع، قال: وإنما قلنا ذلك، استدلالاً بالسنة، وإجماع أكثر أهل العلم، وقال القاسم وسالم: إحصانها إسلامها وعفافها.

وقيل: المراد به هاهنا التزويج، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم، وعن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، وإحصان العبد أن ينكح الحرة، وكذا روي عن ابن عباس، وذكره ابن أبي حاتم، عن الشعبي والنخعي.

والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول ﷺ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمِنْ فَتْيِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والله أعلم، والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾؛ أي: تزوجن، كما فسرهن ابن عباس ومن تبعه.

وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء، فمن ذلك ما رواه مسلم [١٧٠٥] في «صحيحه» عن علي ﷺ أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يُحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدها أن أقتلها، فذكرت ذلك لنبي الله ﷺ فقال: (أَحْسَنْتَ، أَتْرُكُهَا حَتَّى تَمَاقِلَ)، وعند عبد الله بن أحمد، عن غير أبيه: (فَإِذَا تَعَالَتْ مِنْ نَفْسِهَا حُدَّهَا خَمْسِينَ)، وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا زَنَتِ أَمَةٌ أَحَدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زَنَاهَا، فَلْيُجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُرْتَبَ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَتَبَيَّنَ زَنَاهَا، فَلْيُعْرَبْ وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ) [البخاري/٢١١٩ ومسلم/١٧٠٣].

ويتلخص في الأمة أنها إذا زنت أقوال: أحدها: تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده. وهل تنفى؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إنها تنفى عنه. والثاني: لا تنفى عنه مطلقاً. والثالث: أنها تنفى نصف سنة وهو نصف نفى الحرة، وهذا الخلاف في مذهب الشافعي، وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد، وإنما هو رأي الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء، وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال وأما النساء فلا؛ لأن ذلك مضاد لصيانتهن وما ورد من النفي مخصوص بالمعنى وهو أن المقصود من النفي الصون، وذلك مفقود في نفى النساء، والله أعلم. والثاني: أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد

الإحصان وتضرب قبله تأديباً غير محدود بعدد محصور، [أو] أنها تجلد قبل الإحصان مائة، وبعده خمسين، كما هو المشهور عن داود، وأضعف الأقوال: أنها تجلد قبل الإحصان خمسين، وترجم بعده، وهو قول أبي ثور وهو ضعيف أيضاً، والله ﷻ أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشَىٰ أَلْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فحينئذ يتزوج الأمة، وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾.

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرّم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿وَيُذْهِبُ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ يعني: طرائقهم الحميدة واتباع شرائعهم التي يحبها ويرضاها، ﴿وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾؛ أي: يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾؛ أي: في شرائعهم وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته، وعن طائوس: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾؛ أي: في أمر النساء، وقال وكيع: يذهب عقله عندهن، وقال موسى الكليم ﷺ لنبيينا محمد ﷺ، ليلة الإسراء حين مر عليه، فقال له: ماذا فرض عليكم، فقال: (أَمَرَنِي بِخَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ)، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماً وأبصاراً وقلوباً، فرجع، فوضع عشرًا، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمسمائة، قال الله ﷻ: (هُنَّ خَمْسٌ وَهُنَّ خَمْسُونَ، الْحَسَنَةُ بَعْشَرِ أَمْثَلِهَا) الحديث [البخاري نحوه/ ٣٦٧٤ ومسلم/ ١٦٣].

﴿يَتَأْتِيهَا الذَّبَابُ فَأَمْنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوْنَا وَظُلَمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ ﴿٣١﴾.

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل؛ أي: بأنواع

المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته، وإلا رددته ورددت معه درهمًا، قال: هو الذي قال الله ﷻ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، وعن عبد الله [ابن مسعود] في الآية، قال: إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة، وعن ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس؟ فأنزل الله بعد ذلك ﴿لَيْسَ عَلَى الْآعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] الآية، وكذا قال قتادة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَرَةً عَنْ تَرَضٍ مِّنْكُمْ﴾ وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نصًا، بخلاف المعاطاة، فإنها قد لا تدل على الرضى ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك، ورأى [الجمهور] أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعًا، فصحبوا بيع المعاطاة مطلقًا، ومنهم من قال: يصح في المحترقات وفيما يعده الناس بيعًا وهو احتياط نظر من محققي المذهب، والله أعلم، وقال مجاهد: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَرَةً عَنْ تَرَضٍ مِّنْكُمْ﴾ بيعًا أو عطاءً يعطيه أحدًا أحدًا.

ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا) [البخاري/١٩٧٣ ومسلم/١٥٣٢]، وفي لفظ البخاري [٢٠٠٦]: (إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا)، وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث جمهور السلف والخلف، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، كما هو متفق عليه بين العلماء إلى ما هو أزيد من ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مأل البيع.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾؛ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ، ذكرت ذلك له، فقال: (يَا عَمْرُو صَلِّتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ!) قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيمنت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا. [ورواه أبو داود/٣٣٤ وسنده لا بأس به بطرقه وعلقه البخاري مجزومًا به].

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِه يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البخاري/٥٧٠٠]، وأخرجه الجماعة في كتبهم، وفي «الصحيحين» عن جندب بن عبد الله البجلي، قال: قال رسول الله ﷺ: (كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ، فَأَخَذَ سِكِّينًا نَحَرَ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَا الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) [البخاري نحوه/٣٢٧٦ ومسلم نحوه/١١٣]، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا﴾؛ أي: ومن يتعاطى ما نهى الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه؛ أي: عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُضِلُّهُ نَارًا﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية؛ أي: إذا اجتنبتكم كبائر الآثام التي نهيتكم عنها، كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر: في «الصحيحين» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَبَّاتِ). قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) [البخاري/٢٦١٥ ومسلم/٨٩].

فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر، لا ينفي ما عداهن إلا عند من يقول بمفهوم العدد، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد [١٢٣٥٨]، عن أنس بن مالك: قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عن الكبائر، فقال: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)، وقال: (أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟) قال: (قَوْلُ الزُّورِ - أَوْ - شَهَادَةُ الزُّورِ) أخرجه بنحوه [البخاري/٥٦٣٢ ومسلم/٨٨].

وفي «الصحيحين» [البخاري/٤٤٨٣ ومسلم/٨٦] عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ وفي رواية أكبر قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ). قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ). قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ - إلى قوله - ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

حديث آخر: فيه ذكر اليمين الغموس، روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ) ورواه البخاري [نحوه/٢٩٨] والترمذي [٣٠٢١]، والنسائي [٤٠١١].

وقد أخرج البخاري [٥٦٢٨]، ومسلم [٩٠]، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ). قَالُوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قَالَ: (يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ).

وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ) [البخاري/ ٥٦٩٧].

وروى ابن أبي حاتم، عن أبي قتادة؛ يعني: العدوي، قال: قُرئ علينا كتاب عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعني: بغير عذر - والفرار من الزحف، والنُّهبة، وهذا إسناده صحيح. والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر، تقديماً أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء هما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية؛ ولهذا روى مسلم في «صحيحه» [٨٢] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ)، وفي «السُّنن» [النسائي/ ٣٢٩ وابن ماجه/ ١٠٧٩ والبيهقي/ ٦٢٩١] عنه ﷺ أنه قال: (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) [قال الترمذي/ ٢٦٢١: حسن صحيح غريب]، وقال: (مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ) [رواه البخاري/ ٥٢٨].

ذكر أقوال السلف في ذلك:

عن الحسن، أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يُعمل بها لا يُعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك، فقدم وقدموا معه، فلقبه عمر رضي الله عنه فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا. قال: أباذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً لقوني بمصر فقالوا: إننا نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يُعمل بها فلا يُعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك. قال: فاجمعهم لي. قال: فجمعتهم له، فأخذ أدناهم رجلاً فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا. قال: ولو قال: نعم، لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أمرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم قال: فتكلمت عمر أمه، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله، قد علم ربنا أنه ستكون لنا سيئات، قال: وتلا: ﴿إِنْ جَحَبْتُمْ مَا نُخَبِّرُ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَعَاتِكُمْ﴾ الآية. ثم قال: هل علم أهل المدينة؟ أو قال: هل علم أحد بما قدمتم؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لوعظت بكم، إسناده حسن ومتن حسن، [ذكره الطبري ٤٤/٥].

وعن علي رضي الله عنه قال: الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وفراق الجماعة، ونكت الصفقة [ابن أبي حاتم/ ٥٢١٢]، وعن ابن مسعود أنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله ﷻ، وعن ابن مسعود [أيضاً] قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا: ﴿إِنْ جَحَبْتُمْ مَا نُخَبِّرُ عَنْهُ﴾. وعن بريدة قال: أكبر الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضول الماء بعد الري، ومنع طروق الفحل إلا بجعل، [ابن أبي حاتم/ ٥٢١٤].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: (لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِمَنْعِهِ الْكَلَالُ) [البخاري/

٢٢٢٦ ومسلم/١٥٦٦]، وفيهما عن النبي ﷺ أنه قال: (ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ ابْنُ السَّبِيلِ) [البخاري/٧٦٨٦ ومسلم/١٠٦] وذكر الحديث بتمامه.

وعن عائشة، قالت: ما أخذ على النساء من الكبائر، قال ابن أبي حاتم: يعني: قوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَ﴾ الآية [المنتحة: ١٢].

وعن سعيد بن جبير: أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر سبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار، وعن ابن عباس [أيضاً] في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، وعن ابن عباس قال: الكبائر كل ما وعد الله عليه النار كبيرة، وكذا قال سعيد بن جبير، والحسن البصري، وقال ابن عباس أيضاً: هي كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة.

وعن عبيدة قال: الإشرak بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها، وفرار يوم الزحف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان. قال: ويقولون: أعرابية بعد هجرة، وعن عبيد بن عمير، قال: الكبائر سبع، ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله، الإشرak بالله منهن: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ [الحج: ٣١]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتِنِي ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، و﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِبُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفُجَرَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣]، والفرار من الزحف ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ [الأنفال: ١٥]، والتعرب بعد الهجرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا نَبَّأَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [محمد: ٢٥]، وقتل المؤمن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

وعن عطاء؛ يعني: ابن أبي رباح، قال: الكبائر سبع: قتل النفس، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، ورمي المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وعن مغيرة، قال: كان يقال: شتم أبي بكر وعمر ﷺ من الكبائر. قلت: وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة، وهو رواية عن مالك بن أنس رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وقال محمد بن سيرين: ما أظن أحداً ينتقص أبا بكر وعمر وهو يحب رسول الله ﷺ، وعن زيد بن أسلم في قول الله وَجَلَّ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ من الكبائر: الشرك بالله، والكفر بآيات الله ورسله، والسحر، وقتل الأولاد، ومن دعى الله - ولداً أو صاحبة - ومثل ذلك من الأعمال والقول الذي لا يصلح معه عمل، وأما كل ذنب يصلح معه دين، ويقبل معه عمل، فإن الله يغفر السيئات بالحسنات، وعن قتادة: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر؛ وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا الْكَبَائِرَ، وَسَدُّوا، وَأَبْشِرُوا) [أحمد/١٥٢٧٥].

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع، ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة، وقيل غير ذلك.

قلت: وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي الذي بلغ نحوًا من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة ما توعد الشارع عليها بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس وغيره، وتُتبع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، وإذا قيل كل ما نهى الله عنه كثير جدًا، والله أعلم.

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ (٣٢).

روى الإمام أحمد [٢٦٧٧٩] عن مجاهد، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا يغزو، ولنا نصف الميراث، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ورواه الترمذي [٣٠٢٢]، والحاكم/٣١٩٥ بنحوه، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أم سلمة ووافقه الذهبي].

وقال السدي قوله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: فإن الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء: نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الرجال الشهداء، فإننا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا، فأبى الله ذلك ولكن قال لهم: سلوني من فضلي، قال: ليس بعرض الدنيا، وقد روي عن قتادة نحو ذلك، وقال ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله، وكذا قال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء، والضحاك، نحو هذا؛ وهو الظاهر من الآية ولا يرد على هذا ما ثبت في «الصحيح»: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَّتِهِ فِي الْحَقِّ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِفُلَانٍ لَعَمِلْتُ مِثْلَهُ. فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ) [البخاري نحوه/٤٧٣٨]، فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، وذلك أن الحديث حصّ على تمنى مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمنى عين نعمة هذا، فقال: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: في الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضًا، لحديث أم سلمة، وهكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تمنى ما لفلان، وفي تمنى النساء أن يكنّ رجالًا فيغزون.

ثم قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾؛ أي: كلُّ له جزاء على عمله بحسبه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، هذا قول ابن جرير، وقيل: المراد بذلك في الميراث؛ أي: كلُّ يرث بحسبه، رواه الترمذي عن ابن عباس، ثم أرشداهم إلى ما يصلحهم، فقال: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئًا، ولكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان

فيخذه عن تعاطي الخير وأسبابه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبو صالح، وقتادة، وزید بن أسلم، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن حیان وغيرهم، في قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾؛ أي: ورثة، وعن ابن عباس في رواية: أي: عَصَبَة، قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى. قال: ويعني بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾؛ أي: والذين تحالفتم بالإيمان المؤكدة أنتم وهم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقبات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يُنْشِئُوا بعد نزول هذه الآية معاقدة.

روى البخاري عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصي له. وعن ابن عباس [أيضا] قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: (كُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ عَقْدٌ، أَذْرَكَهُ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا عَقْدٌ وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ) فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] [ابن أبي حاتم/٥٢٣٧]، وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وسعيد، والشعبي، وعكرمة، ومقاتل بن حيان [وغيرهم]، أنهم قالوا: هم الحلفاء.

وروى الإمام أحمد [١٦٨٠٧] عن جبیر بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً)، وهكذا رواه مسلم [٢٥٣٠].

وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، والصحيح قول الجمهور، ومالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾؛ أي: ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ) [البخاري/٦٣٥١ ومسلم/١٦١٥]؛ أي: اقسمو الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه العصبه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾؛ أي: قبل نزول هذه الآية فاتوهم نصيبهم؛ أي: من الميراث، فأیما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له.

وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الماضي أيضًا، فلا توارث به، ما روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿فَاتَوَهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، قال: من النصرة والنصيحة والرفادة ويوصي له وقد ذهب الميراث، ورواه ابن جرير، عن ابن عباس قوله أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف.

وهكذا نصَّ غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ وقال سعيد بن جبیر: ﴿فَاتَوَهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: من الميراث، قال: وعاقد أبو بكر مولى فورثه، وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: أنزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالًا غير أبناءهم ويورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيبًا في الوصية، ورد الميراث إلى المولى في ذي الرحم والعصبة، وأبى الله أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيبًا من الوصية.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ حَقِظْتَ لَلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ سُوءَ مُّوَلِّهِمْ فَيَنْقُصُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْهَجُوا فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضَرُّوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾؛ أي: الرجل قَيِّمٌ على المرأة؛ أي: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت، ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: (لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ) رواه البخاري [٤١٦٣]، وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قَيِّمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ دَرَجَةً﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾؛ يعني: أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله، وكذا قال مقاتل، والسدي، والضحاك، وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعديه على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: (الْقِصَاصُ)، فأنزل الله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ

عَلَى النِّسَاءِ ﴿الآية﴾، فرجعت بغير قصاص [ابن أبي حاتم/٥٢٤٦]، وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة، وابن جريج والسدي، وقال الشعبي في هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال: الصداق الذي أعطاها، ألا ترى أنه لو قذفها لاعتنها، ولو قذفته جلدت.

وقوله: ﴿فَالصِّدْقَ﴾؛ أي: من النساء ﴿فَقِنْتُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني: مطيعات لأزواجهن ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾، وقال السدي وغيره: أي: تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله. وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾؛ أي: المحفوظ من حفظه الله.

وروى الإمام أحمد [١٦٦١] عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ) (وهو حسن بطرقه).

وقوله: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ﴾؛ أي: والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، وقد قال رسول الله ﷺ: (لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا) (رواه أحمد/١٩٤٢٢ والترمذي/١١٥٩ والحاكم/٧٣٢٥ وصححه)، وروى البخاري [٤٨٩٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ)، ورواه مسلم [١٤٣٦]، ولفظه: (إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ فَعُطُواهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ قال ابن عباس: الهجر هو ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، وكذا قال غير واحد، وزاد آخرون منهم السدي والضحاك، وعكرمة، وابن عباس في رواية: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها، وقال ابن عباس [أيضاً]: يعظها فإن هي قبلت وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، وذلك عليها شديد. وقال مجاهد، والشعبي، وإبراهيم، ومحمد بن كعب ومقسم وقتادة: الهجر هو أن لا يضاجعها.

وفي «السنن» [النسائي/٩١٧١ وأبو داود/٢١٤٣ والبيهقي/١٤٥٥٦] و«المسند» [أحمد/٢٠٠٢٧] عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا؟ قال: (أَنْ تُطِيعَ إِذَا طَعِمَتْ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتِ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ) [علقه البخاري بصيغة التمرى وسنده حسن].

وقوله: ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾؛ أي: إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في «صحيح مسلم» [١٢١٨] عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: (اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ إِلَّا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا

تَكْرَهُوْنَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)، وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح، قال الحسن البصري: يعني: غير مؤثر، وقال الفقهاء: هو أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً، وعن ابن عباس: يهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضرب ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظماً، فإن أقبلت وإلا فقد حل لك منها الفدية، وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ) فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ذيرت النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: (لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْتَكِينَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ) رواه أبو داود [٢١٤٦]، والنسائي [٩١٦٧]، وابن ماجه [١٩٨٥]، وإياس مختلف في صحبته.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ذكر تعالى الحال الأول وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة. ثم ذكر الحال الثاني وهو إذا كان النفور من الزوجين، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهم، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتَشَوُّف الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

وقال ابن عباس: أمر الله ﷻ أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي كره ولا يرث الكاره الراضي.

وعن ابن عباس قال: بُعِثْتُ أنا ومعاوية حكيمين [يعني: من قبل عثمان]، وقال: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تُفَرِّقا ففرقما [البهقي/١٤٥٦٣]، وعن ابن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة؟ فقالت: تصير إليّ وأنفق عليك، فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؟ فقال: على يسارك في النار إذا دخلت،

وعن عبيدة قال: شهدت عليًّا وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فثام من الناس، فأخرج هؤلاء حكمًا وهؤلاء حكمًا، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتهما، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي، وقال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله ﷻ لك وعليك [ابن أبي حاتم/ ٢٥٢٨٢].

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ﴿٦١﴾.

ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وذلك لأنَّهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم. ثم قال: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم المحاوِيج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم.

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ يعني:

الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد، وميمون بن مهران، والضحاك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، وقتادة، وعن نوف البكالي في قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾: يعني: المسلم، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾؛ يعني: اليهودي والنصراني، وعن علي وابن مسعود: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾؛ يعني: المرأة [أي: الزوجة]، وقال مجاهد أيضًا في قوله: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾؛ يعني: الرفيق في السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان:

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٥٦٦٩ ومسلم/٢٦٢٥].

وروى أحمد أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: (خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لَجَارِهِ) ورواه الترمذي [١٩٤٤] وقال: حسن غريب.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله أي: الذنب أعظم؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يُطْعَمَ مَعَكَ). قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) [البخاري/٥٦٥٩ ومسلم/٨٦].

وروى الإمام أحمد [٢٥٤٦٢] عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فألى أيهما أهدى؟ قال: (إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا) ورواه البخاري [٢١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ عن علي وابن مسعود، قالا: هي المرأة، وروي عن ابن أبي ليلى وإبراهيم والحسن [وغيرهم]، نحو ذلك، وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة: هو الرفيق في السفر، وقال سعيد بن جبيرة: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الحضر ورفيقك في السفر.

وأما ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ فعن ابن عباس وجماعة: هو الضيف، وقال مجاهد [وغيره]: هو الذي يمر عليك مجتازًا في السفر، وهذا أظهر، وإن كان مراد القائل بالضيف: المار في الطريق، فهما سواء.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت، يقول: (الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه. [رواه أبو داود عن علي/٥١٥٦، وأحمد عن أم سلمة/٢٦٥٢٦ وجوّد الحافظ إسناده وأخرجه النسائي/٧٠٩٥، عن أنس وحسنه البوصيري].

وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ) ورواه النسائي [٩١٨٥] وإسناده صحيح، والله الحمد.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهрман له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال:

فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْسِبَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُمْ) رواه مسلم [٩٩٦]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ) رواه مسلم أيضًا [١٦٦٢] وعنه، عن النبي ﷺ قال: (إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِي حَرِّهِ وَعِلَاجُهُ) أخرجاه، ولفظه للبخاري [٢٤١٨]، ولمسلم [١٦٦٣]: (فَلْيُقْعِدْهُ مَعَهُ فَلْيَأْكُلْ، فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ مَشْفُوعًا قَلِيلًا فَلْيَضَعْ فِي يَدِهِ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ)، وعن أبي ذر رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (هُم إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ، فَأَعِينُوهُمْ) أخرجاه [البخاري/٢٤٠٧ ومسلم/١٦٦١ بنحوه].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾؛ أي: مختالًا في نفسه، معجبًا متكبرًا فخورًا على الناس، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾؛ يعني: متكبرًا ﴿فَخُورًا﴾؛ يعني: يَعدُّ ما أعطى، وهو لا يشكر الله ﷻ؛ يعني: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك، وعن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي، قال: لا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا، وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ولا عاقًا إلى وجدته جبارًا شقيًا، وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا سَفِيًّا﴾ [مریم: ٣٢]، وعن العوام بن حوشب مثله في المختال الفخور، وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٨٢]، عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: يا أبا ذر، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ثَلَاثَةً وَيُبْغِضُ ثَلَاثَةً)؟ فقال: أجل، فلا إخالني، أكذب على خليلي ثلاثًا قلت: مِنَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ يَبْغِضُ اللَّهُ؟ قال: المختال الفخور. أوليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل، ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

وروي عن أبي تميمه عن رجل من بلهَجِيم قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: (إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ) [رواه أحمد/٢٠٦٥٥ ورجاله ثقات].

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾.

يقول تعالى ذامًا الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب،

والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَفَقَطُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا) [الحاكم نحوه/ ٢٦].

وقوله: ﴿وَيَكُونُ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخيل جحود لنعمة الله لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧]؛ أي: بحاله وشمائله، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وقال هاهنا: ﴿وَيَكُونُ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجعلها فهو كافر لنعم الله عليه.

وفي الحديث: (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ) [أخرجه أحمد نحوه/ ٩٢٢٣ والترمذي نحوه/ ٢٨١٩ وحسنه والحاكم نحوه/ ٧١٨٨ وصححه]، وفي الدعاء النبوي: (وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُثْنِينَ بِهَا عَلَيْكَ قَابِلِيهَا - ويروى: قائلها - وَاتِمِّمَهَا عَلَيْنَا) [أخرجه الطبراني/ ١٠٤٢٦ وجوّد إسناده الهيثمي]، وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتمانهم ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، رواه ابن إسحاق عن ابن عباس، وقاله مجاهد وغير واحد.

ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ فذكر المُمْسِكِينَ المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يُمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي الحديث الذي فيه الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرُ بهم النار وهم: العالم، والغازي، والمنفق المراءون بأعمالهم، (يَقُولُ صَاحِبُ الْمَالِ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي سَبِيلِكَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ؛ إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ) [أخرجه مسلم بلفظ قريب/ ١٩٠٥]؛ أي: فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: (إِنَّ أَبَاكَ رَامَ أَمْرًا فَبَلَغَهُ) [أخرجه أحمد بلفظ قريب/ ١٨٢٨٨ وسنده لا بأس به]، وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه وإعताقه؟ فقال: (لَا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [أخرجه مسلم/ ٢١٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان، فإنه سؤل لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبائح ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَنَفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: وأي شيء يكرههم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله،

ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾؛ أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفسادة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه، ويلهمه رشده، ويقضيه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن الجنب الأعظم الإلهي الذي من طرده عن بابه، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عيادًا بالله من ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعْفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) ﴿يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٤٢).

يخبر تعالى: أنه لا يظلم عبدًا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٧]، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٧٠٧٢ ومسلم بالفاظ متقاربة/ ١٨٣] عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: (فيقول الله ﷻ: أَرْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ) [مسلم نحوه/ ١٨٣]، وفي لفظ: (أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا) ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

وعن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعْفُهَا﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبدًا، وقد استدلل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال: (نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) [أخرجه مسلم/ ٢٠٩]، وقد يكون هذا خاصًا بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في «سننه» [٢٠١١] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ) [ومن طريقه أخرجه مسلم بلفظ قريب/ ٢٨٠٨]، وقال أبو هريرة وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة، والضحاك في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ يعني: الجنة.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد؛ يعني: الأنبياء ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الآية [الزمر: ٦٩]؛ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وروى البخاري [٤٣٠٦] عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ) قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: (نَعَمْ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: (حَسْبُكَ الآنَ) فإذا عيناه تذرفان، ورواه مسلم أيضاً [٨٠٠].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ﴾؛ أي: لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَكْنُتُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتُمون منه شيئاً، وعن سعيد بن جبیر، قال: أتى رجل إلى ابن عباس فقال له: سمعت الله ﷻ يقول - يعني: إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا - ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْنُتُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجد، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْنُتُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [٢٤].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها وهي المساجد للجُنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مُكْثٍ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات فلما نزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فقال عمر: انتهينا انتهينا.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم [٥٣٥٣]، عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت في أربع آيات، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لَحْيٍ بغير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾... الآية، والحديث بطوله عند مسلم [١٧٤٨].

سبب آخر: روى ابن أبي حاتم [٥٣٥٢]، عن علي بن أبي طالب، قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً، قال فقراً: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وكذا رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وذلك أن رجلاً كانوا يأتون الصلاة وهم سُكَارَى قبل أن تحرم الخمر، فقال الله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ الآية، وكذا قال أبو رزين ومُجَاهِدٌ، وعن قتادة: كانوا يجتنبون السُّكْرَ عند حضور الصلوات ثم نسخ بتحريم الخمر. وقال الضَّحَّاكُ في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾: لم يعن بها سكر الخمر وإنما عنى بها سكر النوم. ثم قال ابن جرير: والصحيح أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب؛ لأن ذاك في حكم المجنون، وإنما خوطب بالنهي الثَّمَلُ الذي يفهم التكليف، هذا حاصل ما قاله، وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب توجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف، وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم، وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تُمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها. وقد روى الإمام أحمد [١٢٤٦٩] عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَنْمَ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ) وأخرجه البخاري [نحوه/٢١٠].

وقوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَارِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَارِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب، إلا غاري سبيل، قال: تمر به مرأً، ولا تجلس، ثم قال: وروي عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وأبي عبيدة، وسعيد بن المسيب، وأبي الضحى، وعطاء، ومجاهد، ومسروق، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم، وأبي مالك، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتيبة، وعكرمة، والحسن البصري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن شهاب، وقتادة نحو ذلك.

وعن يزيد بن أبي حبيب، في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَارِي سَبِيلٍ﴾ أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَارِي سَبِيلٍ﴾. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث في المسجد، ويجوز

له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضًا في معناه، إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلوّث، ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلوّث في حال المرور، جاز لهما المرور، وإلا فلا، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٢٩٨] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (نَاوِلْنِي الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ) فقلت: إني حائض، فقال: (إِنَّ خِيَضَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ)، وله عن أبي هريرة رضي الله عنه [مسلم/٢٩٩] مثله، ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم.

وعن علي: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافرًا تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي، حتى يجد الماء، وروي عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبير ومجاهد [وغيرهم] [نحو] ذلك، وعن عبد الله بن كثير، قال: كنا نسمع أنه في السفر، ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد [٢١٤٠٨] وأهل السنن [أبو داود/٣٣٢ والبيهقي/١٦ والنسائي/٣١١] عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: (الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ فَأَمْسِسْهُ بِشْرَتِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ) [وقال الترمذي/١٢٤: حسن صحيح].

ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين: والأولى قول من قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾؛ أي: إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب، في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة/٦] إلى آخره، فكان معلومًا بذلك أن قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ لو كان معنيًا به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ معنى مفهوم، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، وأنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضًا جنبًا، حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل: المجتاز مرًا وقطعًا، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فأنا أعبره عبرًا وعبورًا، ومنه قيل: عبر فلان النهر، إذا قطعه وجاوزه، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار، هي عُبر أسفار وعُبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار، وهذا الذي نصره، هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباحدة للصلاة، ولمحلها أيضًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقة، وذهب الإمام أحمد: إلى أنه متى توضأ الجنب، جاز له المكث في المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور في «سننه» بإسناد صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك، فروى سعيد بن منصور، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، يجلسون في المسجد وهم مجنبون، إذا توضؤوا وضوء الصلاة، وهذا إسناده على شرط مسلم، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَهًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أما المرض المبيح للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء، فوات عضو أو شئنه أو تطويل البرء، ومن العلماء من جَوَزَ التيمم بمجرد المرض، لعموم الآية.

والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير، وقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر، وأما قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقرأ لمستم ولا مستم، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين:

أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال: الجماع. وروي عن علي، ومجاهد، وطاوس، والحسن، والشعبي [وغيرهم] نحو ذلك، وعن سعيد بن جبير، قال: ذكروا اللبس، فقال ناس من الموالى: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: اللبس الجماع، قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالى والعرب اختلفوا في اللبس، فقالت الموالى: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع، قال: من أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالى، قال: غُلب فريق الموالى. إن اللبس واللبس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكتفي ما شاء بما شاء.

وقال آخرون: عنى الله بذلك كل لمس بيد كان أو بغيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: اللبس ما دون الجماع، وعنه أيضاً قال: القبلة من المس وفيها الوضوء، وعن عبد الله بن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة، ويرى فيها الوضوء، ويقول: هي من اللباس، وروي عن ابن عمر، وعبيدة، وإبراهيم النخعي [وغيرهم] نحو ذلك.

وعن ابن عمر أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة، فمن قَبَّلَ امرأته أو جَسَّها بيده، فعليه الوضوء.

والقول بوجوب الوضوء من المس، هو قول الشافعي وأصحابه، ومالك، والمشهور عن أحمد بن حنبل رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرئ في هذه الآية: «لامستم» «ولمستم»، واللبس يطلق في الشرع على الجنس باليد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]؛ أي: جسوه، وقال رسول الله ﷺ لماعز حين أقر بالزنا، يُعَرِّضُ لَهُ بِالرَّجُوعِ عَنِ الْإِقْرَارِ: (لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ لَمَسْتَ) [رواه البخاري نحوه/٦٤٣٨]، وفي الحديث الصحيح: (وَالْيَدُ زِنَاهَا اللَّمْسُ) [الحاكم/٤٦٧]، ومنه ما ثبت في «الصحيحين»، أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة [البخاري/٢٠٣٧ ومسلم/١٥١١]، وهو يرجع إلى الجنس باليد، على كلا التفسيرين، قالوا: ويطلق في اللغة على الجنس باليد، كما يطلق على الجماع.

قال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الجماع، دون غيره من معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه، ثم صلى ولم يتوضأ، ثم روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يتوضأ، ثم يقبل ثم يصلي، ولا يتوضأ. [أخرجه ابن جرير ١٠٥/٥ وسنده قابل للتصحيح وصحح بعض طرقه أحمد شاكر].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد تطلبه الماء، فمتى طلبه فلم يجده، جاز له حينئذ التيمم، وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، ما هو مقرر في موضعه، كما هو في «الصحيحين» من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معترلاً لم يصل في القوم، فقال: (يَا فُلَانُ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ؟ أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ) قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء، قال: (عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ) [البخاري/٣٤١ ومسلم نحوه/٦٨٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فالتيمم في اللغة، هو القصد، تقول العرب: تيممك الله بحفظه؛ أي: قصدك. والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول مالك، وقيل: ما كان من جنس التراب فيختص التراب والرمل، والزرنيخ والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط، وهو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَضَيِّعْ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]؛ أي: تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في «صحيح مسلم» [٥٢٢]، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: (فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَتْ ثُرْبَتُنَا طَهُوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ)، وفي لفظ: (وَجُعِلَ ثُرَابُهَا لَنَا طَهُوراً إِذَا نَجَدَ الْمَاءَ) قالوا: فخصص الطهورية بالتراب، في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، والطيب هاهنا قيل: الحلال، وقيل: الذي ليس بنجس، كما رواه الإمام أحمد [٢١٤٠٩] وأهل السنن، إلا ابن ماجه عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: (الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورٌ مُسْلِمٌ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حَجَجٍ، فَإِذَا وَجَدَهُ فَلْيُمِسَّهُ بَشْرَتَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ) وقال الترمذي [١٢٤]: حسن صحيح، وصححه ابن حبان أيضاً [١٣١٢]، وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث.

وقوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ التيمم بدل عن الوضوء في الطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها: وهو مذهب الشافعي في الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرة ﴿فَأَقْطَعُوا آيِدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، قالوا: وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية، وذكر بعضهم: ما رواه الدارقطني [١٨٠/١] عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: (التَّيْمُمُ ضَرْبَتَانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ، وَضَرْبَةٌ لِلْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ) ولكن لا يصح؛

لأن في أسانيده ضعفاء، لا يثبت الحديث بهم، وروى أبو داود [٣٣٠] عن ابن عمر، في حديث، أن رسول الله ﷺ، ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه، ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدى، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات، فوقفوه على فعل ابن عمر، قال البخاري وأبو زرعة وابن عدي: وهو الصواب، وقال البيهقي: رفع هذا الحديث منكر.

والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو قول الشافعي في القديم. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة. روى الإمام أحمد [١٨٣٤٥] عن عمار، أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: (ضَرْبَةُ لِلْوَجْهِ وَالْكَفَيْنِ) [ورواه أبو داود، والترمذي وصححه الألباني].

وقال تعالى في آية المائدة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، استدل بذلك الشافعي، على أنه لا بد في التيمم، أن يكون بتراب طاهر، له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: في الدين الذي شرعه لكم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ فلهذا أباح لكم، إذا لم تجدوا الماء، أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ولهذا كانت هذه الأمة مختصة بمشروعية التيمم، دون سائر الأمم، كما ثبت في «الصحاحين»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فليصل)، وفي لفظ: (فَعِنْدَهُ طَهُورُهُ وَمَسْجِدُهُ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٣٢٨ ومسلم/٥٢١]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ أي: ومن عفوهم عنكم وعَفَرَهُمْ لَكُمْ أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة، أن تفعل على هيئة ناقصة، من سُكَّرَ حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضًا أو عادمًا للماء، فإن الله ﷻ قد أَرَخَصَ في التيمم، والحالة هذه رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

ذكر سب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك ههنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحتم تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد ببسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هاهنا، وبالله الثقة. روى البخاري [٣٢٧] عن عائشة، قالت: خرجنا مع

رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم، فتييمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ أي: يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾؛ أي: هو أعلم بهم ويحذركم منهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾؛ أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره. ثم قال تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ «من» هذه لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾؛ أي: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله ﷻ، قصداً منهم وافتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: يقولون سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، هكذا فسرهم مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ في عنادهم وكفرهم أنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة.

وقوله: ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾؛ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت، قاله ابن عباس، وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك، قال ابن جرير: والأول أصح، وهو كما قال: وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ﴿وَارْعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾؛ أي: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: راعنا، وإنما يريدون الرعونة، ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لِيَّا

يَأْسِنْتَهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ؛ يعني: بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سِعْنًا وَأَطَعْنَا وَأَمْنَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨).

يقول تعالى أمرًا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ قال بعضهم: معناه من قبل أن نطمس وجوهاً، وطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم، ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوهاً فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار، وعن ابن عباس: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وطمسها أن تعمى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أفقيتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه، وكذا قال قتادة وعطية العوفي، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهو مثل ضربه الله لم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سُبُل الضلالة، يُهْرَعُونَ ويمشون القهقري على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، إن هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم، ومنهم عن الهدى. قال مجاهد: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ يقول: عن صراط الحق فنردها على أدبارها؛ أي: في الضلالة. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس والحسن نحو هذا. قال السدي: فنردها على أدبارها، فمنعها عن الحق، قال: نرجعها كفاراً ونردهم قردة، وقال ابن زيد: نردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز، وقد ذكر أن كعب الأخبار أسلم حين سمع هذه الآية.

وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾؛ يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنازير، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع، ثم أخبر تعالى أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: من الذنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾؛ أي: من عباده، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة:

منها ما روى الإمام أحمد [٢١٤٠٦] عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَا عَبْدْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي غَافِرٌ لَّكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ، يَا عَبْدِي، إِنَّكَ إِن لَّقَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي، لَقَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) [وأخرجه الترمذي/ ٣٥٤٠ من حديث أنس وحسنه].

ومنها ما روى الإمام أحمد [٢١٥٠٤] عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: (مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ)، قال: فخرج أبو ذر وهو يجبر إزاره وهو يقول: وَإِنْ رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ، وكان أبو ذر يحدث بها بعدُ ويقول: وَإِنْ رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ. أخرجاه.

وروى الإمام أحمد [٨٢٧٥] عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ: كَانَ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ، وَكَانَ الْآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَا مُتَاخِيَيْنِ، وَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لَا يَزَالُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ فَيَقُولُ: يَا هَذَا أَقْصِرْ، فَيَقُولُ: خَلْنِي وَرَبِّي! أَبْعَثْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ قَالَ: إِلَى أَنْ رَأَاهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: وَيَحَكَ! أَقْصِرْ! قَالَ: خَلْنِي وَرَبِّي! أَبْعَثْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا، قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، وَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ: قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ) رواه أبو داود [٤٩٠١]، وحسنه الألباني في تخریج الطحاوية.

وعن ابن عمر، قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في الكتاب، حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قال: فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله ﷻ.

وهذه الآية التي في سورة «تنزيل» مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه، تاب الله عليه، ولهذا قال: ﴿قُلْ يَكُفِّرُ بَدَأَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم هاهنا بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء؛ أي: وإن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) وذكر تمام الحديث [البخاري/٤٢٠٧ ومسلم/٨٦].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢).

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ في اليهود

والنصارى حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، وفي قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]، وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم ويزعمون أنهم لا ذنب لهم، وكذا قال عكرمة وأبو مالك، وعن ابن عباس، قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، وكذبوا، قال الله: (إِنِّي لَا أَطْهَرُ ذَا ذَنْبٍ بِآخِرٍ لَا ذَنْبَ لَهُ)، وأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، وروي عن مجاهد [الطبري ١٢٧/٥] وأبي مالك، والسدي، وعكرمة، والضحاك، نحو ذلك، وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله ذلك فيهم، وقيل: نزلت في ذم التماذج والتزكية، وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم [٣٠٠٢] عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدّاحين التراب، وفي الحديث الآخر المخرّج في «الصحيحين» عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يشي على رجل، فقال: (وَيْحَاكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ)، ثم قال: (إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيُقِلْ: أَحْسَبُهُ كَذًّا وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا) [البخاري/٥٧١٤ ومسلم/٣٠٠٠].

وسياتي الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، ولذا قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: المرجع في ذلك إلى الله ﷻ؛ لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَطْمَئِنُّ قَتِيلًا﴾؛ أي: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة، وعن ابن عباس أيضًا: هو ما فتلت بين أصابعك، وكلا القولين متقارب.

وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ﴾؛ أي: في تركيبتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتِئَامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، واتكالمهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَنْهَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]. ثم قال: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾؛ أي: وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أما الجبوت، فعن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبوت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وهكذا روي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، والحسن [وغيرهم]، [وعنهم أيضاً]: الجبوت: الشيطان، وزاد ابن عباس: بالحبشية، وعن ابن عباس أيضاً: الجبوت: الشرك، وعنه: الجبوت: الأصنام، وعن الشعبي: الجبوت: الكاهن، وعن ابن عباس: الجبوت حيي بن أخطب، وعن مجاهد: الجبوت: كعب بن الأشرف.

وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري في كتابه «الصحاح»: الجبوت كلمة تقع

على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي الحديث: (الطَّيْرَةُ وَالْعِيفَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْحُبِّ) [البيهقي/١٦٢٩٢]، وهذا الحديث الذي ذكره رواه الإمام أحمد في «مسنده» [١٥٩٥٦]، ورواه أبو داود في «سننه» [٣٩٠٧]، والنسائي [١١١٠٨] وابن أبي حاتم [٥٤٤٢] في تفسيريهما، [وحسنه الأرنؤوط].

وقد تقدم الكلام على الطاغوت في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وعن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت، فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين. وقال مجاهد: الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم، وقال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾؛ أي: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم. روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنوبر المنبت من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير، قال فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ - إلى - ﴿نَصِيرًا﴾ [رواه النسائي/١١٧٠٧].

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَيَنْهَمُونَ مِّنْ ءَمَانٍ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ﴾؟، وهذا استفهام إنكار؛ أي: ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل، فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾؛ أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدًا من الناس ولا سيما محمدًا ﷺ شيئًا، ولا ما يملأ النقيير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]؛ أي: خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]؛ أي: بخيلًا.

ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ يعني: بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل، وعن ابن عباس في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ الآية، قال: نحن

الناس دون الناس، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾؛ أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل، الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسُّنن، وهي الحكمة، وجعلنا فيهم الملوك ومع هذا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾؛ أي: بهذا الإتياء وهذا الإنعام، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾؛ أي: كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم؛ أي: من بني إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيبًا لك، وأبعد عما جئتهم به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعدًا لهم: ﴿وَكُفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾؛ أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾.

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ الآية؛ أي: ندخلهم نارًا دخولًا يحيط بجميع أجزائهم وأجزاءهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ عن ابن عمر: إذا أحرقت جلودهم بدّلوا جلودًا بيضاء أمثال القراطيس، وعن الحسن قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعًا وسنه تسعون ذراعًا وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدّلوا جلودًا غيرها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها، ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ولا ييغون عنها حولًا.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة، كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقدار والأذى، وكذا قال عطاء والحسن والسدي [وغيرهم]، وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمنى والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم، ولا حيض ولا كلف.

وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾؛ أي: ظلًا عميقًا كثيرًا غزيرًا طيبًا أنيقًا. روى ابن جرير [٢٧/١٨٣] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، شَجَرَةُ الْخُلْدِ) [سند لا بأس به وأصله في «الصحيحين» [البخاري/٤٥٩٩] ومسلم/٢٨٢٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨)

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ اتَّمَنَّاكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ) رواه الإمام أحمد [١٥٤٦٢] وأهل السنن [أبو داود/ ٣٥٣٥ والبيهقي/ ٢١٠٩١]، [وقال الترمذي/ ١٢٦٤: حسن غريب. قلت: ولا تخلو طرقه من مقال]، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله ﷻ بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: (لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَرَ لِلنِّسَاءِ الْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ) [ابن حبان/ ٧٣٦٣]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: هي مبهمة [أي: عامة] للبر والفاجر، وقال محمد ابن الحنفية: هي مُسَجَّلَةٌ للبر والفاجر، وقال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه، وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اتهمت على فرجها، وقال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس، وعن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: قال يدخل فيه وعظ السلطان النساء؛ يعني: يوم العيد، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة القرشي العبدي حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية، وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمه عثمان بن طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافرًا، فعن ابن جريج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال: نزلت في عثمان بن طلحة، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل به البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية: فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك. [وعن ابن عباس نحوه].

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد ابن الحنفية: هي للبر والفاجر؛ أي: هي أمر لكل أحد.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء؛ يعني: الحكام بين الناس، وفي الحديث: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْحَاكِمِ مَا لَمْ يَجْرُ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ) [أخرجه الترمذي نحوه/ ١٣٣٠: وقال حسن].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا يَعِدُّكُمْ بِهِ﴾؛ أي: يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾؛ أي: سميعًا لأقوالكم، بصيرًا بأفعالكم.

وقد روى ابن أبي حاتم [٥٥٢٤]، عن أبي هريرة أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا يَعِدُّكُمْ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ويضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه ويقول: هكذا سمعت رسول الله يقرأها ويضع إصبعيه. رواه أبو داود [٤٧٢٨]، وابن حبان في «صحيحه» [٢٦٥]، والحاكم في «مستدركه» [نحوه/٢٩٢٥]، وصححه ووافقه الذهبي وجوّد إسناده الحافظ في «الفتح».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩).

روى الإمام أحمد [٦٢٢] عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أنت تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهم القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: (لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ). أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري نحوه/٤٠٨٥ ومسلم نحوه/١٨٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ). قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: (أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ) أخرجاه [البخاري/٣٢٦٨ ومسلم/١٨٤٢]. والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال ابن عباس: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؛ يعني: أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد [وغيره] ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؛ يعني: العلماء والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَتَشَاوَرُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي) [البخاري/٢٧٩٧ ومسلم/١٨٣٥]، فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾؛ أي: اتبعوا كتابه: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ أي: خذوا بسنته ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: (إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ).

وقوله: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ قُدْرُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَرِّ﴾؛ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ نَأْوِيًّا﴾؛ أي: وأحسن عاقبة ومألاً كما قاله السدي وغير واحد، وقال مجاهد: وأحسن جزاء وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣).

هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بين وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾؛ أي: يعرضون عنك إعراضاً كالمتكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبْنِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي:

فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾؛ أي: يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق؛ أي: المدارة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى - إلى قوله -: ﴿فَيُضْحِكُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتم به يا محمد فيهم، فإنه عالم بطواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تعنفهم على ما في قلوبهم: ﴿وَعَظَّمْهُمْ﴾؛ أي: وانهمهم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾؛ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٤٤) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (٤٥).

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾؛ أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي: لا يطيع أحد إلا بإذني؛ يعني: لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ أي: عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ، فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾؛ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.

روى ابن أبي حاتم [٥٥٥٨] عن الزبير بن العوام، أنه خاصم رجلًا من الأنصار قد شهد بدرًا

مع النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ، في شراج الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: (اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ) فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: (اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْسِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ)، واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه السعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ، استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وهكذا رواه النسائي [٥٩٦٣] ورواه أحمد [١٤١٩] والجماعة كلهم.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَنبِيْهُهُمْ مِنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُّطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن لو كان، فكيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

وقال السدي: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب علينا ﴿أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لفعلنا؛ فأنزل الله هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم [٥٥٦٨]. [وجاءت مراسيل أخرى بنحوه عن الحسن وأبي إسحاق السبيعي وعامر بن عبد الله بن الزبير وشريح بن عبيد].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا﴾، قال السدي: أي: وأشد تصديقاً ﴿وَإِذَا لَا تَنبِيْهُهُمْ مِنْ لَّدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ يعني: الجنة ﴿وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُّطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾؛ أي: من عمل بما أمره الله ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلا نيتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

روى البخاري [٤٣١٠] عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرَ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وكان في شكواه التي قبض فيه فأخذته بُحَّةٌ شديدة فسمعتة يقول: (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) فعلمت أنه خير، وكذا رواه مسلم [٢٤٤٤]. وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: (اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) ثلاثاً ثم قضى [رواه البخاري/٤١٧٤].

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

روى ابن جرير [١٦٣/٥] عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: (يَا فُلَانُ مَا لِي أَرَاكَ مَحْزُونًا؟) فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال: (ما هو؟) قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، فبعث النبي ﷺ فبشره. قد روي هذا الأثر مرسلاً عن مسروق وعكرمة، وعامر الشعبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس.

وثبت في «صحيح مسلم» [٤٨٩] من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: (سَلْ)، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟) قلت: هو ذاك. قال: (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ).

وروى الترمذي [١٢٠٩] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ) ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في «الصحيح» و«المسانيد» وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم [رواه مسلم نحوه/٢٦٤٠ وابن حبان/١٠٥].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ) قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: (بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٣٠٨٣] ولفظه لمسلم [٢٨٣١].

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من عند الله برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾؛ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا حُدُودًا حِذْرُكُمْ فَانْفِرُوا جَمِيعًا ۖ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لِّيُطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ فَلْيَقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير. ﴿ثَبَاتٍ﴾؛ أي: جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية، والثبات جمع ثبة. قال ابن عباس: قوله: ﴿فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ﴾؛ أي: عُصَبًا؛ يعني: سرايا متفرقين ﴿أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾؛ يعني: كلكم، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، والسدي، وقتادة والضحاك، وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وخُصيف الجَزْري.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لِّيُطِئَنَّ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿لِّيُطِئَنَّ﴾؛ أي: ليتخلفن عن الجهاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد كما كان عبد الله بن أبيّ ابن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد ويُثَبِّطُ الناس عن الخروج فيه، وهذا قول ابن جريج، وابن جرير؛ ولهذا قال تعالى إخبارًا عن المنافق أنه يقول: إذا تأخر عن الجهاد ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾؛ أي: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل. ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾؛ أي: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَقْتَلِ﴾؛ أي: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: يبيعون دينهم بَعَرَضٍ قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: كل من قاتل في سبيل الله سواء قُتِلَ أَوْ غَلِبَ وَسَلَبَ فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في «الصحيحين»: (وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ) [البخاري/ ٢٩٥٥٥ ومسلم/ ١٨٧٦].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۖ﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۖ﴾

يحرص تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين

بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين بالمقام بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾؛ يعني: مكة، كقوله تعالى: ﴿وَكُنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣]، ثم وصفها بقوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾؛ أي: سخر لنا من عندك وليًّا وناصرًا، روى البخاري [٤٣١١] عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين، وروي [٤٣١٢] عنه أنه تلا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٩٨] قال: كنت أنا وأمي ممن عذّر الله ﷻ.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغُوتِ﴾؛ أي: المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان، ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَمَرَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٧) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَاِلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩).

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات الثَّغْب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقًا، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه، جَزَع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: لو ما أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتَم الأبناء، وتأييم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَشْيِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]، وروى ابن أبي حاتم [٥٦٣٠] عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: (إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ)، فلما حوله الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله: ﴿أَمَرَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية، ورواه

النسائي [٤٢٩٣] والحاكم [٢٣٧٧] وصححه وابن مردويه، وقال السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال: ﴿إِذَا فِئْتُ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾، وعن مجاهد: إن هذه الآية نزلت في اليهود، وقوله: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾؛ أي: آخرة المتقي خير من دنياه ﴿وَلَا تَنْظُرُوا فَيْلًا﴾؛ أي: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد.

وقرأ الحسن: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه. وقال ابن معين كان أبو مُسْهَرٍ ينشد:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ
فَإِنْ تُعْجِبِ الدُّنْيَا رَجُلًا فَإِنَّهَا
مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبٌ

وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾؛ أي: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمدًا مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء.

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾؛ أي: حصينة منيعة عالية رفيعة، وقيل: هي بروج في السماء قال السدي: وهو ضعيف، والصحيح أنها المنيعة؛ أي: لا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ خَافَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلُئُهُ
وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ

ثم قيل: المشيدة هي المشيدة كما قال: ﴿وَقَصِّرْ مَشِيدَ﴾ [الحج: ٤٥]، وقيل: بل بينهما فرق، وهو أن المشيدة بالتشديد هي: المطولة، وبالتخفيف هي: المزينة بالشيد وهو الجص.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس، وأبي العالية والسدي، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسدي، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أي: من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قول فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ﴾ [الحج: ١١]، وهكذا قال هؤلاء

المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم النبي ﷺ، وقال السدي: ﴿وإن نُصِبْتُمْ حَسَنَةً﴾ قال: والحسنة الخصب، تنتج خيولهم ومواشيهم وأنعامهم، ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان، قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن نُّصِبْتُمْ سَيِّئَةً﴾ والسيئة: الجذب والضرر في أموالهم، تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ يقولون: بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر. قال ابن عباس: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: الحسنة والسيئة. وكذا قال الحسن البصري، ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ أي: فمن قبلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. قال السدي، والحسن البصري، وابن جريج، وابن زيد: ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ أي: بذنبك، وقال قتادة: عقوبة يا ابن آدم بذنبك. قال وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: (لَا يُصِيبُ رَجُلًا خَدَشَ عُودٍ، وَلَا عَثْرَةَ قَدَمٍ، وَلَا اخْتِلَاجَ عِرْقٍ، إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ أَكْثَرَ) [الطبري ١٧٥/٥] وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في «صحيح [مسلم/٢٥٧٢]: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، وَلَا نَصَبٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)، وقال أبو صالح: أي: بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك.

وعن مطرف بن عبد الله، قال: ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وإن نُصِبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن نُّصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أي: من نفسك والله ما وُكِّلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون، وهذا كلام متين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضاً. ولبسطه موضع آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾؛ أي: تبليغهم شرائع الله وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبليغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفرًا وعنادًا.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨١) ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١).

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. روى ابن أبي حاتم [٥٦٦٤] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ

عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)، وهذا الحديث ثابت في «الصحيحين» [البخاري/ ٢٧٩٧ ومسلم/ ١٨٣٥].

وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾؛ أي: لا عليك منه إن عليك إلا البلاغ فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث: (مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ) [رواه مسلم/ ٨٧٠].

وقوله: ﴿وَيَتَوَلَّوْكَ طَاعَةً﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أي: خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾؛ أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾؛ أي: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتيبين الذين هم موكلون بالعباد يعلمون ما يفعلون، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِئْتٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تحف منهم أيضاً: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأنا بآب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣).

يقول تعالى أمراً عباده بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؛ أي: اضطراباً وتضاداً كثيراً؛ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]؛ أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغفوا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين.

وروى الإمام أحمد [٦٨٠١] عن عبد الله بن عمرو، قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: (إِنَّمَا هَلَكْتَ الْأُمُّ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ)، ورواه مسلم [٢٦٦٦].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وقد روى مسلم [٥] في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ)، وفي «الصحيحين»، عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال [البخاري/٦١٠٨ ومسلم نحوه/١٧١٥]؛ أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين، وفي «صحيح [مسلم في مقدمته ٨/١]: (مَنْ حَدَّثَ، بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ).

ويذكر هاهنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله ﷺ، طلق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ، فاستفهمه أطلقت نساءك؟ قال: (لَا) فقلت: الله أكبر وذكر الحديث بطوله [البخاري/٤٨٩٥]، وعند مسلم [١٤٧٩] فقلت: أطلقتهن؟ فقال: (لَا) فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي، لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى يستنبطونه؛ أي: يستخرجونه ويستعملونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها؛ ومعنى قوله: ﴿لَا تَبِعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال ابن عباس: يعني: المؤمنين. وعن قتادة: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ يعني: كلكم.

﴿فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحْيَةٍ فَحَيًّا بِأَحْسَنِ مَّوْجِئَةٍ أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧).

يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾.

روى ابن أبي حاتم [٥٧٠٤] عن أبي إسحاق، قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقي المائة من العدو فيقاتل أياكون ممن يقول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قال: قد قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ورواه الإمام أحمد [١٨٥٠٠] عن أبي إسحاق، قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، لأن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ إنما ذلك في النفقة.

وقوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على القتال ورجبهم فيه وشجعهم عنده، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ) [أخرجه مسلم/ ١٩٠١]، وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري [٢٦٣٧] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ النَّبِيِّ وَلَدَ فِيهَا) قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُحَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ).

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ أي: هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾؛ أي: من سعى في أمر فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾؛ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (اشْفَعُوا تُوجَرُوا وَيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ) [البخاري/ ١٣٦٥]، وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية من شفاعات الناس بعضهم لبعض، وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل من يشفع، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾. قال ابن عباس [وغيره] «مُقِيمًا»؛ أي: حفيظًا، وقال مجاهد: شهيدًا، وفي رواية عنه: حسيبًا. وقال سعيد بن جبير والسدي، وابن زيد: قديرًا. وقال عبد الله بن كثير: المقيت الواصب، وقال الضحاك: المقيت الرزاق.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِحِجَّتِهِ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنِ مَنَآ أَوْ رُدُّوْهَا﴾؛ أي: إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم به، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة.

وروى الإمام أحمد [١٩٩٦٢] عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال: (عشر)، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله، فرد عليه ثم جلس، فقال: (عشرون)، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، ثم جلس فقال: (ثلاثون)، وكذا رواه أبو داود [٥١٩٥]، وأخرجه الترمذي [٢٦٨٩] والنسائي [١٠١٦٩]، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

وعن ابن عباس، قال: من يسلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً، ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنِ مَنَآ أَوْ رُدُّوْهَا﴾، وقال قتادة: فحيوا بأحسن منها؛ يعني: للمسلمين، أو ردوها؛ يعني: لأهل الذمة، وهذا التنزيل فيه نظر بل كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام، رد عليه مثل

ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزادون، بل يرد عليهم بما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكَ فَقُلْ: وَعَلَيْكَ) [البخاري/٥٩٠٢ ومسلم/٢١٦٤] . . . وفي «صحيح مسلم» [٢١٦٧] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتُمُوهم في طريقٍ فاضطُّروهم إلى أَصِيغِهِ)، وعن الحسن البصري، قال: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنَّه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالالهية لجميع المخلوقات وتضمن قسمًا لقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؛ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَّحِذُوا مِنْهُمْ وَليًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقْبِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ فَلَمْ يَقْبِلُوا أَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوكُمْ وَيَلْفُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبِضْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)﴾.

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين، واختلف في سبب ذلك فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّهَا طَيْبَةٌ، وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثِ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفُضَّةِ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٣١٣ ومسلم/١٣٨٤]، وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة، وعن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم،

فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله، أو كما قالوا: أنقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، تستحل دماؤهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك ففتن، والرسول عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي النَّفْقَيْنَ فِتْنَتَيْنِ﴾، وقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة، ومجاهد، والضحاك وغيرهم قريب من هذا، وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ: أنها نزلت في تقاويل الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي، حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك، وهذا غريب، وقيل: غير ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾؛ أي: ردهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس: ﴿كَسَبُوا﴾؛ أي: أوقعهم، وقال قتادة: أهلكهم وقال السدي: أضلهم، **وقوله:** ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾؛ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه، **وقوله:** ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾؛ أي: هم يودون لكم الضلالة لتستوا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عدواتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس، وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فَتَحْذَرُهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله سبحانه من هؤلاء، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾؛ أي: إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي وابن زيد، وابن جرير.

وفي «صحيح البخاري» [٢٥٥٣ نحوه] في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية، هؤلاء قوم آخرون من المستثنين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم؛ أي: ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضًا أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنْ أَعَزَّ لُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾؛ أي: المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره.

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ الْعَرَبَ يَرْيَدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُمْ وَيَأْمِنُوا بِقَوْمِهِمْ﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذرائعهم، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال ها هنا: ﴿كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾؛ أي: انهمكوا فيها، قال السدي: الفتنة هاهنا: الشرك، وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا [ابن أبي حاتم/٥٧٦٩] ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ الْإِسْلَامَ وَيَكْفُرُوا يَدْرَأَهُمْ﴾؛ أي: عن القتال، ﴿فَحُدُّوهُمْ وَاقْلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أين لقيتموهم، ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ أي: بينا واضحا.

﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣).

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، وكما ثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالنِّبْيُ بِالرَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ) [البخاري/٦٤٨٤ ومسلم/١٦٧٦]، ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه.

وقوله: ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ قالوا: هو استثناء منقطع.

واختلف في سبب نزول هذه، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخوي أبي جهل لأنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أبي الدرداء؛ لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف، فأهوى به إليه فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: إنما قالها متعوذاً فقال له: (هَلْ شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ) [ابن أبي حاتم نحوه/٥٨٢٤] وهذه القصة في «الصحيح» لغير أبي الدرداء.

وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة، وحكى ابن جرير عن ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم النخعي والحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان، وعن قتادة قال: في حرف أبي ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ لا يجزئ فيها صبي، واختار ابن جرير إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ وإلا فلا.

والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً. [ففي] «موطأ مالك» [١٤٦٨]، و«مسند الشافعي»، و«أحمد» [٢٣٨١٦]، و«صحيح مسلم» [٥٣٧] عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: (أَيْنَ اللَّهُ؟) قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: (مَنْ أَنَا) قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: (أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ).

وقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم، وهذه الدية إنما تجب أخماساً.

كذا روي عن علي وطائفة، وقيل: تجب أرباعاً وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة وهو أكثر من حديث الخاصة، وهذا الذي أشار إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: اقتتل امرأتان من هذيل فرمت إحدهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها فاخصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها [البخاري/٦٥١٢ ومسلم/١٦٨١] وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد لشبهه به، وفي «صحيح البخاري» [٤٠٨٤] عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ) وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى مِلَعَةَ الكلب، وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾؛ أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: إذا كان القاتل مؤمناً ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية؛ أي: فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم وقيل: ثلثها كما هو مفصل في كتاب الأحكام ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: لا إفتار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا، على قولين.

وقوله: ﴿تَوْبَةُكَ مِنَ اللَّهِ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا؛ أي: هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكينًا كما في كفارة الظهار، على قولين أحدهما: نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، والقول الثاني: لا يعدل إلى الطعام؛ لأنه لو كان واجبًا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة.

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفٌّ عَنْ رَبِّي وَإِلَّا بِطَغْوَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا، فمن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ) [البخاري/٦١٦٨ ومسلم/١٦٧٨]، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود [٤٢٧٠] عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنَقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ) [ومعنقًا؛ أي: سريع السير، وبلغ؛ أي: أعيا وانقطع].

وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة للقاتل عمدًا لمؤمن، فروى البخاري [٤٣١٤] عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسأله عنها، فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل، وما ينسخها شيء، وكذا رواه مسلم.

وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف زيد ابن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمر، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم.

وفي الباب أحاديث كثيرة: فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد [١٦٩٥٣] عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلُ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) وكذا رواه النسائي [٣٤٤٦]، وأبو داود نحوه/٤٢٧٠ وصححه الحاكم/٨٠٣١ والألباني وله شاهد من حديث أبي الدرداء].

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه وَعَلَى، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ - إلى قوله -: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اتَّخَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ - إلى قوله -: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء، والله أعلم.

وثبت في «الصحيحين» خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى، لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار التي كانت عليهم وبعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة وهي ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ - إلى قوله - ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه؛ ومعنى: هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جازاه عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولي أصحاب الموازنة أو الإحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب، وبتقدير دخول القاتل إلى النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس يخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: (أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ) [البخاري نحوه/ ٧٠٠١ ومسلم نحوه/ ١٩٣]، وأما حديث معاوية: (كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلُ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) [السابق تخريجه قريباً]، فعسى للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلة، وأما من مات كافراً فالنص أنه الله لا يغفر له ألبته، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة، فإنه حق من حقوق الآدميين، وهي لا تسقط بالتوبة، ولكن لا بد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغضوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولا بد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم

من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم.

ثم للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ - إلى قوله - ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلطة، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام؟ على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون نعم، يجب عليه؛ لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلا تجب في العمد أولى، وطردها هذا في كفارة اليمين الغموس واعتصدوا بقضاء الصلوات المتروكة عمدًا كما أجمعوا على ذلك في الخطأ. قال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس.

وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد [١٧٠٢٦] عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحبًا لنا قد أوجب. قال: ﴿فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً، يَفْدِي اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ﴾. ورواه أبو داود [نحوه/٣٩٦٤] والنسائي [نحوه/٤٨٩١] وصححه الحاكم/٢٨٤٤ ووافقه الذهبي.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِرُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَاكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنمًا له فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى آخرها، ورواه الترمذي في التفسير، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وعن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأهوى عليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلًا شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلًا شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: (ادْعُوا لِي الْمَقْدَادَ. يَا مَقْدَادُ، أَقْتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَدَا؟) قال: فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَرْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَّبَنُوا، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: (كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ، فَتَقَتْلَتْهُ، وَكَذَلِكَ كُنْتُ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ قَبْلَ) [الطبراني في الكبير/ ١٢٣٧٩ ورواه البزار نحوه/ ٢١١١ وجود إسناده الهيثمي وأصله في البخاري مختصراً].

وقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكُم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَرْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسرُّ إِيْمَانَهُ ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع أنفاً، وكما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنُصْرِهِ﴾ الآية [الأنفال: ٢٦]، وهذا مذهب سعيد بن جبیر. [قال في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين، وهذا اختيار ابن جرير، وعن سعيد بن جبیر قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تورعون عن مثل هذا، وعن مسروق: لم تكونوا مؤمنين، ﴿فَمَرْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وقال السدي: ﴿فَمَرْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تاب عليكم. وقوله: ﴿فَتَيَّبَنُوا﴾ تأكيد لما تقدم، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبیر: هذا تهديد ووعيد.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾. وعن ابن عباس قال: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر عن بدر والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش، وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر، رواه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. فقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحى سريع ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من العمى والعرج والمرض - عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولي الضرر. وكذا ينبغي أن يكون، كما ثبت في «صحيح البخاري» [٤١٦١] عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ) قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: (نَعَمْ حَسَبُهُمُ الْعُدْرُ).

وقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ﴾؛ أي: الجنة والجزاء الجزيل، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية. ثم قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [البخاري من حديث أبي هريرة/٢٦٣٧ ومسلم/١٨٨٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكِيَّةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جِلَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ قَالُوا لَيْتَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ٩٩ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾.

روى البخاري [٤٣٢٠] عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكِيَّةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾، قال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة منهم: علي بن أمية بن خلف، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن ميثبه بن الحجاج، والحارث بن زُمعة، وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت.

فهذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكِيَّةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾؛ أي: لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ - إلى قوله - ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

وروى أبو داود [٢٧٨٧] عن سمرة بن جندب، عن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ) [حسنه الألباني بمتابعة].

وقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ إلى آخر الآية، هذه عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ جِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني: طريقًا.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، روى البخاري [٤٣٢٢] عن أبي هريرة، قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: (اللَّهُمَّ نَجِّ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ نَجِّ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُونُسَ)، وروى البخاري [٤٣١٢] عن ابن عباس: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ قال: كانت أمي ممن عذر الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه. وقال ابن عباس [وغيره]: المراعِم التحول من أرض إلى أرض، وقال مجاهد: ﴿مُرْعَمًا كَثِيرًا﴾؛ يعني: متزحزحًا عما يكره. وقال سفيان بن عيينة: ﴿مُرْعَمًا كَثِيرًا﴾؛ يعني: بروجًا، والظاهر - والله أعلم - أنه التمتع الذي يُتَحَصَّن به ويراعِم به الأعداء.

قوله: ﴿وَسَعَةً﴾؛ يعني: الرزق، قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال: في قوله: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾؛ أي: والله من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى، وقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ومن خرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِيَ رَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِيَ رَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) [البخاري/١] ومسلم قريبًا منه [١٩٠٧].

وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال، ومنه الحديث الثابت في «الصحيحين» [البخاري نحوه/٣٢٨٣ ومسلم/٢٧٦٦] في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالمًا: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجرًا إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائبًا، وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد، فأمرُوا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر

إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة، وفي رواية أنه لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها.

﴿وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٦١).

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافرتُم في البلاد، كما قال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَإِخْرُؤٌ بَصُرُونِ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ أي: تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحكي عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ومن قال: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحًا، لقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٢٣]، أباح له تناول الميتة مع الاضطرار إلا بشرط ألا يكون عاصيًا بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة، ومن قائل: يكفي مطلق السفر سواء كان مباحًا أو محظورًا حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، ترخص لوجود مطلق السفر، وهذا قول أبي حنيفة، والثوري، وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور.

وأما قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ نَحَصًا﴾ [النور: ٣٣]، وكقوله: ﴿وَرَبِّيبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣]، وروى الإمام أحمد [١٧٤] عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتُ مِنْهُ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَأَقْبِلُوا صَدَقَتَهُ)، وهكذا رواه مسلم [٦٨٦].

وروى البخاري [١٠٣١] عن أنس قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئًا؟ قال: أقمنا بها عشرًا، وهكذا أخرجه بقية الجماعة، وروى الإمام أحمد [١٨٧٤٩] عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس، وأمنه ركعتين، ورواه الجماعة سوى ابن ماجه، فهذه الأحاديث دالة صريحًا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف.

وعن الضحاك في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قال: ذاك عند القتال يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه، وعن السدي: إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام، التقصير لا يحل إلا أن تخاف من الذين كفروا أن يفتنوك عن الصلاة فالتقصير ركعة، وعن مجاهد: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعُسفان، والمشركون بضجنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات ركوعهم، وسجودهم، وقيامهم معاً جميعاً فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم، ونحوه عن جابر وابن عمر، [واختره ابن جرير].

وروى ابن جرير [٢٤٥/٥] عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر، فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَفْعَلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرון على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلين القبلة وغير مستقبلينها ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة، ومن العلماء من قال: يُصَلُّونَ والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل، والحسن ومجاهد [وغيرهم]، وعن محمد بن نصر المروزي: أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف، وإليه ذهب ابن حزم أيضاً، وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايقة فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله، وقال آخرون: تكفي تكبيرة واحدة، فلعله أراد ركعة واحدة. كما قاله أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخت المكي حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه؛ يعني: بالنية.

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب صلاة العصر، قيل: والظهر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب، ثم العشاء، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة، فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا

رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، وأُخِّرَ آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، ولم يعنف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين، وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة وبيننا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة هاهنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود.

وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، وهذا بيّن في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الشافعي وأهل السنن، ولكن يشكل عليه ما حكاه البخاري في «صحيحه» [٣٢٠/١] حيث قال:

«باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» قال الأوزاعي: إن كان تَهَيَّأَ الفتح ولم يقدرُوا على الصلاة، صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدرُوا على الإيماء، أَخْرُوا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدرُوا صلوا ركعة وسجدة، فإن لم يقدرُوا فلا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدرُوا على الصلاة، فلم نُصَلِّ إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففُتِحَ لنا، قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها.

انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، وكأنه كالمختار لذلك، والله أعلم.

ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر، فإنه يشتهر غالباً، وكان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، ولم ينقل أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة، والله أعلم، وقال هؤلاء: وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق؛ لأنَّ ذات الرِّقَاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي.

والعجب كل العجب أن المُرْني وأبا يوسف القاضي وإبراهيم بن إسماعيل بن عُليّة، ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها عليه الصلاة والسلام، الصلاة يوم الخندق وهذا غريب جداً، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف، وحمل تأخير الصلاة يومئذٍ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالاً وركباً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، ثم ذكر حال الاجتماع والالتزام بإمام واحد، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك، وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴿١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته؛ أي: دعاؤه سكن لنا، ومع هذا رد عليهم الصحابة، وأبوا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة وقاتلوا من منعها منهم.

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: روى الإمام أحمد [١٦٦٣٠] عن أبي عياش الزرقى قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُصفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غُرَّتْهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا، جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعُصفان، ومرة بأرض بني سليم، وهذا إسناده صحيح وله شواهد كثيرة.

وقد روى هذا الحديث الجماعة في كتبهم، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طرقه وألفاظه، وكذا ابن جرير، ولنحضره في كتاب الأحكام الكبير، إن شاء الله وبه الثقة.

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي، ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾؛ أي: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿وَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفُودُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروغاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَقْظِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهياً عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها

وعظمها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَنُحُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: في سائر أحوالكم، ثم قال: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: فإذا أمنتهم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: فأتوموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وسجودها، وركوعها، وجميع شؤونها.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي: مفروصًا، وكذا روي عن مجاهد والحسن ومقاتل [وغيرهم]، وعن قتادة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ قال: ابن مسعود: إن للصلاة وقتًا كوقت الحج، وقال زيد بن أسلم: منجمًا، كلما مضى نجم جاءتهم؛ يعني: كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾؛ أي: كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ثم قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ أي: أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئًا من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلائها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ .

يقول تعالى: مخاطبًا لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في «الصحيحين» عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جليلة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: (أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ مِمَّا أَسْمَعُ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا) [البخاري/ ٦٥٦٦ ومسلم نحوه/ ١٧١٣].

وعن ابن عباس: أن نفرًا من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرت درع لأحدهم، فأظن بها رجلًا من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طُعْمَةَ بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل برئ،

وقال لنفر من عشيرته: إني عَيَّبْتُ الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا برئ وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذُرْ صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ، فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً ۝١٥٠﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥١ وَلَا تُجْدِلْ عَنِ الَّذِينَ يُخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [الطبري ٢٦٧/٥].

ثم قال تعالى: للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَكَيْلًا﴾ الآيتين؛ يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ - إلى قوله - ﴿رَحِيمًا﴾؛ يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾؛ يعني: السارق والذين جادلوا عن السارق، وكذا ذكر مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية: إنها نزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهي متقاربة.

وقد روى هذه القصة محمد بن إسحاق مطولة، والترمذي في «جامعه».

وقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبايحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها؛ لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم ووعيد، ثم قال تعالى: ﴿هَتَانِ الْهَوَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية؛ أي: هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله ﷻ الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويح دعواهم؟ أي: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلاً، ولهذا قال: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٥٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝١٥٣﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَمْ تَكُنْ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١٥٤﴾.

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض

والجبال، وقال عبد الله بن مسعود: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض، فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وعن حبيب بن أبي ثابت، قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها، قال عبد الله بن مغفل ما لها؟ لها النار، فانصرفت وهي تبكي فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال: فمسحت عنها ثم مضت [الطبري ٢٧٣/٥].

وروى الإمام أحمد [٤٧] عن علي رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعتني منه، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدَٰلِكَ الذَّنْبِ إِلَّا غُفِرَ لَهُ)، وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ - إلى قوله: - ﴿رَحِيمًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. [وهو حديث حسن].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية [فاطر: ١٨]؛ يعني: أنه لا يجني أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا﴾ الآية؛ يعني: كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل كما تقدم في الحديث، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، ثم هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفاتهم وارتكب مثل خطيئتهم، فعليه مثل عقوبتهم.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وهو القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾؛ أي: من قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ - إلى قوله: - ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥).

يقول تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾؛ يعني: كلام الناس ﴿إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ أي: إلا نجوى من قال ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٧٣١٣] عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْجِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا) وقالت: لم أسمع به يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها، وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

وروى الإمام أحمد [٢٧٥٤٨] عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟) قالوا: بلى. قال: (إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ)، قال: (وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ)، ورواه أبو داود [٤٩١٩] والترمذي [٢٥٠٩]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: مخلصًا في ذلك محتسبًا ثواب ذلك عند الله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلاً كثيراً واسعاً. وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾؛ أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق، والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريعاً لهم وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها.

ولهذا تواعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿تَوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا وَتُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يَكْذِبْ يَهْدِي اللَّهُ أَلْفُسُكُورًا مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وجعل النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَاهُمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿صِرَاطَ الْحَقِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿وَرَرَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١١٧) ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨) ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا أُضِلَّتْهُمْ وَلَا أُمْنِيَّتُهُمْ وَلَا مَرْئُهُمْ فَلْيَنْتَكِبْ أَزْوَاجَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئُهُمْ فَلْيَغْرِضْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (١١٩) ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠) ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَحْدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢).

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية [النساء: ٤٨]، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة، وقد روى الترمذي [٣٠٣٧] عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية، ثم قال: حسن غريب.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾؛ أي: فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا﴾ عن أبي بن كعب قال: مع كل صنم جنية، وعن عائشة قالت: أوثاناً، وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير، ومجاهد، وأبي مالك، والسدي، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك، وعن الضحاك قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوها أرباباً، وصوروهن صور الجواري فحكموا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبدن، يعنون الملائكة، وهذا التفسير شبيهه بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ - إلى قوله - ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾؛ أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسنه لهم وزينه، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىْ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْوَحْدَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره، وقال: ﴿لَا تُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾؛ أي: معيناً مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف، تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾؛ أي: عن الحق،

﴿وَلَا تُبَيِّنْهُمْ﴾؛ أي: أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأمانى، وأمرم بالتسوية والتأخير، وأغرهم من أنفسهم، وقوله: ﴿وَلَا تُرْمِهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانُكَ أَلَّا تَقْعَمَ﴾. قال قتادة والسدي وغيرهما: يعني: تشقيها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة، ﴿وَلَا تُرْمِهُمْ فَلْيَغْرِزْ خَلْقَ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس: يعني بذلك: خصاء الدواب، وقد روي عن ابن عمر، وأنس، وأبي صالح، وقاتدة، والثوري [وغيرهم]، وقد ورد في حديث النهي عن ذلك، وقال الحسن: يعني بذلك الوشم، وفي «صحيح مسلم» [٢١١٦] النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: ﴿لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ﴾، وفي «صحيح [البخاري/٤٦٠٤]» عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ﷻ، ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ﷻ؛ يعني: قوله: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال ابن عباس في رواية عنه ومجاهد، والحسن [وغيرهم] في قوله: ﴿وَلَا تُرْمِهُمْ فَلْيَغْرِزْ خَلْقَ اللَّهِ﴾؛ يعني: دين الله ﷻ، وهذا كقوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً؛ أي: لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانَهُ، وَيُنَصِّرَانَهُ، وَيُمَجِّسَانَهُ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ يَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ؟﴾ [البخاري/٤٤٩٧ ومسلم/٢٦٥٨ نحوه]، وفي «صحيح مسلم» [٢٨٦٥] عن عياض بن حمار، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَقَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَانَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾؛ أي: فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لقاتتها، وقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مصيرهم ومآلهم يوم حسابهم ﴿وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا حِصًّا﴾؛ أي: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؛ أي: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛

أي: هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؛ أي: لا أحد أصدق منه قولاً، وخبراً لا إله هو ولا رب سواه، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: (إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ) [ابن خزيمة نحوه/ ١٧٨٥].

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (٢٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (٢٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (٢٢٦).

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزله الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآية، فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان، وكذا روي عن السدي، ومسروق، والضحاك، وأبي صالح وغيرهم، وكذا روي عن ابن عباس نحوه.

وقال مجاهد: قالت العرب: لن نبعث ولن نعذب، وقالت اليهود والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]، وقالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا الْكَارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وفر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو المحق سُمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾؛ أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني؟ بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام، ولهذا قال بعده: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة.

فروى الإمام أحمد [٦٨] أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: (غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصَبِّحُ اللَّأْوَاءَ) قال: بلى. قال: (فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ) [وصححه الحاكم/ ٤٤٥٠ ووافقه الذهبي].

وعن الحسن: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سأ: ١٧]، وهكذا روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير: أنهما فسرا السوء هاهنا بالشرك أيضًا.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه، والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار ابن جرير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له، وإما في الآخرة والعياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكرانهم وإنانهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط في الذي شق النواة، وهذا النقيير وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، الثلاثة من القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص العمل لربه ﴿وَعَبَّكَ﴾ فعل عمل إيمانًا واحتسابًا ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما؛ أي: يكون خالصًا صوابًا والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعًا للشرعية فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقًا وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالًا جاهلًا، ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين ﴿الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْبَرِّ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: ١٦١]، والحنيف هو المائل عن الشرك قصدًا؛ أي: تاركًا له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكلية لا يصدده عنه صاد، ولا يردده عنه راد.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، قال كثير من السلف: أي: قام بجميع ما أمر به ووفّى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الآية [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وروى البخاري عن عمرو بن ميمون، قال: إن معاذًا لما قدم اليمن صلى الصبح بهم، فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرّرت عين أم إبراهيم.

وإنما سُمّي خليل الله لشدة محبة ربه ﷺ له، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت في «الصحيحين» من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها، قال: (أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ) [البخاري نحوه/ ٤٥٥ ومسلم نحوه/ ٢٣٨٣].

وعن إسحاق بن يسار، قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا ألقى في قلبه الوجل حتى إن كان خفقان قلبه لَيُسْمَعُ من بعيد، كما يسمع خفقان الطير في الهواء [ابن أبي حاتم/ ٦٠١٥]، وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ أنه كان يُسْمَعُ لصدرة أزيز كأزيز المرجل من البكاء. [أخرجه أحمد/ ١٦٣٥٥، وأبو داود نحوه/ ٩٠٤، والنسائي/ ٥٤٤ وهو حسن].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا﴾؛ أي: علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظر وما توارى.

﴿وَسْتَغْفِرُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

روى البخاري [٤٣٢٤] عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَسْتَغْفِرُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها، قد شركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية، وكذلك رواه مسلم [نحوه/ ٣٠١٨]، وروى ابن أبي حاتم [٤٧٥١] عن عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: ﴿وَسْتَغْفِرُكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية، قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب، الآية الأولى التي قال الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، وعنها قالت: وقول الله ﷻ: ﴿وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن، وأصله ثابت في «الصحيحين»، والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من

النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله ﷻ، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لدامتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله ﷻ أن يُعْضِلَهَا عن الأزواج خشية أن يَشْرِكُوهُ في ماله الذي بينه وبينها، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فِي يَتَنَمَى النِّسَاءُ﴾ الآية، كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا فإن كانت جميلة وهوبها، تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه.

وقال في قوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ آلِ الدِّينِ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فنهى الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] صغيرًا أو كبيرًا، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات جمال ولا مال فانكحها واستأثرت بها.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تهيجًا على فعل الخيرات وامتنال الأوامر، وأن الله ﷻ عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.

﴿وَإِنْ أَمْرُهَا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمِغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩) وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠).

يقول تعالى مخبرًا ومشرعًا عن حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾؛ أي: من الفراق، وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾؛ أي: الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها وترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك.

روى أبو داود الطيالسي [٢٦٨٣] عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَمْرُهَا﴾

خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴿١٢٨﴾ الآية. قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز، ورواه الترمذي [٣٠٤٠]، وقال: حسن غريب.

وفي «الصحيحين» عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة [البخاري/٤٩١٤ ومسلم/١٤٦٣ نحوه]، وفي «صحيح البخاري» [٢٥٤٢] من حديث الزهري عن عروة، عن عائشة نحوه.

روى البخاري [٢٣١٨] عن عائشة في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية.

وروى ابن جرير [٣٠٧/٥] عن عائشة أيضًا: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله ألا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد ولها صحبة فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني.

وروى [الطبري ١٨/١٠] عنها أيضًا في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ قالت: هو الرجل يكون له المرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي دميمة، وهو لا يستكثر منها فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني، وهذا الحديث ثابت في «الصحيحين» [البخاري/٢٣١٨ ومسلم/٣٠٢١].

وعن عمر في هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ قال: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنّها، فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وعن علي قال: يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دماستها أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذوها ففكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئًا حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج، وكذا فسرّها ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم في ذلك خلافاً في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم.

روى الحافظ أبو بكر البیهقي [١٤٥٠٨] عن سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار: أن السنة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز المرء وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرء إذ نشز عن امرأته وآثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القسم من ماله ونفسه، فإن استقرت عنده على ذلك وكرهت أن يطلقها فلا حرج عليه فيما آثر عليها من ذلك، فإن لم يعرض عليها الطلاق وصالحها على أن يعطيها من ماله ما ترضاه وتقر عنده على الأثرة في القسم من ماله ونفسه، صلح له ذلك وجاز صلحها عليه، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق، خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها، والظاهر من الآية أن صلحهما على

ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تترك يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها، بل تركها من جملة نساءه وفعله ذلك لتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق. قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾؛ أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس وعبيدة السلماني ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم.

وقد روى ابن أبي حاتم [٦٠٥٦] عن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ في عائشة؛ يعني: أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٥١٥٤] وأهل السنن [أبو داود/٢١٣٤ والنسائي/٨٨٩١ وابن ماجه/١٩٧١ والترمذي/١١٤٠] عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نساءه فيعدل، ثم يقول: (اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تُلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ)؛ يعني: القلب، لفظ أبي داود، وهذا إسناده صحيح، لكن قال الترمذي: رواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلًا، قال: وهذا أصح.

وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾؛ أي: فإذا ملتم إلى واحدة منهن، فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾؛ أي: فتبقى الأخرى مُعَلَّقَةً. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة.

وقد روى أبو داود الطيالسي [٢٤٥٤] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاحِدٌ شَقِيهٌ سَاقِطٌ)، وهكذا رواه الإمام أحمد [٨٥٤٩]، وأهل السنن [وصححه ابن حبان/٤٢٠٧ والألباني].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصْلِحُوا فَاتَّكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ﴾ وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾؛ أي: واسع الفضل عظيم المن حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أي: وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله وعبادته وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]؛ أي: غني عن عبادته، ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود في جميع ما يقدره ويشعره، قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء.

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾؛ أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]؛ أي: ما هو عليه بممتنع.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: يا من ليس له همة إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: ﴿...فَمِنْ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ - إلى قوله: - ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

وقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة؛ أي: بيده هذا وهذا، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همة سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]؛ أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: اشهد بالحق ولو عاد ضررها عليك، وإذا سُئِلت عن الأمر فقل الحق فيه وإن كان مضرّة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقربتك لا تراعيهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ أي: لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما في صلاحهما.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾؛ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: تلووا؛ أي: تحرفوا الشهادة وتغيروها، «واللي» هو التحريف وتعمد الكذب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَذِبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، و«الإعراض» هو كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال النبي ﷺ: (خَيْرُ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَها) [أخرجه مسلم/١٧١٩]؛ ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: وسيجازيكم بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتثبيتته والاستمرار عليه،

كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ أي: بَصِّرْنَا فِيهِ، وَزِدْنَا هُدًى، وَثَبِّتْنَا عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُم بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾؛ يعني: الْقُرْآنَ، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: نَزَّلَ لِأَنَّهُ نَزَلَ مَفْرَقًا مَنْجَمًا عَلَى الْوَقَائِعِ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ مَعَاشِهِمْ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمَتَقَدِّمَةُ، فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا بَعِيدًا﴾؛ أي: فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَبَعْدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبَعْدِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوكَ عِنْدَهُمُ الْغُرَّةَ فَإِنَّ الْغُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْبُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا، ولا طريقًا إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ قال: تَمَّمُوا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام)، أَنَّهُ قَالَ: يَسْتَتَابُ الْمُرْتَدُ ثَلَاثًا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ يعني: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، يُوَالُونَهُمْ وَيَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا خَلَوْا بِهِمْ: إِنَّمَا نَحْنُ مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ؛ أَيْ: بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي إِظْهَارِنَا لَهُمْ الْمَوَافَقَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكَهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ: ﴿أَيْبَنُوكَ عِنْدَهُمُ الْغُرَّةَ؟﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الْغُرَّةَ كُلُّهَا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَمْ يَجْعَلْهَا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغُرَّةَ فَلِلَّهِ الْغُرَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْغُرَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله والالتجاء إلى عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ويناسب أن يذكرها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي ریحانة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَنْ انْتَسَبَ

إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ، يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَفَخْرًا، فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ) تفرد به أحمد [١٧٢٥١]، وقال الهيثمي رجال ثقات.

وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [١٤١] إِذًا مِثْلُهُمْ؛ أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر به آيات الله ويستهزأ ويتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾؛ أي: في المآثم، كما جاء في الحديث: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ) [رواه الترمذي/ ٢٨٠١ وحسنه الألباني]، والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام؛ يعني: نسخ قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ لقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾؛ أي: كما أشركوهم في الكفر، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال، وشراب الحميم والغسلين لا الزلال.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [١٤١].

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء؛ بمعنى: ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفر عليهم وذهاب ملتهم. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: نصر وتأيد وظفر وغنيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾؛ أي: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾؛ أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألوناهم خبالاً وتخذيلاً حتى انتصرتهم عليهم، وقال السدي: نستحوذ عليكم: نغلب عليكم، كقوله: ﴿أَسْتَحْذِ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩]، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصنعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور.

وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عن يسيع الكندي، قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فقال علي عليه السلام: أدنه أدنه، ثم قال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، وكذا روي عن ابن عباس قال: ذاك يوم القيامة، وكذا روي عن أبي مالك الأشجعي: يعني: يوم القيامة، وقال السدي: أي: حجة.

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؛ أي: في الدنيا بأن يُسَلِّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، وعلى هذا فيكون ردًا على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفًا على أنفسهم منهم إذا هم ظهوروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿تَذَمُّرِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقد استدل كثير من العلماء بهذا الآية الكريمة على أصح قولي العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة، يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدَعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢) مُدْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٣).

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدَعُهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدَعُهُمْ﴾ [أي إن] المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذا يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

وقوله: ﴿وَهُوَ خَدَعُهُمْ﴾؛ أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك في القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقَسَ مِنْ تَوَكُّمٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَوَظَّيْرُهُمْ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وقد ورد في الحديث: (مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ) [رواه البخاري/٦١٣٤ واللفظ لمسلم/٢٩٨٦].

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها كما روي عن ابن عباس، قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح، فإنه يناجي الله وإن الله أمامه يغفر له ويحييه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾، فقولته تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾؛ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومصانعة لهم، ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يرون فيها غالبًا كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت العَلَس، كما ثبت في «الصحاحين» أن رسول الله ﷺ قال: (أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ، وَمَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ) [البخاري/٦٢٦ ومسلم واللفظ له/٦٥١].

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: في صلاتهم لا يخشعون فيها ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون، وقد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك [٥١٤] قال: قال رسول الله ﷺ: (تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ: يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَقَرَّ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)، ورواه مسلم [٦٢٢].

وقوله: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني: المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنه من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٠]، وقال مجاهد: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني: أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني: اليهود. روى ابن جرير [٣٣٦/٥] عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَدْرِي أَيَّتَهُمَا تَتَّبِعُ) ورواه مسلم [٢٧٨٤]. وعن قتادة ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسو بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، فإنه ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادِيٍّ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يُسْأَلُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ يعني: مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَعِذُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه، ولهذا قال هاهنا: ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ أي: حجة عليكم في عقوبته إياكم. روى ابن أبي حاتم [٥٧٧٨] عن ابن عباس قوله: ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال: كل سلطان في القرآن حجة، وهذا إسناده صحيح، وكذا قال مجاهد [وغيره].

ثم أخبرنا تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ. قال ابن عباس: ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: في أسفل النار، وعن أبي هريرة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم. [ابن أبي حاتم/ ٦١٥٤، وعن ابن مسعود نحوه].

﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾؛ أي: ينقذهم ما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا، تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾؛ أي: بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل. ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: في زمرتهم يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾؛ أي: أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾؛ أي: من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُنَفِّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرحص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وإن صبر فهو خير له، وقال الحسن البصري: لا يدعُ عليه، وليقل: اللَّهُمَّ أعني عليه، واستخرج حقي منه، وفي رواية عنه قال: قد أرحص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَرِيُّ في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتري عليه، لقوله: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، وروى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ) [رواه مسلم/٢٥٨٧]، وعن مجاهد قال: ضاف رجل رجلاً فلم يؤد إليه حق ضيافته، فلما خرج أخبر الناس فقال: ضفت فلاناً فلم يؤد إلي حق ضيافتي، قال: فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته.

وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي عن عقبة بن عامر، قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال: (إِذَا نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخَذُّوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ) [البخاري/٥٧٨٦ ومسلم/١٧٢٧ وأبو داود/٣٧٥٢ وابن ماجه/٣٦٧٦].

ومن [هذا ومثله] ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة. وقوله: ﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ أي: إن تظهروا أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتهم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك، وفي الحديث الصحيح: (مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ) [رواه مسلم/٢٥٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥٢﴾.

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله، من اليهود والنصارى حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قاهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي، تبين أن إيمانه بمن آمن

به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾؛ أي: في الإيمان، ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً ومسلماً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾؛ أي: كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ أي: كما استهانوا بمن كفروا به، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾؛ يعني: بذلك أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله ويكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَالِئِكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: لذنوبهم؛ أي: إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتٌ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٦﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٧﴾﴾.

قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة سبحان: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٦﴾...﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] الآيات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَّىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: من بعدما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ في بلاد مصر، وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً، حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطه في سورة الأعراف، وفي سورة طه، بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله ﷻ، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه، أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، ثم أحياهم الله ﷻ، وقال الله تعالى: ﴿فَعَقَوْا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَاتٍ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى ﷺ، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم، خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لَبْلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً وهم يقولون: حطة؛ أي: اللّهُمَّ حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾؛ أي: وصيناهم بحفظ السبت والالتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾؛ أي: شديداً، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله ﷻ، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرِيقَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦] الآيات.

﴿فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقُلْتَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨) ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَهِيْدًا﴾ (١٥٩).

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهد التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله؛ أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدها على أيدي الأنبياء ﷺ، قوله: ﴿وَقُلْتَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعاً غفيراً من الأنبياء ﷺ. وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة وغير واحد: أي: في غطاء، وهذا كقول المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾

[فصلت: ٥]، وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غُلفٌ للعلم؛ أي: أوعية للعمل قد حوته وحصلته [الطبري ٤٠٧/١]. روي عن ابن عباس، وقد تقدم نظيره في سورة البقرة.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول؛ لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله: بل هي مطبوع عليها بكفرهم وعلى القول الثاني: عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: مَرَدَتْ قلوبهم على الكفر والطغيان، وقلة الإيمان ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ قال ابن عباس: يعني: أنهم رموها بالزنا، وكذا قال السدي وغير واحد، وهو ظاهر من الآية، أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة: ﴿وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرئ بها الأكفم والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرًا، ثم ينفخ فيه، فيكون طائرًا يشاهد طيرانه بإذن الله ﷻ، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله عيسى ﷺ، لا يسكنهم في بلدة، بل يكثر السباحة هو وأمه ﷺ، ثم لم يقنعهم ذلك، حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلًا مشرغًا من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهم إليه أن بيت المقدس رجلًا يفتن الناس ويضلهم، ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل مُتَوَلِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ﷺ، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر، وقيل: سبعة عشر نفرًا، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه عليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبيهي وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا يَتَنَدَّبُ إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت رُوَزَّة من سقف البيت، وأخذت عيسى ﷺ سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الآية [آل عمران: ٥٥]، فلما رفع خرج أولئك نفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب، ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه، وتبجحوا بذلك وسلم لهم طوائف من النصراري ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه. وأما الباقيون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود، أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم

جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم. [هذا مختصر ما جاء عن ابن عباس ووهب وابن إسحاق].

وهذا كله من امتحان الله عباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه، وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات، فقال تعالى: وهو أصدق القائلين ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون: ﴿وَمَا قَلُوهُ وَمَا صَلَوُهُ وَلَكِنْ شِئَهُ هُمْ﴾؛ أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ﴾؛ يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر، ولهذا قال: ﴿وَمَا قَلُوهُ يَقِينًا﴾؛ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾؛ أي: منيع الجنب، لا يرام جنبه ولا يضام من لاذ ببابه، ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم.

وعن مجاهد: صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى، ورفع الله رَجُلًا عيسى إلى السماء حيًّا، واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك قال بعضهم: معنى ذلك: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ يعني: بعيسى؛ يعني: قبل موت عيسى يُوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام.

فعن ابن عباس: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، قال: قبل موت عيسى ابن مريم [ابن أبي حاتم/٦٢٥٤]، وقال أبو مالك: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به، وعن ابن عباس أيضًا قال: يعني: اليهود خاصة، وقال الحسن البصري: يعني: النجاشي وأصحابه، وعن الحسن أيضًا: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه لحَي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون [الطبري ١٨/٦].

وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وهذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال ابن جرير [١٩/٦]: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ بعيسى قبل موت الكتابي، إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه، وعن ابن عباس: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. وعن مجاهد: كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته - قبل موت صاحب الكتاب - وقال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم

تخرج نَفْسَهُ حتى يؤمن بعيسى، وعنه [أيضاً] قال: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح.

وعنه أيضاً قال: هي في قراءة أبي: «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: رأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي، فقيل: رأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يُلْجَلَج بها لسانه.

فهذه كلها أسانيدُها صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صح عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، وبه يقول الضحاك وجوبير، والسدي، ونقل قراءة أبي بن كعب: «قبل موتهم»، وعن الحسن في قوله: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت، وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه، ويحتمل أن يكون مراده ما أراده هؤلاء، قال ابن جرير، وقال آخرون: معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، فعن عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ؛ يعني: في قوله: ﴿وَلَنْ يَكُنَّ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى ﷺ إلا آمن به قبل موته؛ أي: قبل موت عيسى ﷺ، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باقٍ حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية؛ يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذٍ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يَكُنَّ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ أي: قبل موت عيسى الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض.

فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام، فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ﴾ الآية [النساء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الآيتين: غافر: ٨٤، ٨٥].

والمراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى ﷺ، وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه، وتضادّت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود، وأفرط هؤلاء النصارى،

تَنْقُصَةُ الْيَهُودِ بِمَا رَمَوْهُ بِهِ وَأَمَهُ مِنَ الْعِظَائِمِ، وَأَطْرَاهِ النَّصَارَى بِحَيْثُ ادَّعَوْا فِيهِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، فَرَفَعُوهُ فِي مَقَابِلَةِ أَوْلَئِكَ عَنْ مَقَامِ النَّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عَلَؤًا كَبِيرًا، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

روى البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب ذكر الأنبياء من «صحيحه» [٣٢٦٤] المتلقى بالقبول «نزول عيسى ابن مريم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعُ الْحِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)، ثم يقول أبو هريرة: واقروا إن شئتم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾».

وروى مسلم في «صحيحه» [٢٨٩٧] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزَلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَايِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَ الرُّومُ: خَلَوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نَقَاتِلُهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللَّهِ لَا نُحَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُ أَفْضَلُ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَيَنْمَ هُمْ يَقْسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَقَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَأَاهُ عَدُوُّ اللَّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَه لَأَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيَرْبِهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ).

روى الإمام أحمد [٣٥٥٦] عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: (لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَتَذَكَّرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى، فَقَالَ: أَمَّا وَجِبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ قَالَ: وَمَعِيَ قَضِييَانِ، فَإِذَا رَأَيْتَنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُ اللَّهُ إِذَا رَأَيْتَنِي حَتَّى إِنَّ الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ: «يَا مُسْلِمٌ، إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالِ فَاقْتُلْهُ» قَالَ: فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطُؤُونَ بِلَادَهُمْ، فَلَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ، قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ يَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَيَهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ، حَتَّى تَجُوزَ الْأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ، وَيَنْزِلُ اللَّهُ الْمَطَرَ، فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَفْذِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ، فَبَيْنَمَا عَهْدُ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ

كَذَلِكَ، أَنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمَتِمِّ، لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجُوهُمْ بِوَلَادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) ورواه ابن ماجه (٤٠٨١)، وفي الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات .

روى مسلم بن الحجاج في «صحيحه» [٢٩٣٧] عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحُفِضَ فيه ورقع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: (مَا شَأْنُكُمْ؟) قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فحُفِضَتْ فيه، ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: (غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنَّ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمُرُّوْا حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كَأَنِّي أَشْبَهُهُ بِعَبْدِ الْعَزَى بْنِ قُطْنٍ، مِنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارُجٌ خَلَّةَ بَيْنِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتَ يَمِينًا وَعَاتَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ، فَانْبُتُّوا) قلنا: يا رسول الله وما لَيْتَنَهُ في الأرض؟ قال: (أَرْبَعِينَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَنَةِ، وَيَوْمَ كَشْهَرٍ، وَيَوْمَ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرِ أَيَامِهِ كَأَيَّامِكُمْ) قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: (لَا أَقْدِرُوا لَهُ قُدْرَةً) قلنا: يا رسول الله، وما إسرعه في الأرض؟ قال: (كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتُهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فْتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فْتَنْبِتُ، فَتَرْوِحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتَهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفَ عَنْهُمْ، فَيُضْبِحُونَ مُمَحْلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ فَتَنْتَبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ، ثُمَّ يَدْعُوا رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةِ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ وَيَهْلَلُ وَجْهَهُ وَيَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَينِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانُ اللَّوْلُؤِ، وَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ بِحَدِّ رِيحٍ نَفْسُهُ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَدْرِكَهُ بِبَابٍ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ﷺ، قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ ﷻ، إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ، فَحَرَّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوْلَهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِيةَ، فَيَسْرُبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةَ مَاءٍ، وَيُخْصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُضْبِحُونَ فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبِيرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنْ مِنْهُ بَيْتٌ مَدَرٌ، وَلَا وَبَرٌ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلَقَةِ، ثُمَّ

يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَخْرِجِي ثَمَرَكَ وَرُدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعُصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا، وَيُبَارِكُ اللَّهُ فِي الرُّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَيْئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهُمْ، فَيَقْبِضُ اللَّهُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمْرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ).

وروى مسلم في «صحيحه» [٢٩٤٠] أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: (يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي، فَيَمُكُّثُ أَرْبَعِينَ، لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَيْنَ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيْمَانٍ - إِلَّا قَبِضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلْتُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ) قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: (فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خَفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ. ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ - يَنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُ - أَوْ قَالَ: الظَّلُ - نُعْمَانُ الشَّاكِّ - فَنَتَبْتُ مِنْهُ أَجْسَادَ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤] ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تَسْعِمَائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ).

روى الإمام أحمد [١٦١٨٩] عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرُونَ عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدُّخَانُ، وَالِدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالِدَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ، تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَثَقِيلَ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا) وهكذا رواه مسلم [نحوه/٢٩٠١].

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي سريحة حذيفة بن أسيد [وغيرهم] ﷺ، وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح، وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة عوضًا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق

المنسوب إلى صنيع النصارى - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما في «الصحيحين» [البخاري/٢١٠٩ ومسلم/١٥٥]، وهذا إخبار من النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم وترتفع شبههم من أنفسهم، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعة لعيسى عليه السلام وعلى يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَدْعُوْنَ بِقَبْلِ مَوْتِهِ﴾ الآية، وهذه الآية كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّكُمْ لِلْسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] وقرئ: «عَلِمَ» بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه، كما ثبت في «صحيح» [البخاري/٥٣٥٤]: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً)، ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [٦٦] وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله تعالى، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَآ أَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ - إلى قوله - ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾
وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ
الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا.

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة، حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم، وهذا التحريم قد يكون قدرًا، بمعنى أنه تعالى قيضهم؛ لأن تأولوا في كتابهم، وحرّفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم فحرموها على أنفسهم تشديدًا منهم على أنفسهم وتضييقًا وتنطعًا، ويحتمل أن يكون شرعيًا بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وقد قدمنا الكلام على هذه الآية، وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والبانها، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَنِيمٍ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ أي: إنما حرمنا عليهم ذلك؛ لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيتهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه، ولهذا قال: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الذِّينِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾؛ أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق،

وهذه سَجِيَّةٌ لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خَلْقًا من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾؛ أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل والشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاغِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾؛ أي: الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الراسخين، وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وزيد بن سعية، وأسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمدًا ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ أَلْمَلُوءَ﴾ هكذا هو في جميع المصاحف الأئمة، وكذا هو في مصحف أبي بن كعب، وذكر ابن جرير [٢٥/٦] أنها في مصحف ابن مسعود «والمقيمون الصلاة»، قال: والصحيح قراءة الجميع ثم رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْأِ وَجِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، قالوا: وهذا سائغ في كلام العرب.

وقال آخرون: هو مخفوض عطفًا على قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ يعني: وبالمقيمين الصلاة، وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة؛ أي: يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة وهذا اختيار ابن جرير؛ يعني: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ الرِّكَوَّةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ يعني: الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٢٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٢٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٢٥﴾﴾.

عن ابن عباس، قال: قال سكين وعدي بن زيد: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات [ابن أبي حاتم/٦٢٧٨]، وعن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٣ - ١٥٦] فلما تلاها عليهم؛ يعني: على اليهود، وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جحدوا كل ما أنزل الله وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا على عيسى، ولا على نبي من شيء، قال: فحل حُبُوتَه، وقال: ولا على أحد، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] [الطبري ٢٨/٦]، وفي هذا الذي قاله محمد بن كعب القرظي نظر، فإن هذه الآية مكية التي في سورة الأنعام، وهذه الآية التي في سورة النساء مدنية، وهي رد عليهم لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، ثم ذكر فضائحهم ومعائبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود ﷺ.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: من قبل هذه الآية؛ يعني: في السور المكية وغيرها.

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: خلقًا آخرين لم يذكروا في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، [وفيه] قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: (مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا). قال: قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: (ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرٌ كَثِيرٌ طَيِّبٌ). قلت: فمن كان أولهم؟ قال: (آدَمَ) قلت: أنبي مرسل؟ قال: (نَعَمْ، خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَسَوَّاهُ قَبِيلًا) [رواه ابن حبان ٣٦١، وفي إسناده الغساني وهو متهم].

قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى ﷺ بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكلیم، وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه أن رجلاً جاء إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: «وكلم الله موسى تكليمًا» فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيَّاش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على من قرأ كذلك؛ لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى ﷺ، أو يكلم أحدًا من خلقه، كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض

المشايع: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ فقال له: يا ابن اللِّحْنَاءِ، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ يعني: أن هذا لا يحتمل التحريف، ولا التأويل.

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ أي: يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]، وكذا قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقد ثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ ﷻ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) [البخاري نحوه/ ٤٣٥٨ ومسلم نحوه/ ٢٧٦٠].

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾
 ﴿وَزَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾
 ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾
 ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا﴾
 ﴿خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِن بَعْدِهِ﴾ إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾؛ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يُعَلِّمَهُ الله به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وروى ابن أبي حاتم [٦٢٩٦] عن عطاء بن السائب، قال: أقراني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يَنْهَدُونَ﴾؛ أي: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾؛ أي: كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والافتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعُدوا منه بعدًا عظيمًا شاسعًا، ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾؛ أي: سبيلًا إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾؛ أي: قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله ﷻ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه، يكن خيرًا لكم، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال هاهنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه، ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَا هَلْ أَلِكْتُبَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادَّعوا فيهم العصمة، واتَّبَعُوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًا أو باطلاً، أو ضلالًا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) [رواه البخاري/ ٣٢٦١].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؛ أي: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وتنزهه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ أي: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم؛ أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل ﷺ إلى مريم

نفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ، فكان عيسى بإذنه ﷻ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله ﷻ؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ ۖ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَحْضَنْتَ فَرْجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْضَنْتَ فَرْجَهَا﴾ [التحریم: ١٢] إلى آخر السورة، وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وعن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هو قوله: ﴿كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكان، وعن شاذ بن يحيى يقول في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى.

وروى البخاري [٣٢٥٢] عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ). قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عُمير بن هانئ، عن جُنادة زاد: (مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ أَيَّهَا شَاءَ)، وكذا رواه مسلم [٢٨]، فقوله في الآية والحديث: (وَرُوحٌ مِنْهُ)، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحج: ١٣]؛ أي: من خلقه ومن عنده وليست «من» للتبعض كما تقوله النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ أي: ورسول منه، وقال غيره: ومجبة منه، والأظهر الأول أنه مخلوق من روح مخلوقة وأضيف الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيف الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]، وفي قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد في الحديث الصحيح: (فَادْخُلْ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ) [البخاري نحوه/٧٠٠٢] أضافها إليه إضافة تشريف، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد.

وقوله: ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾؛ أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾؛ أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية كالتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال في أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، فالنصارى - عليهم لعنة الله -

من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهًا، ومنهم من يعتقد شريكًا، ومنهم من يعتقد ولدًا، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولًا.

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بَطْرِيْق - بَطْرَق الإسكندرية - في حدود سنة أربعمئة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا، فكانوا أحزابًا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفرًا، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفًا ذاهية، ومَحَقَّ ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْتُ أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبًا وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكية، ثم إنهم اجتمعوا مجمعًا ثانيًا، فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية، وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا، أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: يكن خيرًا لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: تعالى وتقدس عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَيِّعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ - إلى قوله: - ﴿فَرَدًّا﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٧٣﴾.

عن ابن عباس: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ لن يستكبر، وقال قتادة: لن يحتشم ﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وليس له في ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر

على ذلك من المسيح، فلهذا قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل، وقيل: إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾؛ أي: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجوز فيه، ولا يحيف؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: فيعطيه من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾؛ أي: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥).

يقول تعالى مخاطبًا جميع الناس ومخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعدول والرجوع إلى الله، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾؛ أي: ضياء واضحًا على الحق، قال ابن جريج وغيره: وهو القرآن، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾؛ أي: جمعوا بين مقامي العبادة، والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾؛ أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: طريقًا واضحًا قُصْدًا قَوَامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (١٧٦) ﴿إِن أَمَرْتُاهُ هَلَكَ لَكُمُ وَلَكُمُ الْكَلَالَةُ﴾ (١٧٧) ﴿فَلَهَا يَنْصُبُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا﴾ (١٧٨) ﴿إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ﴾ (١٧٩) ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا وَاللَّهُ يُكَلِّمُ شَيْءًا عَلَيْهِمْ﴾ (١٨٠).

روى البخاري [٤١٠٦] عن البراء قال: آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: «يستفتونك».

روى الإمام أحمد [١٤٣٧] عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب علي، أو قال: صبوا عليه، فَعَقَلْتُ فقلت: إنه لا يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. رواه الجماعة [البخاري/١٩١ ومسلم/١٦١٦ والبيهقي/١٠٥٣]، وفي بعض ألفاظ فنزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية.

وكان معنى الكلام - والله أعلم - يستفتونك عن الكلاله ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ فيها، فدل المذكور على المتروك، وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ولهذا فسرهما أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾، وقد أشكل حُكْم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت عنه في «الصحيحين» أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا [البخاري/٥٢٦٦ ومسلم/٣٠٣٢]، وروى الإمام أحمد [١٧٩] عن عمر بن الخطاب قال: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألت عن الكلاله حتى طعن بأضبعه في صدري، وقال: (يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ)، وأخرجه مسلم [١٦١٧] مطولاً أكثر من هذا.

ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها، فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها؛ ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حُمر النعم. وقال قتادة: وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرّت الرحم من العصبه.

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ﴾؛ أي: مات، قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاله انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلاله انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه من لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد، بالنص عند التأمل أيضاً؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية.

روى الإمام أحمد [٢١٦٨٢] عن زيد بن ثابت: أنه سُئِلَ عن زوج وأخت لأب وأم، فأعطى الزوج النصف والأخت النصف، وعن ابن عباس، وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت: ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا

تَرَكَ قال: فإذا ترك بنتًا فقد ترك ولدًا فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة: للابنة النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية، وهذه نصت أن يفرض لها في هذه الصورة وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري [٦٣٦٠] عن الأسود قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت، وفي «صحيح البخاري» [٦٣٥٥] أيضًا عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وأت ابن مسعود فسيتابعني، فسأل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾؛ أي: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد؛ أي: ولا والد؛ لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئًا، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبَقَتْ الْفَرَائِضُ فَلَأُولَى رَجُلٌ ذَكَرَ) [البخاري/ ٦٣٥١ ومسلم/ ١٦١٥].

وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ أُنْثَىٰ فَلِلثَّانِ مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: فإن كان لمن يموت كلاله أختان، فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن هاهنا أخذ الجماعة حكم البنيتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ هذا حكم العصابات من البنين وبنات البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، وقوله: ﴿يَبْنِي اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه. وقوله: ﴿أَنْ تَضَلُّوا﴾؛ أي: لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى.

وروى ابن جرير [٤٣/٦] عن طارق بن شهاب قال: أخذ عمر كَتَفًا وجمع أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال: لأقضي في الكلاله قضاء تحدث به النساء في خدورهن، فخرجت حينئذ حية من البيت ففرقوا، فقال: لو أراد الله ﷻ أن يتم هذا الأمر لأتمه، وهذا إسناده صحيح. قال ابن جرير [٢٨٤/٤]: وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد.

وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يَبْنِي اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

روى الترمذي [٣٠٦٣] عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وروى عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، [روى مسلم نحوه/ ٣٠٢٤، وعن عائشة أن المائدة آخر سورة نزلت].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا مُحِلُّوا شَعْتِ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ اللَّيْلِ الْحَرَامَ يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾

روى ابن أبي حاتم [١٠٣٧] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرْعَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٍ يَنْهَى عَنْهُ، وعن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ افعلوا، فالنبي ﷺ منهم، وعن خيثمة قال: كل شيء في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهو في التوراة: «يا أيها المساكين».

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: يعني: بالعقود العهود، وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾؛ يعني: بالعهود؛ يعني: ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ - إلى قوله: - ﴿سُوءُ الذَّكَارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقال الضحاك: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: ما أحل الله وحرم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي ﷺ والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام، وقال زيد بن أسلم: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين، وقال محمد بن كعب: هي خمسة منها حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة، وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته

فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا) [البخاري/١٩٧٦ ومسلم/١٥٣٢]، وفي لفظ آخر للبخاري [٢٠٠٦]: (إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا)، وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقد.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَيْمَةُ الْأَنْفَرِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم، قاله الحسن وقتادة وغير واحد، قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب، وقد استدلل ابن عمر، وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود [٢٨٢٧]، والترمذي [نحوه/١٤٧٦]، وابن ماجه [٣١٩٩] عن أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله نحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: (كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ؛ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ)، وقال الترمذي: حديث حسن، وروى أبو داود [٢٨٢٨] عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ، قال: (ذَكَاةُ الْجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ). تفرد به أبو داود [وله طرق يحتج بها كما ذكر الحافظ ابن حجر في «التلخيص»].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني: بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ أَلَّا إِلَهُ يَهُوَ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣] فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذُكِّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: منها فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاخفه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال، والمراد من الأنعام: ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسي ما تقدم، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام، وقيل: المراد أحللنا لكم الأنعام، إلا ما استثني لمن التزم تحريم الصيد، وهو حرام كقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [النحل: ١١٥]؛ أي: أباحنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا عاد؛ أي: كما أحللنا الأنعام لكم في جميع الأحوال فحرموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ولهذا قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْتِيرَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني: بذلك مناسك الحج. وقال مجاهد: الصفا والمروة، والهدي والبُدن من شعائر الله، وقيل: شعائر الله محارمه؛ أي: لا تحلوا محارم الله التي حرمها تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا أَشْهَرُ

الْحَرَامَ؛ يعني: بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأکید اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَشْهُرِ الْحَرَامِ فَقُلْ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، وفي «صحيح البخاري» [٣٠٢٥] عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةَ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثُ مُتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ)، وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ﴾؛ يعني: لا تستحلوا قتالاً فيه، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك الجزري، واختاره ابن جرير أيضاً، وقد ذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهر التسيير الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره.

وقد حكى الإمام أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة، قال: وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان، ولهذه المسألة بحث آخر له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيَّةَ﴾؛ يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإن فيه تعظيم لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ولهذا لما حَجَّ رسول الله ﷺ، بات بذي الحليفة وهو وادي العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهلَّ بالحج والعمرة، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، قال بعض السلف: إعظامها استحسانها واستسمانها، وقال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، رواه أهل السنن، [النسائي/٤٤٦٢ وابن ماجه/٣١٤٣ والبيهقي/١٨٨٨٢ وقال الترمذي/١٤٩٨: حسن صحيح].

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا الْفَلَاحِيَّةَ﴾ فلا تستحلوا وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر وتقلد مشركو الحرم من لحاء

شجر الحرم فيأمنون به، وعن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، وعن ابن عون قال: قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال لا، وقال عطاء: كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون فنهى الله عن قطع شجره وكذا قال مُطَرِّف بن عبد الله.

وقوله: ﴿وَلَا ءَمِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾؛ أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه. قال مجاهد وأبو العالية وقتادة [وغيرهم] في قوله: ﴿يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ يعني: بذلك التجارة، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم، وقد ذكر عكرمة والسدي [الطبري] ٦/٦٢٦، وابن جريج: أن هذه الآية نزلت في الحُطَم بن هند البكري، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا ءَمِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس، فإن هذا الحكم منسوخ في حقهم، - والله أعلم - فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمر الصديق على الحجيج - علياً، وأمره أن ينادي على سبيل النياحة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان. [رواه البخاري/٣٦٢]، وقال ابن عباس قوله: ﴿وَلَا ءَمِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾؛ يعني: من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت الحرام، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً يحج البيت أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، فنفى المشركين من المسجد الحرام.

وعن قتادة في قوله: ﴿وَلَا أَلْفَلَيْدَ وَلَا ءَمِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت فنسخها قوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا أَلْفَلَيْدَ﴾؛ يعني: إن تقلدوا قلادة من الحرم فأمنوهم، قال ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾؛ أي: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتكم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذي يثبت على السُّبُر، أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح، ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا في حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال، وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض.

وعن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبي ﷺ: نصده هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية، والشناآن هو: البغض. قاله ابن عباس وغيره.

وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعانة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم، قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم، ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم، وقد روى الإمام أحمد [١١٩٦٧] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). قيل: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: (تَحْجِرْهُ وَتَمْنَعْهُ مِنَ الظَّلَمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ) [البخاري/ ٦٥٥٢ ومسلم نحوه/ ٢٥٨٤].

وروى الإمام أحمد [٢٣١٤٧] عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: (الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ) [ورواه الترمذي/ ٢٥٠٧ وابن ماجه/ ٤٠٣٢ وله طرق وصححه أحمد شاكر].

وفي «صحيح مسلم» [٢٦٧٤]: (مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقُوا بِالْأَنْزَلِ ذَلِكَكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوان خُفَّ أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن، فلهذا حرّمها الله ﷻ، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في «موطئه»، والشافعي [ص٧] وأحمد [٧٢٣٢] في مسنديهما، وأبو داود [٨٣]، والترمذي [٦٩]، والنسائي [٥٨]، وابن ماجه [٣٨٦] في سننهم، وابن خزيمة [١١١]، وابن حبان [١٢٤٣] في «صحيحهما» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: (هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْجِلُّ مَيْتَتُهُ) [وقال الترمذي: حسن صحيح]، وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث.

وقوله: ﴿وَالْدَّمُ﴾؛ يعني: به المسفوح، لقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وعن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم، فقال: إنما حُرِّمَ عليكم الدم المسفوح، وعن عائشة قالت: إنما نهى عن الدم السافح، وروى الشافعي [ص٣٤] عن ابن عمر مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَجِلُّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْسَّمُكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطُّحَالُ)، وكذا رواه أحمد بن حنبل [٥٧٢٣]، وابن ماجه [٣٣١٤]، والدارقطني [٢٧١/٤]، والبيهقي [١١٢٨]، [وروي موقوفاً] وقال الحافظ أبو زرعة الرازي: وهو أصح.

وقوله: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾؛ يعني: إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم. وفي «صحيح مسلم» [٢٢٦٠] عن بُرَيْدَةَ بن الحَصْبِيبِ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَعِبَ بِالْتَّرْدَشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدُهُ فِي لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ) فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به؟ وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره، وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ) فقليل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فقال: (لَا، هُوَ حَرَامٌ) [البخاري/ ٢١٢١ ومسلم/ ١٥٨١ نحوه]، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: «نَهَانَا عَنِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ».

وقوله: ﴿وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ أي: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام؛ لأن الله

تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُذِلَ بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرام بالإجماع، وإنما اختلف العلماء في المتروك التسمية إما عمدًا أو نسيانًا كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام.

قوله: ﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾ وهي التي تموت بالخنق، إما قصدًا أو اتفاقًا بأن تتخبل في وثاقتها، فتموت به فهي حرام، وأما (الموقوذة) فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشب حتى تُوقَدَ بها فتموت، وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها، وفي «الصحيح» أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب، قال: (إِذَا رَمَيْتَ بِالْمَعْرَاضِ فَخَرَقَ فُكْلُهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بَعْرُضُهُ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ) [مسلم نحوه/١٩٢٩]، ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحدّه، فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيدًا فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم هاهنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله، ولم يجرحه على قولين، هما قولان للشافعي رحمته الله، أحدهما: أنه لا يحل كما في السهم والجامع أن كلاً منهما ميت بغير جرح فهو وقيد. والثاني: أنه يحل لأنّه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه؛ لأنّه قد دخل في العموم.

وأما (الموقوذة) فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال، فتموت بذلك، فلا تحل، قال ابن عباس: المتردية التي تسقط من جبل، وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر، وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر.

وأما (النطيحة) فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي: منطوحة.

وقوله: (وما أكل السبع)؛ أي: ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحت من هؤلاء وفيه روح فكلوه، فهو ذكي، وكذا روي عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي، وعن علي قال: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قال: إن مَصَعَتْ بذنبها أو رَكَضَتْ برجلها أو طَرَفَتْ بعينها فكل، وعنه رحمته الله أيضًا قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يدًا أو رجلًا فكلها [الطبري ٧٢/٦]، وهكذا روي عن طاوس والحسن وقاتدة، وعبيد بن عمير، والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال، وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وقال

ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها، فقال مالك: لا أرى أن تذكى، أي شيء يذكى منها؟ وقال أشهب: سئل مالك عن السبع يعدو على الكباش فيدق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل؟ فقال: إن كان قد بلغ السُّحرة فلا أرى أن يؤكل، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأسًا، قيل له: وثب عليه فدق ظهره؟ فقال: لا يعجبني، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل، هذا مذهب مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم.

وفي «الصحيحين» عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدًا وليس معنا مِدَى، أفنذبح بالقَصَب؟ فقال: (مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكُلُوهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَاحِدَتُكُم عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدِّي الْحَبْشَةِ) [البخاري/٢٣٥٦ ومسلم/١٩٦٨].

وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال مجاهد، وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصبًا، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهلَّ به لغير الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾؛ أي: حرّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها زَلَمٌ وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلَمَ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، والثالث: غفل ليس عليه شيء، ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث: غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو الناهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد الاستقسام، والاستقسام: مأخوذ من طلب القَسَم من هذه الأزلام، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، وعن ابن عباس: ﴿وَأَنْ سَنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ قال: والأزلام القداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، وكذا روي عن مجاهد [وغيره]، وذكر محمد بن إسحاق وغيره: إن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هُبَلٌ وكان داخل الكعبة منصوب على بئر فيها، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه، وثبت في «صحيح البخاري» [١٥٢٤] أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام فقال: (قَاتِلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا). وقال مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْ سَنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ قال: هي سهام العرب، وكعب فارس

والروم، كانوا يتقامرون، وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزمات أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللَّهُمَّ إِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْمَلُونَهَا فِي الاسْتِخَارَةِ تَارَةً وَفِي الْقِمَارِ أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ الْقِمَارِ وَهُوَ الْمَيْسِرُ فَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وهكذا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَأَن تَسْتَفْسِدُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقٌ﴾؛ أَي: تَعَاطِيهِ فَسَقٌ وَغِي وَضَلَالٌ وَجَهَالَةٌ وَشُرْكٌ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنِ يَسْتَخِيرُوهُ بِأَن يَعْبُدُوهُ ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْحَيْرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يَرِيدُونَهُ.

كما رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [١٤٧٤٨] وَابْنُ خَالٍ [١١٠٩]، وَأَهْلُ السُّنَنِ [الترمذي/ ٤٨٠] وَأَبُو دَاوُدَ [١٥٣٨] وَالنَّسَائِيُّ [٥٥٨١] وَابْنُ مَاجَهَ [١٣٨٣] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُنَا الْاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَعْلَمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: (إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِّي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، - أَوْ قَالَ: عَاجِلَ أَمْرِي وَآجِلُهُ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا لِّي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْني عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ) [لفظ أحمد].

وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: يَسْأَلُونَ أَنْ يَرَاوَعُوا دِينَهُمْ، وَكَذَارَوْهُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالسَّيِّدِ، وَمَقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرِدُ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي «صَحِيحِ [مُسْلِمَ] ٢٨١٢»: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ مِنْ مِثَابَةِ الْمُسْلِمِينَ، بِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلشُّرْكِ وَأَهْلِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَثْبِتُوا فِي مَخَالَفَةِ الْكُفَّارِ وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، فَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾؛ أَي: لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ فِي مَخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَاخْشَوْنِي أَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَأَيِّدُهُمْ، وَأُظْفِرْكُمْ بِهِمْ، وَأُشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلْكُمْ فَوْقَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَا حِلَّ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصَدَقَ لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خَلْفَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أَي: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ الدِّينَ، تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾؛ أَي: فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي رَضِيَهُ اللَّهُ وَأَحْبَبَهُ، وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ رُسُلِهِ الْكَرَامِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كِتَابِهِ.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضى الله فلا يسخطه أبداً، وقال السدي: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات، وقال ابن جرير وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً.

وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: نزلت عشية عرفة في يوم جمعة، رواه البخاري [٤٥ نحوه] ومسلم [٣٠١٧].

وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه، ويغفر له، وفي المسند [٥٨٦٦] وصحيح ابن حبان [٢٧٤٢] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ).

ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على مُهْجَتِهِ التلَفَ ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرَّمَقَ، أو له أن يشبع أو يشبع ويتزود؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيداً وهو محرم، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء أو ذلك الطعام ويضمن بدله، على قولين هما قولان للشافعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له.

وقد روى الإمام أحمد [٢١٩٤٨] عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: (إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا، وَلَمْ تَحْتَفَتُوا بَقَلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا). تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. لكن رواه بعضهم مراسلاً.

ومعنى قوله: «ما لم تصطبخوا»؛ يعني: به الغداء، «وما لم تغتبقوا»؛ يعني: به العشاء، «أو تحتفتوا بقلًا فشأنكم بها» فكلوا منها.

روى أبو داود [٣٨١٦] عن جابر بن سَمُرَةَ: أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقة لي ضلت، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها ولم يجد صاحبها، فمرضت، فقالت امرأته: انحرها فأبى، فَتَفَقَّتْ فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها فنأكله، قال: لا حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتاه فسأله، فقال: (هَلْ عِنْدَكَ غَنَى يُغْنِيكَ؟) قال: لا،

قال: (فَكُلُّوْهَا) قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نحررتها؟ قال: استحيت منك. [وسنده لا بأس به وسكت عنه أبو داود، والمنذري وقال الشوكاني: ليس في إسناده مطعن]، وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِآثَرٍ﴾؛ أي: غير مُتَعَاطٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه: يُحِلُّ ﴿لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال سعيد بن جبیر: يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم، وقال مقاتل بن حيان: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال: ليس هو من الطيبات، وسئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس، فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾؛ أي: أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها، والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما اصطدتموه بالجوارح، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وقال ابن عباس: هن الكلاب المعلمة، والبازي، وكل طير يعلم للصيد [البيهقي/١٨٦٤٧]، والجوارح: يعني: الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها. رواه ابن أبي حاتم [وحكاه عن جماعة]، وروي عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح، وروي عن علي بن الحسين مثله [الطبري/٦/٩٠]، ثم روي عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾ قال: وروي عن سعيد بن جبیر نحو ذلك، ونقله ابن جرير، عن الضحاك والسدي، ثم روى عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البُزاة وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه [ابن أبي شيبة نحوه/١٩٦٤٣]، قلت: والمحكي عن الجمهور إن صيد الطيور كصيد الكلاب؛ لأنها تَكَلِّبُ الصيد بمخالبتها كما تكلبه الكلاب، فلا فرق، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير، واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه.

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح من الجرح، وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً؛ أي: كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جرح له أي لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]؛ أي: ما كسبتم من خير وشر.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الحديث الذي روي [عند الطبري ٨٩/٦] عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه، فأذن له، فقال: قد أذن لك يا رسول الله، قال: أجل، ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبج عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾، ورواه الحاكم [٣٢١٢] وقال: صحيح، ولم يخرجاه. وهكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية: إنه في قتل الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عَلَّمْتُم﴾ فيكون حالاً من الفاعل ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول، وهو ﴿الْجَوَارِحِ﴾؛ أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلمات للصيد، وذلك أن تقتنصه الجوارح بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمته أو بمخالبه وظفره، أنه لا يحل له، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى [أي: دعاه إليه]، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله، حل الصيد وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السُّنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري نحوه/ ٥١٥٩ ومسلم/ ١٩٢٩] عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله! فقال: (إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمَعْلَمُ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ). قلت: وإن قتلن؟ قال: (وَإِنْ قَتَلْنَ مَا لَمْ يُشْرِكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مِنْهَا، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ) قلت له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: (إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بَعْرَضُ فَإِنَّهُ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ)، وفي لفظ لهما: (إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَادْرَكْتَهُ حَيًّا فَادْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قُتِلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذَكَاتَهُ)، وفي رواية لهما [البخاري/ ٥١٦٨ ومسلم/ ١٩٢٩]: (فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ) فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث، وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقاً.

فغن سلمان الفارسي قال: كل وإن أكل ثلثيه - يعني: الصيد - إذا أكل منه الكلب، وعن سعد بن أبي وقاص أنه سئل عن الصيد يأكل منه الكلب، فقال: كل وإن لم يبق منه إلا حذية؛ يعني: إلا بضعة، وعن أبي هريرة قال: لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكله، وعن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك، أكل أو لم يأكل، فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عمر، وهو محكي عن علي، وابن عباس، واختلف فيه عن عطاء والحسن البصري، وهو قول الزهري وربيعة، ومالك، وإليه ذهب الشافعي في القديم وأوماً إليه في الجديد.

وروى أبو داود [٢٨٥٢] عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ، وَكُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدُكَ) وهذا إسناده جيد.

فهذه آثار دالة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه، فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم، وللعله التي أشار إليها النبي ﷺ: (فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ)، وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل من الصيد لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني، وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح، وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم؛ لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكّل.

وعن ابن عباس أنه قال في الطير: إذا أرسلته فقتل فكل، فإن الكلب إذا ضربته لم يَغْدُ، وإن تَعَلَّمَ الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب، فإذا أكل من الصيد ونتف الريش فكل، وكذا قال إبراهيم النخعي والشعبي وحماد بن أبي سليمان.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: عند الإرسال له كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: (إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ) [البخاري/١٧٣ نحوه ومسلم/١٩٢٩]، وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في «الصحيحين» أيضاً: (إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ، فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَإِذَا رَمَيْتْ بِسَهْمِكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ)؛ ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنه، التسمية عند إرسال الكلب، والرمي بالسهم، لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال كما قال السدي وغير واحد، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: باسم الله، وإن نسيت فلا حرج.

وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: (سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) [البخاري/٥٠٦١ ومسلم/٢٠٢٢]، وفي «صحيح البخاري» [بلفظ قريب/٦٩٦٣] عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قومًا يأتوننا - حديث عهدهم بكفر - بُلْحَمَانٍ لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: (سَمُّوا اللَّهَ أَنْتُمْ وَكُلُّوا).

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَحَدِّثِينَ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين، من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين، من اليهود والنصارى فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو أمامة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وإبراهيم النخعي، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني: ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عن قولهم، تعالى وتقدس.

وقد ثبت في «الصحيح»: عن عبد الله بن مغفل، قال: دُلِّي بجراب من شحم يوم خيبر قال: فاتحضته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبي ﷺ يتشم [مسلم/١٧٧٢].

وعن علي قال: لا تأكلوا ذبائح بني تغلب؛ لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر [الطبري ١٠١/٦]، وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف، وعن سعيد بن المسيب، والحسن، أنهما كانا لا يريان بأساً، بذبيحة نصارى بني تغلب.

وأما المجوس، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي، وأحمد بن حنبل، ولما قال ذلك واشتهر عنه، أنكر عليه الفقهاء ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه؛ يعني: في هذه المسألة، وكأنه تمسك بعموم حديث روي مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال: (سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ) [الموطأ/٦١٦]، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذي في «صحيح البخاري» [٢٩٨٧]، عن عبد الرحمن بن عوف، أن رسول الله ﷺ، أخذ الجزية من مجوس هجر، ولو سُلِّم صحة هذا الحديث [أي: سنو بهم سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ]، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ فدل بمفهومه مفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان، لا يحل.

وقوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَكُمْ﴾؛ أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به، من الأكل من كل طعام، ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى؛ أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، فأما الحديث الذي فيه: (لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامُكَ إِلَّا تَقِيًّا) [رواه أبو داود/٤٨٣٢، والترمذي/٢٣٩٥ وحسنه] فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: وأحل لكم الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: أراد بالمحصنات الحرائر، دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرّة العفيفة، كما قال مجاهد في الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور هاهنا، وهو الأشبه، لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: «حَشَفًا وَسَوَّ كَيْلَةً»، والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُنْخَذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة، سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن فسر المحصنة بالعفيفة، وقيل: المراد بأهل الكتاب هاهنا الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي، وقيل: المراد بذلك الذميات دون الحرييات، لقوله: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شرًا أعظم من أن تقول إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٢١].

وروى ابن أبي حاتم [٢٠٩٥] عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ قال: فحُجِرَ الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فنكح الناس من نساء أهل الكتاب، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصراني، ولم يروا بذلك بأسًا، أخذًا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في البقرة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد يُفصل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وكقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ الآية [آل عمران: ٢٠].

وقوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن؛ أي: كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس، وقد أفتى جابر بن عبد الله وإبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينه وبينها، وتردّ عليه ما بذل لها من المهر.

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُنْخَذِي أَخْدَانٍ﴾ فكما شَرَطَ الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرجل أيضًا محصنًا عفيفًا، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾، وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عن

جاءهم، ﴿وَلَا تُتَّخَذِ الْوُجُوهُ دِينًا﴾؛ أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقطع عما هو فيه من الزنا؛ لهذه الآية وللحديث (لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ) [رواه أحمد/ ٨٢٨٣ وأبو داود/ ٢٠٥٢ وسنده جيد].

وسياتي الكلام على هذه المسألة مستقصي إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، ولهذا قال تعالى هاهنا ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال كثيرون من السلف في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: معناه وأنتم مُخْدِثُونَ، وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب، وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب، وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ، روى الإمام أحمد بن حنبل [٢٣٠٧٩] عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله. قال: (إِنِّي عَمَدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ)، وهكذا رواه مسلم [نحوه/ ٢٧٧].

وعن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة، وعن عكرمة قال: كان علي رضي الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية [الطبري ١١٢/٦].

وأما ما رواه أبو داود الطيالسي عن سعيد بن المسيب، أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء [ذكره ابن أبي شيبة/ ٢٩٥ والطبري ١١١/٦]، فهو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك، وروى الإمام أحمد [١٢٣٦٨] عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلّي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث، وقد رواه البخاري [٢١١].

قال ابن جرير: وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا

عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال، وذلك لأنه ﷺ كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ.

وروى مسلم [٣٧٤] عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء ثم إنه رجع فأتي بطعام، فقيل: يا رسول الله ألا تتوضأ؟ فقال: (لِمَ؟ أَأُصَلِّي فَأَتَوْضَأُ؟).

وقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قد استدلل طائفة من العلماء بقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ على جوب النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها، كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير قم؛ أي: له، وقد ثبت في «الصحيحين» حديث: (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى) [البخاري/١ ومسلم/١٩٠٧]، ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: (لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) [رواه أبو داود/١٠٢ وابن ماجه/٣٩٧]، ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَدْخُلُ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ) [البخاري نحوه/١٦٠ ومسلم/٢٧٨]، وحَدَّثَ الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالعَمَم - إلى منتهى اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفي النَّزْعَتَيْنِ والتحذيف خلاف: هل هما من الرأس أو الوجه؟ وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض، قولان: أحدهما: أنه يجب إفاضة الماء عليه؛ لأنه تقع به المواجهة، وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام: إذا نبتت لحيته طلع وجهه، ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كَثَّةً، روى الإمام أحمد [٤٠٣] عن أبي وائل قال: رأيت عثمان توضأ، فذكر الحديث، قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت، رواه الترمذي [٣١] وابن ماجه [٤٣٠]، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه البخاري.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في «الصحيحين» وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أو مستحبان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السُّنَنِ، وصححه ابن خزيمة [نحوه/٧٥] عن رفاعه بن رافع الرُّزْقِيِّ أن النبي ﷺ قال للمسيء صلاته: (تَوَضَّأَ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ)، أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد [١٠٧٢٩]، لما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْشِرْ) [البخاري/١٥٩ ومسلم/٢٣٧]، وفي رواية: (إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي مَنْخَرِيهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَنْتَشِرْ) [البخاري/١٦٠].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا؛ يعني: أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بها

وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ؛ يعني: يتوضأ، ورواه البخاري [١٤٠ بنحوه].

وقوله: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾؛ أي: مع المرافق كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه لما روى البخاري [١٣٦] ومسلم [٢٤٦] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ).

وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء: هل هي للإلصاق؟ وهو الأظهر، أو للتبعية؟ وفيه نظر، على قولين: ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن زيد بن عاصم أنه سئل كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فدعا بوضوء فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجله، وفي حديث علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا [أخرجه أحمد/ ١٦٤٧٨ وأبو داود/ ١١٨ والترمذي/ ٣٢ بنحوه وقال: حسن صحيح]، وروى أبو داود [١٢٤] عن معاوية، والمقدام بن معديكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله.

ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية، وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزأه، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: (هَلْ مَعَكَ مَاءٌ؟) فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصرتيه، وعلى العمامة وعلى خفيه، وذكر باقي الحديث وهو في «صحيح مسلم» [٢٧٤] وغيره، فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية؛ لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموقع، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين،

فعن حمران بن أبان، قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً، فغسلهما ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: (مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ). أخرجه البخاري [١٥٨] ومسلم [٢٢٦]، واحتج من استحَبَّ تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن عثمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً.

وقوله: ﴿وَأَرْجِلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قُرئ: (وأرجلكم) بالنصب عطفاً على ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، وعن ابن عباس أنه قرأها (وأرجلكم)، يقول: رجعت إلى الغسل، وروي عن ابن مسعود، والحسن، ومجاهد [وغيرهم] نحو ذلك، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن هاهنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه، ثم مسح رأسه، وغسل يديه، ثم وجهه، أجزأه ذلك؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، والواو لا تدل على الترتيب، وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقات، فمنهم من قال: الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداءً عند القيام إلى الصلاة؛ لأنه مأمور به بفاء التعقيب وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً، ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان: أحدهما: يوجب الترتيب كما هو واقع في الآية، والآخر: يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداءً، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق.

ومنهم من قال: لا نُسلم أن الواو لا تدل على الترتيب بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم قال: (أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ)، لفظ مسلم، ولفظ النسائي: (أَبْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ) وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح، فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم.

ومنهم من قال لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب.

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ: (وأرجلكم) بالخفض، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس، وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح.

وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره من السنّة الثابتة في وجوب غسل الرجلين، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام

كما في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا ذائع في لغة العرب شائع.

ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبد الله الشافعي رحمته الله، ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السُّنَّة، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها، ومن أحسن ما يستدل على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي [٣٥٩] عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رَحْبَةِ الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع ما صنعت، وقال: (هَذَا وَضُوءٌ مَنْ لَمْ يُحْدِثْ). رواه البخاري [٥٢٩٣] في «الصحيح» ببعض معناه.

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء؛ لأنَّهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاها من حكاها كذلك، ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم، ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله: (وَأَرْجُلُكُمْ) خفصاً على المسح وهو ذلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه:

قد تقدم حديث أمير المؤمنين عثمان وعلي، وابن عباس، ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معديكرب، أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرة، وإما مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم، وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: (هَذَا وَضُوءٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ إِلَّا بِهِ) [رواه البيهقي/ ٣٨٥ وابن ماجه نحوه/ ٤١٩ وتقدم].

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَأَدْرَكْنَا وَقَدْ أَرْهَقْتُنَا الصَّلَاةَ، صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ (أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيَلِّ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ) [البخاري/ ٦٠ ومسلم/ ٢٤١]، وكذلك هو في «الصحيحين» عن أبي هريرة، وفي «صحيح مسلم» [٢٤١] عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: (أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيَلِّ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ) وعن عبد الله بن الحارث بن جزء أنه سمع

رسول الله ﷺ يقول: (وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ) رواه البيهقي [٣٢٦] والحاكم [٥٨٠]، وهذا إسناده صحيح.

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تَوَعَّد على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى، وقد روى مسلم [٢٤٣] في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ وقال: (ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ).

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل بين أصابعه، وروى الإمام أحمد [١٧٠٦٠] عن عمرو بن عبسة قلت: يا نبي الله، أخبرني عن الوضوء، قال: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَغْتَرِبُ وَضُوءَهُ، ثُمَّ يَتَمَضَّمُ وَيَسْتَنْشِقُ وَيَتَنَتَّرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَاهُ مِنْ فَمِهِ وَخَيْشِيمِهِ، مَعَ الْمَاءِ حِينَ يَتَنَتَّرُ، ثُمَّ يَغْسِلُ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَجَتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أُنَامِلِهِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ يَرْكَعُ رَكَعَتَيْنِ إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)، وهذا إسناده صحيح وهو في «صحيح مسلم» [٨٣٢] من وجه آخر، وفيه: (ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ)، فدل على أن القرآن يأمر بالغسل.

وعن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سُبَاطَةَ قَوْمٍ، فبال قائماً ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه، وهو حديث صحيح [الطبري ١٣٤/٦]، والثقات الحفاظ رَوَوْه عن حذيفة قال: فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خفيه [مسلم/٢٧٣].

قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خفان وعليهما نعلان، وقد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

وفي «الصحيحين» عن إبراهيم، عن همام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقبل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه، قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم [٢٧٢].

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا، كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير وما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه، أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه.

وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند بل بجهل وضلال، مع أنه ثابت في «صحيح مسلم» [١٤٠٦] من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما ثبت في «الصحيحين» عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت هذه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد، وهكذا

خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم. قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، هذا لفظه، فعند الأئمة رحمهم الله: أن في كل قدم كعبين، كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السُّنَّة، ففي «الصحيحين» من طريق حمران عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك.

وروى البخاري [٦٨٥] تعليقا مجزوماً به وأبو داود [٦٦٢]، وابن خزيمة في «صحيحه» [١٦٠] عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: (أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ - ثَلَاثًا - وَاللَّهِ لَتَقِيمَنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيَخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ). قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومنكبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة، فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه، إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السُّنَّة.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته ثلاثاً يطول الكلام، وذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى هاهنا حديثاً [٤٣٣٢] خاصاً بهذه الآية الكريمة عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه في حجري راقداً، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة، فبي الموت لمكان رسول الله ﷺ، وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ﴾ الآية، فقال أسيد بن الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: فلهذا سهل عليكم ويسر، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم، ورحمة بكم وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرفقة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السُّنَّة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد [١٧٤٣١] ومسلم [٢٣٤]، وأهل السُّنن عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضْوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ). قال: قلت: ما أجود

هذه، فإذا قاتل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه فقال: إني قد رأيته جئت آنفاً قال: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ، يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) لفظ مسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ، كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ) رواه مسلم [٢٤٤].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَافَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه، وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَافَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله [متفق عليه]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قاله مجاهد ومقاتل بن حيان، والقول الأول أظهر، وهو المحكي عن ابن عباس والسدي واختاره ابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾؛ أي: كونوا قائمين لله ﷻ، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل لا بالجور، وقد ثبت في «الصحيحين» عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نُحْلًا فقالت أمي عمرة بنت رواحة:

لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: (أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ؟) قال: لا، قال: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ)، وقال: (إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ) قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة [البخاري/٢٤٤٦ ومسلم/١٦٢٣ بنحوه].

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعال التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول بعض الصحابييات لعمر: أنت أفض وأغلظ من رسول الله ﷺ [متفق عليه].

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه فالكمل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكْمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحُكْمُ العدل الحكيم القدير.

وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.

عن جابر: أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ، فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنك مني؟ قال: (الله ﷻ). قال الأعرابي، مرتين أو ثلاثاً: من يمنك مني؟ والنبي ﷺ يقول: (الله). قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه، ولم يعاقبه [الطبري ١٤٦/٦]، قال معمر: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، وقصة هذا الأعرابي وهو عَوْرَثُ بن الحارث ثابتة في «صحيح [البخاري/٣٩٠٥]».

وعن ابن عباس في هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم، فأوحى الله إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام وأمر

أصحابه فلم يأتوه، وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف، وذكر محمد بن إسحاق بن يسار، ومجاهد، وعكرمة وغير واحد، أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله رسوله ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ يعني: من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَاعْرِضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردًا عن بابه وجنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع، والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾؛ يعني: عُرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى ﷺ لقتال الجابرة، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب.

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبًا: ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج.

والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين ولوا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾؛ أي: بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾؛ أي: صدقتموهم فيما يجيئوكم به من الوحي، ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: نصرتموهم وأزرتموهم على الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أي: ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده، وجحده وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الحق، وعدل عن الهدى إلى الضلال، ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾؛ أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم؛ أي: أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾؛ أي: فلا يتعظون بموعظة لغلظتها وقساوتها، ﴿يُخَوِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾؛ أي: فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك، ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: وتركوا العمل به رغبة عنه، وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها، وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمية. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾؛ يعني: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك. قال مجاهد وغيره: يعني: بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿فَأَعَفُّ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ يعني: به الصفاة عمن أساء إليك، وقال قتادة: هذه الآية: ﴿فَأَعَفُّ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ منسوخة بقوله: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم ﷺ، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ، ومناصرتة، ومؤازرتة، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض؛ أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق، ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَاعْرِضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً،

فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تلجُ معبدها، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب ﷻ وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾؛ أي: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه، وقد روى الحاكم في «مستدرکه» [٨٠٦٩] عن ابن عباس ؓ قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾؛ أي: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبد من

عباد الله، وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه منه أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك، ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل لقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾؛ أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحرّفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم؛ يعني: ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من النبوة ما ادّعوها في عيسى ﷺ وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال الله راداً عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه، فلم أعدّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه، فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفي هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ وهذا الذي قاله حسن.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾؛ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يَعْرِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَالِإِيَّاهُ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩).

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى إنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم.

وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في «صحيح البخاري» [٣٢٥٨] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ).

والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد كان قد عَمَّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصرى كما روى الإمام أحمد [١٧٥١٩] عن عياض بن جَمَار المَجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: (... ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ: عَجَمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...)، ورواه مسلم [٢٨٦٥].

وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشرعة الغراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾؛ أي: لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير؛ يعني: محمداً ﷺ، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: معناه إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة: لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾؛ أي: كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته حتى ختموا بعميسى ابن مريم ﷺ، ثم أوحى الله إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ عن ابن عباس قال: الخادم والمرأة والبيت. [وعن عبد الله بن عمرو نحوه].

وقال الحسن البصري: هل المُلْك إلا مركب وخادم ودار، رواه ابن جرير [١٦٩/٦]، ثم روي عن منصور والحكم ومجاهد وسفيان الثوري نحوًا من هذا، وحكاه ابن أبي حاتم، عن ميمون بن مهران، وقال ابن شاذب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه، فهو ملك، وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم.

وقال السدي في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله، وقال مالك: بيت وخادم وزوجة، وقد ورد في الحديث: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، أَمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَائِيرِهَا) [رواه الترمذي/٢٣٤٦] وقال: حسن غريب ورواه ابن ماجه/٤١٤١.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَكُم مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: عالمي زمانكم، فكأنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ نَارًا عَلَى الْعُلَمِينَ﴾ [الجنات: ١٦]. والمقصود أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجًا، وأكرم نبيًا، وأعظم ملكًا، وأغزر أرزاقًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأوسع مملكة، وأدوم عزًا. قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران.

وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبي مالك، وسعيد بن جبير أنهم قالوا في قوله: ﴿وَأَتَيْنَكُم مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: أمة محمد ﷺ، فكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله: ﴿وَأَتَيْنَكُم مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا﴾ مع هذه الأمة، والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه، وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا، وقيل: المراد ﴿وَأَتَيْنَكُم مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، وتظللهم به من الغمام وغير ذلك ما كان تعالى يخصصهم به من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى ﷺ لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف ﷺ، ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى ﷺ، فوجدوا فيها قومًا من العمالة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى ﷺ بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشّرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال: ﴿يَقُولُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾؛ أي: المطهرة، وعن ابن عباس قال: هي الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي كَتَبْتُ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل

أنه وراثة من آمن منكم، ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ﴾؛ أي: ولا تنكسوا عن الجهاد ﴿فَنَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١) ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَخَلُوكَ﴾؛ أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قَوْمًا جبارين؛ أي: ذوي خلق هائلة وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عنق، ابن بنت آدم ﷺ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعًا وثلاث ذراع، تحرير الحساب، وهذا شيء يستحيى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في «الصحاحين»، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ وَطَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّىٰ الْآنَ) [البخاري نحوه/٣١٤٨ ومسلم/٢٨٤١]، ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافرًا، وأنه كان ولد زنية، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَعَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ، حَرَضَهُمَ رَجُلَانِ اللَّهُ عَلَيْهِمَا نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، وقرأ بعضهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ أي: ممن لهم مهابة وموضع من الناس، ويقال: إنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وعطية والسدي، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالوا: ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم، فلم ينفع ذاك منهم شيئًا ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعُودُونَ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء.

وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاؤوا لمنع العير، الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة، والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ) وما يقول ذلك، إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذٍ، فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً؛ لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسره بذلك، ورواه البخاري [بألفاظ قريبة/٣٧٣٦].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾؛ يعني: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى ﷺ، وقال داعياً عليهم ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾؛ أي: ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله ويجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: اقض بيني وبينهم، وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق افصل بيننا وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَكُونُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى ﷺ حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدرًا مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزاله المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران، وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى ﷺ عنهم؛ أي: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فهما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتها فيما أمراههم به من الجهاد، فضغت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقر به أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعدائه ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل وله الحمد في جميع الوجود.

﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوزِيلُ أَخْبَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ .

يقول تعالى مبيِّناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما هابيل وقابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله ﷻ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، قال تعالى: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصُّ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣].

وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف كابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو وغيرهم من الصحابة والتابعين، أن الله تعالى: كان قد شرع لآدم ﷺ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيفة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك، إلا أن يقربا قرباناً، فمن تقبل منه فهي له، فقربا فُتُبل من هابيل ولم يُتَقَبَّل من قابيل، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه.

وعن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يُتَصَدَّق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل فبينما ابنا آدم قاعدان، إذ قالوا لو قربنا قرباناً، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله حَبَّت النار، فقربا قرباناً، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرع، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورد علي، فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلي وأنت خير مني فقال: لأقتلنك، فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير [١٨٧/٦]، فهذا الأثر يقتضي أن تقرب القربان كان لا عن سبب، ولا عن

تدارئ في امرأة كما تقدم عن جماعة من تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه .

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: ممن اتقى الله في فعله ذلك، وروى ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ إني أخاف الله رب العالمين يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾؛ أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب، قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه الترحج؛ يعني: الورع.

ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: (إِذَا تَوَاجَعَا الْمُسْلِمَانِ بِسَيِّئِيهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ). قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: (إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ) [البخاري/ ٣١ ومسلم/ ٢٨٨٨].

وروى الإمام أحمد [١٦٠٩] عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي) قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني قال: (كُنْ كَابْنِ آدَمَ) رواه الترمذي [٢١٩٤] وقال: هذا حديث حسن.

قال أيوب السختياني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ إني أخاف الله رب العالمين لعثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك، وعن مجاهد: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ يقول: إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعاً.

قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب.

ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه، أخذ من سيئات المقتول، فطُرِحَتْ على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم.

قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: تتحمل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وقال ابن عباس: خَوْفُهُ النار فلم ينته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: فحسنت وسولت له نفسه وشجعت على قتل أخيه فقتله؛ أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر، وعن أبي جعفر الباقر: أنه قتله بحديدة في يده، وعن ابن عباس وابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، فطلبه ليقته، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأثاه يومًا من الأيام وهو يرعى غنمًا له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء.

وقال ابن جريج: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجرًا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك، وعن زيد بن أسلم قال: أخذ برأسه ليقته فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ وأي خسارة أعظم من هذه؟ وقد روى الإمام أحمد [٣٦٣٠] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تُقْتَلْ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ) وقد أخرجه الجماعة [البخاري/٣١٥٧ ومسلم/١٦٧٧ والنسائي/٣٤٤٧ وابن ماجه/٢٦١٦] سوى أبي داود، وعن مجاهد قال: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذه من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج. قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم، وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول والشیطان كِفْلٌ مِنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَخَعَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال السدي [عن ناس من] الصحابة ؓ: لما مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتهما، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿يُوتِلَقُ أَخَعَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي﴾ [الطبري ١٩٧/٦] وقال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت، فحثى عليه من التراب حتى وراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يُوتِلَقُ أَخَعَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي﴾.

وعن مجاهد: وكان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتًا لا يدري ما يصنع به، يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال: ﴿يُوتِلَقُ أَخَعَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

وقال عطية العوفي: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن: علاه الله بندامة بعد خسران.

فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: (إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ)، وهذا ظاهر جلي، وعن الحسن قال: «كان الرجلان من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القريان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات» [الطبري ٦/ ١٨٩] وهذا غريب جداً وفي إسناده نظر.

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ أنه قال: (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) [رواه أبو داود/٤٩٠٢، وابن ماجه/٤٢١١ وصححه الألباني]، وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً: ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ أي: من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جنابة، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها؛ أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وعن أبي هريرة، قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل [ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٩/٣٩٦]، وقال ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ وإحيائها ألا يقتل نفساً حرّمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً؛ يعني: أنه من حرم قتلها إلا بحق، حيي الناس منه جميعاً، وهكذا قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾؛ أي: كف عن قتلها.

وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً، هذا هو الأظهر، وعن ابن عباس: من قتل نبياً أو إمام عدل، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شدّ على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً، وفي رواية أخرى عنه [أيضاً]: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، وذلك لأنه من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم، وعن مجاهد في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من قتل النفس المؤمنة متعمداً، جعل الله جزاءه جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب، وقال مجاهد [أيضاً]: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً؛ يعني: فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾؛ أي: عفا عن قاتل وليه فكأنما أحيا الناس جميعاً، وحكى ذلك عن أبيه، وقال مجاهد في رواية: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾؛ أي: أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة، وقال الحسن وقتادة: هذا تعظيم لتعاطي القتل، قال قتادة: عَظَّمَ الله وزرها، وعَظَّمَ الله أجرها، وعن سليمان بن علي الرُبَيعي قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل، فقال: إي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا، وقال الحسن البصري [أيضاً]: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: وزراً، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، قال: أجراً.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ﴾ وهذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها، فدوا من أسروه وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ﴿٢٨٢﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدُوتِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد

في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، فعن عكرمة، والحسن البصري قالا: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد في الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يُقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب، وعن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه، وقال ابن عباس [أيضًا]: قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف [الطبري ٢٠٦/٦]. وعن سعد [ابن أبي وقاص] قال: نزلت في الحرورية.

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات كما رواه البخاري، ومسلم [١٦٧١] عن أنس بن مالك أن نفرًا من عُكْل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسَقَمَت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: ((أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِيهَا؟)) فقالوا: بلى، فخرجوا فشرَبوا من أبوالها وألبانها فَصَحُّوا، فقتلوا الراعي، وطرَدوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فَأَذْرَكُوا فجيء بهم، فأمر بهم ففقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم، وفي لفظ لهما: من عكل أو عُريته، وفي لفظ: «وَأَلْقُوا فِي الْحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ»، وفي لفظ لمسلم [١٦٧١]: «وَلَمْ يَحْسُمْهُمْ»، وعند البخاري [٢٣١] قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العُرنيين: هل هو منسوخ، أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتابًا للنبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَكَ هَؤُلَاءِ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة، وهذا القول فيه نظر، ثم قائله مطالب ببيان تأخر النسخ الذي ادعاه عن المنسوخ، وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفيه نظر، فإن قصتهم متأخرة.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور من العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتًا فيقتله، ويأخذ ما معه: إن هذه محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون

المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه والله أعلم.

وأما قوله: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية قال ابن عباس: من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، والضحاك وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمهم الله ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، فعن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قُتِلوا وأخذوا المال قُتِلوا وصلبوا، وإذا قُتِلوا ولم يأخذوا المال قُتِلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض، وعن أبي مجلز، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم النخعي، والحسن، و قتادة، والسدي، وعطاء الخراساني نحو ذلك، وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر أو يخرج السُلطان أو نائبه من معاملته بالكلية وقال الشعبي: ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله، وقال عطاء الخراساني: ينفي من جند إلى جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام، وكذا قال سعيد بن جبیر، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حیان إنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام، وقال آخرون: المراد بالنفي هاهنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير أن المراد بالنفي هاهنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت في المشركين فأما أهل الإسلام ففي «الصحيح» عند مسلم [١٧٠٩]، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. [رواه البخاري بنحوه/ ٣٦٨٠].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ يعني: شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: إذا لم يتوبوا من

فعلهم ذلك حتى هلكوا لهم في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ يعني: عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، فعن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلم رجلاً من قريش منهم الحسن بن علي، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فكلّموا عليّاً فيه فلم يؤمنه، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى عليّاً، فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أماناً، قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا ثَقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٢٧﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال ابن عباس: أي: القربة، وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن [وغيرهم]، وقال قتادة: أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في «صحيح البخاري» [٥٨٩] عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وفي «صحيح مسلم» [٣٨٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ).

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح، والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يباس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالي جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردونهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرٌّ مَضْجَعٍ، فَيَقَالُ: هَلْ تَفْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْنَاكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ: فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ) رواه البخاري ومسلم [روى الحاكم نحوه باختلاف بسيط/ ٢٤٠٥، ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه].

وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا، وقد روى الإمام أحمد [عن أنس/ ١٣٨٦٦] ومسلم [١٩١] هذا الحديث: من وجه آخر، وهذا أبسط سياقا.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
 ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى حاكما وأمرًا بقطع يد السارق والسارقة، وعن ابن مسعود أنه كان يقرؤها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيماهما» وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند

جميع العلماء موافقاً لها لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر، وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام، وزيدت شروط آخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح، ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلاً يقال له: دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعوه عنده، وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة.

وقد روى ابن جرير [٢٢٩/٦]، وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفي، قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاص أم عام؟ فقال: بل عام، وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم.

وتمسكوا بما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ) [البخاري/٦٤٠١ ومسلم/١٦٨٧]، وأما الجمهور، فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة، فعند الإمام مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها، وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع في مِجَن ثمنه ثلاثة دراهم، أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٦٤١١ ومسلم/١٦٨٦]، قال مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١٥٢١]: وقطع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أَثْرَجَةٍ قُوِّمَتْ بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك، وهذا الأثر عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد رواه مالك [١٥١٩] عن عُمَرَةَ بنت عبد الرحمن أن سارقاً سرق في زمن عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تُقَوِّمَ بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، فقطع عثمان يده. قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم.

وذهب الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً، والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان البخاري [٦٤٠٧] ومسلم [١٦٨٤] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: (تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً). قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا؛ لأنه إذ

ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وبه يقول الليث بن سعد، والشافعي وأصحابه، وأبو ثور، وداود بن علي الظاهري، [وغيرهم] رحمهم الله.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل في رواية عنه، إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي، فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها.

وأما الإمام أبو حنيفة، وأصحابه رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم، وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة [٢٨١٠٨]، عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ فِيمَا دُونَ ثَمَنِ الْمَجْنِّ) [المستدرک/٨١٥١]، وكان ثمن المجن عشرة دراهم. قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما، يحكى هذا عن علي، وابن مسعود، وإبراهيم النخعي، وأبي جعفر الباقر رحمهم الله تعالى. وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس؛ أي: في خمسة دنانير أو خمسين درهماً، وينقل هذا عن سعيد بن جبیر رضي الله عنه، وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: (يَسْرُقُ الْبَيْضَةُ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ، وَيَسْرُقُ الْحَبْلُ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ) [سبق تخريجه قريباً]. بأجوبة:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة، وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ. والثاني: أنه مؤول ببضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه. والثالث: أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة، وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله وقلة عقله، فقال:

يَدٌ بِخَمْسٍ مِئِينَ عَسَجِدٍ وَدَيْتُ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ
تَنَاقُضُ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبَهُ الفقهاء فهرب منهم، وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قال: لما كانت أمانة، كانت ثمينة، فلما خانت هانت، ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإن في باب الجنایات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار لثلاث يُجْنَى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لثلاث يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَسَبَا تَنْكِالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿تَنْكِالًا مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾؛ أي: في انتقامه، ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور، وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها.

وفي «الصحيحين» عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرق، في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ﷻ؟) فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي، قام رسول الله ﷺ فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)، ثم أمر بتلك المرأة التي سرق فقطعت يدها. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ [البخاري/٣٢٨٨ ومسلم/١٦٨٨]، وهذا لفظ مسلم، وفي لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها.

وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة، ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعَهُمْ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: أظهروا الإيمان بالسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم ﴿سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ﴾؛ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه، ﴿سَكَّعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾؛ أي: يستجيبون لأقوام لا يأتون مجلسك يا محمد، وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهَوْنَ إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾؛ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحسن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث في ذلك فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: (مَا تَجِدُونَ فِي

التَّوْرَةَ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟) فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتُم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم؛ فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يَخْنِي على المرأة يقيها الحجارة. أخرجاه [البخاري/ ٦٤٥٠ ومسلم/ ١٦٩٩]، وهذا لفظ البخاري.

فدل على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقررهم على ما بأيديهم ما تراضوا على كتمانهم وجحدته وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه بأن زينهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعُدولهم إلى تحكيم رسول الله ﷺ إنما كان عن هوى منهم، وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾؛ أي: الجلد والتحميم، ﴿فَخُذُوهُ﴾؛ أي: اقبلوه، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾؛ أي: من قبوله واتباعه.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعُوا لِلْكَذِبِ﴾؛ أي: الباطل ﴿أَكْتَلُونِ لِلسُّحْتِ﴾؛ أي: الحرام، وهو الرشوة، كما قاله ابن مسعود وغير واحد؛ أي: ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه وأنه يستجيب له، ثم قال لنبيه: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾؛ أي: يتحاكمون إليك ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾؛ أي: فلا عليك أن لا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما وافق هواهم، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد: هي منسوخة بقوله: ﴿وَإِنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم، فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها، ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾؛ أي: وكذلك الربانيون منهم، وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء ﴿يَمَّا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به، ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾؛ أي: لا تخافوا منهم وخافوا مني، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ يَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمة:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقًا، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة فذلت الطائفتان كلتاها لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيرة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم فلدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فلدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ، أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِي يُسَكِّرُوعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤١ - ٤٧] ففيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله ﷻ، ورواه أبو داود.

وعن ابن عباس: أن الآيات التي في المائدة قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف، تؤدي لهم الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يؤدّون نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء، والله أعلم أي ذلك كان، رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث ابن إسحاق، وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حيان، وابن زيد وغير واحد.

وعن ابن عباس أيضاً: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدم، وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله ﷻ أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة، وعن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله لهذه الأمة بها.

وعن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة. فقال: من السُّحت، فقلا: وفي الحكم، قال: ذاك الكفر، ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال السدي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزل فتركه عمداً أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين به، وعن ابن عباس قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب، وعن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال: للمسلمين.

وعن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: هذا في النصارى، وعن ابن طاوس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الآية، قال: هي به كفر، قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وعن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، رواه ابن جرير، وعن طاوس أيضاً: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة، وعن ابن عباس قال: ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، ورواه الحاكم في «مستدرکه» وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥).

وهذا أيضاً مما وُبِّحَتْ به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويُقيدون النضري من القرطي، ولا يُقيدون القرطي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار؛ ولهذا قال هناك: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال هاهنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض.

وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكى مقررًا ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نص الشافعي، وأكثر الأصحاب بهذه الآية حيث كان الحكم عندنا على وفقها في

الجنايات عند جميع الأئمة، وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة، رواه ابن أبي حاتم: وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووي في هذه المسألة ثلاثة أوجه، ثالثها أن شرع إبراهيم حجة دون غيره، وصحح منها عدم الحجية، ونقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني أقوالاً عن الشافعي، ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا، فالله أعلم.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمته الله في كتابه «الشامل»، إجماع العلماء، على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل المرأة [٢٧٥١] بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث: (الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ) [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وهذا قول جمهور العلماء، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل، وإليه ذهب أحمد في روايته عنه، وحكي هذا عن الحسن البصري وعطاء وعثمان البتي، ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها بل تجب ديتها، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي «الصحيحين» عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ) [البخاري/١١١ ومسلم بنحوه/١٣٧٠] وأما العبد فعن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حرّاً بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما روى الإمام أحمد [١٢٣٢٤] عن أنس بن مالك أن الربيع عمه أنس، كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: (الْقِصَاصُ)، فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة، فقال رسول الله ﷺ: (يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ) قال فقال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة، قال: فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٢٥٥٦ ومسلم/١٦٧٥ بنحوه].

وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ قال ابن عباس: تقتل النفس بالنفس، وتفقد العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين به فيما بينهم رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير [٢٥٩/٦] وابن أبي حاتم [٦٤٣٨].

وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يقول: فمن عفا وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب.

وعن ابن عباس [أيضاً]: قال كفارة للجراح وأجر المجروح على الله ﷻ، رواه

ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خيثمة بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم في أحد قوله وعامر الشعبي، وجابر بن زيد نحو ذلك.

ثم روى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله في قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: للمجروح، وروي عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي في أحد قوله، وأبي إسحاق الهمداني نحو ذلك، وروى ابن جرير [٢٦٠/٦]، عن عامر الشعبي وقتادة مثله، وعن عبد الله بن عمرو: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالوا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا على آثارهم؛ يعني: أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا جِدْلَ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي هُزِمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به، وموعظة؛ أي: وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ قرئ وليحكم أهل الإنجيل بالنصب على أن اللام لام كي؛ أي: وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ليحكم أهل ملته به في زمانهم، وقرئ وليحكم بالجزم على أن اللام لام الأمر؛ أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ لَكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَقًّا ۚ يَقْبِضُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَإِذْ ذَٰلِكَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ؛ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع تعالى في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجُزُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]؛ أي: إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من مجيء محمد ﷺ ﴿لَمَفْعُولًا﴾؛ أي: لكائنًا لا محالة ولا بد.

قوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ عن ابن عباس: أي: مؤتمناً عليه. وقال [أيضاً]: المهيمن الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، وروي عن عكرمة ومجاهد والحسن [وغيرهم] نحو ذلك، وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل، وعن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾؛ أي: شهيداً، وكذا قال مجاهد [وغيره]، وعن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾؛ أي: حاكماً على ما قبله من الكتب، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات، ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ أي: فاحكمم يا محمد بين الناس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من

حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك، هكذا وجهه ابن جرير بمعناه، وروى ابن أبي حاتم [٦٤٩٤] عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا .

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء .

وقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال ابن عباس: ﴿شِرْعَةً﴾ سبيلاً . ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال: وسُنَّةٌ، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة [وغيرهم]، أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: سبيلاً وسُنَّةً، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً، وعطاء الخراساني عكسه ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: سُنَّةً وسبيلاً، والأول أنسب، فإن الشريعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يبتدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع في كذا؛ أي: ابتدأ فيه، كذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى الماء . أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسُنن الطرائق .

ففسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسبيل والسُنَّة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم . ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد، كما ثبت في «صحيح البخاري» [بلفظ قريب/٣٢٥٩] عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، دِينَنَا وَاحِدٌ)؛ يعني: بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمّنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة .

وعن قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول: سبيلاً وسُنَّةً، والسُنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة، التي لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد، وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

وَلَكِنْ لَّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَيْنَكُمُ؛ أَي: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويشبههم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله، وقال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَا ءَاتَيْنَكُمُ﴾؛ يعني: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أَي: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلَّفُونَ﴾؛ أَي: فيخبركم بما اختلستم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة والأدلة الدامغة، وقال الضحاك: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ يعني: أمة محمد ﷺ، والأول أظهر.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَأْزِلِ اللَّهُ وَلَا تَنفَعُ أَهْوَاءُهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أَي: احذر أعداءك اليهود أن يدلّسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفر خونة، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أَي: عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾؛ أَي: فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾؛ أَي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون الحق ناؤون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة من ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؛ أَي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ﴾؛ أَي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

وعن الحسن قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية هو، وعن ابن أبي نجيح، قال: كان طاوس إذا سأل رجل: أَفْضَلُ بَيْنَ وَلَدِي فِي النِّحْلِ؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الآية، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني [١٠٧٤٩] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، مَنْ يَبْتَغِي فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَالَبَ دَمَ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِبَرِيْقِ دَمِهِ)، وروى البخاري نحوه [٦٤٨٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله - قاتلهم الله - ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية. روى ابن أبي حاتم [٦٥١٠] عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر ﷺ وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا بل نصراني. قال: فاتتهري وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ أي: شك وريب ونفاق ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾؛ أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قال السدي: يعني: فتح مكة، وقال غيره: يعني: القضاء والفصل، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السدي: يعني: ضرب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿فَيُصْبِحُوا﴾؛ يعني: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الموالاته، ﴿نَادِمِينَ﴾؛ أي: على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين، لا يدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فأني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأوي إليه وأتهود معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث، وقال الآخر: أما أنا فأذهب إلى فلان النصراني بالشام فأوي إليه وأت نصر معه، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات، وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه؛ أي: أنه الذبح، رواه ابن جرير [٢٢١/٩].

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول، كما روى ابن جرير [٢٧٥/٦] عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإنني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: (يَا أَبَا الْحُبَابِ، مَا بَخِلْتَ بِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ عَلَىٰ عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونُهُ) قال: قد قبلت، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَرَدُّنَاكُمْ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْأَعْيُنِ أَعْيُنٌ مَذْمُومَةٌ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرته دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشدّ منعة، وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٩]، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]؛ أي: بممتنع ولا صعب، وقال تعالى هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾؛ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش، وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم، رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾: هم أهل القادسية، وعن مجاهد: هم قوم من سبأ، وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون.

وروى ابن أبي حاتم [٦٥٣٥] عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴿٥٤﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هُم قَوْمٌ هَذَا)، ورواه ابن جرير [٢٨٤/٦]، وصححه الحاكم/ ٣٢٢٠ على شرط مسلم.

وقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه، متعززا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِبٍ﴾؛ أي: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وقاتل أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، روى الإمام أحمد [٢١٤٥٣] عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والذين هم منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدا شيئا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش. [قال الهيثمي: وإسناده ثقات].

وروى أحمد [١١٧٥٢]، وابن ماجه [٤٠١٧]، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْأَلُهُ يَقُولُ لَهُ: أَيُّ عَبْدِي، رَأَيْتَ مُنْكَرًا فَلَمْ تُنْكِرْهُ؟ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهُ عَبْدًا حَبَّتْهُ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، وَثَقْتُ بِكَ وَخِفْتُ النَّاسَ) [وقال البوصيري عن إسناده: صحيح، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به].

وثبت في الحديث: (مَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ)، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: (يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يُطِيقُ) [رواه أحمد/ ٢٣٤٩١ والترمذي/ ٢٢٥٤ وابن ماجه/ ٤٠١٦ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب].

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه. وقوله: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾؛ أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثرا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه، رواه ابن مردويه من حديث علي بن

أبي طالب ﷺ نفسه، وعمار بن ياسر، وأبي رافع، وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدھا وجھالة رجالھا .

وعن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا، وقد تقدم أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت ﷺ حين تبرأ من حلف يهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٦) لَا يَخْذُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءِآبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمُ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢] فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨) .

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون: وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هُزُوءًا يستهزئون بها، ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، كما قال القائل:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَفْتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرَ﴾ من هاهنا لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاتَّخَذُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم: ﴿وَالْكَافَرَ﴾ بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تقديره ولا ﴿وَالْكَافَرَ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار هاهنا المشركون.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ﴿إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هُزُوءًا ولعبًا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾؛ أي: وكذلك إذا أذنتم داعين إلى

الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أيضًا ﴿هَزُؤًا وَلَعِبًا﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي جاء في الحديث أنه﴾ (إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَذْبَرَ وَلَهُ حُصَاصٌ؛ أَي: ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينَ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوبٌ بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّوْبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ لَا يَذْكُرُ كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ) متفق عليه [البخاري/ ٥٨٣ ومسلم/ ٣٨٩]، وقال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم [٦٥٥٨].

وقال السدي في قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمدًا رسول الله قال: حرق الكاذب، فدخل خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم، وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَلِخَنَازِيرٍ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي آلَائِهِمُ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلُهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْثِلُهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما في قوله: ﴿وَمَا نَقُومُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿وَمَا نَقُومُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: وآمننا بأن أكثركم فاسقون؛ أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات فقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: أبعده من رحمته ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَلِخَنَازِيرٍ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة.

وعن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن الفردة والخنزير: أهي مما مسخ الله؟ فقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا، أَوْ قَالَ: لَمْ يَمْسَحْ قَوْمًا فَيَجْعَلْ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَإِنَّ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ) وقد رواه مسلم [٢٦٦٣].

وقوله: ﴿وَعَبَدَ﴾ فعل ماضٍ، والطاغوت منصوب به؛ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، وقرئ: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ» بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدام الطاغوت؛ أي: خدامه وعبيده، وقرئ: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ» على أنه جمع الجمع عبد وعبيد وعُبد، مثل ثمار وتُمر، وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا والذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا، وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصنعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾؛ أي: عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾؛ أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾؛ أي: والله عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقهم خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

وقوله: ﴿وَوَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدْوَنِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ﴾؛ أي: يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل، ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لبس العمل كان عملهم، وبشس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ يعني: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك، والربانيون وهم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار هم العلماء فقط ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقال ابن عباس: يعني: الربانيين أنهم بشس ما كانوا يصنعون؛ يعني: في تركهم ذلك، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهؤلاء حين لم ينهوا، ولهؤلاء حين عملوا، قال: وذلك الأركان، قال: «ويعملون» «ويصنعون» واحد، وعن ابن عباس، قال: ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ قال: كذا قرأ وكذا قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، أنا لا نهى.

وروى ابن أبي حاتم [٦٥٧١] عن يحيى بن يعمر قال: خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم

العقوبات، فَمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً، وروى الإمام أحمد [١٩٢٣٦] عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَهُمْ أَظْهَرُهُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ، لَمْ يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعَذَابٍ) [رواه أبو داود بنحوه/ ٤٣٣٨ وابن ماجه/ ٤٠٠٩ وصححه الألباني].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كِبِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رِزْقٍ طُفِينًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِتْرَاتِهِمْ وَلَدَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوا الله ﷻ وتعالى عن قولهم علواً كبيراً بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء وعبروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

وقال ابن عباس: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: بخيلة، وقال [أيضاً]: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون: بخيل أمسك ما عنده تعالى عما يقولون علواً كبيراً، وكذا روي عن عكرمة وقتادة، والسدي، ومجاهد، والضحاك، وقرأ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ يعني: أنه ينهى عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، وعبر عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله، وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فنحاص اليهودي، عليه لعنة الله، [وهو] الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه [ابن أبي حاتم بنحوه/ ٤٥٨٩].

وقد ردّ الله ﷻ عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُلَاقُونَ النَّاسَ نَفِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٢].

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾؛ أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال: ﴿وَوَاتِنُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُمْ

الْإِنْسَانَ لَطُوفًا كَفَّارًا ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والآيات في هذا كثيرة، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل [١٥٠٧] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ) - قال -: (وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ، وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ، وَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: (أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري نحوه/ ٦٩٧٦ ومسلم/ ٩٩٣].

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾؛ أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طُغْيَانًا﴾ وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء، ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله: ﴿وَالْقِيَتَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾؛ يعني: أنه لا تجتمع قلوبهم بل العداوة واقعة بين فرقه بعضهم في بعض دائماً؛ لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك، وقال إبراهيم النخعي: ﴿وَالْقِيَتَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، قال: الخصومات والجدال في الدين.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾؛ أي: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها، يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحق مكرهم السيئ بهم ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: من سجيته أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته، ثم قال جلا وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾؛ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمآثم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَذَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾؛ أي: لأزلنا عنهم المحذور ولحصلنا لهم المقصود، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو القرآن؛ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله: ﴿لَا كَلُوا مِن قَوْفِهِمْ وِمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ يعني: بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض، وقال ابن عباس: ﴿لَا كَلُوا مِن قَوْفِهِمْ﴾؛ يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً، ﴿وِمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ يعني: يخرج من الأرض بركاتها، وكذا قال مجاهد [وغيره]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال بعضهم معناه: ﴿لَا كَلُوا مِن قَوْفِهِمْ وِمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ يعني: من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء.

روى الإمام أحمد [١٧٥٠٨] عن زياد بن لبيد قال ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: (وَذَاكَ عِنْدَ ذَهَابِ الْعِلْمِ) قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبنائنا يقرؤونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ) وكذا رواه ابن ماجه [٤٠٤٨]، وهذا إسناده صحيح.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وكقوله عن أتباع عيسى: ﴿فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَفَّيْنِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٢] جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢، ٣٣]، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٧]

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام، روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها، قالت: من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٦٩٨٤ ومسلم/ ١٧٧] واللفظ له [عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وروى ابن أبي حاتم [٦٦١١] عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يیده رسول الله ﷺ للناس فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء، وهذا إسناده جيد، وهكذا في «صحيح البخاري» [٢٨٨٢] من رواية أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخاري [٢٧٣٨/٦ في الترجمة]: قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، كما ثبت في «صحيح مسلم» [١٢١٨]، عن جابر بن

عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء ويقولها إليهم ويقول: (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ).

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ يعني: وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به، فما بلغت رسالته؛ أي: وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع، وقال ابن عباس: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيكَ، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس، كما روى الإمام أحمد [٢٥١٣٦] أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت: فقلت ما شأنك يا رسول الله؟ قال: (لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ) قالت: فبينما أنا على ذلك، إذ سمعت صوت السلاح، فقال: (مَنْ هَذَا؟) فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: (مَا جَاءَ بِكَ؟) قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه، أخرجاه [البخاري/٢٧٢٩ ومسلم/٢٤١٠].

وروى ابن أبي حاتم [٦٦١٥] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القُبَّة وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْصِرُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ ﷻ) وهكذا رواه الترمذي [٣٠٤٦]، وابن جرير [٣٠٨/٦]، والحاكم في «مستدركه» [٣٢٢١]، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. [وروي مرسلًا].

ومن عصمة الله ﷻ لرسوله، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدرة وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب، نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها، منعه من الأحمر والأسود، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمَّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخير، أعلمه الله به وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها، وقصة غَوْرَث بن الحارث مشهورة في «الصحيح» [البخاري/٣٩٠٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِزِيدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾؛ يعني: من الدين ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾؛ أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والافتداء بشريعته، فغن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ يعني: القرآن، العظيم، وقوله: ﴿وَلَئِزِيدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا﴾ تقدم تفسيره، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: فلا تحزن عليهم، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم المسلمون، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة، ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد، وعنه: من اليهود والمجوس، وقال سعيد بن جبير: من اليهود والنصارى، وعن الحسن والحكم: إنهم كالمجوس، وقال وهب بن منبه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفرًا، وعن أبي الزناد قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثر، وهم يؤمنون بالنبين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يومًا، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات، وقيل غير ذلك، وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه، ولهذا قال: ﴿قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ثم تاب الله عليهم؛ أي: مما كانوا فيه، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾؛ أي: بعد ذلك، ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ
 أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ
 مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ
 أَنْظِرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً، هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، ولم يقل: أنا الله ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٦]، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم، وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾؛ أي: فقد أوجب له النار وحرّم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وفي «صحيح [مسلم/٢٢١]» أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وفي لفظ: مؤمنة، ولهذا قال إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾؛ أي: وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ روى ابن أبي حاتم [٦٦٤٧] عن أبي صخر في قول الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال: هو قول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى، والصحيح أنها نزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد، ثم اختلفوا في ذلك فقيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة: وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاث تقول بهذه الأقانيم، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاثة كافرة.

وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٦]، وهذا القول

هو الأظهر - والله أعلم - قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرَ إِلَهُ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾؛ أي: ليس متعددًا بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: في الآخرة من الأغلال والنكال.

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقوله: ﴿وَأَمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية.

وقوله: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَ﴾؛ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بالهين كما زعمت فرق النصراري الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْأَيَّاتُ﴾؛ أي: نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُوقَفُونَ﴾؛ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون، وبأي قول يتمسكون، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
 ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَّأَمَّلْ أَلِكْتَبِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ
 ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية، فقال: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصراري وغيرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا يقدر على إيصال ضرر إليكم ولا إيصال نفع إليكم، ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: فلم عدلتكم عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئًا ولا يملك ضررًا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه. ثم قال: ﴿قُلْ يَتَّأَمَّلْ أَلِكْتَبِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾؛ أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تظنوا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتكم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهًا من دون الله، ما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه ﷺ، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المأثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُركَّب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، وروى الإمام أحمد [٣٧١٣] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَءِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا: فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ). قال يزيد: وأحسبه قال: «وأسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾» وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس فقال: (لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا) [ورواه أبو داود/٤٣٣٦ والترمذي/٣٠٤٧ وابن ماجه/٤٠٠٦ وقال الترمذي: حسن غريب].

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام:

عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ). رواه الترمذي [٢١٦٩]، وقال: (هذا حديث حسن)، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) رواه مسلم [٤٩].

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ يَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهَ عَبْدًا حُجَّتُهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وَفَرَّقْتُ النَّاسَ) تفرد به أيضاً ابن ماجه [٤٠١٧]، وإسناده لا بأس به.

وروى الإمام أحمد [٢٣٤٩١] عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال: (لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ) قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال: (يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ)، وكذا رواه الترمذي [٢٢٥٤] وابن ماجه [٤٠١٦]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وروى ابن ماجه [٤٠١٥] عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟

قال: (إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ) قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: (الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالْعِلْمُ فِي رُدَائِكُمْ) قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفساق. [قال البوصيري عن إسناده: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات].

وقوله: ﴿تَكَرَّى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: يعني: بذلك المنافقين، وقوله: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾؛ يعني: بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، ولهذا قال: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فسر بذلك ما ذمهم به، ثم أخيراً أنهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾؛ يعني: يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه، ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لأيات وحيه وتنزيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلْتُمْ نَبِيَّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَصْتَكِبُونَ﴾ (٨٢) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَأَنْبَهُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦).

قال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق وعُطْل للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله غير مرة، وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾؛ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة،

وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلمائهم، واحدهم قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس، والرهبان جمع راهب، وهو العابد، مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان.

فقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾؛ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقد روى النسائي [١١١٤٨] عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: مع محمد ﷺ، وأمثه هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ، ولرسل أنهم قد بلغوا، رواه الحاكم [٣٢٢٢] وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَأَتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: فجازهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ساكنين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان، ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: جحدوا بها وخالفوها، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: هم أهلها والداخلون إليها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان [ابن أبي حاتم/٦٦٨٩].

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ

عن عمله في السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذًا وَكَذًا، لِكُنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَا مٌ وَأَقُومُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [البخاري نحوه/ ٤٧٧٦ ومسلم/ ١٤٠١ بنحوه أيضًا].

وعن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أخرجه [البخاري/ ٤٣٣٩ ومسلم/ ١٤٠٤ واللفظ له]، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وعن عبد الله بن مسعود [أنه جاءه رجل] فقال: إني حرمت فراشي، فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وفي «صحيح البخاري» [٣٣٨٨] في قصة الصديق مع أضيافه دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً، ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْصَاتٍ أَرْوَحُكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١] ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [التحریم: ٢]، وكذلك ها هنا لما ذكر هذا الحكم، عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وعن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا، ويخصوا أنفسهم، ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾.

عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرّموا طبّيات الطعام واللباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالإخفاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخفاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: (إِنَّ لِنَفْسِكُمْ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَعْيُنِكُمْ حَقًّا، صُومُوا وَأَفْطِرُوا، وَصَلُّوا وَنَامُوا، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا) [الطبري ١١/٧]. فقالوا: اللَّهُمَّ سلمنا واتبعنا ما أنزلت.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، ولها شاهد في «الصحيحين» من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضيق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه: كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾؛ أي: في حال كونه حلالاً طيباً، ﴿وَأَنْتُمْ أَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانته ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْهُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٨٩].

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله، وهذا مذهب الشافعي، وقيل: هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد، وقيل: اليمين في الغضب، وقيل: في النسيان، وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾؛ أي: بما صمتم عليه منها وقصدتموها، ﴿فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾؛ يعني: محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير وعكرمة: أي: من أعدل ما تطعمون أهليكم. وقال عطاء الخراساني: من أمثل ما تطعمون أهليكم، وعن علي قال: خبز ولبن، وخبز وسمن، وعن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾؛ أي: من الخبز والزيت، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسرهم ويسرهم، وعن ابن عمر أنه قال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، قال: الخبز واللحم، والخبز والسمن،

والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والخل، وعنه أيضًا قال: الخبز والسمن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم، رواه ابن جرير، ثم روى ابن جرير عن عبيدة، والأسود، وشريح القاضي، ومحمد بن سيرين والحسن، والضحاك، وأبي رزين أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضًا. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعُمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾؛ أي: في القلة والكثرة.

ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم، فعن علي عليه السلام قال: يغذيهم ويعشيهم، وقال الحسن، ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا ولحمًا، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزًا وسمنًا ولبنًا، فإن لم يجد فخبزًا وزيتًا وخلًا، حتى يشبعوا، وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من برٍّ أو تمر ونحوهما، فهذا قول عمر، وعلي، وعائشة، ومجاهد والشعبي [وغيرهم]. وقال أبو حنيفة: نصف صاع من بر وصاع مما عداه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: مد من برٍّ يعني: لكل مسكين ومعه إدامه، ثم قال: وروي عن ابن عمر وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعكرمة، والحسن [وغيرهم] نحو ذلك.

وقال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بمُدِّ النبي ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم، واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكينًا من مكيل يسع خمسة عشر صاعًا، لكل واحد منهم مد، وقال أحمد بن حنبل: الواجب مد من برٍّ أو مدان من غيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ قال الشافعي رحمته الله: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مَقْنَعَة، أجزاء ذلك، واختلف أصحابه في القلنسوة: هل تجزئ أم لا؟ على وجهين، وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفراييني: في الخف وجهين أيضًا، والصحيح عدم الإجزاء، وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه، إن كان رجلًا أو امرأة كل بحسبه، والله أعلم.

وعن ابن عباس: عباءة لكل مسكين أو شملة، وقال مجاهد: أدناه ثوب وأعلاه ما شئت. وعن مجاهد أيضًا: يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلا التُّبَّانَ، وقال الحسن وعطاء، وإبراهيم النخعي [وغيرهم]: ثوب ثوب، وعن إبراهيم النخعي أيضًا: ثوب جامع كالملحفة والرداء، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعًا، وعن ابن سيرين والحسن: ثوبان، وعن سعيد بن المسيب: عمامة يلف بها رأسه، وعباءة يلتحف بها، وعن أبي موسى أنه حلف على يمين، فكسا ثوبين من مُعَقَّدَةِ البحرين.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب، ولحديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في «موطأ مالك»

[١٤٦٨]، و«مسند الشافعي»، و«صحيح مسلم» [٥٣٧] أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه ب تجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ: (أَيَّنَ اللَّهُ؟) قالت: في السماء. قال: (مَنْ أَنَا؟) قالت: أنت رسول الله، قال: (أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ) الحديث بطوله، فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحائث أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فرقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة، والحسن البصري، أنهما قالا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام، وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال: جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ما يكفر به بالإطعام أن يصوم إلا أن يكون له كفاية ومن المال ما يتصرف به لمعاشه، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب، ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما: أنه لا يجب التتابع هذا منصوص الشافعي في كتاب الأيمان، وهو قول مالك لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله: ﴿فَصِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة؛ لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرؤونها «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» [الطبري ٣٠/٧]، وحكاها مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود، وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك، وهذه إذا لم يثبت كونها قرأاً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع.

وقوله: ﴿ذَلِكَ كَذِبٌ أَيْمَنُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾. قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: يوضحها ويفسرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْكَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾.

يقول تعالى: ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: الشطرنج من الميسر. رواه ابن أبي حاتم [٢٠٥٤]،

وروي عن عطاء، ومجاهد، وطاوس قال: سفيان أو اثنين منهم قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز، وعن ابن عمر، قال: الميسر هو القمار، وعن ابن عباس، قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فناههم الله عن هذه الأخلاق القبيحة، وعن سعيد بن المسيب يقول: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين، وعن الأعرج، قال: الميسر الضرب بالقдах على الأموال والثمار، وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر.

وفي «صحيح مسلم» [٢٢٦٠] عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شِرِّ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ وَدَمِهِ).

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر إنه شر من النرد، وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالى، وأما الأنصاب، فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبیر، والحسن وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضًا: هي قдах كانوا يستقسمون بها.

وقوله: ﴿رَجَسُ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن عباس: أي: سخط من عمل الشيطان، وقال سعيد بن جبیر: إثم، وقال زيد بن أسلم: أي: شر من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائد إلى الرجس؛ أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ وهذا ترغيب، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال: اللَّهُمَّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة، نادى: ألا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل.

وروى الإمام أحمد [٢٠٤١] عن ابن عباس [أنه سئل] عن بيع الخمر فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف، أو من دوس، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ:

(يَا فُلَانُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا؟) فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبيعها، فقال رسول الله ﷺ: (يَا فُلَانُ، بِمَاذَا أَمَرْتُهُ؟) فقال: أمرته أن يبيعها. قال: (إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا)، فأمر بها فأفترغت في البطحاء، ورواه مسلم [بنحوه/١٥٧٩].

وروى الإمام أحمد [١٢٨٩٢] عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب، وسهيل بن بيضاء ونفرًا من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى من المسلمين فقال: أما شعرتُم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس أكفئ ما بقي في إنائك فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذٍ، أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٥٢٦٠ ومسلم/١٩٨٠] بالفاظ قريبة.

وروى الإمام أحمد [١٢٨٧٧] عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرًا فقال: (أَهْرِقْهَا). قال: أفلا نجعلها خلًا؟ قال: (لَا) ورواه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم [٦٧٤٤] عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَصَابُ وَالْآزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال: هي في التوراة «إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، وببطل به اللعب والمزامير، والزُفَن والكِبَارَات؛ يعني: البرابط، والزمارات؛ يعني به: الدف، والطناير والشعر، والخمر مرة لمن طعمها، أقسم الله بيمينه وعزة حيله من شربها بعدما حرمتها لأعطشني يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقينه إياها في حظيرة القدس»، وهذا إسناده صحيح.

وروى مسلم [٢٠٠٣] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، لَمْ يَشْرُبْهَا فِي الْآخِرَةِ) [وأخرج البخاري آخره ونحوه/٥٢٥٣].

وعن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لَوْلَايَدِهِ، وَالْمُدْمِنُ الْخَمْرَ، وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ)، ورواه النسائي [١٧١٩]، وإسناده صحيح.

وعن عثمان بن عفان قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فَعَلَّقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا نَدْعُوكَ لَشَهَادَةٍ، فَدَخَلَ مَعَهَا فَطَفَقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غَلَامٌ وَبَاطِيَةٌ خَمْرٌ فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لَشَهَادَةٍ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لَتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغَلَامَ أَوْ تَشْرَبَ هَذَا الْخَمْرَ، فَسَقَتْهُ كَأْسًا، فقال: زيدوني، فلم يَرَمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا، وَقَتَلَ النَّفْسَ فَاجْتَنَبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالْإِيمَانُ أَبَدًا إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يَخْرُجَ صَاحِبُهُ. ورواه البيهقي [١٧١٦] والنسائي [٥١٧٦] وهذا إسناده صحيح، وله شاهد في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ سَرِقَةً حِينَ يَسْرِقُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرُبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) [البخاري/٥٢٥٦ ومسلم/٥٧].

وروى الإمام أحمد [٢٧٦٤٤] عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول: (مَنْ شَرِبَ

الْخَمْرَ لَمْ يَرْضَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، إِنَّ مَاتَ مَاتَ كَافِرًا، وَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ). قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: (صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ) [رواه النسائي نحوه/ ٥١٧٨، وصححه الألباني].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ. بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَاكٍ صِيَامًا لِّذَوِّ قُلُوبٍ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يتلي الله به عبادته في إحرامهم، حتى لو شاءوا يتناولونه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه، وقال مجاهد: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾؛ يعني: صغار الصيد وفراخه، ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ يعني: كبارها، وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطيور والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ يعني: أنه تعالى يتليهم بالصيد، يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا، ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله هاهنا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال السدي وغيره: يعني: بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: لمخالفته أمر الله وشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضًا، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في «الصحاحين» عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: (خَمْسُ فَوَاسِقٍ يُقْتَلْنَ فِي الْجِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَاةُ، وَالْعُقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ) [البخاري/ ٣١٣٦ ومسلم/ ١١٩٨ بنحو]، وعن ابن عمر مثله. قال أيوب: قلت لنافع: فالحية؟ قال الحية لا شك فيها، ولا يختلف في قتلها، ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد؛ لأنها أشد ضررًا منه، فالله أعلم، وقال سفيان بن عيينة، وزيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها، وقالوا: فإن قتل ما عداها فداها، كالضبع والثعلب وهر البر ونحو ذلك، قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي، وقال الشافعي رحمه الله: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره

وكباره، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل، وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب؛ لأنه كلب بري، فإن قتل غيرهما فداء إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حيي، وقال زفر بن الهذيل: يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه.

وقال بعض الناس: المراد بالغراب هاهنا الأبقع، وهو الذي في بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض، لما رواه النسائي [٣٨١٢] عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: (خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ: الْحَيَّةُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْجِدَاةُ، وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ) [وإسناده صحيح] والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك، لما ثبت في «الصحيحين» من إطلاق لفظه، وقال مالك رحمه الله: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه، وقال مجاهد بن جبر وطائفة: لا يقتله بل يرميه، ويروى مثله عن علي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ عن طاوس قال: لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً، وهذا مذهب غريب عن طاوس وهو متمسك بظاهر الآية، وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه، وهو قول غريب أيضاً، والذي عليه الجمهور أن العمد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه، وقال الزهري: دل الكتاب على العمد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: ﴿يَذُوقْ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم.

وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ وحكى ابن جرير، أن ابن مسعود قرأها: «فجزاؤه مثل ما قتل من النعم»، وفي قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترى به هدياً، والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالتابع، فإنهم حكموا في النعامة ببذنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة، ورواه البيهقي [٩٦٨٣].

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾؛ يعني: أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: أحدهما: لا، لأنه قد يُتهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك. والثاني: نعم، لعموم الآية، وهو مذهب الشافعي وأحمد، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة.

روى ابن أبي حاتم [٦٨٠٥] عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر، فقال: قتلت صيداً وأنا محرّم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر ﷺ لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاروت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به، وهذا إسناده جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل هاهنا، فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم.

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، وجعله شرعاً مقررّاً لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين، وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا، لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾؛ أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة.

وقوله: ﴿أَوْ كَثْرَةُ طَعَامٍ مَّسْكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾؛ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد، رحمهم الله، لظاهر الآية «أو» فإنّها للتخيير، والقول الآخر أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم، وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام ويتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه، عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير، وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مدين، وهو قول مجاهد، وقال أحمد: مد من حنطة أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالخير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً، وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً كما في جزاء المترفة بالحلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يطعم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفرق ثلاثة أصع، واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحرم، وهو قول عطاء، وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه، وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثْرَةُ طَعَامٍ مَّسْكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاؤه ذبحه فتصدق به وإن لم يجد، نظر كم ثمنه، ثم قوم ثمنه طعاماً فصام فكان كل نصف صاع يوماً، قال: ﴿أَوْ كَثْرَةُ طَعَامٍ مَّسْكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، قال: إنما أريد بالطعام الصيام، أنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه.

وعن عامر الشعبي وعطاء، ومجاهد: ﴿أَوْ عَذَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى، وكذا روي عن مجاهد، والسدي أنها على الترتيب، وقال عطاء، وعكرمة، ومجاهد في رواية الضحاك وإبراهيم النخعي: هي على الخيار، وهو رواية عن ابن عباس، واختار ذلك ابن جرير رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿يَذُوقُ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾؛ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾؛ أي: في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية، ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؛ أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْفَاءٍ﴾. قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾؟ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة. قال: قلت: فهل في العود حدٌ تعلمه؟ قال: لا، قال قلت: فترى حقًا على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله ﷻ، ولكن يفقدي. وقيل: معناه فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير وعطاء.

ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وعن ابن عباس، قال: من قتل شيئًا من الصيد خطأ وهو محرم، يحكم عليه فيه كلما قتله، فإن قتله عمدًا يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله ﷻ، وعن ابن عباس أيضًا فيمن أصاب صيدًا يحكم عليه ثم عاد قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه، وهكذا قال شريح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، رواه ابن جرير [٦٠/٧]، ثم اختار القول الأول، وعن الحسن البصري أن رجلًا أصاب صيدًا فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيدًا آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾، وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْفَاءٍ﴾ يقول، عز ذكره: والله منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة.

وقوله: ﴿ذُو أَنْفَاءٍ﴾؛ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّيَّارِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦) ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّاتِ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَأَلْهَدَىٰ وَأَلْفَلْتَدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩).

قال ابن عباس في رواية عنه، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وغيرهم، في قوله:

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾؛ يعني: ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما يتزود منه مملحاً يابساً. وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما لفظه ميتاً، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، وعكرمة، والحسن البصري [وغيرهم]. وعن ابن عباس قال: خطب أبو بكر الناس، فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ﴾ وطعامه ما قذف، وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لفظه حياً أو حسر عنه فمات، وعن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر، فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة، أفنأكلها؟ فقال: لا تأكلوها، فلما رجع عبد الله إلى أهله، أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له: فليأكله فإنه طعامه، وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، وعن أبي هريرة قال: طعامه ما لفظه ميتاً [الطبري ٦٩/٧].

وقوله: ﴿مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وهم جمع سيار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر وللسيارة: السفر. وقال غيره: الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر، ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلح وقُدِّد، زاداً للمسافرين والنائين عن البحر وقد روي نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي وغيرهم. وقد استدلل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك [١٦٦٢] عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة ثمرة فقلت: وما تغني ثمرة، فقال: فقد وجدنا فقدوها حين فنيتم، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الطرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانين عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فصبأ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتها، فلم تصبهما، وهذا الحديث مخرج في «الصحاحين» [البخاري/٢٣٥١ ومسلم/١٩٣٥ مختصراً].

وروى مالك عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: (هُوَ الطَّهْرُ مَاؤُهُ الْحَلَّ مَيْتُهُ)، وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي [ص٧] وأحمد بن حنبل [٨٧٢٠]، وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري، والترمذي [٦٩]، وابن خزيمة [١١١]، وابن حبان [١٢٤٣] وغيرهم، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئاً، وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها، لما رواه الإمام أحمد [١٥٧٩٥]، وأبو داود [٥٢٦٩]، والنسائي [٤٨٦٧ بمعناه]، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع، وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع. [وهو صحيح].

وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع، واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك. وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر، أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل، وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى.

وقال أبو حنيفة رحمته الله: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر، لعموم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره، وبحديث: (هُوَ الطَّهْرُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ)، وقد تقدم أيضًا.

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي [ص ٣٤٠] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبْدُ وَالطُّحَالُ). ورواه أحمد [٥٧٢٣]، وابن ماجه [٣٣١٤]، والدارقطني [٢٧١/٤]، والبيهقي [١١٢٩] وله شواهد، وروي موقوفًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمُ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُ حُرْمًا﴾؛ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمدًا، أثم وغرم، أو مخطئًا، غرم وحرّم عليه أكله؛ لأنّه في حقه كالميتة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحليين، عند مالك والشافعي في أحد قوليه، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم، وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم، فإن أكله أو شيئًا منه فهل يلزمه جزاء؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما: نعم، قال عطاء، إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة. والثاني: لا جزاء عليه يأكله، نص عليه مالك بن أنس. قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء، وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل، وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول الله ﷺ: (صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ، مَا لَمْ تُصَيْدُوهُ أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ) [رواه أحمد/ ١٥١٩٧ بنحوه، وأبو داود/ ١٨٥١، والترمذي/ ٨٤٦، والنسائي/ ٣٨١٠، وفيه انقطاع]، وقوله بإباحته للقاتل غريب، وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عن تقدم، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث، والله أعلم.

وأما إذا صاد حلال صيدًا، فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقًا، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر بن الخطاب، وأبي هريرة والزبير بن العوام وكعب الأحبار، ومجاهد، وعطاء في رواية، وسعيد بن جبير، قال: وبه قال الكوفيون. روى ابن جرير عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال، أيأكله المحرم؟ قال: فأقتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك، وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقًا لعموم هذه الآية الكريمة.

فعن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة؛ يعني: قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمُ

صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُ حُرْمًا، وعن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري، وإسحاق بن راهويه في رواية، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال.

وقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء أو بؤدان، فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: (إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرْمٌ) وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [البخاري/١٧٢٩ ومسلم/١١٩٣]، قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش، وكان حلالاً لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: (هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا، أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا؟) قالوا: لا. قال: (فَكُلُوا)، وأكل منها رسول الله ﷺ، وهذه القصة ثابتة أيضاً في «الصحيحين» [البخاري بلفظ آخر/١٧٢٧ ومسلم نحوه/١١٩٦]، وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد، فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أَوْ لَا تَأْكُلَ أَنْتَ؟ فقال: إني لست كهيتكم إنما صيد من أجلي.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَنَىٰ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾؛ أي: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾؛ يعني: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث: (مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِّمَّا كَثُرَ وَالْهَى) [أخرجه أبو يعلى/١٠٥٣ وغيره وصححه الألباني].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَنَىٰ﴾؛ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، وروى البخاري [٤٣٤٥] عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط، قال فيها: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا). قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ

وجوهم لهم خنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: (فَلَان) فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾.

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من السلف، منهم السدي قال في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ قال: غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام، فقام خطيباً فقال: (سَلُونِي، فَإِنَّكُمْ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ) فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة، وكان يُطْعَن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: أبوك فلان، فدعا لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب، فقبل رجله وقال: يا رسول الله، رضينا بالله رباً، وبك نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضي فيومئذ قال: (الْوَلَدُ لِلْفَرَّاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ) [ابن أبي حاتم/ ٦٨٨٢].

وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها، وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣٧٥٩] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (لَا يُلْغَنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ). الحديث، وقد رواه أبو داود [٤٨٦٠] والترمذي [٣٨٩٦] نحوه، وقال: غريب من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾؛ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول ﷺ تُبَيِّنْ لَكُمْ وذلك على الله يسير، ثم قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾؛ أي: عما كان منكم قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، وقيل: المراد بقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾؛ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضيق، وقد ورد في الحديث: (أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ) [البخاري/ ٦٨٥٩ ومسلم/ ٢٣٥٨]، ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها، حينئذ تبينت لكم لاحتياجكم إليها، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾؛ أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكنت عنها، وفي «صحيح [مسلم/ ١٣٣٧]» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ).

ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾؛ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين؛ أي: بسببها؛ أي: بينت لهم فلم يتنفعوا بها؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد.

وقال ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا) فقالوا: يا رسول الله، أعماماً واحداً، أم كل عام؟ فقال: (لَا بَلْ عَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قُلْتُ: كُلُّ عَامٍ لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَكَفَرْتُمْ) [الطبري/ ٨٣/٧]. ثم

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، وعن ابن عباس: ﴿لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءَ﴾ قال: هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك: ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا، وعن عكرمة قال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك، ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾؛ يعني عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٧).

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يُمنع دَرَّهَا للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: (رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَبَّ السَّوَابِ) [البخاري/٣٣٣٣] والوصيلة: الناقة البكر تُبَكِّرُ في أول نتاج الإبل، ثم تُثْنِي بعد بأثنى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالآخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يَضْرِبُ الضَّرَابَ المَعْدُود، فإذا قضى ضرابه ودَعُوهُ للطواغيت وأعفوه عن الحَمْل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي، وكذا رواه مسلم [٢٨٥٦].

ثم روى البخاري [٤٣٤٨] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتُ عَمْرًا يَجْرُ قُصْبَهُ وَهُوَ أَوَّلَ مَنْ سَبَّ السَّوَابِ).

فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمْعَةٍ، أحد رؤساء خزاعة الذين ولّوا البيت بعد جُرْهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال ابن عباس: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة، وذكر السدي وغيره قريباً من هذا، وأما السائبة فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبينه ستة أولاد، كانت على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسائهم وقال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة

إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سببت فلم تتركب ولم يجز وبرها ولم يحلب لبنها إلا لضيف، وقال أبو روق: السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته، سيب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها. وقال السدي: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته، أو عوفي من مرض، أو كثر ماله، سبب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

وأما الوصيلة، فقال ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا. وعن سعيد بن المسيب: ﴿وَلَا وَصِيلَةَ﴾، قال: فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تثني بأنثى فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رحمهم الله، وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكر دون الإناث، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحام: فعن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشراً قيل: حام فاتركوه، وكذا قال أبو روق وقتادة، وقال ابن عباس [أيضاً]: وأما الحام فالفحل من الإبل إذا وُلد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجوزون له وبراً، ولا يمنعون من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه، وعن مالك قال: أما الحام فمن الإبل، كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبٌ وَأَكْثُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم، وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ أي: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَكْفُرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥).

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال ابن عباس: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام،

ونهيته عنه، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به، وهكذا قال مقاتل بن حيان، فقله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ نصب على الإغراء، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فيجازي كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وليس في الآية مستدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكنا.

وقد روى الإمام أحمد [١٦] عن قيس قال: قام أبو بكر الصديق ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ، أَوْشَكَ اللَّهُ ﷻ، أَنْ يَعْصِيَهُمْ بِعِقَابِهِ). قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان، وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة [سبق تخريجه قريبا]، وابن حبان في «صحيحه»، وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة.

وروى أبو عيسى الترمذي [٣٠٥٨] عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: (بَلِ اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مُطَاعًا، وَهُوَ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي بَرَأْيَةٍ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ) قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة، قيل: يا رسول الله، أجز خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال: (بَلِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح، وكذا رواه أبو داود [٤٣٤١]، وعن ابن مسعود أنه سأله رجل عن قول الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذٍ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾.

وروى ابن جرير [٩٥/٧] عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام، فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال: (أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ) فكننا نحن الشهود وأنتم الغائب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم، وروى أيضا عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد العين شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يألو، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجل من القوم: وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال الرجل:

إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله: لعلك ترى - لا أبا لك - إني سأمرك أن تذهب فتقتلهم، عظمهم وانههم، فإن عصوك فعليك بنفسك، فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية.

وعن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فأقبلوا عليّ بلسان واحد، وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها ولا تدري ما تأويلها؟ فتمنيت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السن، وإنك نزعت بآية ولا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضررك من ضل إذا اهتديت [الطبري ٩٦/٧].

وعن ضمرة بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله. وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضررك من ضل إذا اهتديت [الطبري ٩٧/٧].

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرِيئُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا امْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل إنه منسوخ، روي عن ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقال آخرون: وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير: بل هو محكم، ومن ادعى نسخه فعليه البيان، فقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر لقوله: ﴿شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾، فقيل: تقديره شهادة اثنين حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أي: من المسلمين، ورُوي عن عبيدة، والحسن، ومجاهد، والسدي، وقتادة وغيرهم نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: عني ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: من حي الموصي، وذلك قول روي عن عكرمة، وعبيدة، وعدة غيرهما.

وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ عن ابن عباس قال: من غير المسلمين؛ يعني: أهل الكتاب،

وروي عن عبيدة ومحمد بن سيرين، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة وغيرهم، نحو ذلك.

وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة، وعبيدة في قوله: ﴿يُنَكِّمُ﴾؛ أي: المراد من قبيلة الموصي يكون المراد هاهنا ﴿أَوْ أَخْرَانٍ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: من غير قبيلة الموصي، وقد روى مثله عن الحسن البصري، والزهري رحمهما الله.

وقوله: ﴿إِن أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافرتُم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. فعن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية [الطبري ١٠٤/٧].

وقد روي مثله عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وهذه المسألة من أفرادها، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

وعن الزهري قال: مضت السُّنَّةُ أنه لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين.

وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية، وفرضت الفرائض وعمل الناس بها، رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ أَخْرَانٍ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ هل المراد أن يوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين: أحدهما: أن يوصي إليهما، روي عن ابن مسعود أنه قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، رواه ابن أبي حاتم [٦٩٣١] وفيه انقطاع. والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وصي ثالث معهما، اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء، كما سيأتي ذكرهما إن شاء الله وبه التوفيق.

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال: لأننا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص، بشهادة خاصة، في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الريبة، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْصَّلَاةِ﴾ عن ابن عباس: يعني: صلاة العصر، وكذا قال سعيد بن جبير، وقتادة، وعكرمة [وغيرهم]. وقال الزهري: يعني: صلاة المسلمين. وقال السدي، عن ابن عباس: يعني: صلاة أهل دينهما، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتماع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾؛ أي: فيحلفان بالله ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾؛ أي: إن

ظهرت لكم منهما ريبة أنهما قد خانا أو غلا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهٖ﴾؛ أي: بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان ﴿ثَمَنًا﴾؛ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحابهيه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَدَةَ اللَّهِ﴾ أضافها إلى الله تشريقاً لها وتعظيماً لأمرها، وقرأ بعضهم: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَدَةَ اللَّهِ﴾ مجروراً على القسم رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي، ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَتَمِينَ﴾؛ أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿إِن عَرَّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾؛ أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَقَارَآنِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهم، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا﴾؛ أي: لقولنا أنهما خانا، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا أَعْدَيْنَا﴾؛ أي: فيما قلنا من الخيانة، ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام.

وقد وردت السُّنَّة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فعن تميم الداري في هذه الآية ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بُذَيْل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عَظُم تجارته، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجاه فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجاه، فسألونا عنه، قلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره. قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة، تأثمت من ذلك، فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه، أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف، فأنزل الله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم، فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء، وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي [٣٠٥٩]، وضعفه ورواه هو وأبو داود نحوه/٣٦٠٦ عن ابن عباس أخصر منه وقال: حسن غريب].

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم عكرمة، ومحمد بن سيرين وقائدة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسله مجاهد، والحسن، والضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها، ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدُقُوقاً، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين

من أهل الكتاب، قال: فقدم الكوفة، فأتيا الأشعري؛ يعني: أبا موسى الأشعري عليه السلام، فأخبراه، وقدم بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد النبي ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما، وهذا إسناده صحيح إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري.

فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، كان في سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرا يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم.

وقال السدي: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وما عليه، قال: هذا في الحضر ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ في السفر ﴿إِنْ أَنتُمْ صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه، فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم، تركوهما، وإن ارتابوا، رفعوهما إلى السلطان، فذلك قوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَفُتِمَا بِلَّهِ إِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال عبد الله بن عباس: كأني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخونوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فيؤقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشترى به ثمنا قليلا ولو كان ذا قربي، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين، أن صاحبهم لبهذا أوصى، وأن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كنتمما أو خنتما فضحتكما في قومكما، ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك فإن ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ رواه ابن جرير [١١٠/٧]، وعن النحعي وابن جبير نحوه بأخصر منه].

وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد رحمته الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾؛ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين، وقد استريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي.

وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾؛ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أموركم، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾؛ أي: وأطيعوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (١٠٩).

وهذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قال مجاهد، والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم. وعن ابن جريج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ ماذا عملوا بعدكم وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾، وقال ابن عباس: يقولون للرب ﷻ: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير [١٢٦/٧]، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله؛ أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبننا وعرفنا من أجبننا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أَيْدَتُنَا بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١١٣) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١١٤).

يذكر تعالى ما امتنَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾؛ أي: في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء، ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إِذْ أَيْدَتُنَا بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل ﷺ، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي، ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك وضمن تكلم تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث، ويراد به ما هو أعم من ذلك. وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾؛ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني

لك في ذلك، فيكون طيراً بإذني؛ أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتُ بِإِذْنِي﴾؛ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيبته.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم، ورفعتك إلي، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم، وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضاً من الامتنان عليه، ﷺ، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصاص: ٧]، وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الآية [النحل: ٦٨، ٦٩]، وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: ألهموا ذلك، فامتثلوا ما ألهموا، قال الحسن البصري: ألهمهم الله ﷻ ذلك، وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا زَيْدٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئَن قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة، فيقال سورة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى ﷺ ﴿يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: «هل تستطيع ربك» [ذكره الترمذي/٢٩٣٠]؛ أي: هل

تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام، وذكر بعضهم: أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقدهم، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقون بها على العبادة ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين، ﴿قَالُوا زُبَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾؛ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا﴾؛ أي: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ قال السدي: أي: نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني: يوماً نصلي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا ﴿وَأَيَّاهُ مِنْكَ﴾؛ أي: دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك، ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾؛ أي: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: من عالمي زمانكم، كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَفِفِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد روى ابن جرير [١٣٦/٧] عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

وعن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم، فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا زُبَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَأَيَّاهُ مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم [الطبري ١٣٠/٧].

والآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية. وقد قال قائلون: إنها لم تنزل، فعن مجاهد في قوله: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، قال: هو مثل ضرب ولم ينزل شيء، وعن مجاهد [أيضاً] قال: مائدة عليها طعام أبوها حين عرض

عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم، وعن الحسن أنه قال في المائدة: لم تنزل، وهذه أسانيدُها صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى، وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا، ولا أقل من الآحاد، والله أعلم، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لَأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِنَزُولِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.

وقد روى الإمام أحمد [٢١٦٦] عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك. قال: (وَتَفْعَلُونَ؟) قالوا نعم. قال فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: (بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ) [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا، قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى سماء الدنيا واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: أحدهما: أن الكلام بلفظ الماضي. والثاني: قوله: ﴿إِن تَعَذِّبْهُمْ﴾ و﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت؛ ومعنى قوله: ﴿إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية، التبري منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. وقوله: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم [٧٠٥٢]، عن أبي هريرة قال: يُلْقَى عِيسَى حَجَّتَهُ، وَلَقَّاهُ اللَّهُ

تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقاه الله ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى آخر الآية [ورجاله ثقات].

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾؛ أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: هذا هو الذي قلت لهم.

وقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

روى أبو داود الطيالسي [٢٦٣٨] عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حُفَاةً، عُرَاةً غُرُلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ فَأَقُولُ: أَصْحَابِي. فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ فَيَقَالُ: إِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ) ورواه البخاري عند هذه الآية.

وقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ﷻ، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبةً وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم، ونبأ عجيب.

روى ابن أبي حاتم [٧٠٥٨] عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول عيسى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه، فقال: (اللَّهُمَّ أُمِّتِي) وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوئك [ورواه مسلم/٢٠٢].

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَجْزِ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٢٠﴾.

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ: فيما أنجاه إليه من التبري من النصارى الملحدتين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه ﷻ، فعند ذلك يقول

تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ عن ابن عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؛ أي: ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِمَثَلٍ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته، وفي مشيئته، فلا نظير له، ولا وزير، ولا عدل، ولا والد، ولا ولد، ولا صاحبة، ولا إله غيره، ولا رب سواه. عن عبد الله بن عمرو، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة.



تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

وآياتها مائة وخمس وستون آية. قال العوفي وعكرمة، وعطاء عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

وعن عبد الله [بن مسعود] قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة [رواه الطبراني في الصغير/ ٢٢٠]، وروى الحاكم في «مستدركه» [٣٢٢٦] عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام، سَبَّحَ رسول الله ﷺ ثم قال: (لَقَدْ شَيَّعَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا سَدَّ الْأُفُقَ) ثم قال: صحيح على شرط مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُونَ﴾ ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة وحامداً لها على خلقه السموات الأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات، ووجد لفظ النور، لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾؛ يعني: أباهم آدم، الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾؛ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾؛ يعني: الآخرة، وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن وغيرهم، وقول الحسن في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ قال: ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ما بين أن يموت إلى أن يبعث، هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بأكملها، ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة، وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ

أَجَلًا؛ يعني: مدة الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنَّه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠].

ومعنى قوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا يعلمه إلا هو؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤١﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٢﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلِكًا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ قال السدي وغيره: يعني: تشكون في أمر الساعة، وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على تخطئة قول الجهمية الأول القائلين، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه في كل مكان، حيث حملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال: أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض؛ أي: يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله ويدعونه رغباً ورهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً.

والقول الثاني: أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهر، فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾، متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ تقديره، وهو الله يعلم سركم وجهركم، في السموات وفي الأرض، ويعلم ما تكسبون.

والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وهذا اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: جميع أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ كُفْرًا وَآرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين، أنهم مهما أتتهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾؛ أي: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات، على وحدانية الله وصدق رسله الكرام، فإنَّهم يعرضون عنها، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذا تهديد لهم، ووعد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غبه وليذوقن وبالَه، ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم، أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلاًلاً للأرض، وعمارة

لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ نُكْمٌ لَكُمْ﴾؛ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾؛ أي: شيئًا بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾؛ أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض؛ أي: استدراجًا وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَوْمَهُمْ﴾؛ أي: بخطاياهم، وسيئاتهم التي اجترحوها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾؛ أي: فذهب الأولون كأمس الزاهب، وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾؛ أي: جيلًا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسوله، فأنتم أولى بالعذاب، ومعالجة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)
 وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا
 لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ
 بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبرًا عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: عاينوه ورأوا نزوله، وباشروا ذلك، ﴿لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾؛ أي: فيكون معه نذيراً، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾؛ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه، ل جاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكًا؛ أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل لثفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رحمته تعالى بخلقه، أنه يرسل رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن يتفهم ببعض، في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

عن ابن عباس في الآية يقول: لو أتاهم ملك، ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور، ﴿وَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَآ يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: ولبسنا عليهم ما يخلطون، وعنه [أيضاً]: ولبسنا عليهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُ رُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَكَافَ بِاللَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة، في الدنيا والآخرة، ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾؛ أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله، وعاندوهم، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نُجِّي رسله وعباده المؤمنون.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْأَنْبَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣) ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ﴾ (١٦).

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي) [البخاري نحوه/ ٦٩٦٩ ومسلم/ ٢٧٥١]. وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة، ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، ولا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون، فهم في ريبهم يترددون.

ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْأَنْبَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قال لعبده ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنى لا أتحذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض؛ أي: خالقهما ومبدعهما، على غير مثال سبق، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ أي: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ

مِنْهُمْ مِّنْ زَرْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار، من أهل قباء النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه، قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ، وَمَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرِ مُودِعِ رَبِّي، وَلَا مَكَافَا وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا مِنَ الْغُرْيِ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالِ، وَبَصَرَنَا مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [أخرجه النسائي/١٠١٣٣ وصححه ابن حبان/٥٢١٩ بالفاظ متقاربة والحاكم في المستدرک/٢٠٠٣].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ أي: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ﴾؛ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾؛ يعني: فقد رحمه الله ﴿وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْأَمِينُ﴾ كما قال: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والفوز هو حصول الربح، ونفي الخسارة.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

يقول تعالى مخبراً: أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢]، وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ) [البخاري/٨٠٨ ومسلم/٤٧٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه، وعظمته وعلوه، وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه، وتحت حكمه وقهره، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: في جميع ما يفعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق، ثم قال: ﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً﴾؛ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: هو العالم بما جتكم به، وما أنتم قائلون لي، ﴿وَأُوحِيَ

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ؛ أَي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْهَبْ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

روى ابن أبي حاتم [٧١٦٥] عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال: من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي ﷺ، [وفي رواية]: وكلمه، وروى ابن جرير [١٦٣/٧] عن محمد بن كعب، قال: من بلغه القرآن، فقد أبلغه محمد ﷺ، وعن قتادة، في قوله تعالى: ﴿لَا تُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: (بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَّغْتُهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغَهُ أَمْرُ اللَّهِ) [ابن أبي حاتم/٧١٦٦]، وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ، أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذي أنذر.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُنَّ﴾ أيها المشركون ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كقوله: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به، كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأبناء، عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ وبنعته وصفته، وبلده ومهاجرة وصفة أمته، ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: خسروا كل الخسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: لا أظلم ممن تقول على الله، فادعى أن الله أرسله، ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله، وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: لا يفلح لا هذا ولا هذا، لا المفترى ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْذِرْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا عَبْدًا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها من دونه، قائلاً لهم: ﴿آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ آيِنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْذِرْهُمْ﴾؛ أي: حجتهم وقال ابن عباس: أي: معذرتهم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس [أيضاً]: أي: قيلهم، وكذا قال الضحاك، وقال عطاء الخراساني: ثم لم تكن بليتهم حين ابتلوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقال ابن جرير: والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتننا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وروى ابن أبي حاتم [٧١٨٠]، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا ابن عباس،

سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال أما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة، إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجد فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثًا، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه.

وعن ابن عباس أيضًا: هذه في المنافقين، وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْطِطُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِلَهُمْ هُمْ أَلَكْذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَهِيًّا لَا يُؤْمِنُوهَا﴾؛ أي: يجيؤوك ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئًا؛ لأن الله جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية، لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صممًا عن السماع النافع فهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَوَقَّىٰ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَهِيًّا لَا يُؤْمِنُوهَا﴾؛ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾؛ أي: يحاجونك ويناطرونك، في الحق بالباطل، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما هذا الذي جئت به، إلا مأخوذ من كتب الأوائل، ومنقول عنهم، وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّتْ عَنْهُ﴾ وفي معنى ينهون عنه قولان: أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن، وينأون عنه؛ أي: ويتبعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يتركون أحدًا ينتفع، قال ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن محمد ﷺ، أن يؤمنوا به، وقال محمد ابن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ وينهون عنه، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد، وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير.

والقول الثاني: روي عن ابن عباس يقول في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى [ابن أبي حاتم/٧١٩٩]، وكذا قال القاسم بن مخيمرة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار: أنها نزلت في أبي طالب، وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر، وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: ينهون الناس عن قتله [ابن أبي حاتم/٧٢٠٥].

وقوله: ﴿وَيَتَنَوَّتْ عَنْهُ﴾؛ أي: يتباعدون منه ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك، قالوا: ﴿يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى، أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَاهِدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُكُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب، في قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: في تمنيتهم الرجعة، رغبة ومحبة في الإيمان، ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: في قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين، ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ أي: لعادوا لما نهوا عنه إنهم لكاذبون، ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: أوقفوا بين يديه قال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟؛ أي: أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون، ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسه ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْدَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بقاء الله، وعن خيبته إذا جاءت الساعه بغته، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعل؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عودته على الحياة، وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة؛ أي: في أمرها، وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْدَانَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾؛ أي: يحملون، وقال قتادة: يعملون. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ﴾؛ أي: إنما غالبها كذلك ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾؛ أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِدِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: ولكنهم يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم، كما قال علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الطبري ٧/ ١٨٢]. قال أبو صالح وقاتدة: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

وروى ابن جرير [٧/ ١٨٢] عن السدي في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا

يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُجَاهِدُونَكَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ لما كان يوم بدر، قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة إن محمداً ابن أختكم فأنتم أحق من ذب عنه، فإنه إن كان نبياً لم تقتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا هاهنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد رجعتهم سالمين، وإن غلب محمد، فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً - فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أبي - فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمداً قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُجَاهِدُونَكَ﴾ فآيات الله محمد ﷺ [وعن الزهري نحوه].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾ هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له، فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصرُوا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البالغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلِ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَٰكِن جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الرُّسُلِ﴾؛ أي: من خبرهم، كيف نصرُوا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَارُكَ عَلَيْكَ﴾ [إِعْرَاضُهُمْ]؛ أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ أَسْتَقَمْتَ أَن تَبْنِيَ نَقًّا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: النِّقْ السَّرْب، فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سلماً في السماء، فتصعد فيه فتأتيهم بآية، أفضل مما آتيتهم به فافعل [الطبري ١٨٤/٧]، وكذا قال قتادة، والسدي وغيرهما.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، قال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول [الطبري ١٠٩/١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾؛ يعني: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التهكم بهم والإزراء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِلَّ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعتون كما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٣٧﴾...﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] الآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِلَّ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا ثَمُودُ النَّافَةِ مُبِيرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قال مجاهد: أي: أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة، وقال السدي: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ أي: خلق أمثالكم [الطبري ١٨٨/٧].

وقوله: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]؛ أي: مُفْصَح بِأَسْمَائِهَا وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّهَا لَكِنَّهَا وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ عن ابن عباس قال: حشرها الموت [ابن أبي حاتم/ ٧٢٦١]، وعنه أيضاً قال: موت البهائم حشرها، وروي عن مجاهد والضحاك مثله. والقول الثاني: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

وعن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذٍ، أن يأخذ للجماء من القراء، ثم يقول كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: ﴿يَلْبِسْنِي كُتًّا ثَرَابًا﴾ [البأ: ٤٠] [الحاكم في المستدرک/ ٣٢٣١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم؛ كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [ص: ٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ﴾؛ يعني: الفقر والضييق في العيش، ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْهَمُونَ﴾؛ أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾؛ أي: فهلا إذا ابتليناهم بذلك، تضرعوا إلينا وتمسكوا إلينا ﴿وَلَكِن فَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: ما رقت ولا خشعت ﴿وَرَبَّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: من الشرك والمعاصي، ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: أعرضوا عنه وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم، ﴿فَنَحْنُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابٌ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: فتحننا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عيادًا بالله من مكروه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾؛ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أي: على غفلة، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من كل خير، عن ابن عباس: المبلس الآيس، وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا [ابن أبي حاتم/٧٢٩٣]، وقال قتادة: بَغَتِ القومُ أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط، إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم

الفاسقون [ابن أبي حاتم/ ٧٢٩٣]، وقال مالك، عن الزهري: ﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: إرخاء الدنيا وسترها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (٤٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩).

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾؛ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، فإنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْآفِيدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما، الانتفاع الشرعي، ولهذا قال: ﴿وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ كما قال: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾؛ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم، إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نبينها ونوضحها ونفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: ثم هم مع هذا البيان، يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه، عن ابن عباس: ﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: يعدلون، وقال مجاهد وقتادة: يعرضون، وقال السدي: يصدون.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ﴾؛ أي: وأنتم لا تشعرون به، حتى بغتكم وفجأكم، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾؛ أي: ظاهراً عياناً، ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾؛ أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: فمن آمن قلبه بما جاؤوا به، وأصلح عمله باتباعه إياهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالنسبة لما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: ينالهم العذاب، بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى لرسول ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ أي: لست أملكها ولا أنصرف فيها ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؛ أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله ﷻ، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ أي: ولا أدعي أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يوحى إليّ من الله ﷻ، شرفني بذلك وأنعم عليّ به؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾؛ أي: هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه ولم ينقل له، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِذَا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] والذين يخشون ﴿رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾؛ أي: يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم، من عذابه إن أَرَادَهُ بِهِمْ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه، إلا الله ﷻ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار، عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك كما قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: أتعبد منكم.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كما قال نوح ﷺ: في جواب الذين قالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، قال: ﴿...وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ - ١١٣]؛ أي: إنما حسابهم على الله ﷻ، وليس عليّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، وقوله: ﴿فَتَطَرَدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

روى الإمام أحمد [٣٩٨٥] عن ابن مسعود: قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد، أَرْضِيتَ بِهِؤُلَاءِ فَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَيْبِهِمْ﴾ - إلى قوله - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. [قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض، ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كُونُوا بِكَ بِرِيءٍ﴾ [هود: ٢٧]، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل تبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل. [رواه البخاري بنحوه/٤٢٧٨]، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَّوْنَا إِلَىٰ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مریم: ٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ قَرَّبُوا هُمْ أَهْسَنُ أَتْنَا وَرِيًّا﴾ [مریم: ٧٤]، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي الحديث الصحيح: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُورِكُمْ، وَلَا إِلَىٰ أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) [رواه مسلم/٢٥٦٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فأكرمهم برّد السلام عليهم، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، ﴿أَنَّهُ مَن عَمَلَ سِئْلاً بِهَٰكِلَآءٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وعن عكرمة قال: الدنيا كلها جهالة.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على أن

لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٣٠٢٢ ومسلم/٢٧٥١]

وروى عبد الرزاق عن سلمان في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال: إنا نجد في التوراة عطفتين، أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مائة رحمة، أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال: فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبذلون، وبها يتزاوون، وبها تحن الناقة، وبها تثج البقرة، وبها تنجو الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة، جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع [رواه الطبري ١٥٥/٧، ومسلم مختصراً/٢٧٥٢]، وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً، قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) ثم قال: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ) [البخاري/٦١٣٥ ومسلم/٣٠].

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٥٥] قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّنِي عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ .

يقول تعالى: وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل، على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعدا، ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها، ﴿وَلِتَسْتَسَبِّلَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾؛ أي: من العذاب ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾؛ أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.

وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّنِي عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لو كان مرجع ذلك إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ .

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ روى البخاري [٤٤٢٠] عن عبد الله بن عمر

أن رسول الله ﷺ قال: (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ): ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا ومالك موكل بها، يكتب ما يسقط منها [ابن أبي حاتم/٧٣٦٩].

وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ عن ابن عباس قال: خلق الله النون وهي الدواة، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا، حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إلى آخر الآية [ابن أبي حاتم/٧٣٧٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَبْعَثُ إِلَىٰ مَتْوَفَيْكَ وَإِلَىٰ مُظْهِرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفايتين الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام، حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾؛ أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار، وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾؛ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أي: في النهار كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿٦١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في النهار، قاله مجاهد وقتادة والسدي، وعن عبد الله بن كثير؛ أي: في المنام والأول أظهر.

وقوله: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ يعني: به أجل كل واحد من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ أي: هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾؛ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّعْقَبَتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنُوزًا ۚ يَسْمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۚ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أي: إذا احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾؛ أي: ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس [الطبري ٢١٦/٧] وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾؛ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ﷻ، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياداً بالله من ذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾؛ يعني: الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾؛ يعني: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿وَحَسَرْتُنْهُمْ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧ - ٤٩]؛ ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ آلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْغَادِرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَتْ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ .

يقول تعالى ممتناً على عباده، في إنجائه المضطرين منهم ﴿مِّن ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية، إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ

فَلَمَّا جَنَّكَ إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورًا [الإسراء: ٦٧]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ دَعُوهُ نَضَرًا وَخُفْيَةً﴾؛ أي: جهراً وسراً ﴿لَيْنَ أَنْجَلْنَا مِنْ هَذِهِ﴾؛ أي: من هذه الضائقة ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: بعدها قال الله: ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ﴾؛ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾، عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾؛ أي: بعد إنجائه إياكم، عن الحسن قال: هذه للمشركين، وعن مجاهد قال: لأمة محمد ﷺ فعفا عنهم.

روى البخاري [٤٣٥٢] عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ) ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ) ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: (هَذَا أَهْوَنُ) أو قال: (هَذَا أَيْسَرُ).

ويتعلق بهذه الآية، أحاديث كثيرة منها:

ما رواه الإمام أحمد [١٥١٦] عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلي ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه ﷻ طويلاً ثم قال: (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا: سَأَلْتُهُ أَلَا يُهْلِكُ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسِّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمُ بَيْنَهُمْ، فَمَنْعَنِيهَا)، وأخرجه مسلم [٢٨٩٠].

وعن أبي بن كعب، قال: أربعة في هذه الأمة، قد مضت ثنتان وبقيت ثنتان: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: الرجم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: الخسف ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال سفيان: يعني: الرجم والخسف.

وعن الحسن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا﴾ الآية، قال: حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها [ابن أبي حاتم/٧٣٩٩]، وهكذا قال سعيد بن جبير، ومجاهد وغير واحد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾؛ يعني: الرجم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾؛ يعني: الخسف وهذا هو اختيار ابن جرير، وروى ابن جرير: عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يصيح وهو في المسجد أو على المنبر، يقول: ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم، إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدًا، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم، لم يبق منكم أحد، ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث [الطبري ٢٢٠/٧].

قول ثانٍ: عن ابن عباس [أنه] كان يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا

مِنْ فَوْقِكُمْ»، فأثمة السوء ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فخدم السوء، وحكى ابن أبي حاتم [٧٤٠٠] عن أبي سنان وعمير بن هانئ، نحو ذلك، وقال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى.

وهو كما قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ [الملك: ١٦، ١٧]، وفي الحديث: (لِيَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ) [رواه أحمد/ ٦٥٢١ وابن ماجه نحوه/ ٤٠٦١ وصححه الألباني]، وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها، وظهور الآيات قبل يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَوْ لِيَسْئَلَنَّ شَيْعًا﴾؛ يعني: يجعلكم متلبسين شيعة فرقا متخالفين. قال ابن عباس: يعني: الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: (وَسَتَقْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً) [ابن ماجه نحوه/ ٣٩٩٢].

وقوله: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني: يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل [ابن أبي حاتم/ ٧٤١٦]، وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَبْصَارَ﴾؛ أي: نبينها ونوضحها ونفسرها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُنْتَقَرٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ (١٩).

يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن الذي جئتكم به، والهدى والبيان، ﴿قَوْمُكَ﴾؛ يعني: قريشا ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الذي ليس وراءه حق ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ أي: إنما عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُنْتَقَرٌ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي: لكل نبي حقيقة [الطبري ٢٢٧/٧]، أي: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧]، وهذا تهديد ووعد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾؛ أي: بالتكذيب والاستهزاء، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾؛ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ والمراد بهذا كل فرد، من آحاد الأمة، أن لا يجلسوا مع المكذبين الذين

يَحْرِفُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيُضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدُ مِنْهُمْ نَاسِيًا، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا عَنْهَا﴾ بعد التذکر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال السدي عن أبي مالك، وسعيد بن جبیر في قوله: ﴿وَإِنَّمَا يُنِيبُكَ الشَّيْطَانُ﴾ قال: إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم، وكذا قال مقاتل بن حیان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴿الأنعام: ١٤٠﴾؛ أي: إنكم إذا جلستم معهم، وأقررتموهم على ذلك، فقد ساوَيْتموهم في الذي هم فيه.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: إذا تجنبوهم، فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدهم وتخلصوا من إثمهم، وعن أبي مالك، وسعيد بن جبیر قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك [ابن أبي حاتم/ ٧٤٣٩]؛ أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم، وقال آخرون: بل معناه وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، قاله مجاهد، والسدي، وابن جريج وغيرهم، وعلى قولهم يكون قوله: ﴿وَلَا يَكُنْ ذِكْرُكُمْ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُوا﴾؛ أي: ولكن أمرناهم بالإعراض عنهم، حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾؛ أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم، يوم القيامة، وقوله: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: لئلا تبسل، وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسدي: تبسل: تُسَلِّم [ابن أبي حاتم/ ٧٤٥٢].

وعن ابن عباس [أيضاً]: تُفَضِّح [ابن أبي حاتم/ ٧٤٥٣]، وقال قتادة: تُحْبَس [٧٤٥٤]، وقال مرةً وابن زيد: تُؤَاخَذ، وقال الكلبي: تُجَارَى، وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ [المدرثر: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها كما قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾؛ أي: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها، كما

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾
 أَوْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿آل عمران: ٩١﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اقْنِنَا قُلُوبَنَا هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمَرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قال السدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾؛ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلاً مثل الذي ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم، كمثال رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإننا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام، رواه ابن جرير [٢٣٦/٧]، وقال قتادة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أضلته في الأرض؛ يعني: استهوته، مثل قوله: ﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله ﷻ، كمثال رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: يا فلان بن فلان هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعو إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء، حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة الندامة.

وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ هم الغيلان ﴿يَدْعُونَهُ﴾ باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته، أو تلقى في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله ﷻ، رواه ابن جرير [٢٣٦/٧]، وعن مجاهد: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ قال: رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضل بعد أن هدى، وعن ابن عباس قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ هو الذي لا يستجيب لهدي الله، وهو رجل أطاع الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وحاد عن الحق، وضل عنه، وله أصحاب يدعونه إلى

الهدى، ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ والضلال ما يدعو إليه الجن، رواه ابن جرير [٢٣٧/٧]، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى الضلال ويزعمون أنه هدى، قال: وهذا خلاف ظاهر الآية، فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هدى، وهو كما قال ابن جرير: فإن سياق الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، وهو منصوب على الحال؛ أي: في حال حيرته وضلاله وجهله، وَجْهُ المحجة، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى، وتقدير الكلام فيأبى عليهم، ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه ولرد به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل فهو خالقهما ومالكهما، والمدير لهما ولمن فيهما.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب، «ويوم» منصوب إما على العطف على قوله: وآتوا، وتقديره وآتوا يوم يقول كن فيكون، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب، وإما على إضمار فعل تقديره واذكر يوم يقول كن فيكون.

وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محلها الجر على أنهما صفتان لرب العالمين، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كقوله: ﴿لَعَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ إِلَهَ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ﴾ [غانر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وما أشبه ذلك.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصور هاهنا، جمع صورة؛ أي: يوم ينفخ فيها فتحيا. قال ابن جرير: كما يقال: سور لسور البلد، هو جمع سورة، والصحيح أن المراد بالصور «القرن» الذي ينفخ فيه إسرافيل ﷺ، قال ابن جرير [٢٤١/٧]: والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدْ التَّقَمَ الصُّورَ وَحَتَّى جَبْهَتُهُ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ)، وروى الإمام أحمد [٦٥٠٧] عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي يا رسول الله ما الصور؟ قال: (قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ) [ورواه الترمذي/٢٤٣٠ وصححه الألباني].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّي أَخَافُكَ وَأَخَافُ مَا يُصْنَعُ فِي صُلُوكِ مُمِينٍ ۖ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلْأَيْلَ رَأَىٰ كُوكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَٰكَ ۖ فَلَمَّا رَأَىٰ ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لِّمَن يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۖ فَلَمَّا رَأَىٰ ٱلسَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْفِقُونَ مِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۖ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۖ﴾

عن ابن عباس: أن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارح، وعن ابن عباس أيضاً قال: يعني: بأزر الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثاني، وامرأته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سرية إبراهيم، وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تارح، وقال مجاهد، والسدي: آزر اسم صنم، قلت: كأنه غلب عليه آزر، لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم، وقال ابن جرير وقال آخرون: هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه مُعَوَّج، ولم يسنده ولا حكاه عن أحد، ثم قال: والصواب أن اسم أبيه آزر، ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم.

والمقصود أن إبراهيم ﷺ وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ؟؛ أي: أتأله لصنم تعبد من دون الله ۖ إِنِّي أَخَافُكَ وَأَخَافُ مَا يُصْنَعُ فِي صُلُوكِ مُمِينٍ ۖ؟ أي: تألهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل وأمرهم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَعُ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ يَتَابَعُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ يَتَابَعُ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۖ يَتَابَعُ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَرَكَتُ ٱلْهَيْتَ بِإِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۖ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ وَأَعَزَّلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨]، فكان إبراهيم ﷺ، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفِرَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وثبت في «صحيح [البخاري/٣١٧٢]» أن إبراهيم، يلقي أباه آزر يوم القيامة، فيقول له أبوه: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك فإذا هو بذبح متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ؟ أي: تبين له

وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله ﷻ، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ويحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون هذا عن بصيرته، حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة، والدلالات القاطعة كما رواه الإمام أحمد [٢٢١٦٢]، والترمذي [٣٢٣٤]، وصححه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث المنام: (أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ...) وذكر الحديث.

وقوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قيل: الواو زائدة تقديره وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض، ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَثِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقيل: بل هي على بابها؛ أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾؛ أي: تغشاه وستره ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾؛ أي: نجماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾؛ أي: غاب، قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأفول الذهاب.

﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلَاقَ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾؛ أي: طالعا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾؛ أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾؛ أي: جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾؛ أي: غابت ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) ﴿إِنِّي وَجْهَتْ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: أخلصت ديني، وأفردت عبادتي ﴿لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: في حال كوني حنيفاً؛ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فقال ابن عباس: ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرب الذي ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه من النمروذ بن كنعان، لما أن قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذٍ، فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد فولدت فيه إبراهيم، وتركته هناك، وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

والحق؛ أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته،

ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدّهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية، عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما يقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَفْقَهُمْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: أنا برئ من عبادتهم ومولاتهم، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجْهٌ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء، وربّه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ السَّمَاءَ يَوْمَئِذٍ السَّجُودَ وَالْقَمَرَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرًا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٥٣] شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحْبَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ يَتَنَبَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِذْهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّلَاحِينَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ) [البخاري/١٣١٩ ومسلم/٢٦٥٨ نحوه] وفي «صحيح مسلم» [٢٨٦٥]، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ) وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّ لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ ومعناه: على أحد القولين كقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّ﴾ كما سيأتي بيانه، فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا، ولم يك من المشركين، ناظرًا في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة، بعد رسول الله ﷺ بلا شك، ولا ريب، وما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى:

﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتُ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبهه من القول، قال: ﴿أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتُ﴾؛ أي: تجادلونني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألثقت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة.

وقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾؛ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أبايها، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها جميعاً، ولا تنظرون بل عاجلوني بذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع؛ أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فيما بينته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتتزعجوا عن عبادتها، وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود ﷺ على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٍّ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

وقوله: ﴿وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾؛ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف؛ أي: حجة هذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فأَي طائفتين أصوب، الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. روى البخاري [٤٣٥٣] عن عبد الله [ابن مسعود] قال: لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّكَ أَشْرَكٌ لَّظَلُمَ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾؛ أي: وجهنا حجته على قومه، قال مجاهد وغيره: يعني: بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْسُوا بِإِيمَانِهِمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، عليم؛ أي: بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٩٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨٤] وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ [٨٥] وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [٨٦] وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٨٧] ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٨٨] أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا يَكْفِيرِينَ [٨٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [٩٠].

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فيشروه وامرأته بإسحاق فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿يَوْنِئِكَ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [٧٦] قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتِ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [هود: ٧٢، ٧٣]، وبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يُعْقِب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله ﷻ عن قومه وعشيرته، بأولاد صالحين من صلبه على دينه، تقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْرَقْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة،

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح ﷺ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم ﷺ، لم يبعث الله ﷻ بعده نبياً، إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾؛ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى نوح؛ لأنه أقرب المذكورين ظاهر، وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليبا، وفي ذكر عيسى ﷺ في ذرية إبراهيم أو نوح، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال، ولما ثبت في «صحيح البخاري» [٢٥٥٧]، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: (إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء.

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتماع شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَجْبَبْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾؛ أي: أنعمنا عليهم بذلك، رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخلقة، ﴿إِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾؛ أي: بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة، الكتاب والحكم والنبوة.

وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني: أهل مكة، قاله ابن عباس وغير واحد، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: إن يكفر بهذه النعم، من كفر بها من قريش وغيرهم، فقد وكلنا بها قوماً آخرين؛ يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها، محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمته وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ يعني: الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾؛ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم ﴿فَهَدَاهُمْ أَقْصَدَ﴾؛ أي: اقتد وتابع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأتمته تبع له.

روى البخاري [٤٣٥٦] أن مجاهداً سأل ابن عباس أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَدَاهُمْ أَقْصَدَ﴾ ثم قال: هو منهم.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: أجرة، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: يتذكرون به، فِيرْشِدُوا مِنَ الْعَمَى إِلَى الْهُدَى، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢).

يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله، قال ابن عباس ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش [ابن أبي حاتم/٧٥٨٧]، واختاره ابن جرير [٢٦٨/٧]، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود، والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، فإن قريشاً والعرب قاطبة كانوا يستبعدون إرسال رسول من البشر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾؛ يعني: التوراة التي قد علمتم، وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران، نوراً وهدى للناس؛ أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾؛ أي: يجعلها حملتها قراطيس؛ أي: قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديهم، ويحرفون فيها ما يحرفون، ويبدلون ويتأولون، ويقولون هذا من عند الله؛ أي: هو في كتابه المنزل، وما هو من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾؛ أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه، من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آبائكم، قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب، وقال مجاهد: هذه للمسلمين، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: أي: قل الله أنزله، وهذا هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾؛ أي: لا يكون خطابك لهم، إلا هذه الكلمة، كلمة «الله»، وهذا الذي قاله هذا القائل، يكون أمراً بكلمة مفردة، من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين.

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾؛ يعني: القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾؛ يعني: مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم، من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي)، وذكر منهم: (وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٣٢٨ ومسلم نحوه/٥٢١]؛ لهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر، آمن بهذا الكتاب المبارك ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يقومون بما افترض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٣) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ (٩٤).

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا أحد أظلم، ممن كذب على الله، فجعل له شريكًا أو ولدًا، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ يعني: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، مما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا فَاذْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾؛ أي: في سكراته، وغمراته، وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بالضرب، وقال الضحاك وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: بالعذاب، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: بالضرب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر، بشرته الملائكة بالعذاب، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة، حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله.

وقد وردت أحاديث متواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر وهي مقررّة عند قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ اللَّهَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا كما قال: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]؛ أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.

وقوله: ﴿وَرَكَّبْنَاهُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها، في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في «صحيح [مسلم/٢٩٥٩]» أن رسول الله ﷺ قال: (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ).

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ تقرير لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من الأنداد، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم، إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون ويناديهم الرب ﷻ على رؤوس الخلائق: ﴿أَلَيْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٦) من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْصُرُهُمْ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ﴿وَصَدَّلَ عَنْكُمْ﴾؛ أي: ذهب عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٩٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَبْرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧).

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى؛ أي: يشقه في الشرى، فتبنت الزروع على اختلاف أصنافها، من الحبوب والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى، ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت.

وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر والكافر من الصالح وغير ذلك من العبارات التي تتظمها الآية وتشمّلها.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: فاعل هذه الأشياء، هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون مع الله غيره.

وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾؛ أي: خالق الضياء والظلام، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويجيء

النهار بضياءه وإشراقه، فبينَ تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح، وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ آيَاتَ سَكَنًا﴾؛ أي: مظلمًا، تسكن فيه الأشياء.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾؛ أي: يجريان بحساب مُقَنَّنٍ مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِمَعْلُومًا عَدَدَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ الآية [يونس: ٥].

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾؛ أي: الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يُمَانَع ولا يُخَالَف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيرًا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف [وهو قتادة]: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله، أن الله جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾؛ أي: قد بينها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعقلون ويعرفون الحق، ويتجنبون الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ يعني: آدم ﷺ، وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغيرهم: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: في الأرحام [ابن أبي حاتم/ ٧٦٨٣]، قالوا أو أكثرهم: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؛ أي: في الأصلاب [الطبري ٢٨٩/٧].

وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يفهمون ويعون كلام الله ومعناه، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مباركًا رزقًا للعباد وغيثًا للخلائق، رحمة من الله لخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾؛ أي: زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر؛ ولهذا قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾؛ أي: يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها، ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾؛ أي: جمع قنو، وهي عذوق الرطب ﴿دَانِيَةٌ﴾؛ أي: قريبة من المتناول، كما قال ابن عباس: يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾؛ أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا كما امتن الله بهما على

عباده، في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَبِ لَتَجِدُون مِّنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وكان ذلك قبل تحريم الخمر.

وقوله: ﴿وَالزُّيُونُ وَالرَّيْحَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مِثْلَيْهِ﴾ قال قتادة وغيره: متشابه في الورق قريب الشكل، قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً، وقوله: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾؛ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، وقتادة، وغيرهم [الطبري ٢٩٥/٧]: أي: فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً، صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق تعالى، من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزٌ وَجَعَلْتُ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَيْتٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَاتٍ وَغَيْرَ صِنَوَاتٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَقِضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَمْ أَيْهَا النَّاسُ لَآيَاتٍ﴾؛ أي: دلالات، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون به ويتبعون رسله.

﴿رَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

هذا رد على المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادة الله، بأن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم، فإن قيل: فكيف عبدت الجن، مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها، إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [١٧١] لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١٧٢﴾ وَلَا تُلْقُوا لَهُمْ لَحْمَهُمْ وَلَا تُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ فَاعٍ لِلنَّصِيحَاتِ وَلَاحِقٌ لَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ اللَّهَ فَاعٍ لِلنَّصِيحَاتِ وَلَاحِقٌ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١٧٣﴾ بَعْدَهُمْ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْشًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ آغْضُ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [١٢١] وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾؛ أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبد معه غيره، كما قال إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ [٣٥] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]؛ ومعنى الآية، أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة، وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل، في وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قاله من اليهود في العزيز، ومن قال من النصارى في المسيح، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة، إنها بنات الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ ومعنى قوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾؛ أي: اختلقوا واثفكوا وتخرصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف.

قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا ظهير، وقال مجاهد: ﴿وَحَرِّفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنٍ﴾ يقول: وتخرصوا لله كذباً فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلهاً، أن يكون له بنون وبنات، ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾؛ أي: تقدس وتنزه وتعاظم، عما يصفه هؤلاء الجاهلة الضالون، من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: مبدع السموات والأرض، وخالقهما، ومنشئهما، على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي: ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: كيف يكون له ولد، ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾؛ أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له، فأني يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: الذي خلق كل شيء، ولا ولد له ولا صاحبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: فاعبدوه وحده، لا شريك له، وأقروا له بالواحدانية، فإنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عدیل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي: حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف:

منها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار، عن رسول الله ﷺ، من غير ما طريق ثابت، في «الصحاح» و«المسانيد» و«السنن»، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب [البخاري/٤٥٧٤] بلفظ قريب، وفي رواية على الله، فإن الله تعالى قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾. [تعني لما عرج به ﷺ].

وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾؛ أي: جميعها وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة، كما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى:

﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَمْرِ رَبِّهَا نَاطِقَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: فدل هذا، على أن المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالى.

وأما السُّنَّةُ، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجابر، وصهيب، وبلال وغير واحد من الصحابة، عن النبي ﷺ، أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، في العَرَصات وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه أمين.

والمراد بالإدراك المنفي الإحاطة، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وفي «صحيح مسلم» [٤٨٦]: ﴿لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ﴾ ولا يلزم من هذا عدم الثناء فذلك هذا، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا يحيط بصر أحد بالملك [الطبري ٢٩٩/٧]، وعن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: أألسنت ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلها ترى؟ [ابن أبي حاتم/٧٧٣٧].

ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تثبت الرؤية في الدار الآخرة، وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذي نفتته: الإدراك، الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال، على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة، ولا لشيء.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾؛ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قال اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها [الطبري ٣٠٤/٧]، والله أعلم، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان، فيما وعظ به ابنه: ﴿يَبْنَؤُا إِنَّمَا إِنَّكَ مُثْقَلٌ حَبًّ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾
﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [١٠٥].

البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به رسول الله ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾؛ أي: إنما يعود وبإل ذلك عليه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾؛ أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد، وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون، دارست يا محمد من قبلك، من أهل

الكتاب وقارأتهم، وتعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم [الطبري ٣٠٦/٧]، وروى الطبراني [٣٠٦/٧] عن ابن عباس أنه قال: دارست: تلوت، خاصمت، جادلت [ابن أبي حاتم/ ٧٧٥١]، وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن كذبهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [١] وَقَالُوا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: ٤، ٥].

وقوله: ﴿وَلْيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِئْسَ كَثِيرٌ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرٌ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء، ويهدي من يشاء.

ولهذا قال هاهنا: «وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولنبينه لقوم يعلمون» وقرأ بعضهم: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [وهي قراءة الجمهور]. قال التميمي عن ابن عباس: درست؛ أي: قرأت وتعلمت [الطبري ٣٠٦/٧]، وكذا قال مجاهد، والسدي، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال الحسن: «وليقولوا دَرَسْتُ» يقول: تقادمت وانمحت [الطبري ٣٠٨/٧]، وهي قراءة ابن عامر.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٠٦] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [١٠٧].

يقول تعالى أمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: اقتد به واقف أثره، واعمل به، فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق، الذي لا مزية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك، وينصرك عليهم، واعلم أن الله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعًا، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾؛ أي: بل له المشيئة والحكمة، فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾؛ أي: حافظًا، تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] كما قال تعالى: ﴿فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٠٨].

يقول تعالى ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا

هو، كما قال ابن عباس: قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَغِيْرٍ عَلِيْمٍ﴾ [ابن أبي حاتم/ ٧٧٦٠].

ومن هذا القبيل، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في «الصحيح» [أي: «صحيح مسلم» بلفظ قريب/ ٩٠] أن رسول الله ﷺ قال: (مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ) قالوا: يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: (يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ) أو كما قال ﷺ. وقوله: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾؛ أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة، فيما يشاؤه ويختاره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾؛ أي: معادهم ومصيرهم ﴿فَلْيَنْتَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْأَيَّاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: أنهم حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾؛ أي: معجزة وخارقة ﴿لِّيُؤْمِنُوا بِهَا﴾؛ أي: ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْأَيَّاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: قل: للذين يسألونك الآيات، تعنتاً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم بها، وإن شاء ترككم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل المخاطب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المشركون وإليه ذهب مجاهد؛ كأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم، في هذه الأيمان التي تقسمون بها.

وقيل المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون؛ أي: وما يدريك أيها المؤمنون، وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلها.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، ورذت عن كل أمر [ابن أبي حاتم/ ٧٧٧١]، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة [ابن أبي حاتم/ ٧٧٧٢]، وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال ابن عباس ؓ: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يَنْتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، فأخبر الله سبحانه، أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى،

وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَقَلُبُ أَفْسِدَهُمْ وَابْصُرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال: ولو ردوا إلى الدنيا، لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا [ابن أبي حاتم/ ١٨٤٠٥].

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾؛ أي: نتركهم ﴿فِي طُعْنِهِمْ﴾ قال ابن عباس والسدي: في كفرهم، وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة: في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك، وغيرهم: في كفرهم يترددون.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَبَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلُومُنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم، ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، فنزلنا عليهم الملائكة؛ أي: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا، ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿وَحَبَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ قيل: معناه من المقابلة والمعاناة، روي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال مجاهد: قبلًا؛ أي: أفواجًا، قبيلًا قبيلًا [الطبري ٣/٨]؛ أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ أي: إن الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلته.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَلِيَصْغِيَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾.

يقول تعالى: وكما جعلنا لك أعداء يخالفونك ويعادونك، جعلنا لكل نبي ممن قبلك أيضًا أعداء فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. [في حديث بدء الوحي المخرج بالصحيحين].

وقوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾؛ أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين.

روى أحمد [٢١٥٨٦] وابن جرير [٥/٨]، وابن مردويه من طرق، مجموعها يفيد قوته وصحته عن أبي ذر، قال: أتيت رسول الله ﷺ في مجلس، قد أطلال فيه الجلوس، قال، فقال: (يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ؟) قلت: لا يا رسول الله، قال: (قُمْ فَارْكَعْ رُكْعَتَيْنِ) قال: ثم جئت فجلست إليه، فقال: (يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّدْتَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) قال: قلت: لا يا رسول الله،

وهل للإنس من شياطين؟ قال: (نَعَمْ هُمْ شَرٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ) [وله شاهد من حديث أبي أمامة عند ابن أبي حاتم/٧٧٨٦].

وشيطان كل شيء مارده، ولهذا جاء في «صحيح مسلم» [٥١٠]، عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: (الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ) - ومعناه والله أعلم - شيطان في الكلاب.

وروى ابن أبي حاتم [٧٧٨٩] عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني، حتى كاد يتعاهد مبיתי بالليل، قال: فقال لي: أخرج إلى الناس فحدث الناس، قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي، فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: فهموا بي أن يأخذوني، فقلت لهم: ما لكم ذاك، إني مفتيكم وضيئكم فتركوني، وإنما عرّض عكرمة بالمختار - وهو ابن أبي عبيد - قبحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر، وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيتته، أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿فَذَرَهُمْ﴾؛ أي: فدعهم، ﴿وَمَا يَفْزُوكَ﴾؛ أي: يكذبون؛ أي: دع أذاهم، وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّصَغَىٰ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ولتميل إليه ﴿أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم ﴿وَلِلرَّضْوَةِ﴾؛ أي: يحبوه ويريدوه، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣].

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله، الذين يعبدون غيره ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؛ أي: بيني وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾؛ أي: مبينًا ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يقول صدقًا في الإخبار، وعدلًا في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه،

وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ إلى آخر الآية [الأعراف: ١٥٧]. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾؛ أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾.

يخبر تعالى: عن حال أكثر أهل الأرض، من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو حزر ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيتته، ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فييسره لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فييسرهم لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْهُ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾.

هذا إباحة من الله، لعباده المؤمنين، أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم.

ثم بين تعالى جهالة المشركين، في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِي يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ ﴿١١٩﴾.

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ المعصية في السر والعلانية، وفي رواية عنه، هو ما ينوي مما هو عامل، وقال قتادة: أي سره وعلانيته قليله وكثيره. والصحيح أن الآية عامة، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانٌ ﴿٣٣﴾ الآية [الأعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾؛ أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه، روى ابن أبي حاتم [٧٨٣١] عن النّوّاس بن سميّان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم، فقال: (الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطْلُعَ النَّاسُ عَلَيْهِ) (ورواه مسلم/٢٥٥٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة، على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، وهو مروي عن ابن عمر، ونافع مولاة، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية، في كتابه «الأربعين»، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح، لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم، وأبي ثعلبة: «إِذَا أُرْسِلَتْ كُلْبُكَ الْمُعْلَمُ وَذَكَرْتَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»، وهما في «الصحيحين» [البخاري/١٧٣ ومسلم نحوه/١٩٢٩]، وحديث رافع بن خديج: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ»، وهو في «الصحيحين» أيضاً [البخاري/٢٣٥٦ ومسلم/١٩٦٨].

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركت عمداً أو نسياناً لم تضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد، وهو رواية عن الإمام مالك، وحكي عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم، وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واحتج البيهقي [لهذا المذهب] بحديث عائشة رضي الله عنها [عند مسلم]، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قومًا حديثي عهد بجاهلية، يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: (سَمَوْا أَنْتُمْ وَكُلُوا) [البيهقي/١٨٦٦٧]. قال: فلو كان وجود التسمية شرطاً، لم يرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: أنه إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه: وهو محكي عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب،

وعطاء، وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيع بن أبي عبد الرحمن.

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه [٢٠٤٥]، عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي ذر، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ) [وهو حسن].

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء، وهي محكمة فيما عُنيت به، وعلى هذا قول عامة أهل العلم.

وروى أبو داود [١٨١٨] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَىٰ أَوَّلِيَّائِهِمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم فكلوه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ورواه ابن ماجه [بنحوه/٣١٧٣]، وابن أبي حاتم [بنحوه/٧٨٤٥]، وإسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ أي: حيث عدلتم، عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقد متم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ أَرْكَبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد روى الترمذي [٣٠٩٥ بنحوه]: في تفسيرها عن عدي بن حاتم، أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: (بلى، إِنَّهُمْ أَهْلُوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِنِّيَاهُمْ) [رواه أيضًا أحمد في «المسند» وحسنه الألباني في «غاية المرام»].

﴿أَوْمِنَ كَانَ مَيِّتًا فَاحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢).

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا؛ أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهده له ووفقه لاتباع رسله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾؛ أي: يهتدي به كيف يسلك وكيف يتصرف به، والنور هو القرآن قاله ابن عباس، وقال السدي: الإسلام، والكل صحيح.

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: الجهالات، والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ أي: لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه، وفي «مسند الإمام أحمد» [٦٦٤٤] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ) [وصححه الحاكم/٨٣ ووافقه الذهبي]، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: حسَّنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدرًا من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَنْتَكِرُوا فِيهَا وَمَا يَنْتَكِرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَنْتَكِرُونَ﴾ (٢٢٤).

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك يا نبي الله أكبر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر، والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُنتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. قال ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا لِيَنْتَكِرُوا فِيهَا﴾ سلطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وقال مجاهد، وقتادة: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ قال: عظماءها، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٢) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]، والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ زَيَّغْ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣٦) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا نَحْنُ مَكْدَنُكُمْ عَنْ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُجْرَمِينَ﴾ (٣٧) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالْأَنهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أَدْنًا﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

وقال سفيان: كل مكر في القرآن فهو عمل [ابن أبي حاتم/١٠٢٩٣]، وقوله: ﴿وَمَا يَنْتَكِرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم مَنْ أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾؛ أي: إذا جاءتهم آية وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾؛ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ الآية [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾؛ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣٨) أَفَرَأَيْتُمْ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾؛ أي: من مكة والطائف، وذلك لأنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا كقوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. هذا وهم

يعترفون بفضلله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه، ومُنَشَّئُهُ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه «الأمين» وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله، الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته ﷺ على صدق نبوته وصحة ما جاء به.

وروى الإمام أحمد [١٧٠٢٨]، ومسلم [٢٢٧٦/نحوه] عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ).

وفي «صحيح البخاري» [٣٣٦٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنَا قَقْرْنَا، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ).

وروى الإمام أحمد [١٧٨٨] عن المطلب بن أبي وداعة، قال: قال العباس: بلغه رضي الله عنه بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: (مَنْ أَنَا؟) قالوا: أنت رسول الله، فقال: (أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا). صدق صلوات الله وسلامه عليه. [ورواه الترمذي/٣٦٠٧، وصححه أحمد شاكر في «المسند»].

وروى الإمام أحمد [٣٦٠٠] عن عبد الله بن مسعود، قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعته برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء. [قال الهيثمي في «المجمع»: رجاله موثقون، وعزاه أيضاً إلى البزار والطبراني، وصححه شاكر في «المسند»].

وذكر ابن أبي حاتم [٧٨٦٩] في تفسير هذه الآية قال: أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ الآية، هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد، جزاء وفاقاً، ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

[الكهف: ٤٩]، وجاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ عَذْرَةُ فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ) [البخاري نحوه/ ٣٠١٥ ومسلم/ ١٧٣٨] والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾؛ أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال ابن عباس: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به [ابن أبي حاتم/ ٧٨٧٤]، وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثر ضيقًا بتشديد الياء وكسرهما، وهما لغتان كهين وهين، وقرأ بعضهم حرجًا بفتح الحاء وكسر الراء قيل بمعنى آثم، [أو] هو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه.

وقال ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقًا، والإسلام واسع، وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق، وقال مجاهد، والسدي: «ضيقًا حرجًا» شاكًا [الطبري ٢٨/٨].

وقال السدي: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ من ضيق صدره. عن ابن عباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه، وقال الأوزاعي: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته، وقال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله، ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله، قال ابن عباس: الرجس الشيطان، وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ هَلُمَّ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها، نبّه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن وهو صراط الله المستقيم، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾؛ أي: قد وضعناها وبيناها وفسرناها ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله. ﴿هَلُمَّ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهي الجنة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتضي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾؛ أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ يعني: الجن وأولياؤهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾؛ أي: ثم يقول: يا معشر الجن؛ ومعنى قوله: ﴿قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾؛ أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْلَصُوا إِلَيْكُمْ يَنْبَغِي إِدَامُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]، وقال ابن عباس: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾؛ يعني: أضللتهم منهم كثيرًا، وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة [الطبري ٣٣/٨]، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾؛ يعني: أن أولياء الجن من الإنس قالوا: مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

وأما استمتاع الجن بالإنس، فإنه كان فيما ذكر، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدننا الإنس والجن ﴿وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ قال السدي: أي: الموت، ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾؛ أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها مكثًا مخلدًا إلا ما شاء الله، قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ، وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا، وقيل غير ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرها، عند قوله تعالى في سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وقد روى ابن جرير [٣٤/٨]، وابن أبي حاتم في «تفسيره» [٧٨٩٧] هذه الآية عن ابن عباس قال: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَدَخِلُوا فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قال قتادة في تفسيرها: وإنما يولي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمنين أين كان، والكافر ولي الكافر أينما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور، إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

وقال بعض الشعراء:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُّبَلَى بِظَالِمٍ

ومعنى الآية الكريمة، كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض ونتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

وهذا أيضاً مما يُقرع الله به ﷻ كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم وهو أعلم هل بلغتكم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾؛ أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جرير وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف، وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم ومن الجن نذر، وحكى ابن جرير [٣٦/٨] عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ لَنَلْقَاكَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (١٩) ﴿يَبْنِيَانِ﴾ (٢٠) ﴿فَأَيُّ آلٍ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثُودُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو، وهذا واضح والله الحمد، وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس، قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم

في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَمْعَسِرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَّا يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّوكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾؛ أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَعَرَّهْمُ لَحِيظَةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾؛ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢).

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾؛ أي: إنما أعذرنا إلى الثقيلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لثلا يعاقب أحدٌ بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿...كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَلَمْتُمْ خَرْنَبًا أَلَّا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا [الملك: ٨، ٩]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾؛ أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله، يبلغه الله إياها ويثيبه بها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾؛ أي: من كافري الجن والإنس؛ أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أي: وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ (١٣٣) إِنْ مَا تُوْعِدُونَ لَا تَأْتِي وَمَا أَنْشَأْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٤) قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾؛ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: إذا خالفتُم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: قومًا آخرين؛ أي: يعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنتَ كُنتُمْ مِنْ دُونِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾؛ أي: هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنتَهُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥] ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم ترابًا رفاتًا وعظامًا، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد؛ أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقي ومنهجي كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [١٢٢] ﴿وَنَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: أ تكون لي أو لكم وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد وحكمه في نواصي مخالفه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته ثم فتحت الأمصار والأقاليم بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيَّكِ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [٥١] ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة وله الحمد والمنة أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [١٣٦].

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفروا وشركًا، وجعلوا لله جزءًا من خلقه وهو خالق كل شيء ﷻ عما يشركون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ أي: مما خلق وبرأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾؛ أي: من الزروع والثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾؛ أي: جزءًا وقسمًا ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه وإن سقط منه شيء فيما سُمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلف بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يُحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية [ابن أبي حاتم/٧٩١٣]، وهكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي وغير واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسيره: كل شيء جعلوه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بلغ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولاً في القسمة، فإن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشئته، لا إله غيره، ولا رب سواه، ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة بل جاروا فيها، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

يقول تعالى: وكما زين للشياطين لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق وواد البنات خشية العار، وقال ابن عباس: شركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم [ابن أبي حاتم/٧٩١٧]، وقال مجاهد: ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ شياطينهم يأمرونهم أن يثدوا أولادهم خشية العيلة [ابن أبي حاتم/٧٩١٩]، إما ليردوهم فيهلكوهم، وإما ليلبسوا عليهم دينهم؛ أي: فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٥٨] يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسْكُهُ عَلَى هَوِيٍّ أَوْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً وله الحكمة التامة في ذلك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فيسبحكم الله بينك وبينهم.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣٨).

قال ابن عباس: الحجر: الحرام، مما حرّموا الوصيلة وتحريم ما حرّموا، وكذلك قال مجاهد، والسدي وغيرهما، وقال قتادة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظ وتشديد لم يكن من الله تعالى، وقال ابن زيد بن أسلم ﴿حِجْرٌ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم، وقال السدي: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن نطعم إلا من شئنا، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ اللَّهُ أَدَّبَكُمْ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتُمْ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال السدي: أما الأنعام التي حرمت ظهورها فهي البحيرة والسائبة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال إذا أولدوها ولا إن نحروها. ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضىه منهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: عليه ويُسندون إليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا وَلَهُمْ جَنَّتٌ وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩).

قال ابن عباس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ إِلَيْنَا﴾ فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم، وكانت الشاة إذا ولدت ولداً ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك وكذا قال السدي [ابن أبي حاتم/٧٩٣٣].

وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء وكذا قال عكرمة، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وقاتدة في قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾؛ أي: قولهم الكذب في ذلك؛ يعني: كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْبَلُونَ﴾ (١١٦) [النحل: ١١٦، ١١٧]. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾؛ أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠).

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في

الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى أَسْوَأَ الْمَنَازِلِ بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَائِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

روى البخاري في «صحيحه» في كتاب «المناقب» [٣٣٣٤] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١) وَمَنْ أَلَانَكُمْ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِنْهَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢).

يقول تعالى بيانا؛ لأنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بأرائهم الفاسدة، وقسموها وجزؤوها فجعلوها حراما وحلالا، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال ابن عباس: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات، وفي رواية: ما عرش الناس، وغير معروشات: ما خرج في البر والجبال من الثمرات [الطبري ٥٢/٨]. وقال ابن جريج: ﴿مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ﴾ قال: متشابهها في المنظر وغير متشابه في الطعم، وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال: من رطبه وعنبه، وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال أنس بن مالك وابن عباس: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ يعني: الزكاة المفروضة، وعن ابن عباس قال: وذلك أن يعلم ما كيله وحقه، وما يلقط الناس من سنبله.

وقد روى الإمام أحمد [١٤٩١٠]، وأبو داود في «سننه» [١٦٦٢] عن جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر ببقن يعلق في المسجد للمساكين، وهذا إسناده جيد قوي.

وقال الحسن البصري: هي الصدقة من الحب والثمار، وكذا قال ابن زيد، وعن ابن عمر في قوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة، وعن عطاء بن أبي رباح قال: يعطي من حضره يومئذ ما تيسر، وليس بالزكاة، وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه، وعن سعيد بن جبيرة قال: كان هذا قبل الزكاة، للمساكين القبضة لعلف دابته. وقال آخرون: هذا شيء كان واجبا ثم نسخه الله بالعشر أو نصف العشر، حكاه ابن جرير عن ابن عباس [وغيره]، واختاره ابن جرير رحمته الله.

وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن» ﴿إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْمَتِهَا مُصْبِحِينَ﴾ (٧) وَلَا يَسْتَنُونَ (٨) فَلَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ (٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠]؛ أي: كالليل المدلهم سوداء محترقة.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف، وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وعن عطاء: ينهى عن السرف في كل شيء، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف، وقال السدي في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تعطوا أموالكم فتقعدها فقراء، وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم.

ثم اختار ابن جرير قول عطاء، أنه نهى عن الإسراف في كل شيء ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية، حيث قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَامْسِكُوا هَبْ قَبْلَ يَوْمِ الْحَاصِدِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أن يكون عائداً إلى الأكل؛ أي: لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وفي «صحيح البخاري» تعليقاً [في كتاب اللباس]: (كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ)، وهذا من هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾؛ أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يُحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها، كما قاله عبد الله [ابن مسعود] في قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾ ما حمل عليه من الإبل، ﴿فَرَشٌ﴾ قال: الصغار من الإبل، رواه الحاكم [٣٢٣٥]، وقال: صحيح ولم يخرجاه، وقال ابن عباس: أما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم، واختاره ابن جرير [٦٣/٨] قال: وأحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرائقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله؛ أي: من الثمار والزروع افتراء على الله، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي: بين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْبَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ أَتْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَتَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَعُوذُ بِعَلَمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَتْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَتَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام، فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعاً

بحيرة وسائبة ووصيلة وحامًا، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزرع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشًا، ثم بيّن أصناف الأنعام إلى غنم ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلًا وركوبًا وحمولة وحلبًا وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينًا زَوْجًا﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ رد عليهم في قولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذِكْرِنَا وَمَحْكَمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقوله: ﴿نَعُوذُ بِعِلْمِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: أخبروني عن يقين، كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه.

وقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمُ اللَّهُ يَهْدِيًا تَهَكُّمُ بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوا وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللَّهِ مِنْ تَحْرِيمٍ مَا حَرَّمَهُ مِنْ ذَلِكَ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: لا أحد أظلم منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لُحَي بن قَمْعَةَ، فإنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سبب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في «الصحيح» [البخاري/٤٣٤٧].

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَازِرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ هَلًا لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

يقول تعالى أمرًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾؛ أي: أكل يأكله قيل: معناه: لا أجد شيئًا مما حرمت حرامًا سوى هذه، وقيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعًا لمفهوم هذه الآية، ومن الناس من يسمي هذا نسحًا والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسحًا؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم، وقال ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾؛ يعني: المهرق [ابن أبي حاتم/٨٠٠٨].

قال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود [ابن أبي حاتم/٨٠١٤]، وقال أبو مجلز عن الدم، وما يتلطح من الذبح من الرأس وعن القدر يرى فيها الحمرة؟ فقال: إنما نهى الله عن الدم المسفوح، وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحًا، فأما لحم خالطه الدم فلا بأس به.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿إِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: غفور له رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

قال ابن جرير [٧٣/٨]: يقول تعالى: وحرمنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط، قال ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وهو البعير والنعام، وكذا قال مجاهد، والسدي في رواية، وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، وفي رواية عنه كل شيء متفرق الأصابع ومنه الديك، وقال قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وكان يقال: البعير والنعام وأشياء من الطير والحيتان، وفي رواية البعير والنعام، وحرم عليهم من الطير: البط وشبهه وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا﴾ قال السدي: يعني: الثرب وشحم الكلوتين وكانت اليهود تقول: إنه حرمة إسرائيل فنحن نحرمه، وكذا قال ابن زيد، وقال قتادة: الثرب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم.

وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾؛ يعني: ما علق بالظهر من الشحوم [ابن أبي حاتم/٨٠٣٥]، وقال السدي، وأبو صالح: الآية مما حملت ظهورهما.

وقوله: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير ﴿الْحَوَايَا﴾ جمع واحدها حاوية وحواية وحويّة وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض، وفيها الأمعاء، قال: ومعنى الكلام ومن البقر والغنم حرمننا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو ما حملت الحوايا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾؛ أي: إلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم، وقال ابن جرير: شحم الآية ما اختلط بالعُصْعُصُ فهو حلال، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه، قاله السدي: وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾؛ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة لهم على بغْيِهِمْ ومخالفتهم وأمرنا، كما قال تعالى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحُلَتْ لَهُمْ وَيَصْدِرُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾؛ أي: وإننا لعادلون فيما جازيناهم به، وقال ابن جرير: وإننا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، والله أعلم.

وروى الجماعة عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: (إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَيَعَ الْحُمْرَ وَالْمَيْتَةَ وَالْخَنْزِيرَ وَالْأَصْنَامَ) فقل: يا رسول الله أرايت شحوم الميته فإنه يدهن بها الجلود ويطلّى بها السفن ويستصبح بها الناس فقال: (لَا هُوَ حَرَامٌ)، ثم قال

رسول الله ﷺ عن ذلك: (قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلَوْهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ) [البخاري بلفظ قريب/ ٢١٢١ ومسلم/ ١٥٨١].

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧).

يقول تعالى: فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مَخَالِفُوكَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهُمْ ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠).

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ وَالتَّحْرِيمِ لِمَا حَرَّمَهُ، وهو قادر على تغييره بأن يلهيهم الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسوله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾؛ أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾؛ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن ها هنا الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾؛ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه، قال ابن عباس: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زُلْفَى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم [الطبري ٧٨/٨].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين، وقوله

تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾؛ أي: له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من أضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله ولكن الله الحجة البالغة على عباده.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾؛ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾؛ أي: هذا الذي حرمتوه وكذبتهم وافترتكم على الله فيه ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾؛ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يشركون به ويجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَظَاهِرُونَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن يقرأ وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وروى الحاكم [٣٢٣٨] عن ابن عباس قال: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الحاكم أيضاً [٣٢٤٠] بلفظ قريب [عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى ثَلَاثٍ؟ ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات: فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَذْرَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتُهُ، وَمَنْ أَخَّرَ إِلَى الْآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ)، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، [ونحوه عند الشيخين].

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله وحرّموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿تَعَالَوْا﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخروصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرًا من عنده: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَسَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِكَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟

قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ [البخاري/٧٠٤٩ عدا آخر جملة، وفي بعض الروايات: أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: (وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ)، فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: (وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ) [مسلم/٩٤]، وفي بعض المسانيد والسُّنَنِ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَأَنِي أَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً أَتَيْتَكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَإِنْ أَخْطَأْتُ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ) [الترمذي بلفظ قريب/٣٥٤٠ وهو حديث حسن]، ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وفي «صحيح مسلم» [٩٣] عن ابن مسعود: (مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، دَخَلَ الْجَنَّةَ) [والبخاري/١١٨١ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا].

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا؛ أي: أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. والله تعالى كثيرًا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [١٤] وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [القمان: ١٤، ١٥]، فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]، والآيات في هذا كثيرة.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَفِئَتِهَا). قلت: ثم أي؟ قال: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ)، قلت: ثم أي؟ قال: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، قال ابن مسعود: حَدَّثَنِي بِهِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزِدْتَهُ لَزَادَنِي [البخاري/٥٠٤ ومسلم/٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لما أوصى تعالى ببر الوالدين والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يثدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ) قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] [البخاري/٤٤٨٣ ومسلم/٨٦].

وقوله: ﴿مَنْ إِمْلَيْتُمْ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر؛ أي: ولا تقتلوه من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ أي: لا تقتلوهم خشية حصول فقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَوْنُ﴾ [الإسراء: ٣١] فبدأ برزقهم للاهتمام بهم؛ أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا قال: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا هُمْ﴾؛ أي: الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَفِيَّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْآثِمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقد تقدم تفسيرها في قوله: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِ الْأَنْتَرِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأأنعام: ١٢٠].

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) [البخاري/ ٤٣٥٨ ومسلم/ ٢٧٦٠]، وروى الشيخان عن سعد بن عباد قال: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربتة بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ: (اتَّعَجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ! فَوَاللَّهِ لَا نَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) [البخاري/ ٦٩٨٠ ومسلم/ ١٤٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيدًا، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فقد جاء في «الصحيحين»: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ) [البخاري/ ٦٤٨٤ ومسلم/ ١٦٧٦ واللفظ له].

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد - وهو المستأمن من أهل الحرب - كما رواه البخاري [٢٩٩٥] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ كَانَ لَكُمْ كُفْرٌ فَقُلُوا بِهِ لَكُمْ تَقُولُونَ﴾؛ أي: هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْثِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَمَنْ كَانَ لَكُمْ كُفْرٌ فَقُلُوا بِهِ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢).

قال ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية [النساء: ١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله، أو يفسد، فاشتد ذلك

عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود، [برقم/ ٢٨٧١]، وهو حديث حسن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعده على تركه في قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]، وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتُوبًا قَوْمِيكَ لِلَّهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال.

وقوله: ﴿وَيَعِدِ اللَّهُ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد الدال وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٣].

قال ابن عباس في قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ أَقِيمُوا الَّذِينَ وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله [ابن أبي حاتم/ ٣٩٤٥] ونحو هذا، قاله مجاهد وغير واحد.

وروى الإمام أحمد [٤٤٣٧] عن عبد الله بن مسعود ؓ: قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: (هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا) وخط عن يمينه وشماله ثم قال: (هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ) ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وكذا رواه الحاكم [٨١٠٢] وقال: صحيح الإسناد ولم

يخرجاه، [وأخرجه النسائي/ ١١١٧٥]، وابن ماجه بإسناد صحيح نحوه/ [١١].

وروى ابن جرير [٨/ ٨٩] أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون من مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الآية.

وقد روى الإمام أحمد [١٧٦٧١] عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مَفْتُحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ. لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجُهُ، فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتُحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ) [ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب].

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ إنما وحد سبيله سبحانه؛ لأنَّ الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمِهِمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٤] وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾.

لما أخبر الله عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾؛ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملاً جامعاً، لجميع ما يحتاج إليه في شريعته كما قال: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٥]، وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾؛ أي: جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَلِإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة [الطبري ٨/ ٩١]، واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه فكانه جعل الذي مصدرية كما قيل

في قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]؛ أي: كخوضهم وقال ابن رواحة:
فَتَبَّتْ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا
 وقال آخرون: الذي هاهنا بمعنى الذين، قال ابن جرير [٩٠/٨]: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها «تمامًا على الذين أحسنوا» وعن مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة، وقال البغوي: المحسنون الأنبياء والمؤمنون؛ يعني: أظهرنا فضله عليهم.

قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل ﷺ لأدلة أخر.
 وقوله: ﴿وَنَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦] وَهَذَا كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ مُبَارَكٌ فَأَتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ [١٥٦]
 أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [١٥٧].

قال ابن جرير: معناه وهذا كتاب أنزلناه لثلاثا يقولوا: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾؛ يعني: لينقطع عذرهم.
 وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد، والسدي، وقتادة وغير واحد.
 وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾؛ أي: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في شغل وغفلة عما هم فيه.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وقطعنا تعللهم أن يقولوا لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أوتوه كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْأُمِّيِّ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره [أي: يعمل بها] بل صدف عن اتباع آيات الله؛ أي: صرف الناس وصدفهم عن ذلك، قاله السدي، وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: وصدف عنها: أعرض عنها [الطبري ٩٥/٨]، وقول السدي هاهنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾

اللَّهُ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴿كَمَا تَقْدَمُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ﴾ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾، وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [القيامة: ٣١، ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر، والله أعلم.

﴿هَلْ يُنْظَرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ (١٥٨).

يقول تعالى متوعدا للكافرين به والخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله ﴿هَلْ يُنْظَرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها كما روى البخاري [٤٣٥٩] في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا) فذلك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [ورواه مسلم أيضا/ ١٥٧].

وروى مسلم [١٥٨] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَا ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ).

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ؟) قلت: لا أدري قال: (إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ الْعَرْشِ، فَتَخْرُجُ سَاجِدَةً، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، وَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾) [البخاري نحوه/ ٣٠٢٧ ومسلم/ ١٥٩].

وروى الإمام أحمد [١٦١٨٦] عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غُرفة ونحن نذاكر الساعة فقال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذَّخَانُ، وَالذَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالذَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ أَوْ: تَحْشُرُ النَّاسَ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا)، وهكذا رواه مسلم [بألفاظ قريبة/ ٢٩٠١] وأهل السنن الأربعة.

وعن صفوان بن عسال قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ بَابًا قَبْلَ الْمَغْرِبِ

عَرَضُهُ سَبْعُونَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ)، قال: (لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ) رواه الترمذي [بنحوه/٣٥٣٦] وصححه والنسائي [١١١٧٨] وابن ماجه [٤٠٧٠] في حديث طويل.

روى الإمام أحمد [١٦٧١] عن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتِلُ)، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص إن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا تَهْجُرُ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى تَهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَنْقَطِعُ مَا تَقَبَّلَتِ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ تُقْبَلُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ) هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت الأقلام وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال، رواه ابن جرير [١٠٣/٨].

فقوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَمَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخطئاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾؛ أي: ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعد أكيد لمن سَوَّفَ بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها لا اقتراب وقت القيامة وظهور أشراتها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩).

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، وعن ابن عباس: أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ فتنفروا فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية [الطبري ١٠٥/٨].

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرَّعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾؛ أي: فرقا كأهل الملل والنحل وهي الأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وفي الحديث: (نَحْنُ مُعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ) [رواه البخاري/

فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل براء منها كما قال الله: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الاحج: ١٧]، ثم بين فضله سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية كما روى الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله [٢٥١٩] عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (إِنْ رَبَّكُمْ ﷻ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ ﷻ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ) [ورواه البخاري ٦١٢٦] ومسلم [١٣١] والنسائي [٧٦٧٠].

وروى الإمام أحمد أيضًا [٢١٥٢٦] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهُ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) [ورواه مسلم [٢٦٨٧]].

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها الله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ «صحيح [مسلم] [١٢٩]»: (فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي)؛ أي: من أجلي، وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًا، وتارة يتركها عجزًا وكسلًا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها كما جاء في الحديث في «الصحيحين»: (إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ) قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: (إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ) [البخاري ٣١/ مسلم/ ٢٨٨٨].

وقال ابن مسعود: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يقول بالشرك [الطبري ١٠٨/٨]، وهكذا ورد عن جماعة من السلف، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدًا وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِرِزْقِهِمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
 ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُفْرِتُ وَأَنَا
 أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ .

يقول تعالى أمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿دِينًا قِيَمًا﴾؛ أي: قائمًا ثابتًا ﴿مِثْلَهُ بِرِزْقِهِمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] .

وليس يلزم من كونه ﷺ أمرًا باتباع ملة إبراهيم الحنيفية، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه ﷺ قام بها قيامًا عظيمًا وأكملت له إكمالًا تامًا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل ﷺ .

وقد روى ابن مردويه عن ابن أبيزى عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: (أَصْبَحْنَا عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [ورواه أحمد/ ١٥٤٠٤ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح] .

وروى الإمام أحمد [٢١٠٧] عن ابن عباس أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: (الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ) [ورواه البخاري في «الأدب المفرد»/ ٢٨٧، وقال الحافظ في «الفتح»: حسن] .

روى أحمد أيضًا [٢٤٨٩٩] عن عائشة رضي الله عنها قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زُفْنِ الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه، وقال رسول الله ﷺ يومئذٍ: (لَتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فَسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ) . أصل الحديث مخرج في «الصحيحين»، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في «شرح البخاري» والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾ [الكوثر: ٢]؛ أي: أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: النسك الذبح في الحج والعمرة، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي والضحاك .

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي: من هذه الأمة، وهو كما قال فإن جميع الأنبياء

قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنِ اجْتَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٣] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال يوسف ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَقُومُ إِنَّ كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيِّتِ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبد، ولا تزال قائمة منصوراً وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال ﷺ: (نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ) [أخرجه البخاري/٣٢٥٨ بنحوه]، فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد [٧٢٩] عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: (وَجْهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُ عَنِّي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والشهد وقد رواه مسلم في «صحيحه» [٧٧١].

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [١٦٤].

يقول تعالى: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿اغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا﴾ أي: أطلب رباً سواه، وهو رب كل شيء، يُرَبِّينِي ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري؛ أي: لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر. هذه

الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كقوله مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وأشبه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنَادَىٰ عَنْهَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّتَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٦٥)

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿لِّتَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحانكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره، وقد روى مسلم [٢٧٤٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرٌ مَّاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع، فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب، وقال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم.

وكثيراً ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال: ﴿يَتَّبِعْ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْعَفْوَ
الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة
وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها
والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لِيَنْجَعَ فِي كُلِّ بَحْسِهِ، جَعَلْنَا اللَّهَ مِمَّنْ أَطَاعَهُ فِيمَا أَمْرٌ،
وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.
وقد روى الإمام أحمد [١٠٢٨٥] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا
عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِالْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا فَنَطَ أَحَدٌ مِنَ
الْجَنَّةِ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاخَمُونَ بِهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ)
[ورواه مسلم/ ٢٧٥٥ والترمذي أيضاً/ ٣٥٤٢].



تفسير سورة الأعراف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف المقطعة وبسطه، واختلاف الناس فيه.

قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: هذا كتاب أنزل إليك من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قال مجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدي: شك منه [الطبري ١١٦/٨]، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِئُنْذِرَ بِهِ﴾؛ أي: أنزل إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَلَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
 بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ
 ٦﴾ فَلَنَقْضِيَنَّهُمْ بِعَلَمٍ بَيِّنٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَكَايُن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْطَلٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيِّنًا﴾؛ أي: ليلاً، ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ٩٧﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا

الْأَسْبَاتِ أَنْ يَخْصِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلِيفِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ﴾ الآية، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصاص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْقُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالرب تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَإِلَامَامٌ يُسْأَلُ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ، وَالْمَرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَالْعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ) ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهذا الحديث مخرج في «الصحاحين» [البخاري/٨٥٣ ومسلم/١٨٢٩] بدون هذه الزيادة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقْضَنَّ عَنْهُمْ بِعَلِّمْ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾؛ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقيق؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين، وما تخفي الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾؛ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾؛ أي: لا يظلم تعالى أحدًا، كقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجسامًا، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في «الصحاح» [مسلم/٨٠٤] من أن البقرة، وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيأتان أو فرقان من طير صَوَافٍ، ومن ذلك في «الصحاح» قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك،

وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: (فَيَأْتِي الْمُؤْمِنُ شَابًّا حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ) [الحاكم/١٠٧]، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كِفَّةٍ تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مَدَّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: (فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ) رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه [٢٦٣٩].

وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: (يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ، فَلَا يَزَنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ)، ثم قرأ: ﴿فَلَا نَقِمْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَنْبًا﴾ [الكهف: ١٠٥] [رواه البخاري/٤٤٥٢]، وفي مناقب عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أَحَدٍ) [رواه أحمد/٣٩٩١ ورجاله رجال الصحيح وصححه شاكر في «المسند»]. وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: ممتناً على عبده فيما مكن لهم، من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً وأبواب منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش؛ أي: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١١﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ ﴿[الحجر: ٢٨ - ٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة، وهذا الذي قرناه هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم ﷺ.

وقال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خُلِقُوا في أصلاب الرجال وصُورُوا في أرحام النساء، رواه الحاكم [٣٢٤٢] وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضًا: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢).

اختار ابن جرير أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر، تقديره ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم، وقول إبليس لعنه الله ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول؛ يعني: لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة؛ أي: أيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والثبوت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفي «صحيح مسلم» [٢٩٩٦] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ).

وروى ابن جرير [الطبري ١٣١/٨] عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أول من قاس، وروى أيضًا عن ابن سيرين، قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾.

يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدرتي كوني: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائدًا على المنزل التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾؛ أي: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشئنة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١٦] ثُمَّ لَا تَجِدُ لَآئِنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَى يَوْمٍ يُمْشُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: كما آغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكنتني لأقعدن لعبادك - الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحّدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قَسَمِيَّةٌ كأنه يقول: فلباغواك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ يعني: الحق.

قلت: روى الإمام أحمد [١٦٠٠٠/، والنسائي/٤٣٤٢، وابن حبان/٤٥٩٣، وصححه الألباني] عن سَبْرَةَ بن أبي فاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرَفَيْهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرَفِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَتَسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟). قَالَ: (فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ)، قال: (وَقَعَدَ لَهُ بِطَرَفِي الْهَجْرَةِ فَقَالَ: أَتَنْهَاجِرُ وَتَدْعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرَفِي الْجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَقَالَ: تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ وَيَقْسِمُ الْمَالَ؟)، قال: (فَعَصَاهُ، فَجَاهَدَ). قال رسول الله ﷺ: (فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ ﷻ، أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَآئِنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَآئِنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي، وقال قتادة: أتاها من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيماهم من قبل حسناتهم بظأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله [الطبري ١٣٦/٨]، وكذا روي عن إبراهيم النخعي [وغيره]، إلا أنهم قالوا: من بين أيديهم الدنيا، ومن خلفهم الآخرة.

وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيماهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه والشر يحسنه لهم، وقال ابن عباس: لم يقل من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم [الطبري ١٣٧/٨]، وقال ابن عباس أيضًا: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدون [الطبري ١٣٨/٨]، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٠] وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي

بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿سبأ: ٢٠، ٢١﴾، ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده» عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي) تفرد به البزار وحسنه [ذكره الحاكم من حديث ابن عمر بهذا اللفظ/ ١٩٠٢، ولم أجده عند البزار].

وروى الإمام أحمد [٤٧٨٥] عن عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي) قال وكيع: يعني: الخسف، ورواه أبو داود [٥٠٧٤]، والنسائي [١٠٤٠١]، وابن ماجه [٣٨٧١]، وابن حبان [٩٦١]، والحاكم [١٩٠٢] بالفاظ قريبة، وقال: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٨﴾.

أكد تعالى عليه اللعنة والطرده والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ قال ابن جرير [١٣٩/٨]: أما المذموم فهو المعيب، والمدحور: المفضى، وهو المبعد المطرود، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذموم والمذموم إلا واحداً، وقال ابن عباس: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ قال: مقيتاً، وروي عنه أيضاً: صغيراً مقيتاً، وقال السدي: مقيتاً مطروداً، وقال قتادة: لعيناً مقيتاً، وقال الربيع بن أنس: مذموماً: منفياً والمدحور: المصغر.

﴿وَيَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ فَوْسَوْسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوْآتَيْهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢١﴾.

يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ ولزوجته الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والخديعة والوسوسة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن وقال كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين؛ أي: لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [طه: ١٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾؛ أي: حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾، فإني من قبلكما ها هنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين؛ أي: حلف لهما بالله على ذلك

حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في الآية: حلف بالله أنني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خُدعنا له.

﴿فَدَلَّلْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْنَاهُمَا رَهَبًا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني، فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه تعالى: يا آدم أمني تفر؟ قال: رب إني استحييتك، وقد رواه ابن جرير [١٤٣/٨].

وعن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين، وقال مجاهد: جعلاً يخصفان عليهما من ورق الجنة، كهيئة الثوب، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواتهما، رواه ابن جرير [١٤٣/٨] بإسناد صحيح إليه، وقال قتادة: قال آدم: أي رب أرايت إن تبت واستغفرت، قال: إذا أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله.

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبِطُوا﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية [طه: ١٢٣]، وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول، وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبور، وعنه: وجه الأرض وتحتها.

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة

الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلًا بعمله.

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ عَائِدَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ۝﴾

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات والريش من التكمُّلات والزيادات، قال ابن جرير [١٤٨/٨]، وأسند ما بعد من الأقوال: الرياش في كلام العرب: الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال ابن عباس - حكاه البخاري - عنه: الريش المال، وكذا قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والسدي، والضحاك، وقال ابن عباس أيضاً: الرياش: اللباس والعيش والنعيم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال [ابن أبي حاتم/٨٣٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره، واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال زيد بن علي، والسدي، وقتادة، وابن جريج: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾: الإيمان، وقال ابن عباس: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾: العمل الصالح، وعنه أيضاً: هو السميت الحسن في الوجه، وعن عروة بن الزبير: خشية الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ يتقي الله فيواري عورته فذلك لباس التقوى [الطبري ٨/١٥٠]، وكلها متقاربة.

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَهُمَا اِنَّهٗ يَرٰكُمْ هُوَ وَفِيْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَاهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ۝﴾

يقول تعالى محذراً بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم ﷺ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿اَفَلَتَتَّخِذُوْهُ وُدًّا وَذُرِّيَّتَهُ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَّتَّسَّرُ لِلظَّالِمِيْنَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آٰبَاءَنَا وَاللّٰهُ اَمَرْنَا بِهَا قُلْ اِنَّ اِلٰهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ اَنْقُولُوْنَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۝﴾ قُلْ اَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَاَقِيْمُوا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعْدُوْنَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ اِنَّهُمْ اَتَّخَذُوا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَحَسِبُوْا اَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ۝﴾

قال مجاهد [كما ذكر الطبري ٨/١٥٤]: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على فرجها النسعة أو الشيء وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فأنزل الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية، قلت: كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال تعالى ردّاً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ﴾؛ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به عنه من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشريعة وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ اختلف في معناه، فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وبنحوه عن قتادة وابن زيد، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير [١٥٨/٨]، وأيده بما رواه عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ حَفَاةً عُرَاءَ غَرَلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤])، وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [البخاري/ ٣١٧١ ومسلم/ ٢٨٦٠].

وقال محمد بن كعب القرظي: في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، ومن ابتدئ خلقه على السعادة صار على ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه، وبنحوه قال مجاهد، وأبو العالية، وابن جبير، والسدي.

وقال ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنًا﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمناً وكافراً.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في «صحيح البخاري» [٦٢٢١]: (قَوْلَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ

الْكِتَابِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ).

وروى ابن جرير [١٥٧/٨] عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: (تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ)، وهذا الحديث رواه مسلم [بمعناه/٢٨٧٨]، قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجْسِنَانِهِ) [البخاري/١٣١٩ ومسلم/٢٦٥٨].

وفي «صحيح مسلم» [٢٨٦٥] عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ) الحديث، ووجه الجمع على هذا، أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وفي الحديث: (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوْبِقُهَا) [قطعة من حديث عند مسلم/٢٢٣]، وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الاعلى: ٣]، و﴿وَالَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وفي «الصحيحين»: (فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [روى البخاري نحوه/٤٦٦٦ وكذلك مسلم/١٩٦] ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادًا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتدي، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

﴿يَبْنَیْ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١).

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه، من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم [١٢١٩]، والنسائي [٣٩٤٧]، وابن جرير [١٦٠/٨]، واللفظ له عن ابن عباس: قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقال ابن عباس في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس وهو ما يوارى السوءة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

ولهذه الآية وما ورد في معناها من السُّنَّة، يستحب التَّجَمُّل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنَّه من الزينة والسواك؛ لأنَّه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض كما روى الإمام أحمد [٢٢١٩] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفَّنُوا فِيهَا مَوْتَكُمْ، وَإِنْ مِنْ خَيْرِ أَكْحَالِكُمْ الْإِيمُد، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ). هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود [٣٨٧٨]، والترمذي [٩٩٤]، وابن ماجه [١٤٧٢]، وقال الترمذي: حسن صحيح، وروى الطبراني [١٢٤٨] بسند صحيح أن تميم الداري اشترى رداء بألف فكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وقال البخاري [تعليقاً ٢١٨١/٥] قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة.

وروى الإمام أحمد [٦٧٠٨] عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا، مِنْ غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرْفٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ) ورواه النسائي [٢٣٤٠]، وابن ماجه [٣٦٠٥] وحسنه الألباني.

وروى الإمام أحمد [١٧٢٥] عن المقدم بن معديكرب الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتُ يُقْمَنَ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ، فَتُلْتُ لَطَعَايِهِ، وَتُلْتُ لِشِرَائِهِ، وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ) ورواه النسائي [نحوه ٦٧٦٨] والترمذي [٢٣٨٠]، وقال الترمذي: حسن وفي نسخة حسن صحيح.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف، وقال ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الطعام والشراب، وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المعتدين حذَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرم، وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢).

يقول تعالى ردًا على من حرم شيئًا من المأكول والمشارب والملابس من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين، الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية؛ أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار

حسًا في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يَشْرِكُهُمْ فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٣٣).

روى الإمام أحمد [٣٦١٦] عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَذْحُ مِنَ اللَّهِ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٣٥٨ ومسلم/٣٧٦٠]، وتقدم الكلام في سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغية كائن على نفسه، وحاصل ما فُسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا﴾؛ أي: تجعلوا له شريكًا في عبادته ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٥) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴿الآية [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤) يَبْنِي ۖ ءَادَمَ ۖ إِنَّمَا يُاتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۖ فَمَنْ أَتَقَى ۖ وَأَصْلَحَ ۖ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ أي: قَرْنٌ وجيل ﴿أَجَلٌ﴾ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ؛ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلًا يقصون عليهم آياته، وبشر وحذر فقال: ﴿فَمَنْ أَتَقَى ۖ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا؛ أي: كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: ما كثون فيها مكثًا مخلدًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنْهَكُمُ نَفْسُهُمْ مِنَ الْكُذْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧).

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: لا أحد أظلم، ممن

افتري الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال ابن عباس: ينالهم ما كُتِبَ عليهم، وكُتِبَ لمن يفترى على الله أن وجهه مسود، وعنه أيضاً: نصيبهم من الأعمال من عمل خيراً جُزي به، ومن عمل شراً جُزي به، وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر، وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد، واختاره ابن جرير [٨/ ١٧١].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلُحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْحَمُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تَفَرَّعُهم عند الموت وقَبَضَ أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله، ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: من أشكالكم وعلى صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلُّهم ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ﴾ أي: أخرهم دخولاً - وهم الأتباع - لأولاهم وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل

فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيَّتْنَا أطعنا اللهَ واطعنا الرسولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلُونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّهْمَ لَنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلًّا بحسبه، كما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْدَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ﴾؛ أي: قال المتبعون للاتباع ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قال السدي: فقد ضللتكم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير وهو قول ابن عباس [الطبري ١٧٦/٨]، وقيل المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك، عن ابن عباس، وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما رواه ابن جرير [١٧٦/٨] عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُصْعَدُ بها إلى السماء، قال: (فَيُصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا تَمُرُّ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُدْعَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ بِأَبَائِهَا لَهُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ)، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الآية، هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق [وإسناده صحيح].

وقد قال ابن جريج في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية زوج الناقة وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة، وكذا قال أبو العالية، والضحاك وكذا روي عن ابن عباس، وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: إنه كان يقرؤها: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم؛ يعني: الحبل الغليظ في خرم الإبرة، وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية أنه قرأ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾؛ يعني: قُلُوس السفن، وهي الحبال الغلاظ [ذكر هذه الأقوال الطبري في تفسيره ٨/ ١٨٠].

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال محمد بن كعب القرظي ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال: الفرش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها، وبنه تعالى علي أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ؛ أي: من حسد وبغضاء كما جاء في «صحيح البخاري» [بلفظ قريب/ ٦١٧٠] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِسُوا عَلَى فَنَظَرَةِ بَيْنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَاقْتَصَرَ لَهُمْ مَطَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدْلُ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا).

وقال السدي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية، إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزح ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا.

وقال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ رواه ابن جرير [٣٧/ ١٤]، وقال علي: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾، وروى النسائي [١١٤٥٤ نحوه] وابن مردويه [والحاكم/ ٣٦٢٩ واللفظ له وصححه ووافقه الذهبي] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ:

لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ)، ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا ﴿أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: (وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ) [البخاري/٥٣٤٩ ومسلم/٢٨١٦].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم وذلك على وجه التقرير والتوبيخ: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ أن هاهنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق؛ أي: قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿فَاطْلَعْ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِيَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٥ - ٥٧]؛ أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ - ١٦]، وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القلب يوم بدر فنادى: (يَا أَبَا جَهْلُ بْنُ هِشَامَ، وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ - وَسَمَى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا) وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قومًا قد جيفوا؟ فقال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا) [البخاري نحوه/٣٧٦٠ ومسلم/٢٨٧٤].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم ونادى مناد: ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: مستقرة عليهم، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾؛ أي: وهم بقاء الله في الدار الآخرة كافرون؛ أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابًا، وهو الحاجز

المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير [١٨٩/٨]: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ اسْمِيرًا لَهُ أَبْطُنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وهو الأعراف. الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ هو السور وهو الأعراف وعن مجاهد نحوه.

قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه، وقال ابن عباس: الأعراف هو الشيء المشرف، وعنه أيضاً: الأعراف سور كعرف الديك، وفي رواية عنه: الأعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار، وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار، وكذلك قال الضحاک وغير واحد من علماء التفسير، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد: وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

وروى ابن جرير [١٩٠/٨] عن الشعبي قال: أرسل إليّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش، فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة، فإني قد غفرت لكم.

وقال ابن مسعود [كما روى الطبري ١٩١/٨]: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٢، ١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة، ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيامانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فنهالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ﴾ فكان الطمع دخولاً. على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة.

ثم يقول: هلك من غلبت واحدته أعشاره. رواه ابن جرير.

وروى أيضاً عن ابن عباس قال: الأعراف السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب

الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدأ الله أن يعافيههم انطلق بهم إلى نهر يقال له الحياة، حافته قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ ترابه المسك، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة، وكذا رواه ابن أبي حاتم، وقد رواه سفيان الثوري عن عبد الله بن الحارث من قوله، وهذا أصح والله أعلم، وهكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمِهِمْ﴾ قال ابن عباس [الطبري ١٩٤/٨]: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه، وفي رواية عنه قال: أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوزوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله، وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد أسلم. وعن الحسن: أنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريد بها بهم وقال قتادة: قد أنباكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، وقال السدي: وإذا مروا بهم - يعني بأصحاب الأعراف - بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [انظر هذه الأقوال عند الطبري ١٩٧/٨].

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسَمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾
 ﴿أَهْتَولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾
 ﴿٤٨﴾
 ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى إخباراً عن تفريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾؛ أي: كثرتمكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا ينفعكم كثرتمكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهْتَولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس؛ يعني: أصحاب الأعراف ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وروى ابن جرير [١٩٩/٨] عن ابن عباس في قوله: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا؛ يعني: أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْتَولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَبَ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥١﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِعَائِنَا يُجَادُونَ ۝٥٢﴾.

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شربهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَبَ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؛ يعني: الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال سعيد بن جبير في هذه الآية [كما أورد ابن أبي شيبة/٣٤٧٧٣]: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت فأفرض علي من الماء. فيقال لهم: أجيئوهم فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وروي عن ابن عباس مثله سواء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ يعني: طعام الجنة وشربها. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ عن ابن عباس قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا [الطبري ٨/٢٠٢]، وقال مجاهد: نتركهم في النار، وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي «صحيح [مسلم/٢٩٦٨ نحوه]» أن الله تعالى يقول للبعد يوم القيامة: (أَلَمْ أَرْزُجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَع؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: فاليوم أنساك كما نسيتني).

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الآية [هود: ١]، وقوله: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: على علم منا بما فصلناه به كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِنَا﴾ [النساء: ١٦٦].

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾؛ أي: ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه.

وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: يوم القيامة قاله ابن عباس: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿فَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾؛ أي: في خلاصنا مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفُئُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَئِنْ كُنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] كما قال هاهنا: ﴿فَقَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم ولا يشفعون فيهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم ﷺ، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كآلف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك عن ابن عباس، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُعْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾؛ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً؛ أي: سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كقوله: ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أُيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [الشورى: ٢٨] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

كَالْمُجْرِمِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

وقوله: ﴿حَاشَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيبته؛ ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾؛ أي: له الملك والتصرف ﴿بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ .

أرشد تعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل: معناه: تذلاً واستكانة، وخفية كما قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبُعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» الحديث [البخاري/ ٢٨٣٠ ومسلم نحوه/ ٢٧٤٠].

وقال ابن جرير [٢٠٦/٨ - ٢٠٧]: ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلاً واستكانة لطاعته ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهراً ومراءاة، وقال الحسن: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِيَ فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره، وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء.

روى الإمام أحمد [٢٠٥٧٣] أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا فَقَالَ: يَا بَنِي سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَعُدْ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ)، ورواه ابن ماجه [نحوه/ ٣٨٦٤]، وأبو داود [٩٦] وإسناده حسن لا بأس به والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك،

كان أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه.

فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: خوفًا مما عنده من وبيل العقاب، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: إن رحمته مُرَصَّدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال: قريب من المحسنين، وقال مطر الوراق: تنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر به تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ نُشْرًا﴾؛ أي: منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ: بشراً كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقوله: ﴿بَيِّنَ يَدَى رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجَى الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾؛ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً؛ أي: من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمُزْنَ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

وقوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِي الْأَرْضُ أَمِيتَتْهُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾؛ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيا الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، ينزل الله ﷻ ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾؛ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً

حسنًا. ﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخُجُّ إِلَّا نَكَدًا﴾ قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها، وقال ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وروى البخاري [٧٩] ومسلم [٢٢٨٢] بألفاظ قريبة] عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِئَةٌ قِيلَتْ الْمَاءُ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَبْنِي كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢﴾.

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل، وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحًا لكثرة ما ناح على نفسه، وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليه السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام قاله عبد الله بن عباس.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ وله الحمد والمنة رسوله نوحًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ﴾؛ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ﴾؛ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾؛ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبَقُوا لَهُمْ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ﴾ [الأحاف: ١١].

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾؛ أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغًا فصيحًا ناصحًا عالمًا بالله، لا يدرهمهم أحد من خلق الله في

هذه الصفات كما جاء في «صحيح مسلم» [١٢١٨ من حديث طويل] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟). قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ).

﴿أَوْعَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَوْعَيْتُمْ﴾؛ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لإنذاركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه تعالى في موضع آخر ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة كما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَرْغِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾؛ أي: عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِئْسَ يَوْمُ الْأَشْهَادِ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العقابة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملاءى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ أُتِلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٣﴾ أَوْعَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، وهؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِمْرَ ذَاتِ الْاَلْعِمَادِ ﴿٢﴾﴾

الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْأَلْبَدِ [الفجر: ٦ - ٨]، وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل.

روى ابن جرير [٢١٧/٨] عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت علي بن أبي طالب يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كشيئاً أحمر تخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت. هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؟ والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه، قال: لا، ولكنني قد حدثت عنه فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال فيه قبر هود عليه السلام.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملاء هم الجمهور ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال إلى عبادة الله وحده كما تعجب الملاء من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ غَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أَتِلْفُكُمْ بِرِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿أَوْعَيْبُهُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؛ أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمداوا الله على ذاكم ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَأَذْكُرُوا فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً﴾؛ أي: زاد طولكم على الناس بسطة؛ أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، ﴿فَأَذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: نعمه ومنته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٧١) فَأَتَيْنَهُ الْذَّبِّتُ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢).

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾؛ أي: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس وغضب قيل: هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس: معناه

السَّخَطَ وَالْغُضَبَ [الطبري ٨/ ٢٢٣]. ﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾؛ أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَجْبِئْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن آخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا عَادٌ فَاهِكُومًا يَرْبِجُ صَرْصَرٍ عَلِيَّةٍ ﴿١٦١﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعٌ لَيَالٍ وَنَهْيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿١٦٢﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

وقال محمد بن إسحاق كانوا: يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هودًا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿أَتَتَّبِعُونَ يَكُلَّ رِيحٍ عَائِيَةٌ تَعْبَثُونَ ﴿١٦٣﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٦٤﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٦٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ إنَّ قَوْلُ إِلَّا أَغْرَيْتَكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: بجنون ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ من دؤبىء فكذبوني جميعاً ثم لا تُنظرون ﴿١٦٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿١٦٩﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٧٠﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٧١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٧٢﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٣﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله

وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع، وروى الإمام أحمد [٥٩٨٤] عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا منها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: (إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ)، وأصل هذا الحديث مخرج في «الصحيحين» من غير وجه [البخاري/٣١٩٩ ومسلم/٢٩٨١].

وروى الإمام أحمد [١٤١٩٣] عن جابر قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: (لَا تَسْأَلُوا الْأَيَاتِ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٌ فَكَانَتْ - يَعْنِي: النَّاقَةُ - تَرُدُّ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ، أَهَمَدَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ). فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: (أَبُو رِغَالٍ فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ)، وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾؛ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا ﴿قَالَ يَبْقَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾؛ أي: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عینوها بأنفسهم، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم قام صالح ﷺ إلى صلاته ودعا الله ﷻ فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنيها بين جنبها كما سألوا، فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب ماء بئرها يومًا وتدعه لهم يومًا وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانهم كما قال: ﴿وَيَبَيِّنُهُمْ أَنْ الْمَاءَ فَسَمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾ [القم: ٢٨]، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان أيضًا، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحاً ﷺ، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا نَقَاسُمُ بِاللَّهِ لَنَبَيَّتْنَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩) ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَبَلَغَ يَوْمَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٤٩ - ٥٢].

فلما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، أرسل الله عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياداً بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيئِينَ﴾؛ أي: صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح ﷺ ومن اتبعه ﷺ، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال كان لما وقعت النعمة بقومه مقيماً في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله.

وروى أبو داود [٣٠٨٨] عن بُجَيْرِ بْنِ أَبِي بَجِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ فَمَرَرْنَا بِقَبْرِ، فَقَالَ: (هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وَهُوَ أَبُو ثَقِيفٍ، وَكَانَ مِنْ ثَمُودَ، وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ فَدَفَعَ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النَّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ، فَذُفِنَ فِيهِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ ذُفِنَ مَعَهُ غَصَنٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ فَأَبْتَدَرَهُ النَّاسُ، فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ الْغُصْنَ). قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْفُورُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ (٧٩).

هذا تقرير من صالح ﷺ لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإراحته فشددت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف

على القلب قلب بدر، فجعل يقول: (يَا أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامَ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا) فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ) [البخاري نحوه/ ٣٧٦٠ ومسلم بلفظ قريب/ ٢٨٧٤].

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَتَلَّفْتُكُمْ رَسُولًا رَئِي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا عليه السلام لوطًا أو تقديره ﴿و﴾ اذكر عليه السلام لوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، ولوط هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من الفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله. ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكهم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: ما أجابوا لوطًا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من المؤمنين من بين أظهرهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب، وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء، ورؤي مثله عن ابن عباس أيضًا.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا ۖ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

يقول تعالى فأنجينا لوطًا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا

امراته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام أن يسري بأهله أمر أن لا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ها هنا: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: الباقيين، وفهم من فسر ذلك ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الهالكين وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْأَشْلِيلِينَ بِبَعِيدٍ [هود: ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: انظر: يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله ﷻ وكذب رسله.

قال جمع من العلماء إلى أنه [اللائط] يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولي الشافعي رحمته الله، وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٌ ۖ قَالَ يَبْقَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم.

قلت: مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب مَعَانٍ من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة.

﴿قَالَ يَبْقَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: قد أقام الله الحجج على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم؛ أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ - إلى قوله: - ﴿لَرَبِّ الْأَعْلَيْنَ﴾ [المطففين: ١-٦]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة مواعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَرْتُكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧).

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾؛ أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم قال السدي وغيره: كانوا عشارين.

وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَرْتُكُمْ﴾؛ أي: كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عدديكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾؛ أي: قد اختلفتم علي ﴿فَاصْبِرُوا﴾؛ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعْبَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَوْمِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَرِهِينَ﴾ (٨٨) قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩).

هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبي الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَرِهِينَ﴾؟ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادًا ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد إلى المشيئة فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علمًا ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾؛ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبدًا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَآخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وعتوهم وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ﴾ فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَآخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ أخبر تعالى ها هنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ [هود: ٩٤]، والمناسبة في ذلك والله أعلم أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصْلُوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة فأسكنتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلمت فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وخمدت الأجساد ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: كأنهم لما أصابتهم النقرة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلمهم: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ كُفْرَكُمْ رِيسَلَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: فتولى عنهم شعيب بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقرة والنكال، وقال مقررًا لهم وموبخًا: ﴿يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ كُفْرَكُمْ رِيسَلَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: قد أدبت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به؛ لهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالباساء والضراء؛ يعني: ﴿وَالْبَاسَاءِ﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ ما يصيبهم

من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَصْزَعُونَ﴾؛ أي: يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾؛ أي: حولنا الحالة من شدة إلى رخاء، ومن مرض إلى صحة، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾؛ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنبيوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء كما ثبت في «صحيح [مسلم]: (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) [رواه مسلم بالفاظ قريبة/ ٢٩٩٩] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء.

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة؛ أي: على بغتة، وعدم شعور منهم؛ أي: أخذناهم فجأة كما في الحديث: (مَوْتُ الْفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذُهُ أَسْفٌ لِلْكَافِرِ) [رواه أبو داود/ ٣١١٠ مختصراً وأحمد/ ٢٥٠٨٦ بنحوه، وهو صحيح كما في «المشكاة»].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) ﴿وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩٨) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩).

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَفَعَلَهَا إِمْنَهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]؛ أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾؛ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: قطر السماء ونبات الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المحارم، ثم قال

تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا ونكالنا ﴿بَيْتًا﴾؛ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٧) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾؛ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال غفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَّلَ يَهْدٍ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿أَوَّلَ يَهْدٍ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أو لم يتبين، وكذا قال مجاهد، والسدي، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أو لم يبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم [الطبري ١٠/٩]، وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى أو لم نبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم ﴿أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكرة.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قُرُونٍ مَّكَثَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ لَكَ وَاتَّسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ يَدَارًا وَجَعَلْنَا الْآلِهَةَ يَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١١) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾؛ أي: من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٢) ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠، ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الباء سببية؛ أي: فما كانوا

ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٠٩، ١١٠]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [١١١] وما وجدنا لأكثرهم؛ أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾؛ أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في «صحيح مسلم» [٢٨٦٥]، يقول الله تعالى: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ)، وفي «الصحيحين»: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجِّسَانِهِ) الحديث [البخاري/١٣١٩ ومسلم/٢٦٥٨].

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ما روي عن أبي بن كعب قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق [الطبري ١١/٩]؛ أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، واختاره ابن جرير، وقال السدي: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً، وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] [الطبري ١١/٩].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٠٦].

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: الرسل المتقدم ذكرهم كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: بحججنا ودلائلنا البينة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر ﴿وَمَلَئِهِ﴾؛ أي: قومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]؛ أي: انظر كيف فعلنا بهم وأغرقتناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِتَائِيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجائه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربّه ومليكه، ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق؛ أي: جدير بذلك وحري به، وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، وقرأ آخرون من أهل المدينة: حقيق عليّ بمعنى واجب وحق علي ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عزّ جلاله وعظيم سلطانه. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن. ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِتَائِيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ ﴿١٠٨﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الحية الذكر، وكذا قال السدي، والضحاك، وفي حديث الفتون [رواه النسائي/١١٣٢٦ بطوله وهو مشهور وراجع في تفسير سورة طه] عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة [ابن أبي حاتم نحوه/١٥٥٩٠].

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ﴾؛ أي: نزع يده أخرجها من درعه بعدما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلأأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]، وقال ابن عباس في حديث الفتون: أخرج يده من جيبه فراها بيضاء من غير سوء؛ يعني: من غير برص ثم أعادها إلى كفه فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ أَمْلَأْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

أي: قال الملاء وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع

إليه رُوعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا في أمره وماذا يصنعون في أمره وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافتراءهم وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَكَذَا هُوَ مِمَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، فلما تشاوروا في شأنه واتتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾ أخره، وقال قتادة: احبسه [الطبري ١٧/٩]. ﴿وَأَرْسِلْ﴾؛ أي: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾؛ أي: في الأقاليم ﴿حَاشِرِينَ﴾؛ أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى ﷺ من قبيل ما تشعبه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَحْيَيْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ الْإِنْسَانُ ضِغِي ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٥٧، ٦٠]، وقال تعالى ها هنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى ﷺ إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطينهم عطاء جزيلاً فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا وليجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

هذه مبارزة من السحرة لموسى ﷺ في قولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾؛ أي: قبلك كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]، فقال لهم موسى ﷺ: ألقوا أي أنتم أولاً، قبلي، والحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد انتظار منهم لمحبيته فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾؛ أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال،

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى﴾ (١٦) ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (١٧) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (١٨) ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩].

قال ابن عباس: ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً. قال: فأقبلت يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى [الطبري ٢٠/٩].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يقول: فرقوهم؛ أي: من الفرق [أي الفرع]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧) ﴿فَوَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨) ﴿فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَبْرِينَ﴾ (١١٩) ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ﴾ (١٢٠) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبٌّ يَرْبِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٢٢).

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى ﷺ في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾؛ أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خُشْبِهِمْ إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء، وليس هذا بسحر فخروا سجداً وقالوا: ﴿ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الطبري ٢١/٩، ونحوه عن ابن إسحاق والقاسم بن أبي بزقة].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١٢٣) ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعًا﴾ (١٢٤) ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥) ﴿وَمَا نَنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّا يَأْتِي رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٦).

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى ﷺ، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾؛ أي: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ لَكَيْدُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى ﷺ بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى ﷺ لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعا دولته وجهلتهم كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ

قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴿الزخرف: ٥٤﴾، فَإِنْ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللَّهِ وَأَضْلَهُمْ.

وقوله: ﴿لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾؛ أي: تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصُولَةٌ، وَتَخْرُجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرُ وَالرُّؤَسَاءُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: مَا أَصْنَعُ بِكُمْ، ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾؛ يَعْنِي: يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيَمْنَى وَرَجْلَهُ الْيَسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ. ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: عَلَى الْجُدُوعِ.

قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون [الطبري ٢٣/٩]، وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا مُتَقَبِّلُونَ﴾؛ أي: قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ، فَلْنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أي: عُمْنًا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿وَوَفَّائًا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى ﷺ، وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٦﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٧﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٨﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿طه: ٧٢ - ٧٥﴾، فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَّةٍ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدُ بْنُ عَمِيرٍ وَقَتَادَةُ، وَابْنُ جَرِيرٍ [الطبري ٢٤/٩].

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكِ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾.

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمره لموسى ﷺ وقومه من الأذى والبغضة ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: لِفِرْعَوْنَ ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾؛ أي: أُنْذِعُهُمْ ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يَفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ، يَا اللَّهُ الْعَجَبُ! صَارَ هَؤُلَاءِ يَشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ! أَلَا إِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمَفْسُدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ؛ لِهَذَا قَالُوا: ﴿وَيَذَرَكِ وَءَالِهَتَكَ﴾ فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنَ فِيمَا سَأَلُوا بِقَوْلِهِ: ﴿سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى ﷺ حذرًا من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل في صنيعه أيضًا لما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله وأغرقه وجنوده، ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ

يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا؟ أَيْ: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: اختبرناهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي سنو الجوع بسبب قلة الزروع، ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك، وقال رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ؛ أي: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾؛ أي: هذا لنا بما نستحقه، ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جذب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾؛ أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: مصائبهم عند الله، وعنه أيضاً: إلا من قبل الله [الطبري ٢٠/٩].

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ أَيْتٍ مُّفْضَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَحْمُسِي أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَا عَهْدٍ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾.

هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ اختلفوا في معناه فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وبه قال الضحاك، وعن ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت، وكذا قال عطاء، وقال مجاهد: الماء والطاعون على كل حال [ابن أبي حاتم/ ٨٨٦٠].

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُوَ تَائِبُونَ﴾ [القلم: ١٩]، وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول؛ لما ثبت في «الصحيحين» عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد [البخاري/ ٥١٧٦ ومسلم بلفظه/ ١٩٥٢]، وروى الشافعي [في

مسنده ص ٣٤٠] وأحمد بن حنبل [٥٧٢٣]، وابن ماجه [٣٣١٤] عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَاتَانِ وَدَمَانِ: الْحَوْتُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ) [وإسناده جيد وصححه الألباني].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب.

وأما ﴿الْقُمَّلَ﴾ فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة [ابن أبي حاتم/ ٨٨٧١]، وعنه أنه الدَّبَى وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، وعن الحسن، وسعيد بن جبیر: دواب سود صغار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: البراغيث [الطبري ٣٣/٩]، وقال ابن جرير: القُمَّل جمع واحدتها قُمَّلة، وهي دابة تشبه القمل، تأكل الإبل فيما بلغني.

وعن سعيد بن جبیر [كما روى الطبري ٣٤/٩] قال: لما أتى موسى ﷺ فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزرع والثمار والكلأ فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا، فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى دَقْنِه في الضفداع، ويهم أن يتكلم فتب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا، فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس، والسدي، وقتادة وغير واحد من علماء السلف.

وقال زيد بن أسلم: يعني: بالدم الرعاف [الطبري ٣٩/٩].

﴿فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة أنه انتقم منهم بإغراقه إياهم في البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرُبِّدْ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنُ وَهَمَنْ وَخُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [الفصل: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهَيْنَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨]، وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ يعني: الشام [الطبري ٩/٤٣]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد، وابن جرير وهي قوله تعالى: ﴿وَرُبِّدْ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنُ وَهَمَنْ وَخُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾؛ أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يبنون [الطبري ٩/٤٤].

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى ﷺ حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾؛ أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾. قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ﴾؛ أي: هالك ﴿وَيَطْلُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وروى الإمام أحمد [٢١٩٥٠] عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين

فمَرَرْنَا بِسَدْرَةٍ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكَفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ وَكَانَ الْكَفَّارُ يَنْطَوِّنُ سِلَاحَهُمْ بِسَدْرَةٍ وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اللَّهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ﴾ [رواه الترمذي بنحوه/ ٢١٨٠ وقال: حسن صحيح].

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْفُسَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ أَمَجَّنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

يذكرهم موسى ﷺ بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الذلة، وما صاروا إليه من العزة، والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّيَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ﷺ وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى ﷺ فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة قاله مجاهد ومسروق، وابن جريج وروى عن ابن عباس، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى ﷺ وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَمَجَّنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية [طه: ٨٠]، فحينئذ استخلف موسى ﷺ على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون ﷺ نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ. قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُفُوهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن موسى ﷺ أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله تعالى

سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنورها عند قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وروى ابن جرير [٥٣/٩] عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل، قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقول أنس وأنا أكتمه؟ وهكذا رواه الإمام أحمد [١٢٢٨٢ بنحوه] في «مسنده»، والترمذي [٣٠٧٤] وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم [٣٢٤٩] وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقال ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَحَرَّ مُوسَىٰ صَعْقًا﴾ قال: مغشياً عليه [الطبري ٥٣/٩]. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَحَرَّ مُوسَىٰ صَعْقًا﴾ وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك، وقال بعضهم: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: فنته.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فذك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً، وقال عكرمة: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً، وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير [٥٤/٩].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قَالَ سُبْحَنكَ﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات.

وقوله: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل واختاره ابن جرير [٥٥/٩]، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد، وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له اتجاه.

وقوله: ﴿وَحَرَّ مُوسَىٰ صَعْقًا﴾ أسند البخاري في «صحيحه» [٤٣٦٢] هاهنا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم في وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي. قال: (ادعوه) فدعوه، قال: (لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟) قال: يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعتة يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غصبة فلطمته، قال: (لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصَعَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ)، والكلام في قوله ﷺ: (لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ)

كالكلام على قوله: (لَا تَقْضُلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَلَا عَلَى يُوسُفَ بْنِ مَتَّى) [البخاري بلفظ آخر/ ٣٢٣٤] قيل: من باب التواضع، وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والنعصب، وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي والله أعلم.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥).

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ﷺ ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﷺ ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ﴾؛ أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]، وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة فالله أعلم، وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال ابن عباس: أمر موسى ﷺ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه، وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب. قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري، وقيل: معناه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل: منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم؛ لأن هذا بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧).

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: سأمنع فهم

الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق؛ أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا زَأَاعَ اللَّهِ فُتُوهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً، وقال سفيان بن عيينة [كما روى الطبري ٦٠/٩]: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة، قلت: ليس هذا بل لازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ حَقٌّ عَلَيْهِمُ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: وإن ظهر لهم طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ أي: لا يعملون بما فيها، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِفَسَاخِ الْآخِرَةِ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله، وقوله: ﴿هَلْ يُجِزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدين تدان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [١٤٨] ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٤٩].

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار: والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين، والله أعلم. ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذُهلهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ندموا على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بِنِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾^(١٥٠) **وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴿١٥١﴾ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿١٥٢﴾.

يخبر تعالى أن موسى ﷺ لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب. ﴿بِنِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يقول: بشئ ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾^(١٥١) **أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** ﴿١٥٢﴾ **قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي** ﴿١٥٣﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال: ابن أم لتكون أراف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى ﷺ براءة ساحة هارون ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

روى ابن أبي حاتم [٨٩٩٨] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ ﷻ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاخَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمُ أَلْقَى الْأَلْوَاخَ) [رواه أحمد ٢٤٤٧ نحوه] والبخاري [٥١٥٥] والطبراني [١٢٤٥١ نحوه] وابن حبان [٦٢١٤]، والحاكم [٣٤٣٥] وصححه على شرطهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾^(١٥٢) **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١٥٣﴾.

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى: لم يقبل لهم توبة

حتى قتل بعضهم بعضًا، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا وصغارًا في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطققت بهم البراذين، وروي عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية وقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل [ابن أبي حاتم/٩٠٠٨]، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وروى ابن أبي حاتم [٩٠١٠] عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٢).

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾؛ أي: سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾؛ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾؛ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبًا له ﴿وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلَ وَلِيَّيْ أَتَّهَلَّكُمَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا حَقٌّ لِّكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤).

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية [الطبري ٧٢/٩]: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا، فاختار سبعين رجلًا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دَعَا الله قالوا: اللَّهُمَّ أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا ولا تعطه أحدًا بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلَ وَلِيَّيْ﴾ الآية، وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم

موعداً فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يا موسى ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فإنك قد كلمته فأرنا، فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج: إنهم أخذتهم الرجفة؛ لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم [الطبري ٧٣/٩]، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ مِنَّا﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾؛ أي: ابتلاؤك واختبارك. قاله ابن عباس وسعيد بن جببر، وأبو العالية، والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف [الطبري ٧٧/٩]، ولا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا مُعْطِي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ العَفْرُ هو: الستر، وترك المؤاخذه بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾؛ أي: لا يغفر الذنب إلا أنت ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، هناك الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحقيق المقصود؛ أي: أوجب لنا وثبت لنا فيهما حسنة. ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: تبنا وأنبنا إليك. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد: وهو كذلك لغة.

قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ الآية، [الأعراف: ١٥٥] قال: ﴿عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ﴾؛ أي: أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. سبحانه لا إله إلا هو، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وروى الإمام أحمد [١٨٨٢١] عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى: اللَّهُمَّ ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: (أَتَقُولُونَ هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟) قالوا: بلى. قال: (لَقَدْ حَظَرْتُ رَحْمَةً وَاسِعَةً؛ إِنَّ اللَّهَ ﷻ، خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلْقُ؛ جِنَّهَا وَإِنْسَهَا وَبَهَائِمُهَا، وَآخَرُ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟)، ورواه أبو داود [٤٨٨٥] بنحوه، وله شاهد عند البخاري من حديث أبي هريرة/ [٥٦٦٤]، وروى الإمام أحمد أيضاً [٢٣٧٧١] عن سلمان عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ ﷻ، مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا

رَحْمَةً يَتَرَا حُمْ بِهَا الْخَلْقُ، وَبِهَا تَغْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَأَخَرٌ تَسْعَا وَتَسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [ورواه مسلم بنحوه/ ٢٧٥٢].

وقوله: ﴿فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ الآية؛ يعني: فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾؛ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون؛ أي: الشرك والعظائم من الذنوب. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: زكاة الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابِعُونَ﴾؛ أي: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أمهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم، كما روى الإمام أحمد [٢٣٥٣٩] عن رجل من الأعراب قال: جلبت جُلُوبَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرِغْتُ مِنْ بَيْعَتِي قُلْتُ: لِأَلْقِيَنِي هَذَا الرَّجُلُ فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعَمْرٍو يَمْشُونَ، فَتَبِعْتُهُمْ فِي أَقْفَائِهِمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَةَ يَقْرُؤُهَا يَعِزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَنْ ابْنِ لَهُ فِي الْمَوْتِ كَأَحْسَنِ الْفَتَيَانِ وَأَجْمَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَتَشُدُّكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ، هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي) فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: (أَقِيمُوا الْيَهُودِيُّ عَنْ أَخِيكُمْ)، ثم تولى كفه والصلاة عليه. هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس.

وروى ابن جرير [٨٣/٩] عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأُمِّيِّينَ، أنت عبي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صحّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته، قال: قلوباً غُلُوفِيّاً وآذاناً صُمُومِيّاً وأعيناً عُمُومِيّاً»، وقد رواه البخاري في «صحيحه» [٢١٠٨ بنحوه]، ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٧٧] فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾؛ أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث، فعن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى، وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) [رواه أحمد وهو حسن]، وقال ﷺ لأمره معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: (بَشْرًا وَلَا تَقْرَأَ، وَيَسِّرًا وَلَا تُعَسِّرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخَلِيفًا) [متفق عليه]، وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ) [متفق عليه]، وقال: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ) [رواه ابن ماجه وإسناده جيد]؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٨٦]، وثبت في «صحيح مسلم» أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت قد فعلت.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾؛ أي: عظموه ووقروه، ﴿وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: القرآن والوحي الذي جاء به ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨).

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: جميعكم وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا

أَلْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴿الأنعام: ١٩﴾، والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

روى البخاري [٤٣٦٤] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عمر عنه مغضباً فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ: (أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرُ)؛ أي: غاضب وحاقد. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: (هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ) انفرد به البخاري.

روى الإمام أحمد [٧٠٦٨] أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: (لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيتُ أَحَدٌ قَبْلِي، أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً وَكَانَ مِنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ...) الحديث، وإسناده جيد قوي أيضاً ولم يخرجوه، وفي «صحيح مسلم» [١٥٣] عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ)، وفي «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٣٢٨ واللفظ له، ومسلم/٥٢١].

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى في قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾؛ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء ورب ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم.

وقوله: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾؛ أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ﴾؛ أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩).

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال

تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَئِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عِصًّا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٦٠] وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَالْقَرْيَةَ سَكَنُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٦١] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [١٦٢].

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكى ونبينا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة.

﴿وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [١٦٣].

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسَأَلْنَهُمْ﴾؛ أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم بقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لثلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وعن ابن عباس قال: هي قرية يقال لها: أيلة بين مدين والطور، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي [الطبري ٩٠/٩].

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾؛ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ قال ابن عباس: أي: ظاهرة على الماء، وعنه أيضًا: من كل مكان [الطبري ٩٢/٩]. قال ابن جرير وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾؛ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيلِ) [رواه ابن بطة في كتاب إبطال الحيل ص ٤٦] وهذا إسناد جيد.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا إِلَيْهِمُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْاَسْوَاءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت واعتزلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكهم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب؛ أي: نفعل ذلك ﴿مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة ﴿أَجْبَنَّا إِلَيْهِمُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْاَسْوَاءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين:

فعن عكرمة [الطبري ٩/ ٩٤] قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الوراقات. قال: وإذا هو في سورة الأعراف قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من اليهود سبقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرון عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤونة شديدة، كانت تأتيتهم يوم سبتهم شرعاً بيضاً سمناً؛ كأنها الماخض تتبطح ظهورها لبطونها بأفئيتهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتهم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاء الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون: ويلكم، الله الله نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الأيمنون: ﴿مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم، فمضوا على الخطيئة

وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله، والله لا نبايتكم الليلة في مدينتكم والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلمًا وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله، قردة والله تعاوى لها أذئاب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القروء أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القروء يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي فيقول: ألم نهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي: نعم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت: جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم؟ وقالوا: ﴿لَمْ تَعْطُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعًا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا فخزم أنفه ثم ضرب له وتدًا في الساحل وربطه وتركه في الماء فلما كان الغد أخذه فشواه، فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاهم منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لَمْ تَعْطُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فقالوا: سخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا سُوا﴾ - إلى قوله: - ﴿قُرْدَةٌ خَسِيسَةٌ﴾ قال ابن عباس: كانوا أثلاثًا: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لَمْ تَعْطُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم [الطبري ٩/ ٩٧]، وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و﴿بَئِيسٍ﴾ معناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية أليم وقال قتادة: موجه والكل متقارب والله أعلم، وقوله: ﴿خَسِيسَةٌ﴾؛ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُبُّكَ لِبَعَثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿تَأَذَّتْ﴾ تفعل من الإذن؛ أي: أعلم قاله مجاهد، وقال غيره: أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلقِيَت باللام في قوله: ﴿لِبَعَثَنَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم وأمر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى ﷺ ضرب عليهم الخراج، سبع سنين

وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت صغاره وذمته يؤدون الخراج والجزية، وعن ابن عباس: هي الجزية والذين يسومونهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمه إلى يوم القيامة [الطبري ١٠٢/٩]، وكذا قال سعيد بن جببر، وابن جريج، والسدي، وقتادة. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم ﷺ، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه ﴿وَأَنَّهُ لَنَفْوُورٌ رَّجِيمٌ﴾؛ أي: لمن تاب إليه وأنااب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ ذُوْنُ ذَلِكُمْ وَبَوَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّمَّنْ قَدْ كُتِبَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أُمَمًا؛ أي: طوائف وفرقا، ﴿مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ ذُوْنُ ذَلِكُمْ﴾؛ أي: فيهم الصالح وغير ذلك كما قال الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا أَصْلَحُوا وَمِنَّا ذُوْنُ ذَلِكُمْ كُنَّا طَائِفًا قِدْدًا﴾ [الجن: ١١]، ﴿وَبَوَلَّوْنَهُمْ﴾؛ أي: اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرغبة، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد: هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾؛ أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ وكما قال سعيد بن جببر: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قال: لا يُشْرَفُ لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالًا كان أو حرامًا، ويتمنون المغفرة ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وقال قتادة: أي والله لخلف سوء ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسولهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تمنوا على الله أمانى ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينههم شيء عن ذلك كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالًا كان أو حرامًا، وقال السدي:

كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشي، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي. يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه [انظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٠٦/٩].

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُوَخِّدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ الآية يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُوَخِّدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها [الطبري ١٠٧/٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه؛ أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١).

قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعنا، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤]، وعن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى ﷺ متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر الله به أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقربوها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤).

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم

ومليكنهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى: ﴿فَأَفَقَدْ وَجَّهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ - وفي رواية: - على هذه الملة - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيَنْصَرِّغَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ) [البخاري/١٣١٩ ومسلم/٢٦٥٨]، وفي «صحيح مسلم» [٢٨٦٥] عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ).

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير [١١٣/٩] عن الأسود بن سريع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَاولُونَ الذَّرِيَّةَ؟) فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: (إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا إِنَّهَا لَيْسَتْ نِسْمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وَلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يَنْصَرِّغَانِهَا) قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، وقد رواه الإمام أحمد [١٦٣٤٦] وأخرجه النسائي في سننه [٨٦١٨ وهو صحيح]، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم ﷺ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وروى الإمام أحمد [١٢٣١١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟) قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي) أخرجه في «الصحيحين» [بنحو البخاري/٦١٨٩ ومسلم/٢٨٠٥].

حديث آخر: روى الترمذي [٣٠٧٦] عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسْمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يَقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ، وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ، جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ: أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطَهَا ابْنُكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمَ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ). ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم [بنحو/٣٢٥٧] في «مستدركه»، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروي عن مجاهد، والحسن وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث. فالأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل

النار، وأما الإشهاد عليهم بأنه ربهم فما هو إلا في حديث ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو، وهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾؛ أي: أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول كما قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]؛ أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، كما أن السؤال تارة يكون بالقول، وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أن الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾؛ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾؛ أي: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ (١٧٦) أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الْآيَةُ.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥)
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ﴾ الآية قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن أبر [ابن أبي حاتم/ ٨٥٤١]، وقال ابن عباس: هو صيفي بن الراهب [٨٥٤٣]، وعنه أيضاً: أنه رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها، وروي عنه أيضاً، وعن مجاهد، وعكرمة أنه: بلعم باعر، وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى ﷺ، وقال عبد الله بن عمرو: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت [الطبري ١٢١/٩]، وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه

وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قَبَّحه الله.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف: كان رجلاً مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وقال ابن عباس: لما نزل موسى بهم؛ يعني: بالجبارين ومن معه أتاها - يعني: بلعام - أتاها بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزلوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيتِ﴾ [الطبري ١٢٣/٩].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: استحوذ عليه وغلبه أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيتِ﴾؛ أي: من الهالكين الحائرين البائسين، وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في «مسنده» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنْ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، حَتَّى إِذَا رُوِيَ بِهِجْتُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رَدُّهُ الْإِسْلَامَ اغْتَرَاهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، أُنْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ) قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: (بَلِ الرَّامِي) إسناده جيد [ذكره ابن حجر في المطالب العالية/٤٣٥٦ وأورده عن أبي يعلى ولم أجده عنده].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾؛ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي.

قلت: هو بلعام، ويقال: بلعم بن باعوراء، وكان يسكن قرية من قرى البلقاء، قال ابن عساكر: وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلك من دينه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعن سالم أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهته في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك، وقيل: معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهته في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك. وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرتة كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب، وبش المثل مثله؛ ولهذا ثبت في «صحيح [البخاري/٦٥٧٤]» أن رسول الله ﷺ قال: (لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوءِ، الْعَائِدُ فِي هَيْبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ).

وقوله: ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنُعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد [٣٢٧٥] وأهل السنن [النسائي/١٠٣٢٦ وابن ماجه/١٨٩٢ والبيهقي/٥٥٩٣] وغيرهم [وهو صحيح ويعرف «بخطبة الحاجة»].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَفْعَى بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾؛ أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ أي: هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما

ورد في «صحيح مسلم» [مثله/٢٦٥٣] عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ).

وفي «صحيح مسلم» [٢٦٦٢] أيضًا: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعِيَ النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ)، وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود: (ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ) [البخاري/٧٠١٦ ومسلم/٢٦٤٣ واللفظ له]، وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال: (هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَلَا أَبَالِي) [الحاكم/٨٤] والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؛ يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي الْيَأْسِ﴾؛ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُعِيشُهَا من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٧١]؛ أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء ﴿بَلْ هُمْ أَصْلٌ﴾؛ أي: من الدواب؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي الْيَأْسِ﴾.

﴿وَاللَّهُ الْأَتَمُّ الْحَسَنُ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَثَرٌ يُجِبُّ الْوِثْرَ). أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٦٠٤٧ ومسلم/٢٦٧٧]، ثم ليُعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام

أحمد [٣٧١٢] في «مسنده» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمِّكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَعْلَمْتَهُ أَحَدًا مِّنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا) فقيل: يا رسول الله: أفلا نتعلمها؟ فقال: (بَلَى يَنْبَغِي لِكُلِّ مَن سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)، وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في «صحيحه» [٩٧٢] بمثله [وحسنه الألباني]، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر العربي أحد أئمة المالكية في كتابه الأحوذى في «شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز [الطبري ١٣٣/٩]، وقال قتادة: يلحدون: يشركون، وقال ابن عباس: الإلحاد التكذيب [الطبري ١٣٤/٩]، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾؛ أي: ومن الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية، وفي «الصحيحين» عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، وَلَا مَن خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) [البخاري مختصراً/ ٦٨٨١ ومسلم/ ١٩٢٠] - وفي رواية -: (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ) - وفي رواية -: (وَهُمْ بِالشَّامِ).

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ (١٨٣)

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَوَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [٤٤] فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾؛ أي: وسأملِي لهم؛ أي: أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾؛ أي: قوي شديد.

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِّنْ جِنَّةٍ﴾؛ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْقَلَ ذَرَّةٍ وَفُرْدَتْ لُحْمُكُمْ نَذِيرٌ لَّكُم مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبهة، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون أجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث. ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

يقول تعالى: من كُتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِدُ بِحَدِيثِكَ لَمَا كُنَّا بِلِقَائِكَ بِحَقٍّ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا مُرْسَلَهَا﴾ قال ابن عباس: منتهىها [الطبري ١٣٨/٩]، وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة. ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرُدَّ علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يعلم جليلة أمرها ومتى يكون على التحديد؛ أي: لا يعلم ذلك إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال قتادة: ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون، وقال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم.

وقال ابن عباس: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة [ابن أبي حاتم/٨٦١٠]، وقال ابن جريج: إذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله ﷻ، فذلك ثقلها، واختار ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن المراد: ثَقُلَ علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قاله، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم.

وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل.

﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ يبعثهم قيامها تأتيمهم على غفلة، وروى البخاري [٦١٤١] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لَفْحَتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيْطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا) [ورواه مسلم بمعناه/١٥٧].

وقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهُمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، ف قيل: معناه كما قال ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهُمْ﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم؛ كأنهم يرون أن محمداً حفيٌّ بهم، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يُطْلِعِ الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً، وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله ﷻ: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهُمْ﴾، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدي، وهذا قول، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهُمْ﴾ قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، وكذا قال ابن عباس: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهُمْ﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [انظر هذه الأقوال بأسانيدنا عند الطبري ١٤٠/٩].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولهذا لما جاء

جبريل ﷺ في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)؛ أي: لست أعلم بها منك ولا أحد بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤] [أخرجه في «الصحيحين»] [البخاري/ ٥٠ ومسلم/ ١٠].

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: (هَآؤُمْ) على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: (وَوَيْحَكَ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟) قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)، فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث، وهذا له طرق متعددة في «الصحيحين» [البخاري بنحوه/ ٥٨١٥ ومسلم/ ٢٦٣٩] وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين، ففيه أنه ﷺ كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتبهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته، ولهذا روى مسلم [٢٩٥٢] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: (إِنْ يَعْشُرْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ)؛ يعني: بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة، وروى مسلم [٢٩٥٣] عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابي فقال النبي ﷺ: (إِنْ يُؤَخَّرْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)، ورواه البخاري بأطول من هذا السياق، وهذا الإطلاق محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشة رضي الله عنها.

وروى النسائي [١١٦٤٥] عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، وهذا إسناد جيد قوي، فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب، والمقفى، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في «الصحيحين» من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ) وقرن بين أصعبيه السبابة والتي تليها [البخاري/ ٦١٣٩ ومسلم/ ٢٩٥١]، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب ولا اطلاع له

على شيء من ذلك إلا بما أطلع الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ أَرْضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً، وقال مثله ابن جريج، وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة [مسلم/٧٨٣]، وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبتته [رواه مسلم/٧٤٦]، فجميع عمله كان على منوال واحد؛ كأنه ينظر إلى الله ﷻ في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم، والأحسن في هذا ما روي عن ابن عباس ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾؛ أي: من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾ ولا يصيبني الفقر [ابن أبي حاتم/٨٦٢٤]، وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾ قال: لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير؛ أي: نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهَا لِنَ عَاتِيْنَا صَليحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩) ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَليحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠).

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم ﷺ، وأنه خلق منه زوجه حواء ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِيعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية [النساء: ١]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾؛ أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدة إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾؛ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله، وروي عن الحسن، وإبراهيم النخعي، والسدي نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته، وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به، وقال قتادة: استبان حملها، وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعت، وقال ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾؛ أي: صارت ذات ثقل بحملها،

وقال السدي: كبر الولد في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا﴾؛ أي: بشرًا سويًا، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ذكر المفسرون هاهنا آثارًا وأحاديث [منها ما] روى الإمام أحمد [٢٠١٢٩] في «مسنده» عن الحسن عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: (وَلَمَّا وَلَدَتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِيَهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّيْتُهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ) وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم [أحد رواة] قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. الثاني: أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعًا. الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه، روى ابن جرير [١٤٨/٩] عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

وروي عن الحسن أيضًا: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده؛ يعني: قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، وروي عنه كذلك أنه قال: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا، وأسانيدها صحيحة عن الحسن ﷺ أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فعن ابن عباس [كما روى الطبري ١٤٦/٩] قوله في آدم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ شَكَتْ أَحْبَلَتْ أَمْ لَا؟ ﴿فَلَمَّا أَتَتْ اللَّهَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدریان ما يولد لكما؟ أم هل تدریان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًا ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة، والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم، وهذا يظهر عليه - والله أعلم - أنه من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ) [رواه أحمد/١٧٢٦٤] ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام، فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ:

(حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ) [ابن حبان/٦٢٥٤]، وهو الذي لا يصدِّق ولا يكذب لقوله: (فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ)، وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وهو كالأستطارد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطارد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والله أعلم.

﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهْمَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ آرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعِينٌ يَنْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَدَّ إِلَيْكُم مُّرْجِعُهُمْ وَلَا يَبْصُرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾؛ أي: أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ مَا فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣) مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج: ٧٣، ٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويُسْتَنْصَر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾؛ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهْمَ نَصْرًا﴾؛ أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾؛ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿وَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَثِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان

معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح وكان سيِّداً في قومه صنم يعبد به ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان به العذرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنَّع به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلّياه في جبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهاً مُسْتَدِنَ لَمْ تَكِ وَالْكَلْبُ جَمِيعاً فِي قَرْنٍ

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه. وقوله: ﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْمُرَدِّ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾؛ يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، كما قال إبراهيم: ﴿يَتَّبِعْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مریم: ٤٢]، ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها؛ أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾؛ أي: استنصروا بها علي فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: الله حسبي وكافي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه الجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَآسَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٩٦] من دونه فكيدي جميعاً ثم لا تُنْظَرُونَ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [٩٧] إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [هود: ٥٤ - ٥٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكداً لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْمُرَدِّ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ نَدَعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما قال: ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يقابلونك بعيون مصورة؛ كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعبر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، وروي عن مجاهد نحوه، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [١٩٩] وَإِنَّمَا يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قال ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شيء

فخذه، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدي، وقال ابن عباس أيضًا: أنفق الفضل [ابن أبي حاتم/٨٦٧٨]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم، وفي «صحيح البخاري» [٤٣٦٧] عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس، وعن ابن عمر وعائشة أنهما قالتا مثل ذلك، والله أعلم.

وفي رواية عن ابن الزبير: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لاأخذه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال.

وقال البخاري [في الترجمة ١٧٠٣/٤] قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ العرف: المعروف، وعن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله ﷻ، انفرد بإخراجه البخاري [٤٣٦٦].

وقول البخاري: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير، والسدي، وقتادة، وابن جرير وغير واحد، وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفاً وعارفاً، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب، وقال قتادة في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس، فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ
أَمَرْتُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ دَوِي الْجَاهِ لِينَ

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يخرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

السَّيِّئَةُ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿المؤمنون: ٩٦ - ٩٨﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُوهَا؛ أَي: هذه الوصية ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦]، وقال في هذه السورة الكريمة أيضًا: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف وبالتي هي أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإن لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ﴾ وإما بغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاتهم ﴿فَاستَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن الله الذي تستعذ به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾؛ أي: أصابهم طائف، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾؛ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعد، ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾؛ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ها هنا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفيني، فقال: (إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ فَاصْبِرِي وَلَا حِسَابَ عَلَيْكَ) فقالت: بل أصبر ولا حساب عليّ [أحمد/٢٩٠٩]، ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت: يا رسول الله إني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: (إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيكَ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتِ وَلَكَ الْجَنَّةُ؟) فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف [أخرجه البخاري/٥٣٢٨ من حديث ابن عباس].

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ﴾؛ أي: وإخوان الشياطين من الإنس كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي

الْقَى؟ أَي: تساعدهم الشياطين على فعل المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الطبري ١٥٩/٩] قيل: معناه إن الشياطين تمد والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم، وعن ابن عباس أيضًا: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون [الطبري ١٥٩/٩]، وكذا قال السدي وغيره: يعني: أن الشياطين يمدون أوليائهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتري فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا [ذكره البخاري في الترجمة ١٧٥٩/٤] عن ابن عيينة.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيَاةٌ قَالُوا لَوْلَا أَلْجَبَتْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا أَلْجَبَتْنَاهَا﴾ لولا تلقيتها، وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها [ابن أبي حاتم/ ٨٧١٣]، وعن مجاهد قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك، وكذا قال قتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وعن ابن عباس قال: تلقيتها من الله ﷻ، وقال الضحاك: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيَاةٌ﴾؛ أي: معجزة وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، يقولون للرسول ﷺ: ألا تُجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمثل ما يوحى إلي، فإن بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمد كفار قريش في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك من الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما جاء من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا) وكذلك رواه أهل السنن [النسائي/ ٩٩٤ وأبو داود/ ٦٠٤ وابن ماجه/ ٨٤٦ والبيهقي/ ٢٧١٣] من حديث أبي هريرة، وصححه مسلم بن الحجاج [٤٠٤] أيضًا، وقد روى الإمام أحمد [١٠٣٢٣] وأهل السنن [البيهقي/ ٢٧٢٠ والدارقطني/ ٣٢ وابن ماجه/ ٨٤٨ والترمذي/

[٣١٢] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: (هَلْ قَرَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعِيَ آيَةً؟) قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: (إِنِّي أَقُولُ: مَا لِي أَنْزَعُ الْقُرْآنَ؟) قال: فانتهمى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازي، وعن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سرًّا في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًّا ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث: (مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَتُهُ لَهُ قِرَاءَةٌ) وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» [١٤٦٨٤] عن جابر مرفوعاً، وهو في «موطأ مالك» عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفاً، وهذا أصح وهذه المسألة مبسطة في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفًا على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضًا، والله أعلم.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾؛ يعني: في الصلاة المفروضة، وكذا روي عن عبد الله بن المغفل، وعن مجاهد قال: في الصلاة، وعنه قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة [وغيرهما]: أن المراد بذلك في الصلاة، وقال مجاهد أيضًا: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة، وعن عطاء مثله، وعن الحسن: في الصلاة وعند الذكر، وقال سعيد بن جبير: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة [انظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٩/ ١٦٤ وما بعدها]، وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة، وعن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئًا، قال: السكوت. وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦).

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرًا، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقد كان هذا قبل أن تفرض

الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هاهنا: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ وهو أول النهار، ﴿وَالْأَصَالِ﴾ جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله: ﴿نَضْرَعًا وَخِيفَةً﴾؛ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء ولا جهراً بليغاً.

وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) [البخاري/ ٢٨٣٠ ومسلم/ ٢٧٠٤]، وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا يَخَافُهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، وكذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والأصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾، وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ، كما جاء في الحديث: (أَلَا تُصَفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى، فَالْأَوَّلَ وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ) [رواه مسلم/ ٤٣٠]، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

آخر تفسير سورة الأعراف، والله الحمد والمنة



تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ .

روى البخاري [٤٣٦٨] عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال قال: نزلت في بدر، وعن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء [الطبري ١٧٥/٩]. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها الغنائم [الطبري ١٦٩/٩].

وروى ابن جرير [١٧٠/٩] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الفرس من النفل والسلب من النفل. وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن مسعود ومسروق [كما رواه ابن أبي حاتم/ ٨٧٦٤]: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف، وقال عطاء بن أبي رباح ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء [الطبري ١٧٠/٩]، وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال، وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، ويعني هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد [١٥٣٨] عن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: (إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا لَكَ، وَلَا لِي، ضَعُهُ) قال: فوضعت، ثم رجعت قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيء؟ قال: (كُنْتَ سَأَلْتَنِي السَّيْفَ، وَلَيْسَ هُوَ لِي وَإِنَّهُ قَدْ وَهَبَ لِي، فَهُوَ لَكَ). قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ورواه أبو داود [٢٧٤٠]، والترمذي [٢٧٤٠ بنحوه]، والنسائي [١١١٩٦]، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي.

روى أحمد [٢٢٨١٤] عن عباد بن الصامت، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكلُّ الناس راجعًا نفل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: (لِيُرَدَّ قَوِيُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعِيفِهِمْ)، ورواه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ورواه ابن حبان في «صحيحه» [٤٨٥٥] والحاكم في «مستدركه» [٤٣٧٠]، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها»: أما الأنفال فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى، قلت: هكذا روي عن ابن عباس سواء، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة، قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السُّنَّة، ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمة، فهذا أصل النفل، قلت: شاهد هذا ما في «الصحيحين» عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: (أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي) - فذكر الحديث إلى أن قال - (وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي) [البخاري/٤٢٧ ومسلم/٥٢١]، وذكر تمام الحديث، ثم قال أبو عبيد: ولهذا سُمِّيَ ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكايه في العدو، وفي النفل الذي ينفله الإمام سُنَنُ أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى: فأحدها: في النفل لا خمس فيه وذلك السلب، والثانية: في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس، والثالثة: في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نفل منه على قدر ما يرى. والرابعة: في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسُّوَّاق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا، ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فَإِنَّهُ يَقْسِمُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله على المؤمنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم [ابن أبي حاتم/ ٨٧٦٧] وكذا قال مجاهد، وقال السدي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: لا تستبوا.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٤﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه [ابن أبي حاتم/ ٨٧٧٧]. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: زادتهم تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرَقَتْ؛ أي: فرغت وخافت، وكذا قال السدي وغير واحد، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه؛ أي: خاف منه، ففعل أو أمره وترك زواجه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَنْجُو﴾ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٤﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال السدي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهيم بمعصية فيقال له: اتق الله فَيَجِلُ قلبه، وروى الثوري عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك [روى البيهقي نحوه في شعب الإيمان/ ١١٣٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ويعلمون أنه ما شاء كان،

وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فأنفقوا مما أعطاكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقال عمرو بن مرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقًا، وفي القوم سادة، وفلان شاعر حقًا، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات، وقال الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقٍ مِنَ أَفَاقِ السَّمَاءِ). قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال: (بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) [البخاري بنحوه/٣٠٨٣ ومسلم/٢٨٣١]، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد [١١١٢٢]، وأهل السُّنَنِ [ابن ماجه/٩٦ بنحوه والترمذي/٣٦٥٨] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاوُنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا) [وهو حسن].

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبِّهَ به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربَّهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله، ثم روي عن عكرمة نحو هذا، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاحتم فيها فانترعها الله منكم وجعلها إلى قسمة وقسَّم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة الثامنة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفيِر الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم وجَمَعَ به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. قال ابن جرير [١٨١/٩] وقال آخرون معنى ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق، وقال السدي: أنزل الله في خروجهم إلى بدر ومجادلتهم إياه، فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرَبِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أَخْرَجْنَا لِلْعِيرِ ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف وثمانين أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا وجاء النفيِر فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيِر أوحى الله إليه يعذه إحدى الطائفتين إما العير وإما النفيِر، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَوَدُّوكُمْ أَنْ غَيْرَ الذِّكْرِ تَكُونُوا لَكُمْ وَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيئوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرَبِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الطبري ١٨٣/٩]، وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال، وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: كراهية اللقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم، وقال السدي: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾؛ أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به، قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك المشركين، [قاله] ابن زيد، والصواب قول ابن عباس،

وابن إسحاق: أنه خبر عن المؤمنين، وهذا الذي نصره ابن جرير: هو الحق وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم، وروى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ [٢٨٧٥] عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعرير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب، وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله ﻻ يملك إلا ما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك. إسناده جيد [ورواه الترمذي/٣٠٨٠]، وقال: حسن صحيح، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة، ولا قتال تكون لهم وهي العير، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾؛ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليُظْفَرَكُم بِهِمْ وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وروى محمد بن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد الله بن عباس قال: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، فاندب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً [انظر الطبري ٩/١٨٥]، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال، فأحسن، ثم قام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال، فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد؛ يعني: مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ) وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: (أَجَلْ) فقال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما

جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: (سِيرُوا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظَرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ) [الطبري نحوه ١٨٦/٩]، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّئُكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾.

روى الإمام أحمد [٢٠٨] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: (اللَّهُمَّ أَتَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَنْجِرْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعَذِّبْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا) قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّئُكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ فلما كان يومئذ التقوا، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً فقال رسول الله ﷺ: (مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟) قال: قلت: والله ما أرى ما أرى أبو بكر ولكني أرى أن تُمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر: غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان فقلت: يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما. قال النبي ﷺ: (لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، قَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ) لشجرة قريبة وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِيْنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ﴾ - إلى قوله - ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما

صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته وهُشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتُمْ مَصِيبَهُ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء، ورواه مسلم [١٧٦٣]، وأبو داود [٢٦٩٠]، والترمذي [٣٠٨٤]، وابن جرير [١٨٩/٩]، وابن مردويه، وصححه علي بن المديني والترمذي، وهكذا روي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أنها في دعاء النبي ﷺ، وكذا قال يزيد بن يُثيعة، والسدي، وابن جرير [الطبري ١٩٠/٩]، وروى البخاري [٣٧٣٦] في كتاب «المغازي» باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿فَكَرَبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره؛ يعني: قوله. وروى أيضاً [٤٥٩٦] عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: (اللَّهُمَّ أَشْهَدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ) فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سَبِّحْهُمْ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الذُّبُرُ﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ مِنَ الْمَلَايِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: يردف بعضهم بعضاً كما قال ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين، ويحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم؛ أي: نجدة لكم كما قال ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يقول: الممدد، كما تقول: ائت للرجل فزده كذا وكذا، وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ وابن زيد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ مُدِّين، والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَةً، وميكائيل في خمسمائة مُجَنَّبَةً [الطبري ١٩٥/٩]، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير، ومسلم [١٧٦٣] عن ابن عباس، عن عمر قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً قال: فنظر إليه فإذا هو قد حُطِمَ أنفه وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: (صَدَقْتُ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ)، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين، وروى البخاري [٣٧٧١] عن رفاعه بن رافع الزرقى - وكان من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: (مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ) أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة. انفرد بإخراجه البخاري.

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: (إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) [البخاري/٤٠٢٥ ومسلم/٢٤٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الآية؛ أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشري ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فِيمَا مَثًا بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هَلُمَّ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَارٌ لِّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَلِيَمِحْصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدبور، وشمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين للكافرين، أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿فَتَبْلُوهُمْ بِعَدَّتِهِمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنُصْرَتِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ﷻ.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْرَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَمُ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانًا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُّعَاسًا يُغَشِّي طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]،

قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارًا يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الجَحَف [أخرجه البخاري/ ٣٨٤١]، وروى الحافظ أبو يعلى [٢٨٠] عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلّا نائم، إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح [رواه أحمد/ ١٠٢٣] وإسناده صحيح، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان [الطبري ١٩٣/٩]، وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب، قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جدًّا، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضًا وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا جاء في «الصحيح» أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله صلى الله عليه وآله سنة من النوم ثم استيقظ مبتسمًا فقال: (أَبَشِّرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَائِهِ النَّعْ) ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهْرُمُ الْكَبُوعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] [روى البخاري معناه عن ابن عباس/ ٣٧٧٣].

وقوله: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال ابن عباس: نزل النبي صلى الله عليه وآله حين سار إلى بدر، والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنّبين فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه صلى الله عليه وآله والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة [الطبري ١٩٥/٩].

والمعروف أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك؛ أي: أول ماء وجده فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: (بَلْ مَنْزِلٌ نَزَلَتْهُ لِلْحَرْبِ وَالْمَكِيدَةِ)، فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله صلى الله عليه وآله ففعل كذلك.

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهسًا فأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم، وروى ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر؛ يعني: الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر؛ فانطلقنا تحت الشجر والجَحَف نستظل تحتها من المطر وبات

رسول الله ﷺ يدعو ربه: (اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ)، فلما أن طلع الفجر نادى الصلاة عباد الله، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال.

وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾؛ أي: من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿وَلِيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وأزروهم، وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم، وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم؛ يعني: المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم حكاة ابن جرير وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾؛ أي: ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألتني الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي. ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: اضربوا الهام فافلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم، وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة وقيل: معناه «فوق الأعناق»؛ أي: على الأعناق وهي الرقاب. قاله الضحاك وعطية العوفي، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَنُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به [ابن أبي حاتم/ ٨٨٧٦].

وقوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة، وقال ابن عباس: يعني: بالبنان: الأطراف [الطبري ١٩٩/٩] وكذا قال الضحاك، وابن جريج، وقال السدي: البنان الأطراف ويقال: كل مفصل. وقال عكرمة وعطية العوفي والضحاك في رواية أخرى [ابن أبي حاتم/ ٨٨٨١]: كل مفصل، وقال الأوزاعي: اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك [ابن أبي حاتم/ ٨٨٨١]. وروى ابن عباس قصة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذاً حتى تُعرفوهم الذي صنعوا من

طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَنِيئُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين؛ يعني: قتيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شقٍّ، وهو مأخوذ أيضاً من شقِّ العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾؛ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا خطاب للكفار؛ أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ إِلَّا الدُّبَارَ ۚ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾؛ أي: تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿فَلَا تُولُوهُمْ إِلَّا الدُّبَارَ﴾؛ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ﴾؛ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير، والسدي، وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غيرةً من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾؛ أي: فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة، روى الإمام أحمد [٥٣٨٤] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة، فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: (مِنْ الْقَوْمِ؟) فقلنا: نحن الفرارون فقال: (لَا بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ، أَنَا فِتْنُكُمْ، وَأَنَا فِتْنَةُ الْمُسْلِمِينَ) قال: فأتيناه حتى قبلنا يده، وهكذا رواه أبو داود [٢٦٤٧]، والترمذي [١٧١٦ بنحوه]، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن. قال أهل العلم: معنى قوله: «العكارون»؛ أي: العطافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس أنا فتنكم. [وذلك في وقعة الجسر]، وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم [ابن أبي حاتم/٨٨٩٨]، وروى ابن أبي حاتم [٨٨٩٧] عن نافع أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول:

﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ تُؤَلُّوهُمْ أَلاَذْبَارُ﴾ الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها، وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَيْكَ فَتَنَةً﴾: المتحيز الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري [١٤٢٨٤]، ومسلم [٨٩] في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ) قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾؛ أي: رجع ﴿بِعَصْبِ بْنِ اللَّهِ وَمَأُونَةٍ﴾؛ أي: مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿جَهَنَّمَ وَيُسَكِّ الْمَصِيرُ﴾.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة لأنه - يعني: الجهاد - كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة والضحاك وغيرهم، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصاية لها شوكة يفيزون إليها سوى عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلُكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ) [سبق تخريجه قريباً]؛ ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ﴾ قال: ذلك يوم بدر فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال: فلا بأس عليه، وقال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَصْبِ بْنِ اللَّهِ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

وفي «سنن أبي داود» [٢٦٤٨]، و«النسائي» [٨٦٥٤]، و«مستدرک الحاكم» [٣٢٦٢]، و«تفسير ابن جرير» [٢٠٢/٩]، وابن مردويه «من حديث أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ﴾ إنما أنزلت في أهل بدر، وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَرِيهُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾.

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو

الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتهم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم؛ أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذَلُّ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَّتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، يُعَلِّمُ تبارك وتعالى أن النصر ليس عن كثرة العدد ولا بلبس الألة والعُدَد، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضًا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه فرماهم بها وقال: (شَاهَتِ الْوُجُوهُ)، ثم أمر أصحابه أن يصدّقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت. قال ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه؛ يعني: يوم بدر فقال: (يَا رَبِّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ، فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا) فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين [روى ابن حبان]

القصة بنحوه/ ٦٥٠٢ والحاكم/ ٥٨٣].

وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة وغير واحد من الأئمة أنه أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا.

وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَلِيَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾؛ أي: ليُعرف المؤمنين من نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته [ابن أبي حاتم/ ٨٩١٤]، وهكذا فسره ابن جرير أيضًا، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغرًا أمرهم وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا﴾؛ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتكم كما قال محمد بن إسحاق [كما رواه عنه ابن أبي شيبه/ ٣٦٦٧٤] وغيره عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْرٍ؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللَّهُمَّ أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأخذه الغداة، وكان ذلك استفتاحًا منه فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا

فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴿٢٠﴾ إلى آخر الآية، ورواه أحمد [٢٣٧١٠]، وأخرجه النسائي [١١٢٠١] في التفسير، وكذا رواه الحاكم في «مستدركه» [٣٢٦٤] وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وروي نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رومان وغير واحد، وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللَّهُمَّ انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين، فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾؛ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]؛ معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدي: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾؛ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعَذِّبْكُمْ﴾؛ أي: إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه والأول أقوى. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾؛ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٣) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾؛ أي: تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾؛ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد المشركون واختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾؛ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْيِ بَعِثْنَا لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفرٌ من بني عبد الدار من قريش روي عن ابن عباس، ومجاهد واختاره ابن جرير [٢١٢/٩]، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح

والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهمًا فقال: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي: لأفهمهم وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قال البخاري: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم، وروي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾) ثم قال: (لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ)، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. قال: (﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السَّعْيُ الْمَثَانِي) [البخاري/٤٣٧٠]. هذا لفظه بحروفه، وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال الحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة، وقال السدي: ففي الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر، وقال عروة بن الزبير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد الفهر منهم لكم [ابن أبي حاتم/٨٩٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، رواه الحاكم في «مستدركه» [٣٢٦٥] موقوفًا، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي، وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى يتركه لا يعقل، وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، وقال قتادة: هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية، روى الإمام أحمد [١٢١٢٨] عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: (يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ). قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: (نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ تَعَالَى يُقَلِّبُهَا)، وهكذا رواه الترمذي [٢١٤٠]، وصححه الحاكم [١٩٢٧].

وروى الإمام أحمد [١٧٦٦٧] عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: (مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَزَاغَهُ)، وكان يقول: (يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ). قال: (وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ) وهكذا رواه النسائي [بنحوه/٧٧٣٨]، وابن ماجه [١٩٩]، وصححه ابن حبان/٩٣٤.

وروى الإمام أحمد [٦٥٦٩] عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ كَيْفَ شَاءَ)، ثم قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ) انفرد بإخراجه مسلم [٢٦٥٤] عن البخاري.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥).

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة؛ أي: اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما روى الإمام أحمد [١٤١٤] عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت، وقد رواه البزار [بنحوه ٩٧٦]، وروى النسائي [١١٢٠٦] نحو هذا، [وهو حديث صحيح].

وقال داود بن أبي هند عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم، وقال الزبير: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعينون بها ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقد روي من غير وجه عن الزبير بن العوام، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتلوا، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؛ يعني: أصحاب النبي ﷺ خاصة، وعنه أيضاً في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأياكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير [انظر الأقوال السابقة بأسانيدھا عند الطبري ٢١٨/٩].

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف.

روى الإمام أحمد [١٨٣٩٥] عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا وَالْمُذْهَبِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا وَأَوْعَرَهَا وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا الْمَاءَ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَأَذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَأَمَرَهُمْ

هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا جَمِيعًا) انفرد بإخراجه البخاري [٢٣٦١] دون مسلم.
وروى الإمام أحمد [١٩٢٥٠] عن جرير أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرُوهُ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ)، وأخرجه ابن ماجه [بلفظ قريب/٤٠٠٩، وهو حديث حسن].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَاءُ فَثَاوَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرتهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء فرزقهم من الطيبات واستشكرهم، فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقتلهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقبض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وآسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعرأه جلوداً وأبينه ضللاً مكعومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُخسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيّاً، ومن مات منهم رُدِّي في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم مُنْعِمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾

روى ابن جرير [٢٢٢/٩] عن المغيرة بن شعبه قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

وفي «الصحيحين» قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: (دَعُهُ، فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، مَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ). [سبق تخريجه قريباً].

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم

اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية.

وقال ابن عباس: ﴿وَحَوَّنُوا أَمَنَتَكُمْ﴾ الأمانة، الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد؛ يعني: الفريضة. يقول: ﴿لَا تَحَوَّنُوا﴾ لا تنقضوها، وقال في رواية: ﴿لَا تَحَوَّنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته [ابن أبي حاتم/ ٨٩٧٨].

وقال عروة بن الزبير في هذه الآية: أي: لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم [ابن أبي حاتم/ ٨٩٧٩]، وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم، وقال أيضًا: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون [الطبري ٢٢٢/٩].

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ أَوْلَاكُمْ وَأُولَدُكُمْ فَتَنَّهُ﴾؛ أي: اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تستغلون بها عنه وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا آمَنَ أَوْلَاكُمْ وَأُولَدُكُمْ فَتَنَّهُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّهُ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تِلْكَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة، وفي «الصحاحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ) [البخاري بلفظ قريب/ ١٦ ومسلم/ ٤٣]. بل حب رسوله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في «الصحاحين» أنه ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [البخاري نحوه/ ١٥ ومسلم/ ٤٤].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان [كما أورد الطبري ٢٢٥/٩]: ﴿فُرْقَانًا﴾ مخرجاً، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس: ﴿فُرْقَانًا﴾ نجاة، وفي رواية عنه: نصرًا، وقال محمد بن إسحاق: أي: فصلاً بين الحق والباطل، وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجه وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه - وهو محوها - وغفرها: سترها عن الناس -

وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ (٢٠).

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك، وقال عطاء وابن زيد: ليجبسوك، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

وقد روى ابن حبان [٦٥٠٢ بنحوه] في «صحيحه»، والحاكم [٥٨٣] في «مستدركه» عن ابن عباس، قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: (مَا يُبْكِيكِ يَا بُنَيَّةُ؟) قالت: يا أبت وما لي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: (يَا بُنَيَّةُ ائْتِنِي بَوْضُوءَ) فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رآوه قالوا: ها هو ذا فطاطأوا رؤوسهم وسقطت أذقانهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: (شَاهَتِ الْوُجُوهُ) فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة. [وهو كذلك]، وروى الإمام أحمد [٣٢٥١] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي ﷺ على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقترضوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال. [وهو حسن كما قاله ابن كثير في «البداية والنهاية»، والحافظ في «الفتح»]، وعن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾؛ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تَنَازَعْتُمْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَاذْكُرُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكُمْ وَأَنْتُمْ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢).

يخبر تعالى عن كفر قريش وعُتُوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين

تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿فَدَسَمْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد تُحَدَّثُوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم.

ومعنى ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو جمع أسطورة؛ أي: كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلِكُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦]؛ أي: لمن تاب إليه وأتاب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيَّبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِهِ وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَةً قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [البخاري/٣٧١ ومسلم/٢٧٩٦].

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية قال: قال ذلك سَفَهَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَجَهْلَتِهَا فَعَادَ اللَّهُ بِعَائِدَتِهِ وَرَحِمَتِهِ عَلَى سَفَهَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَجَهْلَتِهَا.

وقال ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليُعَذِّبَ قَوْمًا وَأَنْبِيَائُهُمْ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ حَتَّى يَخْرِجَهُمْ، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار - يستغفرون؛ يعني: يصلون؛ يعني: بهذا أهل مكة، وروي عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك، وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة، وقال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داموا بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وروى الإمام أحمد [١١٢٥٥] في «مسنده» والحاكم [٧٦٧٢] في «مستدرکه» عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعَزَّتْكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي)، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْفٰنُونَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسرت سراتهم وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد، وقال قتادة، والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا، واختاره ابن جرير [٢٣٦/٩]، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُمُوًا أَنْ يَبْلُغَ أَجَلَكُمْ ۚ وَتِلْكَ أَجَلٌ مُّؤَمَّنُونَ وَبِئْسَ أَجَلٌ يُؤَمَّنُونَ ۚ لَمْ تَلْمَوْهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ بِحَيْرٍ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] .

روى ابن جرير [٢٣٤/٩] عن ابن أبي رزق قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] قال: وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها يستغفرون؛ يعني: بمكة فلما خرجوا أنزل الله ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم. [وهو حسن]، وروي عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد نحو هذا، وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم . وقال ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [ابن أبي حاتم/ ٩٠٢٩] .

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْفٰنُونَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧] ، وقال تعالى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧] .

وروى الحاكم [٣٢٦٦] في «مستدركه» عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشًا فقال: (هَلْ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ؟) فقالوا: فينا ابن أختنا وفينا

حليفنا وفيما مولانا فقال: (حَلِيفُنَا مِنَّا، وَابْنُ أُخْتِنَا مِنَّا، وَمَوْلَانَا مِنَّا، إِنَّ أَوْلِيَاءِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ). ثم قال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال عروة، والسدي، ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقال مجاهد: هم المجاهدون، مَنْ كانوا وحيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال عبد الله بن عمرو، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء العطاردي، ومحمد بن كعب القرظي، وحجر بن عنبس، ونبيط بن شريط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصغير، وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم، وقال السدي: المكاء: الصغير على نحو طير أبيض يقال له: «المكاء» ويكون بأرض الحجاز، والتصدية، التصفيق [ابن أبي حاتم/ ٩٠٤٥]، روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تصفر وتصفق والمكاء: الصغير وإنما شبهوا بصغير الطير وتصدية التصفيق، وكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العوفي، وحجر بن عنبس، وابن أبيزى نحو هذا، وعن عطية، عن ابن عمر قال: المكاء: الصغير، والتصدية، التصفيق، وحكى عطية فعل ابن عمر، فصفر ابن عمر وأمال خده وصفق يديه، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون [ابن أبي حاتم ٩٠٤٥]، وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال، قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال: صدهم الناس عن سبيل الله ﷻ [الطبري ٢٤٣/٩].

قوله: ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ يَمَّا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قال الضحاك، وابن جريج، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، واختاره ابن جرير [٢٤٤/٩] ولم يحك غيره، وعن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُنَّ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بغيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد

وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربته لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسُيْفَتُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ [الطبري ٢٤٥/٩]، وهكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحكم بن عتيبة، وقتادة، والسدي، وابن أبيزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ، وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر، وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليدردوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: ندامة حيث لم تجد شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله مقيم نوره ولو كره الكافرون، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي؛ ولهذا قال: ﴿فَسُيْفَتُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال ابن عباس: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء [الطبري ٢٤٦/٩]، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر [الطبري ٢٤٧/٩]، وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَيَرَىٰ بَيْنَهُمُ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِرُ يَنْفِقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمِذِرُ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْتَدُوا إِلَيْهَا يَوْمَ الْفُجْرِ﴾ [يس: ٥٩]، ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله؛ أي: إنما أقدراهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾؛ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ اتَّفَقَ الْجَمْعَانِ فَيَإِذْنِ اللَّهِ وَلِعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدراهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض. ﴿فَيَرْكُمُهُ﴾؛ أي: يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾ [النور: ٤٣]؛ أي: متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَقَدْ نُهُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ (٣٩) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُلْكُكُمْ نِعَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ (٤١).

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: عما هم فيه من الكفر

والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف؛ أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي وائل، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يَأْخُذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخَذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ) [البخاري/٦٥٢٣ ومسلم/١٢٠]، وفي «صحيح مسلم» [بألفاظ قريبة/١٢١] أن رسول الله ﷺ قال: (الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا) [جزء من حديث طويل].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾؛ أي: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة، وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقال السدي، ومحمد بن إسحاق؛ أي: يوم بدر.

وقوله: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ﴾ روى البخاري [٤٣٧٣] عن نافع، عن ابن عمر أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية [الحجرات: ٩]، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أعير بهذه الآية، ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في علي، وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قلتي في علي، وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

وقال ابن عباس: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾؛ يعني: حتى لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم [ابن أبي حاتم/١٧٣٤]، وعن عروة بن الزبير، وغيره ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

وقوله: ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ﴾ قال ابن عباس: يخلص التوحيد لله [ابن أبي حاتم/٩٠٧٥]، وقال الحسن، وقتادة، وابن جريج: أن يقال لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويُخْلَع ما دونه من الأنداد [عمدة القاري ٢٥٠/١٨].

ويشهد لهذا ما ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ) [البخاري/٦٥٢٦ ومسلم/٢١]، وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً؛ أي: ذلك في سبيل الله ﷻ؟ فقال: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ) [البخاري/١٢٣ ومسلم/١٩٠٤].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾؛ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفّوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال لأسامة، لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: (أَقْتَلْتُهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) قال: يا رسول الله، إنما قالها تعودًا، قال: (هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟) وجعل يقول ويكرر عليه، (مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) قال لأسامة: حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم [البخاري بنحوه ٦٤٧٨ ومسلم نحوه ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾؛ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم، سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير.

روى محمد بن جرير [٢٤٩/٩] عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنك كتبت إلي تسألني، عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعَمَ النبي، ونعم السيد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خيرًا، وعرفنا وجهه في الجنة، وأحيانًا على ملته وأمانتنا وبعثنا عليها، وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطوائف من قريش لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح، يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُشْنَى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش يتجرون فيها، وكانت مسكنًا لتجارهم يجدون فيها رفاعًا من الرزق، وأمنًا ومتجرًا حسنًا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهرها بمكة، وخافوا عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم، ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءً عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى: هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفارًا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال، فلما استرخي عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدثوا باسترخائهم عنهم، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخي عن من كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة وكادوا

يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون، وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تأمرت على أن يفتنوهم ويشدوا، فأخذوهم فحرسوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة: لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة، ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهدهم ومواثيقهم، على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئنا فإننا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش، عند ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه، أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله ﷻ فيها: ﴿وَقُلْ لَّهُمْ حَقِّي لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّهُ لِّلَّهِ﴾، وهذا صحيح إلى عروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ أَجْمَعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١).

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة من إحلال المغانم، والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب، والفية: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يُصالحون عليها أو يُتَوَفَّونَ عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ توكيد لتخمين كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.

وقال آخرون: ذكر الله هاهنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله ﷺ. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾، مفتاح كلام ﷻ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [الحشر: ١] فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً، وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن البصري وعطاء وغير واحد، أن سهم الله ورسوله واحد، ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي [١٢٦٤١]، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: (خُمُسُهَا، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجَيْشِ). قلت: فما أحد أولى به

من أحد؟ قال: (لَا وَلَا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَيْبِكَ، لَيْسَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ).

ثم اختلف قائلوا هذا القول، فعن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربح الله وللرسول ﷺ، ولذي القربى؛ يعني: قرابة النبي ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل [الطبري ٤/١٠]، وقال عبد الله بن بُرَيْدَةَ في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه [ابن أبي حاتم/٩٠٨٩]، وقال عطاء بن أبي رباح: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء [ابن أبي حاتم/٩٠٨٨]؛ يعني: النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد [٢٢٧٥١] عن المقدم بن معد يكرب الكندي، أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنمليته، فقال: (إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ، وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأَذُوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ، وَأكْبِرْ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرْ، وَلَا تَغْلُوا، فَإِنَّ الْغُلُولَ نَارٌ وَعَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ فِي اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، وَلَا تَبَالُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأَيْمٍ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٌ، يُنَجِّي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ)، هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه، ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول، وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبداً أو أمةً أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء، وروى الإمام أحمد [٢٤٤٥] والترمذي [١٥٦١] وحسنه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت صفية من الصَّفِيِّ، رواه أبو داود [٢٩٩٤] في «سننه»، وروى أيضاً [أبو داود/٢٩٩٩] بإسناده والنسائي [٤٤٤٨] أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها (مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى بَنِي زُهَيْرِ بْنِ أَيْقِشٍ، إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَقِمْتُمْ الصَّلَاةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَأَدَيْتُمُ الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ، وَسَهْمَ النَّبِيِّ ﷺ، وَسَهْمَ الصَّفِيِّ، أَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ). فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ، فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوتها، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له

صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضًا في الذي كان يناله ﷺ من الخمس، ماذا يُصنع به مَنْ بعده، فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، روي هذا عن أبي بكر، وعلي، وقتادة، وجماعة، وجاء فيه حديث مرفوع، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين، وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير، وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى، مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير. وعن قيس بن مسلم، سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى، عن قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة، ثم اختلف الناس في هذين السهمين، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده، وقال قائلون: لقربة النبي ﷺ وقال قائلون: سهم القرابة لقربة الخليفة، فاجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر، وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر، وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه [انظر ما سبق بأسانيده عند الطبري ٧/١٠]، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم، وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَيَّةٌ للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا أبناء عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابدوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم.

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: (إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ) رواه مسلم [البخاري/٣٩٨٩ ولم أجده عند مسلم]، وفي بعض روايات هذا الحديث: (إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ) [البيهقي/١٢٧٣٢]، وهذا قول جمهور العلماء، إنهم بنو هاشم وبنو المطلب، قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روي عن مجاهد، قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك، قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها.

وقوله: ﴿وَأَلَيْتَنِي﴾؛ أي: يتامى المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالأيتم الفقراء،

أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم، ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تُقَصَّرُ فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾؛ أي: امثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس، أن رسول الله ﷺ قال لهم: (وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ - ثُمَّ قَالَ -: هَلْ تَذَرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ) [البخاري/ ٤١١٠ ومسلم/ ١٧]، الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ أي: في القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْأَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه، بما فَرَّقَ به بين الحق والباطل بيدر، ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فَرَّقَ الله فيه بين الحق والباطل. رواه الحاكم [٤٣٠٧]، وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان وغير واحد إنه يوم بدر، وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك [الطبري ٩/١٠]، ورواه ابن مردويه، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان [ابن أبي شيبة/ ٩٥٣١]، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إذ أنتم نزلوا بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾؛ أي: البعيدة التي من ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾؛ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: مما يلي سيف البحر، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾؛ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ﴾، وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون، يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد [رواه البخاري/ ٣٧٣٥].

وقال محمد بن إسحاق في «السيرة» [انظر سيرة ابن هشام ١/١٥٣]: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء، بعث بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الرُّغْبَاء الجهنين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدرًا، فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شئ لهما من الماء، فسمعا جاريتين تختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني حقي، وتقول الأخرى: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأقضيكَ حقك، فخلص بينهما مجدي بن عمرو، وقال: صدقت، فسمع بذلك بسبس وعدي، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه الخبر، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر، فتقدم أمام عيره، وقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا، والله، إلا أنني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا في شئ لهما ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما ففَّته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره فانطلق بها فساحل، حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً فنقطع بها الطعام، ونحرب بها الجُزُر، ونسقي بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً، فقال الأخنس بن شريق: يا معشر بني زُهرة، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فأطاعوه فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها، ولا بنو عدي.

قال محمد بن إسحاق: وحَدَّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر، علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما ذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم، وقال: (إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرْبُتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُم تَرَكَتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ) قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكتيب: الْعَقَنَقْلُ، فقال لهما رسول الله ﷺ: (كَمْ الْقَوْمُ؟) قالوا: كثير. قال: (مَا عِدَّتُهُمْ؟) قالوا: ما ندري. قال: (كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟) قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال رسول الله ﷺ: (الْقَوْمُ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَاةِ إِلَى الْأَلْفِ) ثم قال لهما: (فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟) قالوا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختری بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال:

(هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلَقْتُ إِلَيْكُمْ أَفْلَادَ كَيْدِهَا) [ذكره ابن هشام في كتاب السيرة ٣/ ١٦٤]، قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، وننيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى، فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبًا منهم، لو علموا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك، فأتني عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به، فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تُصَوِّبُ من العقنقل، وهو الكثيب، الذي جاؤوا منه إلى الوادي، قال: (اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِفَخْرِهَا وَخِيَلَانِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ أَجْنُهُمُ الْعُدَاةُ) [السيرة لابن هشام ٣/ ١٦٨].

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، قال محمد بن إسحاق: أي: ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد، وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير معاد، لينصركم عليهم، ليصير الأمر ظاهرًا، والحجة قاطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك؛ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾؛ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾؛ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنْتَعِمُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤).

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلًا، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تشييتًا لهم [الطبري ١٠/ ١٢]، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها.

وقوله: ﴿لَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ﴾؛ أي: لجبنتم عنهم، واختلستم فيما بينكم، ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ أي: من ذلك، بأن أراكم قليلًا ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضًا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلًا في رأي العين، فيجروهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً [الطبري ١٠/١٣]. وقوله: ﴿وَيَقْلُكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ روى ابن أبي حاتم [٩١٢٨] عن عكرمة رضي الله عنه ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلُكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض، إسناده صحيح، وقال عبد الله بن الزبير [كما روى ابن أبي حاتم/٩١٢٩ بنحوه] في قوله تعالى: ﴿لَيَقْصِيَ اللَّهُ أُمُراً كَانَتْ مَعْمُولًا﴾؛ أي: ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته؛ ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ أُتِفَتُوا فَتُتِلُّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرٌ بِهِرُونَهُمْ مَنِيَّتُهُمْ رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منهما حق وصدق، والله الحمد والمنة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ فَتُكَ فَاتَّبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٥] و﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤٦].

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ فَتُكَ فَاتَّبَتُوا﴾. ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)، ثم قام النبي ﷺ، وقال: (اللَّهُمَّ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ) [البخاري/٢٨٠٤ ومسلم/١٧٤٢].

وقال قتادة في هذه الآية: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون عند الضراب بالسيوف [الطبري ١٠/١٤]، وعن ابن جريج عن عطاء، قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية [ابن أبي حاتم/٩١٣٣]، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم، وقال كعب الأحبار: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ فَتُكَ فَاتَّبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [ابن أبي حاتم/٩١٣٢]، فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفرو ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم. ﴿وَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: قوتكم، وما كنتم فيه من

الإقبال، ﴿وَأَصْرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وقد كان للصحابه ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علّت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمريتهم إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمَتَفَقِفُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩).

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾؛ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر [ابن أبي حاتم/٩١٤٩]، وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأُنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الطبري ١٨/١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية، حسن لهم - لعنه الله - ما جاءوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، سيد بني مُدَلَج كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر، سار إبليس برأيته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية [الطبري ١٩/١٠].

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل ﷺ تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له

بالملائكة، فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني: بعبادته لمن أطاعه، قوله تعالى: ﴿كَتَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريب، أن رسول الله ﷺ قال: (مَا رُئِيَ إِبْلِيسُ فِي يَوْمٍ هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَحَقَرُ وَلَا أَذْخَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَذَلِكَ مِمَّا يَرَى مِنْ نُزُولِ الرَّحْمَةِ وَالْعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ). قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: (أَمَا إِنَّهُ رَأَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَزِعُ الْمَلَائِكَةَ) [الطبري ١٩/١٠] وهذا مرسل من هذا الوجه، [وله شواهد يتقوى بها].

وقوله: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال ابن جريج في قوله: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قاله يوم بدر [الطبري ٢١/١٠]، وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ [الطبري ٢١/١٠]، وقال مجاهد: فئة من قريش، خرجوا مع قريش من مكة، وهم على الارتياح فحبسهم ارتياحهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: لا يُضَام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ٥١﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال مجاهد: ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾ استأههم، قال: يوم بدر. قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون

بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا لولا أدركتهم الملائكة فضربوا أذبارهم [الطبري ٢٢/١٠]، وقال سعيد بن جبیر: يضربون وجوههم وأذبارهم قال: وأستأهم، ولكن الله يُكْنِي، وكذا قال عُمَرُ مولى عُفْرَةَ، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَظْهَرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم يأمرونهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما جاء في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سُمُومٍ وحميم، وظلٌّ من يحوم، فتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر تعالى: أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق [أخرج النسائي معناه، ١١٤٤٢].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ﴾؛ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ لَئْسَ يَظْلَمُ لِلْعَبِيدِ﴾؛ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجوز تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، عند مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٢٥٧٧]، من رواية أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذْنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٢﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا؛ أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذْنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْذِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذْنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ٥٤﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا

بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ مَا يُقَوْمُ حَتَّى يُغْفِرُوا مَا يَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمِ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُنْقُوتُونَ ﴿٥٦﴾ فِيمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أخبر تعالى: أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يُنْقُوتُونَ﴾؛ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام. ﴿فِيمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾؛ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾؛ أي: نكل بهم، قاله ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة [ابن أبي حاتم/٩١٨٢]، ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً، ليخاف مَنْ سِوَاهُمْ من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصبروا لهم عبرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾؛ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء؛ أي: تستوي أنت وهم في ذلك، وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ أي: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾؛ أي: حتى ولو في حق الكافرين لا يحبها أيضاً، روى الإمام أحمد [١٧٠٥٦] عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاها، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: (وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلُّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدُّهَا حَتَّى يَنْقُضِي أَمَدَهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا الشيخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي [١١٥٥]، وأخرجه أبو داود [٢٧٥٩]، والترمذي [١٥٨٠]، والنسائي [٨٧٣٢]، وابن حبان [٤٨٧١] في «صحيحه»، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ٥٩ ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ٦٠.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾؛ أي: فاتونا، فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]؛ أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]. ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: مهما أمكنكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ روى الإمام أحمد [١٧٤٦٨] عن عتبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: (﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ) ورواه مسلم [١٩١٧]، وروى الإمام أحمد [١٧٣٧٥] وأهل السنن [ابن ماجه/٢٨١١ والبهيقي/١٩٥١٥ والترمذي/١٦٣٧ والدارمي/٢٤٠٥] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا).

وروى الإمام مالك [٩٥٨] عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا، فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرْفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ؛ فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ)، وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَةُ) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] رواه البخاري [٢٧٠٥] وهذا لفظه، ومسلم [٩٨٧]، وقد ذهب أكثر العلماء، إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك، إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وروي أيضًا عن أبي ذر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدِّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ، يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلَتْنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ) - أو (أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ) [رواه أحمد واللفظ له/٢١٥٣٥]، [رواه النسائي/٤٤٠٥]، والحاكم [٢٤٥٧] [وصححه ووافقه الذهبي].

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة، وفي «صحيح البخاري» [٢٦٩٧]، عن عروة بن أبي الجعد البارقبي، أن رسول الله ﷺ، قال: (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْأَجْرُ وَالْمَعْنَمُ).

وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ﴾؛ أي: تخوفون ﴿بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ أي: من الكفار ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور.

وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُغْلَبُونَ﴾؛ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِضُرَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بِيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِيْتٍ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَاكَ بِمُنَافِقَةٍ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبد إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك، فقاتلهم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾؛ أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾؛ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾؛ أي: فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون، عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ، تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر، وروى عبد الله بن الإمام أحمد [في زوائد المسند/ ٦٩٥] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ فَافْعَلْ) [وهو صحيح]، وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة، وهذا فيه نظر. وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿فَتَنَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقوا ويستعدوا ﴿فَاتَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِضُرَّةِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) ﴿وَأَلْفَ بِيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك، ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِيْتٍ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج،

وأمر يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ يَبِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ يَبِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ يَبِي) كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن [البخاري/ ٤٠٧٥ ومسلم/ ١٠٦١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

قال ابن عباس: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب، يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك موجود في الشعر:

إِذَا مَتَّ دُو قُرْبَىٰ إِلَيْكَ بِرُحْمِهِ فَعَشَّكَ وَاسْتَغْنَىٰ فَلَيْسَ بِذِي رُحْمٍ
وَلَكِنَّ ذَا الْقُرْبَىٰ الَّذِي إِنَّ دَعْوَتَهُ أَجَابَ وَمَنْ يَرْمِي الْعَدُوَّ الَّذِي تَرْمِي

قال: ومن ذلك قول القائل:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الْأَسْبَابِ
فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِعًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَسْبَابِ

قال البيهقي [في شعب الإيمان/ ٩٠٣٤]: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة؟ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي [١١٢١٠] والحاكم [٣٢٦٩] في «مستدركه» وقال: صحيح، وعن ابن عباس، قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرحلها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ رواه الحاكم أيضًا [٣١٧٩]، وقال أبو عمرو الأوزاعي: حَدَّثَنِي عُبَيْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَلَقِيْتَهُ فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: إِذَا تَرَأَى الْمُتَحَابَّانِ فِي اللَّهِ فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ وَضَحَكَ إِلَيْهِ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُمَا كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني [الطبري ١٠/ ٣٦]. وقال ابن عون عن عمير بن إسحاق، قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة [الطبري ١٠/ ٣٦]، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني رحمه الله [٦١٥٠] عن سلمان الفارسي، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا، كَمَا يَتَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاصِفٍ، وَإِلَّا غَفِرَ لَهُمَا وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُمَا مِثْلَ زَبَدِ الْبَحَارِ) [وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب»].

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦).

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبيهم؛ أي: كافيتهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال الشعبي في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال حسبك الله، وحسب من شهد معك، وروي عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد مثله، ولهذا قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾؛ أي: حثهم؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وغدهم: (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ) فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: (نَعَمْ)، فقال: بخ بخ فقال: (مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟) قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: (فإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا) فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ [رواه مسلم/١٩٠١].

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وأمرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. روى عبد الله بن المبارك، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم، وروى البخاري نحوه، وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم ينبغ لهم أن يفرّوا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم، وروي عن مجاهد، وعطاء، والحسن [وغيرهم] نحو ذلك.

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَبْشَرَ فِي الْأَرْضِ بِرُبُودٍ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧) ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنفِقُوا لِلَّهِ إِنَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٩).

روى الإمام أحمد [١٣٥٨٠] عن أنس رضي الله عنه، قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم

بدر، فقال: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ) فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ) فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال: وأنزل الله ﷻ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾. [قال الذهبي في «الميزان»: حسن بشواهد].

وعن ابن عباس: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنني لا أعذب من عصاني، حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم [الطبراني في الكبير/١١٣٩٧]، وكذا روى ابن أبي نجیح: عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحداً شهد بدرًا، وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبیر وعطاء. وقال ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾؛ يعني: في أم الكتاب الأول، أن المغنم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية، وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضًا: أن المراد ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله [الطبري ٤٥/١٠].

ويُستشهد لهذا القول، بما أخرجه في «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٣٢٨ ومسلم/٥٢١ نحوه]، وقال الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرِنَا) [رواه أحمد/٧٤٢٧ بنحوه والترمذي/٣٠٨٥ كذلك وقال: حسن صحيح]، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء، وقد روى الإمام أبو داود [٢٦٩١] في «سننه» عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة. [والظاهر أنه يُحسن].

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

وفي «صحيح البخاري» [٣٧٩٣] عن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله فقالوا: ائذن لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداءه، قال: (لَا وَاللَّهِ لَا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا)، وقال ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسير يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله وَبَكَى خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فاتاني أربعين عبدًا وإني لأرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه. [وفي الجملة فهذه القصة ثابتة، فقد استشهد بها الحافظ في «الفتح»، كما صححها الحاكم في «المستدرک» من قبل].

روى الحاكم [٥٤٢٣] وصححه ووافقه الذهبي عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفًا ما أتاه مال أكثر منه لا قَبْلُ ولا بعد. قال: فنثرت على حصير ونودي بالصلاة، قال: وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائمًا على المال وجاء أهل المسجد فما كان يومئذٍ عددٌ ولا وزنٌ، ما كان إلا قبضًا وجاء العباس بن عبد المطلب يحثي في خميصه عليه، وذهب يقوم فلم يستطع قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له: (أَعِزُّ مِنَ الْمَالِ طَائِفَةٌ، وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ) قال: ففعل وجعل العباس يقول: وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ﴾ الآية ثم قال: هذا خير مما أخذ منا ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ مائلًا على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى.

حديث آخر في ذلك: روى الحافظ أبو بكر البيهقي [١٢٨٠٧] عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: (انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ) قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلًا فقال له رسول الله ﷺ: (خُذْ) فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعُهُ إِلَيَّ. قال: (لَا). قال: فارفعه أنت عليّ، قال: (لَا) فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه عجبًا من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم، وقد رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» تعليقًا بصيغة الجزم [وأورده أيضاً بإسناده ٤١١].

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾؛

أي: من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَنْتَكَنْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: بالإسار يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بما يفعله حكيم فيه. قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين، وقال ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحن لك على قومنا. وفسرها السدي على العموم وهو أشمل وأظهر والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلَةٍ حَتَّى يُمَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾﴾.

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في «صحيح البخاري» [٢١٧٠ بمعناه] عن ابن عباس، وروى الإمام أحمد [١٩٢٣٥] عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلُقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْعَتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) تفرد به أحمد [وجود إسناده الهشيم عند الطبراني].

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار، في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلَةٍ حَتَّى يُمَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الإمام أحمد [٢٣٠٢٨] عن بريدة الحبصبي الأسلمي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: (اغزوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى

ثَلَاثَ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُنَّ، وَكُفَّ عَنْهُنَّ. اذْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُنَّ، وَكُفَّ عَنْهُنَّ، ثُمَّ اذْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِمُهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيِّ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجَزْيَةِ، فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُنَّ وَكُفَّ عَنْهُنَّ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ثُمَّ قَاتِلْهُمْ انفراد به مسلم [١٧٣١].

وقوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، بينكم وبينهم ميثاق؛ أي: مهادة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣).

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم [٢٩٤٤] في «مستدركه» عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا)، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: الحديث في «الصحيحين» من رواية أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ) [البخاري/ ٦٣٨٣ ومسلم/ ١٦١٤]، وفي «المسند» [٦٨٤٤] و«السنن» [البهقي/ ٦٣٨١، ١٢٠٠٩ وأبو داود/ ٢٩١١ وابن ماجه/ ٢٧٣١ والترمذي/ ٢١٠٨]، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى) وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو داود [٢٧٨٧] في آخر كتاب «الجهاد» عن سمرة بن جندب: أما بعد؛ قال رسول الله ﷺ: (مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ) [وهو حديث حسن لشواهده].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرَوْجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِضٌ) [رواه البهقي/ ١٣٢٥٩ وصححه الحاكم/ ٢٦٩٥ والألباني أيضًا]، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت الفتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ .

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسَام ولا يُمَلُّ لحسنه وتنوعه، ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ تَبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) [البخاري/٥٨١٦ ومسلم/٢٦٤٠].

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكم الله وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدْلُونَ بوارث كالخالدة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِي وَارِثٍ) [رواه النسائي/٦٤٦٨ وغيره، وجود إسناده الحافظ ابن حجر، وقال البوصيري: إسناده صحيح]. قالوا: فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.



تفسير سورة التوبة

وهي مدنية

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۖ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما روى البخاري [٤٣٢٩] عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة، وإنما لا ييسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاعتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

فقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: هذه براءة؛ أي: تبرؤ من الله ورسوله ﷺ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴿٢﴾ اختلف المفسرون ها هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، ولما سيأتي في الحديث: (وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مُدَّتِهِ)، وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله [٦٢/١٠]، وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد، وقال ابن عباس في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴿٢﴾ قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسبحون في الأرض حيثما شاؤوا، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم، أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له، وقال الضحاك بعد قوله: فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الأشهر الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر ممن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام [الطبري نحوه ٦٠/١٠].

﴿وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ إِنَّا بُنِيتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو

يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها جمعًا ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: برئ منهم أيضًا، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾؛ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنكُمُ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ بل هو قادر، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته، ﴿وَنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾؛ أي: في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

روى البخاري رحمه الله [٣٦٢] عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وروى أحمد [٧٦٤]، والنسائي [٣٩٤٩] بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي ألا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برئ من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام هذا مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صحل صوتي.

وقال أبو إسحاق: سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر، قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك، وقال عطاء: يوم الحج الأكبر يوم عرفة، وعن شهاب بن عباد العصري عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا: سعيد بن المسيب فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عمن هو أفضل مني مائة ضعف عمر أو ابن عمر، كان ينهى عن صومه ويقول: هو يوم الحج الأكبر، وهكذا روي عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

والقول الثاني: أنه يوم النحر. قال علي رضي الله عنه: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال عبد الله ابن أبي أوفى: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وعن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر، وقال ابن عباس: الحج الأكبر يوم النحر [انظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٦٨/١٠ - ٧٠].

وروى ابن جرير [٦٨/١٠] عن أبي بكره قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟) قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوي اسمه، فقال: (أَلَيْسَ هَذَا يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ؟)، وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في «الصحيح».

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر [ابن أبي حاتم/ ٩٢٣٢]، وقال مجاهد أيضًا: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها [الطبري ٧٤/١٠].

وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس، وروى ابن جرير [٧٢/١٠] عن ابن عون، سألت محمداً؛ يعني: ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الدير.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِقَابَ عَلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً؛ أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بدمته وعهده إلى مدته ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الموفين بعهدهم.

﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ آفَقِمُوا فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قال أبو جعفر الباقر: ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وقتادة، والسدي [وغيرهم]: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، ثم قال: ﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾؛ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ﴾؛ أي: وأسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في

معاقلهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تُضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ولهذا اعتمد الصديق عليه السلام في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادة الصلاة التي هي حق الله تعالى، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ). الحديث [البخاري/٢٥ ومسلم/٢٠]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه [الطبري ٨٧/١٠].

وروى الإمام أحمد [١٣٠٧٨] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتَنَا، وَآكَلُوا ذَبِحَتَنَا، وَصَلُّوا صَلَاتَنَا، فَقَدْ حَرَمْتُ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ)، ورواه البخاري [٣٨٥ نحوه] في «صحيحه»، و«أهل السنن» إلا ابن ماجه [الترمذي/٢٦٠٨ والبيهقي/٣٤٩ والنسائي/٣٤٢٩].

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد وكل مدة، وقال ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر [الطبري ٦٠/١٠].

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك، والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرت بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: استأمنك فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾؛ أي: القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ﴾؛ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: إنسان يأتيك ليسمع ما تقوم وما أنزل عليك فهو آمن حتى

يَأْتِيكَ فَيَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ وَحَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ حَيْثُ جَاءَ، وَمِنْ هَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي الْأَمَانَ لِمَنْ جَاءَهُ مُسْتَرَشِدًا أَوْ فِي رِسَالَةٍ، كَمَا جَاءَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّسْلِ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَمُكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْقَضِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرَأَوْا مِنْ إِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا بِهِرَهُمْ وَمَا لَمْ يَشَاهِدُوهُ عِنْدَ مُلْكٍ وَلَا قَيْصَرٍ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هِدَايَةِ أَكْثَرِهِمْ، وَلِهَذَا أَيْضًا لَمَّا قَدَّمَ رَسُولُ مَسِيلْمَةَ الْكَذَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: (أَتَشْهَدُ أَنَّ مُسِيلْمَةَ رَسُولُ اللَّهِ؟) قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَوْلَا أَنَّ الرُّسْلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عَنْقَكَ) [رواه أحمد/١٦٠٣٢ وأبو داود/٢٧٦١ وله شاهد يتقوى به]، وَقَدْ قَبِضَ اللَّهُ لَهُ ضَرْبَ الْعَنْقِ فِي إِمَارَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ النَّوَاحَةِ ظَهَرَ عَنْهُ فِي زَمَانِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِمَسِيلْمَةَ بِالرِّسَالَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ الْآنَ لَسْتَ فِي رِسَالَةٍ وَأَمْرٌ بِهِ فَضَرِبْتَ عَنْقَهُ لَا رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ، وَالْغَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدَّمَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فِي أَداءِ رِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ صَلَاحٍ أَوْ مَهَادَنَةٍ أَوْ حَمَلِ جُزِيَّةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَطَلَبَ مِنَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَمَانًا، أُعْطِيَ أَمَانًا مَا دَامَ مُتَرَدِّدًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَحَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ وَوِطْنِهِ، لَكِنْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْكِنَ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ سَنَةً، وَيَجُوزُ أَنْ يُمْكِنَ مِنَ الْإِقَامَةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِيمَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَنَقَصَ عَنْ سَنَةٍ قَوْلَانِ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

يَبِينُ تَعَالَى حُكْمَتَهُ فِي الْبِرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَنَظَرَتِهِ إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السِّيفِ الْمَرْهَفِ أَيْنَ ثَقَفُوا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وَأَمَانٌ وَيَتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ يَعْنِي: يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾؛ أَي: مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاقَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سَنِينَ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ. اسْتَمَرَ الْعَقْدُ وَالْهَدَنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشُ الْعَهْدَ وَمَالُؤُا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خِرَازَةِ أَحْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانَ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبِلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ، فَأُطْلِقَ مِنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَيْهِمْ فَسَمُوا الطُّلُقَاءَ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنَ الْفَيْنِ، وَمِنْ اسْتَمَرَ عَلَى كُفْرِهِ وَفَرَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ، وَمِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةٍ وَعُكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمَا، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ التَّامِ، وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَقْدِرُهُ وَيَفْعَلُهُ.

﴿كَيفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨).

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداة المشركين منهم ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ﷺ، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأذيلوا عليهم لم يُبْقُوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال ابن عباس: الإل: القرابة، والذمة: العهد. وكذا قال الضحاك، والسدي [الطبري ٨٤/١٠].

وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ [التوبة: ١٠] لا يرقبون الله ولا غيره، والقول الأول أشهر وأظهر وعليه الأكثر، وعن مجاهد أيضاً الإل العهد. وقال قتادة: الإل الحلف [الطبري ٨٤/١٠].

﴿أَشْتَرُوا بِعَآيَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١).

يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم ﴿أَشْتَرُوا بِعَآيَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴿تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها تقدمت.

﴿وَإِنْ تَكْثُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ (١٢).

يقول تعالى: وإن كثرت الكفرة فإنهم يأتونكم من بعد عهدهم ويطعنوا في دينكم؛ أي: عهدهم ومواثيقهم ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه وانتقصوه، ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾؛ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر؛ كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمие بن خلف، وعدد رجالاً، وعن مصعب بن سعد قال: مر سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر، فقال سعد: كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر، وقال حذيفة: ما قوتل أهل هذه الآية بعد [الطبري ٨٨/١٠]. وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم، وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، أنه كان في عهد أبي بكر عليه السلام إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال:

إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقَةً رُءُوسَهُمْ، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقْتُلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١٠٠٢٠].

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٣ ﴿فَقَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٤ ﴿وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ١٥ .

وهذا أيضاً تهيج وتحريض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لإيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ الآية [المتحنة: ١].

وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: المراد بذلك: يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان والله الحمد.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي، ثم قال عزيمة على المؤمنين وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿فَقَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾: وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: خزاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ ١٦ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٧ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾؛ أي: بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَا يَتُوبُ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَمْتُكُمْ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ﴾

اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿١٧﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسمه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر؛ أي: بحالهم وقالهم كما قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال نصراني: واليهودي ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي لقال صابئي، والمشرِك لقال مشرك. ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: بشركهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وقال عمرو بن ميمون الأودي: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها، وقال ابن عباس ؓ: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب، ولم يأت المسجد ويصلي فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الأنفال: ٨٩٣]؛ صحيح على شرط مسلم وصححه الألباني، وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾؛ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلق، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن عباس [كما روى الطبري ٩٤/١٠] في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول: من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾؛ يعني: الصلوات الخمس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول لم يعبد إلا الله. ثم قال: ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يقول: إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقامًا محمودًا وهي الشفاعة،

وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمته الله: «عسى» من الله حق [الطبري ٩٤/١٠].

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٩) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١٠) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ (١١) ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢).

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماراه، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿فَقَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ (١١) ﴿مُتَّكِئِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧]؛ يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم [ابن أبي حاتم/١٠٠٦٢] قال: ﴿بِهِ سَامِرًا﴾ كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه.

قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

وقال ابن عباس أيضاً: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله ﷻ: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [ابن أبي حاتم/١٠٠٦٦]؛ يعني: أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك، وقال الضحاك بن مزاحم نحوه، وعن الشعبي قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما تكلماً في ذلك.

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هاهنا، فعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ رواه مسلم [١٨٧٩]، وأبو داود، وابن جرير [٩٥/١٠] وهذا لفظه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿اسْتَحَبُّوا﴾؛ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من أثر أهله وقرباته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾؛ أي: تحبونها لطبيعتها وحسنها؛ أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾؛ أي: فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

روى الإمام أحمد [١٨٠٧٦] عن زُهْرَةَ بن مَعْبُدٍ عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ) فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: (الآن يَا عُمَرُ) انفرد بإخراجه البخاري [٦٢٥٧]، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [البخاري/ ١٥ ومسلم/ ٤٤]، وروى الإمام أحمد [٥٠٠٧]، وأبو داود [٣٤٦٢] واللفظ له عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِيَةِ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ) (وهو صحيح قاله أحمد شاكر، والألباني).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قال مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة. يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم

في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو أكثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، وقد روى الإمام أحمد [٢٦٨٢] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَلَكِنْ تَغْلِبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ) وهكذا رواه أبو داود [٢٦١١]، والترمذي [١٥٥٥] ثم قال: هذا حديث حسن غريب [وصححه أحمد شاكر].

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف بن النصري، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضضهم وقضضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له: حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله ﷻ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلاها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: (إِلَيَّ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ) ويقول في تلك الحال: (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال: ثمانون فمنهم أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما والعباس، وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة؛ يعني: شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب الشجرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شردمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: (اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي) ثم رمى القوم بها فما

بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أبقاهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ [روى أحمد معناه/ ١٥٠٦٩].

وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررت من رسول الله ﷺ يوم حنين فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قومًا رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ وهو يقول: (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) [البخاري/ ٢٧٠٩ ومسلم/ ١٧٧٦].

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لكر ولا لفر ولا للهرب وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه وعلمًا منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾؛ أي: طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الذين معه ﴿وَأُنْزِلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، كما روى الإمام أبو جعفر ابن جرير [١٠٣/١٠]، عن عبد الرحمن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلَب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا: شأهت الوجوه ارجعوا قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدْمًا، فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: (نَاوِلْنِي كَفًّا مِنَ الثَّرَابِ)، فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم ترابًا قال: (أَيُّنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ؟) قلت: هم هناك قال: (اهْتَفِ بِهِمْ) فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيامهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم، ورواه الإمام أحمد في «مسنده» [٤٣٣٦] واللفظ له وصححه شاكر.

وفي «صحيح مسلم» [٥٢٣] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ) [وروى البخاري معناه/ ٢٨١٥ من حديث جماعة من الصحابة].

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وَأَنْزَلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن وأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعْرَانَة، وذلك بعد الواقعة بقریب من عشرين يومًا، فعند

ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ بَيْنَ سَبِيهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ فَاخْتَارُوا سَبِيَهُمْ وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ، فَرَدَهُ عَلَيْهِمْ وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْغَانِمِينَ وَنَفَلَ أَنَاثًا مِنَ الطَّلَاقِ لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ وَكَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَنْ أَعْطِيَ مِائَةَ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّضْرِيِّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين الذين هم نجس دينًا عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبي بكر ﷺ عامئذٍ وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا، وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [الطبري ١٠/١٠٥] وقال عطاء: الحرم كله مسجد [الطبري ١٠/١٠٥] لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن ولما ورد في الحديث الصحيح: (الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجُسُ) [رواه البخاري ٢٨١].

وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال الحسن: من صافحهم فليتوضأ.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لنتقطع عن الأسواق ولنتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية، وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَلَا يَأْتِيَوْمَ الْآخِرُ وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٨﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين؛ لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿فَتِلْكَ الْأَیُّمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جَدَبٍ ووقت قَيْظٍ وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس.

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر [رواه البخاري/٢٩٨٧]، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُمُ اللَّهُ: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب، وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾؛ أي: إن لم يسلموا ﴿عَنْ يَدٍ﴾؛ أي: عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلماذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صَغَرَةُ أَشْقِيَاءٍ كما جاء في «صحيح مسلم» [٢١٦٧] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: (لَا تَبَدُّوْا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوْهُ إِلَى أَضْيَقِهِ)، ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحَدِّثَ في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قِلاَبة، ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا نحیی منها ما كان خطط للمسلمين وألا نمنع كنائسنا أن

ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنايسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرًا ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم، لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجز مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزناير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنايسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نوايسنا في كنايسنا إلا ضربًا خفيفًا، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنايسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائين ولا باعوثًا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدًا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق [البيهقي/١٨٤٩٧].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَفَ يُوَفَّقُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة، والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزير: إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم، بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة، وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله قال: فإن الله حي لا يموت، قالت: يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به، ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيئًا فما أطعمك فكله، فذهب ففعل ما أمر به فإذا شيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئًا كهية الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بني إسرائيل قد جئكم

بالتوراة فقالوا: يا عزيز ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم ﴿يُضَاهِيُونَ﴾؛ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿فَكُنْ لَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾؟ أي: كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَجْزَاءَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد [١٨٢٨٦ نحوه]، والترمذي [٣٠٩٥]، وابن جرير [١١٤/١٠] من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغت دعوة رسول الله ﷺ فرأى إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها، فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيئ وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَجْزَاءَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوه فقال: (بلى)، **إِنَّهُمْ حَرَمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**)، وقال رسول الله ﷺ: (يَا عَدِي، مَا تَقُولُ؟ أَيْفَرُكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئاً أَكْبَرَ مِنَ اللَّهِ؟ مَا يُفَرِّكُ؟ أَيْفَرُكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهَ؟)، ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: (إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ) [وهو حسن بمجموع طرقه]، وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿اتَّخَذُوا أَجْزَاءَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنهم اتبعوه فيما حللوا وحرّموا، وقال السدي: استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾؛ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلّله حلّ وما شرعه أثبّع وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣).

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾؛ أي: ما

بعث به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسوله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي يَدْعُونَ بِهَا لِغِيَرِ الْأَشْيَاءِ وَالزَّوَارِعِ كَافِرًا؛ لَأَنَّهُ يَغْطِي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارُ نَبَأَهُ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع، ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: علي سائر الأديان كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مَلِكُ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا) [رواه مسلم/٢٨٨٩].

روى الإمام أحمد [١٦٩٩٨] عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، بَعْرَ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية [رواه الحاكم/٨٣٢٦ وصححه ووافقه الذهبي].

وفي «المسند» [١٩٣٩٧] أيضاً عن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: (يَا عَدِيُّ أَسْلِمَ تَسْلَمُ) فقلت: إني من أهل دين قال: (أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ)، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: (نَعَمْ، أَلَسْتُ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِزْبَاعَ قَوْمِكَ؟) قلت: بلى! قال: (فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ) قال: فلم يَعدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: (أَمَّا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعُهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ، أَتَعْرِفُ الْحَيْرَةَ؟) قلت: لم أرها وقد سمعت بها، قال: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعِينَةُ مِنَ الْحَيْرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ، وَلَتَنْفَتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ) قلت: كسرى بن هرمز. قال: (نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ، وَلَيُبَذَّلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ) قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها. [إسناده جيد]. وروى مسلم [٢٩٠٧] عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى)، فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: (إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﷻ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَيَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال السدي: الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى، وهو كما قال فإن الأخبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّينِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا وَآكِلُهُمُ الشُّحْتُ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان عباد النصارى، والقسيسون علماءهم كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، والمقصود التحذير من علماء السوء وعُباد الضلالة، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبهة من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبهة من النصارى، وفي الحديث الصحيح: (لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ) قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: (فَمَنْ؟) وفي رواية فارس والروم، قال: (فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا هَؤُلَاءِ؟) [البخاري بنحوه/٣٢٦٩].

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم هدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فاطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال بعضهم [وهو ابن المبارك]:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

وأما الكنز فقال ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة، وقال: ما أدَّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كنز، وقد روي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نحوه: (أَيُّمَا مَالٍ أَدَّتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ مَدْفُونًا فِي الْأَرْضِ، وَأَيُّمَا مَالٍ لَمْ تَوَدَّ زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ يُكْوَى بِهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ) [الطبري ١٠/١١٨]، وروى البخاري [١٣٣٩] عن خالد بن أسلم

قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرًا للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِرَاك بن مالك نسخها قوله تعالى: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز. ما أحدثكم إلا ما سمعت.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾؛ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيًا وتقريعًا وتهكمًا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٨٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩]؛ أي: هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئًا وقدمه على طاعة الله، عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، فيحمر عليها في نار جهنم وناهيك بحرما فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار دينارًا ولا درهم درهمًا ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته [الطبري ١٠/١٢٤]، وفي «صحيح مسلم» [٩٨٧] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ) وذكر تمام الحديث [رواه البخاري أيضًا]. وروى البخاري [٤٣٨٣] في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالرَّبْذَةِ فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال: كنا بالشام فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم.

قلت: كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي الناس بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشى أن يضر بالناس في هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالرَّبْذَةِ وحده، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان، وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال: ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به، وقال ابن عباس: إنها عامة، وقال السدي: هي في أهل القبلة، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: (مَا يَسْرُنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا يَمُرُّ عَلَيْهِ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا دِينَارًا أَرْضَدُهُ لِدَيْنٍ) [رواه البخاري/٦٠٧٩ نحوه]، فهذا والله أعلم هو الذي حدا بأبي ذر على القول بهذا.

روى الإمام أحمد [٢١٤٢١] عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوسًا. قال: قلت: لو ادخرته لحاجة بيتك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو

فضة أو كى عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله ﷻ [رواه الطبراني/١٦٣٤، وقال الهيثمي ٢٤٠/١٠: رجاله ثقات، وله طريق أخرى رجالها رجال الصحيح].

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْقِيَتْ فِيهَا قُرْآنُكُمْ وَقِيلُوا لِلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقُولُونَ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ٣٦﴾.

روى الإمام أحمد [٢٠٤٠٢] عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: (أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ). ثم قال: (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: (أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟) قلنا: بلى، ثم قال: (أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: (أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟) قلنا: بلى ثم قال: (أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: (أَلَيْسَتِ الْبَلَدَةُ؟) قلنا: بلى. قال: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وَأَحْسَبُهُ قَالَ -: وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، وَتَتَلَفُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، فَاعْلَمَ مَنْ يَبْلُغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ) ورواه البخاري [٤١٤٤ نحوه] ومسلم [١٦٧٩].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وقوله ﷺ في الحديث: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء، ولا تبديل كما قال في تحريم مكة: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، وهكذا قال هاهنا: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)؛ أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتداء الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: (قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء، وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه وهو

الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَّسْل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقًا وتشديدًا، وأما قوله: (ثَلَاثَةُ مِثْوَالِيَّاتٍ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ) فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فينبئ ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل شهر الحج شهر وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة؛ لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتماد به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنًا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾؛ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلن حرامًا، وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم، وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾. إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه. اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظموا ما عظم الله، فإنما تُعَظَّمُ الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل [الطبري ١٠/١٢٧]، وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا تجعلوا حرامها حلالًا ولا حلالها حرامًا، كما فعل أهل الشرك فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، وهذا القول اختيار ابن جرير [١٠/١٢٧].

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾؛ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾؛ أي: جميعهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين: أحدهما: وهو الأشهر أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال ها هنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عامًا فلو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في «الصحيحين» أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم فلجؤوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام. والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْبَرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]،

وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ٥].

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهيج والتحضيض؛ أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم وقتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبًا من أربعين يومًا، وكان ابتداءه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أيامًا ثم قفل عنهم؛ لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيرهم إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يكنى أبا ثُمَامَةَ فينادي ألا إن أبا ثُمَامَةَ لا يُحَاب ولا يُعَاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال، فيحله للناس فيحرم صفرًا عَامًا، ويحرم المحرم عَامًا فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١٠٠١٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عَامًا وعَامًا يحرمونه، وروي عن أبي وائل والضحاك وقادة نحو هذا.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلامًا جيدًا مفيدًا حسنًا فقال [كما أورد ابن هشام ١/ ١٦١]: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم

منها ما أحل الله ﷻ «الْقَلَمْس» وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عابد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً فحرم رجياً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاماً ويجعل مكانه صفرًا ويحرمه ليواطئ عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله؛ يعني: ويحرم ما أحل الله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾
﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا بِعَذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾.

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت شمار والظلال في شدة الحر فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَنَاَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ؟﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة وطيب الثمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كما روى الإمام أحمد [١٨٠٣٧] عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ إَصْبَعُهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعُ؟) وأشار بالسبابة انفراد بإخراجه مسلم [٢٨٥٨]، فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل، وقال الأعمش في الآية: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: اثنتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار إن كان كثير لكليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور [ابن أبي حاتم/ ١٠٠٣٢]، ثم توعده تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١٠٠٣٣]؛ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾؛ أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم واثاقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، وقد قيل: إن هذه الآية وقوله: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ

الْأَعْرَابُ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [التوبة: ١٢٠] إِنْهُمْ مَنْسُوخَاتُ بَقُولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَنَّهُمْ فَلَوْلَا فُتْرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]، روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا كله اتجاه والله ﷻ أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَكُونُ مَعَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ﴾؛ أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطالع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُثَبِّتُهُ ويقول: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِئُهُمَا)، كما روى الإمام أحمد [١١] عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِئُهُمَا) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٣٨٦؛ ومسلم/٢٣٨١]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تأييده ونصره عليه؛ أي: على الرسول ﷺ في أشهر القولين وقيل على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته وهذا لا ينافي تجدد سكينته خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾؛ أي: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال ابن عباس: يعني: بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله، وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [البخاري/١٢٣؛ ومسلم/١٩٠٤].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجنب لا يُضَامُ من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه. ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أول ما نزل من سورة براءة.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وَحَتَّمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمَنْشُطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ فَقَالَ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوْحًا وشبانًا جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفون فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير دفينه فيها [اليهقي/١٧٥٧٩]، وهكذا روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، والحسن البصري وشمر بن عطية ومقاتل بن حيان، والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولاً وشباناً وكذا قال عكرمة، والضحاك، ومقاتل بن حيان وغير واحد، وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل [الطبري ١٣٨/١٠]، وفي رواية عن ابن عباس: انفروا نشاطاً وغير نشاط، وكذا قال قتادة [الطبري ١٣٩/١٠].

وقال مجاهد: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل، وإذا الحاجة والضيعة والشغل، والمتيسر به أمر فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم [ابن أبي حاتم/١٠٠٦١]، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: أيضاً في العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة وهذا تفصيل في المسألة.

وقال السدي قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنياً وفقيراً وقويّاً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذٍ زعموا أنه المقداد وكان عظيمًا سمينًا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذٍ ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها ففسخها الله فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

وروى ابن جرير [١٣٨/١٠] عن حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً هماً، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله ﷻ، ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاه رسول الله ﷺ فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة

في الآخرة كما قال النبي ﷺ: (وَتَكْفَلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ) [البخاري/٢٦٣٥ بنحوه ومسلم/١٨٧٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد [١٢٠٨٠] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: (أَسْلِمَ) قال: أجدني كارهاً قال: (أَسْلِمَ) وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَاً [وهو صحيح].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعدار، ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة [ابن أبي حاتم/١٠٠٦٦] ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: قريباً أيضاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ أي: المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: لو لم تكن لنا أعدار لخرجنا معكم قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٢) لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنَافِقِينَ (٤٣) إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْنَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٤).

روى ابن أبي حاتم [١٠٠٧٥] عن عون قال: هل سمعتم بمعاينة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاينة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ وكذا قال مَوْرُقُ العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء ﴿فَإِذَا اسْتَنْذَنْتُكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتُ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] [الطبري ١٠/١٤٢]، وكذا روي عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا [الطبري ١٠/١٤٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ أي: في إبداء الأعدار ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لَا يَسْتَنْذِنُكَ﴾؛ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنَافِقِينَ﴾ (٤٤).

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ؛ أَي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أَي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَأَزْنَابٌ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أَي: شكت في صحة ما جنتهم به ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أَي: يتحIRON، يُقَدِّمُونَ رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾؛ أَي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾؛ أَي: لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾؛ أَي: أبغض أن يخرجوا معك قَدْرًا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أَي: أخرهم ﴿وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾؛ أَي: قَدْرًا، ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أَي: لأنهم جناء مخدولون ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾؛ أَي: ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾؛ أَي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير، وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير [١٤٦/١٠]: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾؛ أَي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق [كما روى ابن هشام عنه ٢٣٧/٥]: كان فيما بلغني - من استأذن - من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أبي ابن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعْظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهْدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨] والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

يقول تعالى محرضاً لنبيه ﷺ على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾؛ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا تَفْتِنِيْٓ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿أَتَدْنٰ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِيْٓ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾؛ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: (هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامِّ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟) فقال: يا رسول الله أو تأذن لي، ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدَّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: (قَدْ أَذْنُتُ لَكَ) ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا تَفْتِنِيْٓ﴾ الآية؛ أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم [رواه الطبري عن ابن إسحاق ١٠/١٤٩ وهو مرسل صحيح، وجاء موصولاً من حديث جابر رضي الله عنه]، وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بني سلمة.

وفي الصحيح [كما روى الطبراني في الكبير ٨١/١٩] أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟) قالوا: الجد بن قيس على أنا نُجَلِّه، فقال رسول الله ﷺ: (وَأَيُّ ذَا أَدْوَأٍ مِنَ الْبُخْلِ! وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْأَبْيَضُ الْجَعْدُ بِشْرُ بِنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ) [والذي في البخاري ٢٩٦٨] منه قوله: (وَأَيُّ ذَا أَدْوَأٍ مِنَ الْبُخْلِ)، والقصة ذكرها ابن عبد البر في «الاستيعاب»، وابن حجر في «الإصابة»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾؛ أي: لا محيد لهم عنها ولا محيص، ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَقُولُوا وَهُمْ فَرِحُوا ۖ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾.

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٍ﴾؛ أي: فتح ونصر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾؛ أي: قد احترزنا من متابعتهم من قبل هذا ﴿وَيَقُولُوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال: ﴿قُلْ﴾؛ أي: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾؛ أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾؛ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيئِنَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ ۝٥١ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَلْسَفِينَ ۝٥٢ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ۝٥٣﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ بَنًا﴾؛ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغيرهم [الطبري ١٠/١٥١] ﴿وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيئِنَا﴾؛ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل ﴿فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَلْسَفِينَ﴾، ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾؛ أي: ليس لهم قصد صحيح ولا همة في العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٥٤﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ

عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٥٦﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا يُنْذِرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بها في الآخرة، واختار ابن جرير [١٥٣/١٠] قول الحسن، وهو القول القوي الحسن.

وقوله: ﴿وَنَزَهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَغَيْرُونَ﴾؛ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عيادًا بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَاطًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرقهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يمينًا مؤكدة ﴿وَمَا هُمْ بِكُمْ﴾؛ أي: في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾؛ أي: فهو الذي حملهم على الحلف ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾؛ أي: حصنًا يتحصنون به ﴿أَوْ مَعْرَاطًا﴾ وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وهو السَّرْبُ في الأرض والنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس، ومجاهد، وقاتادة: ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم؛ لأنهم إنما يخاطبونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخاطبونكم ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وغم؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ورفعة؛ فلهذا كلما سُرَّ المؤمنون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخاطبوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَاطًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ أي: ومن المنافقين ﴿مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾؛ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك وهم المتهمون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾؛ أي: يغضبون لأنفسهم.

روى الشيخان من حديث أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل فإنك لم تعدل فقال: (لَقَدْ خَبِثُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ)، ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: (إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْضِي هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ

صَلَاتُهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامُهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَوِيمِ السَّمَاءِ) وذكر بقية الحديث [البخاري بنحوه/ ٣٤١٤] ومسلم كذلك/ ١٠٦٤. ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره وترك زواجه وتصدق أخباره والاقتفاء بآثاره.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قَسْمِ الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قَسَمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين.

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: أحدهما: أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقي وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكر الأصناف هاهنا لبيان المصروف لا لوجود استيعاب الإعطاء، ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم، وإنما قدم الفقراء ههنا؛ لأنهم أحوج من البقية على المشهور ولشدة فاقتهم، وروي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد، واختار ابن جرير [١٥٨/١٠] وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا، والمسكين: هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم، وقال إبراهيم: هم فقراء المهاجرين، قال سفيان الثوري؛ يعني: ولا يُعطى الأعراب منها شيئا، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى.

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب [الطبري ١٥٨/١٠]، ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية، فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِعَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ) رواه أحمد [٦٥٣٠] وأبو داود [١٦٣٤]، والترمذي [نحوه/ ٦٥٢]، [وهو صحيح]، ولأحمد أيضا والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة مثله، وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب إليهما البصر فرأهما جليدين فقال: (إِنْ شِئْتُمَا أُعْطِيَتْكُمَا، وَلَا حَظَّ فِيهَا لِعَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ) رواه أحمد [١٨٠٠١]، وأبو داود [١٦٣٣]، والنسائي [٢٣٧٩] بإسناد جيد قوي.

وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ). قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: (الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا). رواه الشيخان البخاري [١٤٠٩] ومسلم [١٠٣٩]، وأما العاملون عليها فهم الجبابة والسعاة يستحقون منها قسطًا على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في «صحيح مسلم» [١٠٧٢ بنحوه] عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاحُ النَّاسِ)، وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدا مشركًا، روى الإمام أحمد [١٥٣٩] عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إلي، ورواه مسلم [٢٣١٣ بنحوه] والترمذي [٦٦٦]، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال: (إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) [رواه أحمد/١٥٧٩ بنحوه ومسلم/١٥٠]، ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر، وعامر الشَّعْبِي وجماعة: أنهم لا يُعْطَوْنَ بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يُعْطَوْنَ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، وابن زيد أنهم المكاتبون [الطبري ١٠/١٦٤]، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث، وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة [الطبري ١٠/١٦٤]، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق؛ أي: أن الرقاب أعم من أن يعطي المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالًا، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل ﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٣٩]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْعَاذِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَكَاتِبُ الَّتِي يُرِيدُ الْأَدَاءُ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ) رواه الإمام أحمد، وأهل السنن إلا أبا داود [النسائي/٥٠١٤ والترمذي/١٦٥٥] [وقال الترمذي: حسن].

وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم: من تحمل حمالة أو ضمن دينًا فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث

قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: (أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا) قال: ثم قال: (يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَجِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحْمِلُ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكَ). الحديث رواه مسلم [١٠٤٤]، وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: (تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ) فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: (خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ) رواه مسلم [١٥٥٦].

وروى الإمام أحمد [١٧٠٨] عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: (يَدْعُو اللَّهُ بِصَاحِبِ الدِّينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدِّينَ؟ وَفِيمَ ضَبَعْتَ حَقُوقَ النَّاسِ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُهُ فَلَمْ أَكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أَضَيِّعْ، وَلَكِنْ أَتَى عَلَى يَدَيَّ إِمَّا حَرْقٌ وَإِمَّا سَرَقٌ وَإِمَّا وَضِيعَةٌ. فَيَقُولُ اللَّهُ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَحَقُّ مَنْ قَضَى عَنْكَ الْيَوْمَ، فَيَدْعُو اللَّهُ بِشَيْءٍ فَيَضَعُهُ فِي كِفَّةٍ مِيزَانِهِ، فَتَرْجَحُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ) [قال شاكر: إسناده حسن].

وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن، وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث.

وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه، والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود [١٦٣٥]، وابن ماجه [١٨٤١] عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَجِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: الْعَامِلِ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مُسْكِينٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيِّيٍّ) [قال الحافظ في «التلخيص»: صححه جماعة].

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عبادته ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾؛ أي: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جثناه وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾؛ أي: وهو

حجة على الكافرين ؛ ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُضْوَكَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٦)
 أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ
 الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾﴾ .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُضْوَكَكُمْ﴾ الآية . قال : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار ، قال : فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : (مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟) فجعل يلتنع ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللَّهُمَّ صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُضْوَكَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١٠٠٤١] .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ الآية ؛ أي : ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله ﷻ ؛ أي : شاقه وحاربه ، وكان في حد والله ورسوله في حد ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ؛ أي : وهذا هو الذل العظيم والشفاء الكبير .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ
 بِمَا تَحْذَرُونَ﴾ (١٨)﴾ .

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله أن لا يُفشي علينا سرّاً هذا [الطبري ١٠/١٧١] ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فِئْتَسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة : ٨] ، وقال في هذه الآية : ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِمَا تَحْذَرُونَ﴾ ؛ أي : إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد : ٢٩ ، ٣٠] ؛ ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين [ابن أبي حاتم/ ١٠٠٤٥] .

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
 تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٩) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ
 طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

قال ابن إسحاق [فيما نقله عنه ابن هشام ٥/٢٠٥] : وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد من بني عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له

مَخْشِي بن حَمِير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتَحْسِبُونَ جَلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ وَاللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ غَدًا مَقْرَنِينَ فِي الْحِبَالِ، إِرْجَافًا وَتَرْهِيبًا لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ مَخْشِي بْنُ حَمِيرٍ: وَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنِّي أَقَاضِي عَلَى أَنْ يَضْرِبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ مِائَةِ جِلْدَةٍ، وَأَنَا نَنْفَلْتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنَا قُرْآنُ لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِيمَا بَلَغَنِي لِعِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ: (أَدْرِكِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ احْتَرَقُوا، فَاسْأَلُهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذًا وَكَذًا) فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عِمَارٌ فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو أخذ بحَقَبِهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فَقَالَ مَخْشِي بْنُ حَمِيرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَعْدَ بِي اسْمِي وَاسْمَ أَبِي فَكَانَ الَّذِي عَفِيَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَخْشِي بْنُ حَمِيرٍ، فَتَسْمَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَ شَهِيدًا لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِهِ، فَقَتَلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ أَثَرٌ [صححه الشيخ شاكِر بشواهده].

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْمَعُ آيَةَ أَنَا أَعْنَى بِهَا تَقْشَعِرُ مِنْهَا الْجُلُودُ وَتَجِيبُ مِنْهَا الْقُلُوبُ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ وَفَاتِي قَتْلًا فِي سَبِيلِكَ لَا يَقُولُ أَحَدٌ أَنَا غَسَلْتُ، أَنَا كَفَنْتُ، أَنَا دَفَنْتُ. قال: فَأَصِيبُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ فَمَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَقَدْ وَجَدَ غَيْرَهُ [الطبري ١٠/١٧٢].

وقوله: ﴿لَا تَعْذِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً﴾؛ أي: لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضهم ﴿يَأْتِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾؛ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَخُ مَا نَسَخْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكنين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَّرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩).

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾؛ أي: في الكذب والباطل ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن عباس في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شبها بهم لا أعلم إلا أنه قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَتَّبِعُنَّهُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) [الطبري ١٠/١٧٦]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شَيْبَرًا بِشَيْبَرٍ، وَدِرَاعًا بِدِرَاعٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) قالوا: ومن هم يا رسول الله، أهل الكتاب؟ قال: (فَمَهْ) [الطبري ١٠/١٧٦]، وزاد أبو هريرة [في رواية]: اقرؤوا إن شئتم القرآن ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال: (فَهَلِ النَّاسُ إِلَّا هُمْ؟) [رواه الطبري ١٠/١٧٦]، وهذا الحديث له شاهد في «الصحيح».

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان لعنه الله، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]؛ أي: الأمة المؤتلفة وقيل: أم قراهم، وهي سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام وإتيانهم

الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿أَنْتُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، ﴿وَلَنْكُنْ كَاثِرًا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤِثِّرُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: يتناصرون كما جاء في «الصحيح»: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْنَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) وشبك بين أصابعه [البخاري/٤٦٧ ومسلم/٢٥٨٥]، وفي «الصحيح» أيضًا: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحِمَى وَالسَّهْرِ) [مسلم/٢٥٨٦]، وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَنْكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله: ﴿يُؤِثِّرُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: فيما أمر وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز ومن أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ﴾؛ أي: حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في «الصحيحين» عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيِنُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ آيِنُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ) [البخاري/٤٥٩٧ ومسلم/١٨٠]، وبه قال، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَحِيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا فِي السَّمَاءِ! لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ، لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا) أخرجه

ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة.

وفي «صحيح مسلم» [٣٨٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنِّي أَكُونُ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وقوله تعالى: ﴿وَرَضَوْنُ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ يَا رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا) أخرجاه من حديث مالك [البخاري/ ٦١٨٣ ومسلم/ ٢٨٢٩].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾
 ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤).

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فليكفه في وجهه، وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان وأذهب الفرق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل والربيع مثله، وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم [انظر الأقوال السابقة مع أسانيدھا عند الطبري ١٨٣/١٠]، وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمْنٌ كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسعى بها رجل من

المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية [رواه ابن جرير ١٨٦/١٠].

وروى [أيضاً] الإمام أبو جعفر بن جرير [١٨٥/١٠] عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: (إِنَّهُ سَيَأْتِيَكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِي الشَّيْطَانِ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ) فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: (عَلَامَ تَشْتُمْنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟) فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية [قال شاعر: إسناده صحيح].

وقوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَنَالُوا﴾ قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل: في عبد الله بن أبي، همّ بقتل رسول الله ﷺ، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحّاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» [٢٦٠/٥] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: (هَلْ عَرَفْتُمُ الْقَوْمَ؟) قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا مثلثمين ولكننا قد عرفنا الركاب قال: (هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مَا أَرَادُوا؟) قلنا: لا، قال: (أَرَادُوا أَنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْعَقْبَةِ، فَيُلْقَوْهُ مِنْهَا). قلنا: يا رسول الله أَوَلَا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: (لَا، أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بَيْنَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ...). الحديث ثم قال: (اللَّهُمَّ ارْزُقْهُمْ بِالدُّبَيْلَةِ) قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: (شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نِيَاطٍ قَلْبٍ أَحَدِهِمْ فِيهِلُكُ) [ولأحمد نحوه من حديث أبي الطفيل].

وروى مسلم [٢٧٧٩] عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك؟ فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم؟ وقد كان في حرة فمضى فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قومًا قد سبقوه فلعنهم يومئذ، وفي رواية له أيضاً أن النبي ﷺ قال: (فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا، لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَخْرُجُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلْجَأَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ: ثَمَانِيَةٌ تَكْفِيكُهُمُ الدُّبَيْلَةَ سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِ حَتَّى يَنْجَمَ مِنْ صُدُورِهِمْ)، ولهذا كان حذيفة يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؛ أي: من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ولو تمت عليه السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال ﷺ: «لأنصار: أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَذَا كُمْ اللَّهُ يَبِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمْ اللَّهُ يَبِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ يَبِي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَّنْ [جزء من حديث رواه مسلم/ ١٠٦١]، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكما قال ﷺ: «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ» [البخاري/ ١٣٩٩ ومسلم/ ٩٨٣]، ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: بالقتل والهيم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: بالعذاب والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ولا يُحْصِلُ لهم خيرًا ولا يدفع عنهم شرًا.

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (٧٨).

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادَّعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَ اللَّهَ ﷻ يوم القيامة عيادًا بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس، والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري [ولا يصح في تسميته شيء، وانظر في إبطالها رسالة للألباني].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما جاء في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ) [البخاري/ ٣٣ ومسلم/ ٥٩] وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب؛ أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩).

وهذه أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عييبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى

ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري [نحوه/١٣٤٩] عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع: فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية، وقد رواه مسلم أيضًا في «صحيحه» [١٠١٨].
وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨١).

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم كما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَسْمَعَ رَبِّي قَدْ رَخَّصَ لِي فِيهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ) فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] [وله شاهد في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٣٩٣ ومسلم/ ٢٤٠٠] من حديث ابن عمر].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢).

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾؛ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار؛ فلماذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررت منه من الحر، بل أشد حرًا من النار، كما روى الإمام مالك [١٨٠٤] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ بِهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ) فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: (إِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري نحوه/ ٣٠٩٢ ومسلم/ ٢٨٤٣]، وزاد الإمام أحمد [٤٣٢٣] فيه: (وَضَرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ)، وهذا أيضًا إسناده

صحيح، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي [٢٥٩١]، وابن ماجه [٤٣٢٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَوْقَدَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ) [وصححه إسناده شاكر].

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنَ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجُلُ، لَا يَرَى أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْهُ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري نحوه/ ٦١٩٤ ومسلم/ ٢١٣ واللفظ له].

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَأَلَّا يَنْهَا لَقَىٰ ١٥ نَزَاعَةً لِلنَّارِ ۚ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ ١٦ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ١٧ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ١٨ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ٢١﴾ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر:

كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

ثم قال تعالى جلَّ جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا ١٠ كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً [ابن أبي حاتم/ ١٠٥٠٦]، وكذا قال أبو رزين والحسن، وقتادة، والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِيُخْرِجَهُمْ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ٨٣﴾.

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً [الطبري ٢٠٤/١٠] ﴿فَاسْتَدْرَكَ لِيُخْرِجَهُمْ﴾؛ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾؛ أي: تعزيراً لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ قال ابن عباس: أي: الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة، وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾؛ أي: مع النساء [الطبري ٢٠٤/١٠].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَتِسْفُوتٌ ﴿٨٤﴾﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرَأَ من المنافقين وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنَّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين كما روى البخاري [٣٩٣؛ ومسلم/٢٧٧٤] عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يُكْفَنُ فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وَسَازِيْدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ). قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ آية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

وروى البخاري [١٢١١؛ ومسلم/٢٧٧٣] عن جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم. وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي؛ لأنَّه كان ضخماً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، كما روى الإمام أحمد [٢٢٦٠٨] عن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنزة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أثنى عليها غير ذلك قال لأهلها: (شَأْنُكُمْ بِهَا)، ولم يصل عليها، [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنزة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنَّه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؛ أي: من الصحابة.

ولما نهى الله ﷻ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في «الصحيح» وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ). قيل: وما القيراطان؟ قال: (أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أَحَدٍ) [البخاري/١٢٦١؛ ومسلم/٩٤٥]، وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فقد روى أبو داود [٣٢٢١] عن عثمان بن عفان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّيْبَتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ). انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله [وكذا رواه الحاكم/١٣٧٢؛ وصححه ووافقه الذهبي، وقال النووي: إسناده جيد].

﴿وَلَا تُجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة والله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّلَاقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى منكرًا وذاًماً للمتخلفين عن الجهاد الناكين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يَقْرُءُونَ عَلَيْكَ تَدْوِيرًا أَصْوَاتِهِمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْحَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء.

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه ولا ما فيه مضرة لهم في تجنبوه.

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩).

لما ذكر تعالى ذم المنافقين بين ثناء المؤمنين ومالهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومالهم، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾؛ أي: في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠).

ثم بيّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة، وعن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «وجاء المُعَذِّرُونَ» بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر

[ابن أبي حاتم/١٠٢٠]. وكذا قال مجاهد ساء، وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: لم يأتوا فيعتذروا، وقال مجاهد أيضاً: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يُعذرهم الله [ابن أبي حاتم/١٠٢٣]، وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجُّدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣).

ثم بيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به ومنه وما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يشبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال أبو ثمامة رضي الله عنه: قال الحواريون: يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر أستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللّهُمَّ نعم، فقال: اللّهُمَّ إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اللّهُمَّ وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا [ابن أبي حاتم/١٠٢٩].

وعند البخاري [٤١٦١] أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَاِدْيَا، وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ) قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: (نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ) [وله شاهد آخر عند مسلم/ ١٩١١ بنحوه].

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ خَبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سِيحِلْفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحِلْفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ خَبَارِكُمْ﴾؛ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾؛ أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر؛ أي: أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال إبراهيم: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني، فقال زيد: ما يريبك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، وروى الإمام أحمد [٣٣٦٢] عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَاً، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتِنَ) ورواه أبو داود [٢٨٥٩]، والترمذي [٢٢٥٦]، والنسائي [٤٨٢١]، وقال الترمذي: حسن غريب [وفي نسخة: حسن صحيح غريب، وصححه شاكر والالباني].

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة

من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: (لَقَدْ هَمَمْتُ إِلَّا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِي، أَوْ نَفْقِي أَوْ أَنْصَارِي، أَوْ دَوْسِي) [رواه أحمد/٧٩٠٥، وأبو داود/٣٥٣٧ نحوه، والترمذي/٣٩٤٥ وحسنه وصححه شاكر]؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم أطفأ أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ﴾؛ أي: في سبيل الله ﴿مَعْرَماً﴾؛ أي: غرامة وخسارة ﴿وَيَرْبِضُ بِكُورِ الدَّوَابِّ﴾؛ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾؛ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرينة يتقربون بها عند الله ويتبعون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿إِلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾؛ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة [٣]: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وفي سورة الحشر [١٠]: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، وفي الأنفال [٧٥]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُوا وَجَّهُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ إلى آخر الآية، رواه ابن جرير [٨/١١]. قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفاً على ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم. عيادًا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يتبدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١).

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضًا منافقون ﴿مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ﴾؛ أي: مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد، ومارد ويقال: تمرد فلان على الله؛ أي: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا وإن كان يراه صباحًا ومساءً.

وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر [٩٦/٦٧ في تاريخ مدينة دمشق] في ترجمة أبي عمر البيروتي عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرمة أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان هاهنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هاهنا وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَارْزُقْهُ حُبِّي، وَحَبِّ مَنْ يُحِبُّنِي، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ) فقال: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسًا فيهم أفلا آتيك بهم؟ قال: (مَنْ أَنَا أَسْتَغْفِرُنَا لَهُ، وَمَنْ أَصَرَ عَلَى دِينِهِ فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِ، وَلَا تَخْرِقَنَّ عَلَى أَحَدٍ سِتْرًا). قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم [ورجاله ثقات]، وقال قتادة في هذه الآية: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح ﷺ: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب ﷺ: ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا

تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» [الطبري ٩/١١]، وقال السدي عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: (اُخْرُجْ يَا فُلَانُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ، وَاُخْرُجْ يَا فُلَانُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ) فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاخْتَبَأَ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا، واخْتَبِئُوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم، قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر، وكذا قال الثوري عن السدي، عن أبي مالك نحو هذا [الطبري ١٠/١١].

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَعَذَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾؛ يعني: القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [الطبري ١٠/١١]، وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب النار، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وعن قتادة مثله، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥]، فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار [الطبري ١١/١١]، وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَعَذَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه [الطبري ١١/١١].

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢).

لما بيّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

وروى البخاري [٤٣٩٧] عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: (أَنَايِ اللَّيْلَةَ آتَيْنِ فَاثْنَمَانِي فَاثْنَمَانِي إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَيْنٍ ذَهَبٍ وَلَيْنٍ فِضَّةٍ، فَتَلَقَانَا رِجَالٌ شَطْرُ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرُ كَأَبْجَحَ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَا مَنْزِلُكَ، قَالَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرُ مِنْهُمْ حَسَنَ وَشَطْرُ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٦) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد، أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقتلوه حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عقلاً - وفي رواية عناً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه [جزء من حديث متفق عليه البخاري/ ١٣٣٥ ومسلم/ ٢٠].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم [١٠٧٨] في «صحيحه» عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فاتاه أبي بصدقته فقال: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى).

﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويُمَحِّصُهَا وَيَمْحَقُهَا، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيَرِيهَا لِأَحَدِكُمْ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ مَهْرَةً، حَتَّى إِنَّ اللَّفْمَةَ لِتَصِيرَ مِثْلَ أُحُدٍ) [البخاري/ ٦٩٩٣ بمعناه ومسلم/ ١٠١٤ نحوه]، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، وقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ أَلْبِئُوا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقد روى ابن عساكر في «تاريخه» [١٣٨/٢٩] في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكي الدمشقي وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي قال: غزا الناس في زمان معاوية ﷺ وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية، فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة، فجعل الرجل يستقرئ الصحابة فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي فقال له:

ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أمتطعي أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له اقبل مني خمسمك فادفع إليه عشرين ديناراً وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل، فقال معاوية رضي الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحب إلي من كل شيء أملكه، أحسن الرجل.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ .

قال مجاهد: هذا وعيد [الطبري ٢٠/١١]؛ يعني: من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال: ﴿بَوْمِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] .

وقال البخاري [تعليقاً في صحيحه ٢٧٣٨/٦] قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد [١٢٢٣٥] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (لَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّىٰ تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ؟ فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمُرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ يَعْمَلُ صَالِحٌ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ لَدَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ يَعْمَلُ سَيِّئًا، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ) قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: (يُؤَقِّفُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ) تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه [وهو صحيح، وله شاهد في «الصحيحين» بمعناه] .

﴿وَأَخْرُوجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾ .

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا [الطبري ٢٢/١١]؛ أي: عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلًا وميلًا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكا ونفاقًا، فكانت منهم طائفة رَبطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك .

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: هم تحت عفوا الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُجَّةً لِّمَنْ يَخُفُّ عَلَيْهِ يَوْمَ الدَّيْنِ﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وقال ابن عباس: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فاتني بجنود من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الطبري ٢٤/١١]، وكذا روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة، وغير واحد من العلماء.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا بنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نوا، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق لعنه الله.

وقوله: ﴿لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي من الله لرسوله ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه؛ أي: يصلي فيه أبدًا، ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعًا لكلمة المؤمنين ومعقلًا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ) [رواه ابن ماجه/١٤١١، والترمذي/٣٢٤ وقال: حسن غريب، وصححه شاكر والألباني]، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا [البخاري/١١٣٤ ومسلم/١٣٩٩].

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة بن الزبير، وقال عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة، وقد ورد في الحديث الصحيح [معناه عند مسلم/١٣٩٨] أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

روى مسلم [١٣٩٨] عن أبي سعيد قال: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض

نسائه فقلت: يا رسول الله أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: (هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا).

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُجُبَ الْمُطَهَّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتزهد عن ملابسة الفاذورات.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش التوبة من الذنوب، والتطهير من الشرك.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضاراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾؛ أي: طرف حفيرة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا يُصْلِحُ عمل المفسدين، قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بنى ضاراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ [الطبري ١١/٢٣].

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدهو العجل حبه، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: بموتهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١).

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قَبِلَ العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله ﷻ في عُقْبَةِ بَيْعَةٍ، وَفَىٰ بِهَا أَوْ مَاتَ عَلَيْهَا ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ،

ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله؛ أي: قَبِلَ هذا العقد ووفَّى به.

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾؛ أي: سواء قَتَلُوا أو قُتِلُوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في «الصحاحين»: (وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَتَصَدِيقُ بَرُسُلِي، بَأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ) (البخاري نحوه/ ٢٩٥٥ ومسلم/ ١٨٧٦)، وقوله: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾؛ أي: ولا واحد أعظم وفاء بما عاهد عليه من الله فإنه لا يخلف الميعاد، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِاَيْمَنِهِ بِكُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ أي: فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِعُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْآيَاتُ﴾
 ﴿عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الذنوب كلها ﴿الْمَكِيدُونَ﴾؛ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخصَّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ ومن أفضَّل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْتَبَنَّ﴾ [التحريم: ٥]؛ أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علمًا وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ الصائمون [ابن أبي حاتم/ ١٠٠٢٨]، وقال ابن عباس كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون، وكذا قال الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ [الطبري ٣٨/١١]، وروى ابن جرير [٣٩/١١] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون، وقال الحسن البصري: ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان، وقال أبو عمرو العبدی: ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين.

وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواحق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في «صحيح البخاري» [١٩] عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ)، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري وعنه رواية: ﴿الحافظون لحدود الله﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية القائمون على أمر الله [الطبري ٤٠/١١].

﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥٢﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ٥٣﴾.

روى الإمام أحمد [٢٣٧٢٤] عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: (أبي عم، قل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةٌ أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: (لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ) فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أخرجه [البخاري/ ٣٦٧١ ومسلم/ ٢٤].

وروى الإمام أحمد [٧٧١] عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ قال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ قال: لما مات [ورواه الترمذي/ ٣١٠١ وحسنه، والنسائي/ ٢١٦٣ والحاكم/ ٣٢٨٩ وصححه ووافقه الذهبي].

وروى الإمام أحمد أيضًا [٢٣٠٥٣] عن بريدة قال: كنا مع النبي ﷺ فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال: (إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِي اسْتَغْفَارِ لَأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ) الحديث [وهو صحيح أو حسن].

وعن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عن ذلك، فقال: (فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ) فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ الآية [الطبري ٤٢/١١]، وقال ابن عباس في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية،

فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية [الطبري ٤٢/١١].

وقال سعيد بن جبير: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حيًا، فإذا مات وكله إلى شأنه، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لم يدع، وهذا يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود [٣٢١٤] عن علي بن أبي طالب، لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله: إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: (أَذْهَبَ قَوَارِهِ وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي) وذكر تمام الحديث [وهو صحيح]، وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [الطبري ٤٤/١١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو لله [الطبري ٤٥/١١]، وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم رحمهم الله، وقال عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ وسعيد بن جبير: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حتى يلقي أباه، وعلى وجه أبيه الغبرة والقترة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي ربي ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون، فأى خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقال: انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذخٍ متلطح؛ أي: قد مسخ ضبعًا، ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قال عبد الله بن مسعود: الأواه: الدَّعَاءُ، وقال ابن مسعود أيضًا: الأواه: هو الرحيم، وبه قال مجاهد، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل والحسن البصري، وقتادة: أنه الرحيم؛ أي: بعباد الله، وقال ابن عباس: الأواه: الموقن بلسان الحبشة، وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقال ابن عباس أيضًا: الأواه: المؤمن التواب [انظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٤٧/١١ - ٤٩].

وروى الإمام أحمد [١٧٤٨٩] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البجادين: (إِنَّهُ أَوَّاهٌ) وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء، ورواه ابن جرير [٥٢/١١]، والطبراني ٢٩٥/١٧ وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني [إسنادهما حسن]، وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأواه: المسبَّح، وقال أبو الدرداء ﷺ: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه: [ابن أبي حاتم/١٠٠٧٠]، وعن أبي أيوب: الأواه الذي إذا ذكر خطاياہ استغفر منها، وعن مجاهد: الأواه الحفيظ الوجل يذنب الذنب سرًا ثم يتوب منه سرًا [ابن أبي حاتم/١٠٠٧١]، وروي عن كعب الأحبار أنه قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: أَوْه من النار، وعن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ فقيه.

قال الإمام العالم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدَّعَاءُ وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها

إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكرهاً؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرِهِي لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْفِي مَلِيًّا ۖ﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا [مريم: ٤٦، ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١١٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحُكمه العادل: إنه لا يضل قوماً بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ قال: بيان الله ﷻ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا، وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه.

وروى ابن أبي حاتم [١٠٧٢] عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: (هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟) قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: (إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطُ السَّمَاءِ، وَمَا ثَلَامُ أَنْ تَنْطَ، وَمَا فِيهَا مِنْ مَوْضِعٍ شِبْرِ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ) [رواه الطبراني ٢٠١/٣ وله شواهد عدة وصححه الألباني في «الصححة»].

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١١٧﴾.

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين

كانا يشقان التمرة بينهما، وكان نفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم، وروى ابن جرير [٥٥/١١] عن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبتة ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله ﷻ قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: (تُحِبُّ ذَلِكَ؟) قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلمت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر [ورواه البزار/ ٢١٤ والحاكم/ ٥٦٦ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾؛ أي: من النفقة والطهر والزاد والماء ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: عن الحق، ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ زُؤُوفٌ رَّجِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الْفُلْكِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّا لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١١٩﴾.

روى الإمام أحمد [١٥٨٢٧] عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بني حنينة عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى شمر بالناس الجدد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً: وقلت الجهاز بعد يوم

أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعد ما فصلوا لآتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهمت أن أرتحل فأدرتهم وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله ﷻ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: (مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟) قال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برده والنظر في عطفه، فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بشي وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أطل قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه وصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: (تَعَالَ) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: (مَا خَلَفَكَ، أَلَمْ تَكْ قَدْ اشْتَرَيْتَ ظَهْرَكَ؟) فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً ولكنه والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو أقرب عقبي ذلك من الله ﷻ والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: (أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ) فقممت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بداراً لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبائي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وأتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي حرك شفثتي برد السلام عليّ

أم لا؟ ثم أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، فَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ حَائِطَ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلِمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أَحَبُّ إِلَهُ وَرَسُولُهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ، قَالَ: فَعَدْتُ لَهُ فَنَشَدْتَهُ فَسَكَتَ، فَعَدْتُ فَنَشَدْتَهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرت حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن هلالًا شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه، قال: (لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكَ) قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى فنزعت ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: (أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ) قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: (لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ). قال:

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ) قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير وقلت يا رسول الله: إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ فُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٠﴾. قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبت فاهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنَرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾. قال: وكنا خُلِفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال ﷺ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِفنا بتخلفاً عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبها الصحيح البخاري [٤١٥٦] ومسلم [٢٧٦٩]، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها.

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت؛ أي: مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: اصدقوا والزمو الصديق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً، وقد روى الإمام أحمد [٣٦٣٨] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ

يَصْدُقَ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) أخرجاه في «الصححين» [البخاري/٥٧٤٣ بنحوه وكذلك مسلم/٢٦٠٧]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هكذا قرأها، ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة [ابن أبي حاتم/١٠٠٩٦]، وعن عبد الله بن عمر: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: مع محمد ﷺ وأصحابه [ابن أبي حاتم/١٠٠٩٧]، وقال الضحاك: مع أبي بكر، وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة [ابن أبي حاتم/١٠١٠٠].

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعَ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢٠].

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَفَصُوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾؛ أي: ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢١].

يقول تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾؛ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾؛ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل هاهنا «به»؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما روى عبد الله ابن الإمام أحمد [١٦٧٤٢] عن عبد الرحمن بن خباب السلمي، قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة بغير بأحلاسها

وأقتابها، قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرفقة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها، كالمتعجب: (مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا) [ورواه الترمذي/٣٧٠٠، وأبو نعيم في الحلية ٥٩/١ وهو حديث حسن]، وروى عبد الله أيضاً عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: (مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ) يرددهما مراراً [رواه الترمذي/٣٧٠١، والحاكم/٤٥٥٣ وصححه ووافقه الذهبي]، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية، ما ازداد قوم من أهلهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمان في هذا النفي المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء، وقال ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾؛ يعني: عصابة؛ يعني: السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا؟ فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبتغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [الطبري ٦٧/١١]، وقال قتادة في هذه

الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله ألا يُعزروا نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل العذر، وكان إذا قام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن تلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرؤونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾؛ يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعًا ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا وقعد معه عظم الناس، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجذبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها، حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [انظر الأقوال السابقة بأسانيدھا عند الطبري ٦٨/١١].

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا يَنْفِرُوا بَعْضُكُمْ عَدَابًا إِلَهًا﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ [الشورى: ١٦]، وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقه الذين خرجوا بما يردهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان

ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يومًا، فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغَام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمَّله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سَفَارَتِهِ البلاد، وأرغم أنف كسرى وقیصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأَوَّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً، ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي، ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار.

فكسى الإسلام بجلاله رياسة حلة سابغة، وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَنُوا الَّذِينَ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ءَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ءَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ءَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سَفَالٍ وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام والله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾؛ أي: يقول بعضهم لبعض: أيكم زادت هذه السورة إيماناً قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالتهم ودمارهم كما أن سبي المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾؛ أي: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين، وعن حذيفة في قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير [٧٤/١١].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنصَرَفُوا﴾ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٦﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: تلفتوا ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنصَرَفُوا﴾؛ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِلَّكَ مُهَيِّطِينَ ﴿١٢٦﴾ عَنِ آلِيمِينَ وَعَنِ الشُّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧]؛ أي: ما لهؤلاء القوم يتقبلون عنك يميناً وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا رَاغَوْا فَبِأَنفُسِهِمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩).

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم؛ أي: من جنسهم وعلى لغتهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث [وكلاهما صحيح الأول عند أحمد/ ١٧٤٠ والثاني عند البخاري بمعناه/ ٢٩٨٩].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يعز عليه الشيء الذي يُعِنُّ أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) [رواه أحمد/ ٢٢٣٤٥، والطبراني ٨/ ١٧٠، والبزار وقال الحافظ ابن حجر: حسن]، وفي الصحيح: (إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ) [رواه البخاري/ ٣٩]، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وروى الطبراني [٢/ ١٥٥] عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال: وقال رسول الله ﷺ: (مَا بَقِيَ شَيْءٌ يَقْرُبُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيَبْعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ) [قال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح].

وروى الإمام أحمد [٢٤٠٢] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة: صدق والله لتتبعه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه [رواه أحمد والطبراني ١٢/ ٢١٩ والبزار وقال الهيثمي: إسناده حسن].

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٦]، وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنَّه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل.

وفي «الصحيح» أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة [رواه البخاري/٢٦٥٢]. وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم.



تفسير سورة يونس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۝٢﴾ .

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرَّ﴾؛ أي: أنا الله أرى [الطبري ٧٩/١١]، وكذلك قال الضحاك وغيره، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾؛ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال مجاهد: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. قال: التوراة والإنجيل، وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: الكتب التي كانت قبل القرآن [الطبري ٨٠/١١]، وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. يقول تعالى منكرًا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشِّرْ يَهُدُونَ﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْعِجَتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رِجُلٍ مِنْكُمْ...﴾ [الأعراف: ٦٣ و٦٩]، وقال تعالى مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إلهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [الطبري ٨١/١١].

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، وروي عنه أيضًا: أجزًا حسنًا بما قدموا، وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [الطبري ٨١/١١] وهذا كقوله تعالى: ﴿لَنُؤْثِرَ بِأَسَاسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الكهف: ٢، ٣]، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم، وقال قتادة أو الحسن: محمد ﷺ يشفع لهم، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان، وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم، واختار ابن جرير [٨٢/١١] قول مجاهد كما يقال: «له قدم في الإسلام»، ومنه قول حسان ﷺ:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا لِأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ
وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم

رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ رَبُّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قيل: كهذه الأيام وقيل: كل يوم كالف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

وقوله: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾؛ أي: يدبر أمر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار وال عمران والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدِعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [مرد: ٦]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِصُ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤).

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب من ﴿فِي سَمُورٍ وَحَمِيمٍ﴾ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ [الواقعة: ٤٢، ٤٣].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْأَجْسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦).

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع

الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورًا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما ثلثا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرًا ثم يتراد نوره وجرمه حتى يكمل إداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ٣٩﴾ لَا أَسْمَسُ يَبْغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس: ٣٩، ٤٠].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَرَهُ﴾؛ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لم يخلقه عبثًا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله: ﴿يُقْضَىٰ الْأَلْبَ﴾؛ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَيْلِ النَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئًا كما قال تعالى: ﴿لَا أَسْمَسُ يَبْغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَيْلِ النَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ أي: العقول، وقال هاهنا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: عقاب الله وسخطه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابِنَا غَافِلُونَ ٧﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئًا ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنوا إليها أنفسهم. قال الحسن [ابن أبي حاتم/ ١٠٢٣٤]: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها. وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأترون بها بأن ماؤهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾.

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتلأوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء هاهنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في

الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد: يكون لهم نورًا يمشون به، وقال ابن جريج [٨٩/١١]: يمثّل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك فيجعل له نورًا من بين يديه حتى يُدخله الجنة، والكافر يمثّل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار، وروي نحوه عن قتادة مرسلًا فالله أعلم.

وقوله: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: هذا حال أهل الجنة. قال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدًا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها وأنه المحمود في الحياة الدنيا وفي الآخرة وفي جميع الأحوال ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ) [رواه مسلم/٣٨٣٥]، وإنما يكون ذلك كما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنًا سَتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال غضبهم وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم ولأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنًا سَتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾؛ أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تَوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ) ورواه أبو داود [١٥٣٢] بنحوه، وفي مسلم/٣٠٠٩ بأطول من هذا].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال مجاهد في تفسيرها: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللَّهُمَّ لا تبارك فيه والعنه،

فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وقلقه إذا مسه الضر، وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدُّ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]؛ أي: كثير، وهما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في زوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾.

ثم ذم تعالى من هذه صفته فقال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول رسول الله ﷺ: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ) [رواه مسلم/٢٩٩٩].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من الحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي «صحيح مسلم» [٢٧٤٢] من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِرٌ مَّاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ) الحديث.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقَرِّءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: ﴿آتَتْ بِقَرِّءٍ غَيْرِ هَذَا﴾؛ أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

أُكِّدَ لَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي؛ أي: ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾؛ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ، لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء.

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله [أخرجه البخاري/٢٧٨٢]، وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرهم قبل النبوة أربعين سنة، وعن سعيد بن المسيب ثلاثاً وأربعين سنة، والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَاقِبَتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

يقول تعالى لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على برّه أو فُجُوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حُندس الظلماء، فمن سيما كل منهما وأفعاله وكلامه يستدلّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسجّاح، والأسود العنسي.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْتُشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) [رواه أحمد/٢٣٨٣٥ والترمذي/٢٤٨٥، وابن ماجه/٣٢٥١ واللفظ له وقال الترمذي: حسن صحيح]، ولما قدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: (الله) قال: ومن نصب هذه الجبال قال: (الله) قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: (الله) قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه

الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: (اللَّهُمَّ نَعَمْ) ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص [رواه البخاري بمعناه/٦٣]، فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيلَتُهُ تَأْيِيدَكَ بِالْخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة، وأفعاله القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى آخره [البقرة: ٢٥٥]، وبين عُلاك مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين، نقي كما تنقين لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين»، وقوله - قبح ولعن -: «لقد أنعم الله على الجبلى، إذ أخرج منها نَسمة تسعى، من بين صِفَاقٍ وَحْشَى»، وقوله خلده الله في نار جهنم، وقد فعل: «الفيل وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل»، وقوله - أبعد الله عن رحمته -: «والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون»، إلى ذلك من الهذيان والخرافات التي يأف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم حديقة الموت حتفه، ومزق شمله، ولعنه صحبه وأهله، وقدموا على الصديق تائبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق ﷺ: ويحكم أين كان يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إل [والمراد به الرب].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: (أَعْتَى النَّاسَ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ) [رواه أحمد/٣٨٦٨ والطبراني/١٠/٢١١ والبيهقي/١٧٢٨ كلهم بنحوه، وقال الهيثمي: رجاله ثقات].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمْ تُؤْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

وَمَا كَانَ الْكَافِرُ إِلَّا أُنْثَىٰ وَحِدَةً فَاتَّخَذُوا وَلَولَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ .

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها

عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتَبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس [كما رواه ابن أبي حاتم بمعناه/١٠٢٨٧]: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَّتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية؛ أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقَدْ إِنْمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَآنتَظِرُوا إِيَّيْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

أي: يقول هؤلاء الكفرة المكذوبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الآية [اليسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أي إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين أن يعطى ما سألوا فإن أجابوا وإلا عوجلوا، وبين أن يُنظرهم، اختار إظهارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنْمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَآنتَظِرُوا إِيَّيْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾؛ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم، هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إيداره فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه [يشير إلى ما رواه البخاري/٣٤٣٨ و٣٦٥٦ ومسلم/٢٨٠٠ من حديث ابن مسعود وأنس في حادثة انشقاق القمر]، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتنبئاً لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنناً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿يونس: ٩٦، ٩٧﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَضَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، فمثل هؤلاء أقل

من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي عَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٦١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا أَجْنَحَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي عَايَاتِنَا﴾.

قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء أصابهم من الليل ثم قال: (هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟) قالوا: الله ورسوله أعلم قال: (قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَوِّ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ) [البخاري/ ٩٩١ ومسلم/ ٧١].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؛ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الحقير والجليل.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: يكلؤهم بحراسته ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾؛ أي: بسرعة سيرهم فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾؛ أي: تلك السفن ﴿رَيْحٌ عَاصِفٌ﴾؛ أي: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرْ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ﴾؛ أي: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: لا نشرك بك أحداً، ولنفردك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَجْنَحَهُمْ﴾ من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْبٍ مَسْمُومٍ﴾ [يونس: ١٢].

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم

أنفسكم ولا تضربون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) [رواه أبو داود/ ٤٩٠٢، والترمذي/ ٢٥١١، وابن ماجه/ ٤٢١١ وقال الترمذي: حسن صحيح].

وقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقبية ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيككم إياها.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَلَمَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَثْنِهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾.

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجته الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾؛ أي: زينتها الفانية ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾؛ أي: حُسنت بما خرج من ربها من زهور نُضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَظَلَمَ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَثْنِهَا﴾؛ أي: على حصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾؛ أي: يَبَسًا بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾؛ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك، وقال قتادة: ﴿كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ﴾ كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُغَمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغَمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا) [رواه مسلم/ ٢٨٠٧ بنحوه].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نبين الحُجج ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر والحديد، يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام؛ أي: من الآفات، والنقائص والنكبات فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: (إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جَبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ

رَجُلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: أَسْمَعُ سَمِعْتَ أَذُنُكَ، وَأَعْقِلْ عَقْلَ قَلْبِكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أَمْتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَادَبَّةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالِدَارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولَ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا) رواه ابن جرير [١١/١٠٤، والحاكم/٣٢٩٩].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦).

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة عين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضلهم ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد [١٨٩٦١] عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيَبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ، وَيُزْخِرْ حُرْنَا مِنْ النَّارِ؟) قال: (فَيَكْشِفُ لَهُمُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ) وهكذا رواه مسلم [١٨١ بنحوه] وجماعة من الأئمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾؛ أي: قِطَامٌ وسواد في عَرَصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القفرة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: هوان وصغار؛ أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]؛ أي: نضرة في وجوههم وسرورًا في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلهم ورحمته آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ ۖ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُّظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧).

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، عطف بذكر حال الأشقياء

فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿وَزَهَقُهُمْ﴾؛ أي: تلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وَقَرَّبَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدُّلَى﴾ الآية [الشورى: ٤٥].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِبُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس، وبر وفاجر كما قال ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾؛ أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ إِلَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وفي الحديث الآخر: (نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ فَوْقِ النَّاسِ) [رواه مسلم/ ١٩١ نحوه].

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِبُونَ﴾ أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم، كما قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أننا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه أمراً، بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هَٰذَا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾؛ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقد قرأ بعضهم: ﴿هَٰذَا كِتَابُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: (تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَّا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ) الحديث [رواه البخاري/٧٠٠٠ ومسلم/١٨٢]، وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾؛ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحديته في ربوبيته على وحدانيته الإلهية، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: من ذا الذي يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ الْمَطَرِ، فيشقي الأرض شقاً بقدرته ومشيتته، فيخرج منها ﴿حَبًّا﴾ (٣٧) وَعَبًّا وَقَضًّا (٣٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٣٩) وَحَدَائِقَ غُلًّا (٤٠) وَفَنَكِهِمَ وَأَبَا﴾ [عبس: ٢٧ - ٣١] أإله مع الله؟ فسيقولون الله وكذلك قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾؛ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦].

وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ أي: بقدرته العظيمة ومنته العميقة، وقوله: ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾؛ أي: المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه، ﴿فَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم، وقوله: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾؛ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾؛ أي: فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧١﴾ أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق المتصرف في الملك وحده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾.﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلها بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشd إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾؛ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشd الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ﴾؛ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبصِّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماء وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَنَابِتٍ لِّمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مریم: ٤٢].

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: فما بالكم أن يذهب بعقولكم، كيف سويتهم بين الله وبين خلقه، وعبدتهم هذا وهذا، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم؛ أي: توهم، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٤٠﴾.﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة

من مثله؛ لأنَّه بفصاحته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة ومهيمنًا عليها، ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْغَالِبِينَ﴾؛ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا حقًا لا مرية فيه من الله رب العالمين.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إن ادعيتم وشككتكم في أن هذا من عند الله وقتلتم كذبًا: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله؛ أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنَّه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِيلَ لأحد به؛ ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالاته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدَّهم له انقيادًا، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى ﷺ لا يصدر إلا عن مؤيَّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى ﷺ بُعث في زمان علماء الطب، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا)

[رواه البخاري/ ٤٦٩٦ ومسلم/ ١٥٢ بلفظ قريب].

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: ولم يُحْصَلُوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ

كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الظَّالِمِينَ؟؛ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسلت به ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِرُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلّ ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأَصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركون، ف تبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها [سورة الكافرون]، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُؤُنَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - وكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَاءَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى من الغي وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً وأذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا - إلى أن قال في آخره -: يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) رواه مسلم [٢٥٧٧] بطوله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عَرَصات القيامة: كأنهم يوم يوافونها لم يلبسوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ وكما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦]، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَن كُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يعرف الأبناء الآباء والقربات بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَّيْلَ يَوْمِئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين فهذه هي الخسارة العظيمة ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿وَلِكُلِّ رُؤُوسَةٍ بَعْضٌ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّقُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَلِكُلِّ رُؤُوسَةٍ بَعْضٌ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾؛ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَوَفِّقُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ أي: مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني: يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ بِالنِّبْتِينِ وَالشَّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تُعَرَّض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهوداً أيضاً أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضي لهم كما جاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ) [روى البخاري أوله/ ٧٠٥٧، ورواه مسلم/ ٨٥٦ بلفظ قريب]، فأمته إنما حازت قصب السبق لشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ قَدْ كُفِّرَتْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَلَئِنْ جَاءَهُمْ عَذَابُ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥١).

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]؛ أي: كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؛ أي: لا أقول إلا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا﴾؛ أي: ليلاً أو نهاراً ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ قَدْ كُفِّرَتْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَلَئِنْ جَاءَهُمْ عَذَابُ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥١) يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾؛ أي: يوم القيامة يقال لهم هذا تبيكيتاً وتقريعاً كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (٥٢) ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٥٣) ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥٤) ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا فِتْنَتَ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٣).

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿التَّغَابُنُ: ٧﴾، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يؤدّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنَّ وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾؛ أي: من الشبهة والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: محصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؛ أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ءِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقد روى الإمام أحمد [١٥٩٢٩] عن مالك بن نضلة قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة فقال: (هَلْ لَكَ مَالٌ؟) قلت: نعم. قال: (مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟) قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: (إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ عَلَيْكَ)، وقال: (هَلْ تُنْتِجُ إِبِلَ قَوْمِكَ صِحَاحًا أَذَانَهَا، فَتَعْمَدَ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ أَذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بَحْرٌ وَتَشْقُهَا، أَوْ تَشْقُ

جُلُودَهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرْمٌ، وَتَحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ؟ قال: نعم. قال: (فَإِنْ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ، وَسَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ مِنْ مُوسَاكَ) وذكر تمام الحديث، وهذا حديث جيد قوي الإسناد [ورواه أبو داود الطيالسي/١٣٠٣، والنسائي/١١١٥٥ بمعناه وصححه الألباني].

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها، ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ أَى: ما ظنهم أن يُصْنَعَ بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.﴾

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيعون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١١).

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها، ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِثَ أَشْأَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٧٧) الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راعون سامعون؛ ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). كما رواه مسلم [٨] من حديث عمر ورواه هو والبخاري [٥٠] من حديث أبي هريرة.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فكل من كان تقياً كان لله ولياً أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ أي : فيما يستقبلونه من أهوال القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس وغير واحد من السلف : أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكر الله، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما روى البزار [٥٠٣٤] عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول الله من أولياء الله؟ قال : (الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ) [ورواه أيضاً النسائي/ ١١٢٣٥ في «التفسير»، والطبراني ١٣/ ١٢ في «الكبير»، وقال الألباني : حسن].

وروى ابن جرير [١٣٢/ ١١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يَغِيْطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ). قيل : من هم يا رسول الله لعلنا نجهم؟ قال : (هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ)، ثم قرأ : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [ورواه النسائي/ ١١٢٣٦ في «التفسير»، وأبو يعلى/ ٦١١٠، وابن حبان/ ٥٧٣ وهو صحيح].

وروى الإمام أحمد [٢١٤١٧] عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويشنون عليه به فقال رسول الله ﷺ : (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) رواه مسلم [٢٦٤٢].

وروى ابن جرير [١٣٥/ ١١] عن أم كُرْز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ذَهَبَتِ التُّبُوَّةُ، وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ) [ورواه أحمد/ ٢٧١٨٥ وابن ماجه/ ٣٨٩٦، وقال في «الزوائد» : هذا إسناد صحيح، وصححه الألباني]، وهكذا روي عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، ويحيى بن أبي كثير، وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة. وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالرُّؤْيَا يَأْتِيَنَّكُمْ أَلَى كُنْتُمْ تَعْدُونَ ﴿٢١﴾﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٢﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت : ٣٠ - ٣٢]، وفي حديث البراء رضي الله عنه : (أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ، جَاءَهُ مَلَائِكَةُ بَيْضَ الْوُجُوهِ، بَيْضُ الثِّيَابِ، فَقَالُوا : أَخْرِجِي أَبْتَهَا الرُّوحَ الطَّيِّبَةَ إِلَى رَوْحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبٌّ غَيْرُ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ السَّقَاءِ) [وهو حديث طويل رواه أحمد/ ١٨٥٥٧ نحوه، والنسائي/ ١٩٥٩، وابن ماجه/ ٤٢٦٢ بنحوه من حديث أبي هريرة، والحاكم/ ١٠٧ بنحوه وصححه].

وأما بشرهم في الآخرة فكما قال تعالى : ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٣]، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

يَسْعَىٰ تَوْرَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَتَمَنَّوْنَ يَسْتَرْكِبُوكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ [الحديد: ١٢]، وقوله: ﴿لَا يُبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا الوعد لا يُبَدَّل ولا يُخْلَف، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه، فإن العزة لله جميعاً؛ أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضرراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه؛ أي: يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾؛ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾.

يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ولدًا: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾؛ أي: تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾؛ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَلْسَعُ الْأَرْضُ وَنَحْزِلُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿لَقَدْ أَخَصَّنَّمْ وَعَدَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ عِندَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥]، ثم تواعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولدًا بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا، فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلًا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال تعالى

ها هنا: ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: مدة قريبة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾؛ أي: الموضع المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وافتراءهم على الله فيما ادعوه من الزور.

﴿وَأَنذَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِمَا يَنْتَبِهُ اللَّهُ فَفَعَلَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُذْنِبِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَنذَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أخبر كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿مَقَامِي﴾ فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذَكِّرِي﴾ إياكم ﴿بِمَا يَنْتَبِهُ اللَّهُ﴾؛ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾؛ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسًا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة؛ أي: مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم لأنكم لستم على شيء كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِي وَرَبِّكُمْ ﴿هود: ٥٤ - ٥٦﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ﴾؛ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئًا ﴿إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ والإسلام هو دين الأنبياء جميعًا من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

[المائدة: ٤٨]، قال ابن عباس: سبيلًا وسنة [البخاري في ترجمة كتاب الإيمان ١١/١]. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي مِمَّا تَوْحِي الْأَحَادِيثُ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقال بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى

وَوُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴿المائدة: ٤٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]؛ أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: (نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، وَدِينُنَا وَاحِدٌ) [البخاري/٣٢٥٨ نحوه ومسلم/٢٣٦٥ نحوه]؛ أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله: أولاد علات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾؛ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة وجعلناهم خلائف؛ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذْذِبِينَ﴾؛ أي: انظر كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات؛ أي: بالحجج والبراهين على صدق ما جاءوهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلُبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح ﷺ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم ﷺ على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً ﷺ؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وقال ابن عباس: كان بين آدم، ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام [الطبري ٣٣٤/٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال، فما ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ؛ أي: قومه ﴿يَتْلِيَانَا﴾؛ أي: حججنا ﴿فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤].

﴿قَالَ لَهُمُ مُّوسَىٰ﴾ منكرًا عليهم ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا﴾؛ أي: تشنينا ﴿عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾؛ أي: الدين الذي كانوا عليه ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ﴾؛ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾؛ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن رَّبِّي هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وتولى بركنه وادعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون ويحوطهما بعنائه ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الأبواب مما لا يقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وملؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُّوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِئُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّذُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة وفي سورة طه، وفي الشعراء وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يعارض ما جاء به

موسى ﷺ من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سِحْرَيْنِ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨]، فظن فرعون أنه يستنصر بالسُّحَّار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٩) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ (٨٠) وإنما قال لهم ذلك؛ لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٨١) ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البدأة منهم، ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (٨٢) ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٨٣) ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٩]، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٥).

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى ﷺ مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً، فعن ابن عباس قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون: ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه، وعنه أيضاً في قوله: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل [انظر الطبري ١١/١٥٠]، وعنه عن الضحاك وقتادة: الذرية: القليل، وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل، قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم، واختار ابن جرير [١١/١٥٠] قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ﷺ واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبِئْسَ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾؛ أي: وأشراف قومهم أن يفتنهم ولم يكن في بني إسرائيل

من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً بحباله، ومن قال إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَأْتَهُمْ﴾ عائد إلى فرعون وعُظُم الملك من أجل أتباعه أو بحذف «آل» فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاها عن بعض النحاة، ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَاْ لَا جَعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾؛ أي: فإن الله كاف من توكل عليه، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَاْ لَا جَعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سُلطوا؛ لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعداب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا، وعن مجاهد أيضاً: لا تسلطهم علينا فيفتنونا [الطبري ١١/١٥٢].

﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ﴾؛ أي: خلصنا برحمة منك ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد ءامنا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام ﴿أَنْ يَتَبَوَّءَا﴾؛ أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فقال ابن عباس: أمروا أن يتخذوها مساجد [الطبري ١١/١٥٣]، وقال إبراهيم: كانوا خائفين فأمرُوا أن يصلوا في بيوتهم [الطبري ١١/١٥٣]، وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبو زيد بن أسلم: وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وفي الحديث «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه أبو داود [وأحمد

وهو حديث حسن؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَجَعَلُوا يُؤْنِسُكُمْ قِبَلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَذَكِّرُوا الْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: بالثواب والنصر القريب، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة، وقال مجاهد: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة يصلون فيها سرًا [الطبري ١١/١٥٥]، وكذا قال قتادة والضحاك، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَجَعَلُوا يُؤْنِسُكُمْ قِبَلَهُ﴾؛ أي: يقابل بعضها بعضًا [الطبري ١١/١٥٥].

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾
﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى ﷺ على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وتكبراً، قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾؛ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾؛ أي: جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء؛ أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١١٣ والجن: ١٧]، وقرأ آخرون بضم الياء؛ أي: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها، وقال الضحاك وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: جعل سكرهم حجارة.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنه لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح ﷺ فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٦٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى ﷺ فيهم هذه الدعوة التي آمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمن هارون؛ أي: قد أجنبنا كما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون آمن، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الآية؛ أي: كما أجبنا دعوتكما فاستقيما على أمري. قال ابن عباس: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فامضيا لأمري. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون

مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقال محمد بن علي بن الحسين أربعين يوماً.

﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلَيْكُم نَجِيكَ بِذَنكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَابَهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى ﷺ، وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية وقد كانوا استعاروا من القبط حُلِيًّا كثيرًا، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُوكُمْ﴾ [الشعراء: ٦١] وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وأدركهم فرعون ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى ﷺ عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك هاهنا ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ أي: كالجبل العظيم وصار اثني عشر طريقًا لكل سبط واحد وأمر الله الرياح فنشفت أرضه ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايبك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا، وجازت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا فتجلد لأمراته، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدًا إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [٨٤] ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَّتْ آلَهُ الْقِيَّ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾؛ أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: في الأرض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْعُوثُ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الفصص: ٤١]، وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ؛ ولهذا روى الإمام أحمد [٢٨٢١] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

الَّذِي ءَامَنَتْ يَدُهُ بِمَوْتِ اِسْرَءِيْلَ ﴿٩٣﴾ قَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ اَخَذْتُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ، فَدَسَسْتُهُ فِيْهِ مَخَافَةً اَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ [ورواه الترمذي بنحوه/٣١٠٧ وقال: حسن، والنسائي/١١٢٣٨ بمعناه في التفسير]، وابن حبان/٦٢١٥ بمعناه في «صحيحه»، والحاكم/٧٦٣٥ مختصراً وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾؛ أي: نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك، قال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سوياً صحيحاً؛ أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم والله أعلم.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾؛ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعضهم: ﴿لتكون لمن خلقك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾؛ أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء كما روى البخاري [٤٤٠٣] عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: (أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوهُ).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صَدِّقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣).

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله: ﴿مَبْوَءَ صَدِّقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا آلَقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَظْعَمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فَرَعَوْتُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ولكن استمروا مع موسى ﷺ طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل ﷺ فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى ﷺ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم ﷺ في تلك المدة فاستعانت اليهود قبحهم الله على معاداة عيسى ﷺ بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه، وشبّه لهم بعض الحواريين

بمشيئة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

ثم بعد المسيح ﷺ بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفًا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل: تقية وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعًا وأحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهيكل، والمعابد وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول، والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾؛ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: (إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ) قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: (مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) رواه الحاكم في «مستدركه» [٤٤٤] بهذا اللفظ وهو في «السنن والمسانيد» [وهو حديث صحيح]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾.

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: (لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ) [الطبري ١٦٨/١١]، وهو مرسل جيد، وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والحسن البصري وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية

[الأعراف: ١٥٧]، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يُلبسون ذلك ويبدلون، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى ﷺ على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰؤُلَاءِ آمُورِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَيْ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّو لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝﴾ [٩٨].

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبوه قومه أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَىٰ الْبَآئِدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٢٠]، وفي الحديث الصحيح: (عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الْفِتْنَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) ثم ذكر كثرة أتباع موسى ﷺ ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي [روى البخاري معناه/ ٤٥٢٠]، والغرض، أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله، واستغاثوا به وتضرعوا لديه واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به بنبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّو لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

واختلف المفسرون هل كُشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين: أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية. والثاني: فيهما لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [١٤٧] فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ [الصفات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي وهذا هو الظاهر والله أعلم.

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت، إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسحوق، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم، وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل، وكذا روي عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها: ﴿فهلا كانت قرية آمنت﴾ [ذكرها الطبري ١٧٠/١١ من قراءة أبي].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جنتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾؛ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: حجج الله وأدلتها، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى وإضلال من ضل.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نَحْنِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ .

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبواب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مدلل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وأي شيء تجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم ﴿فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) ثُمَّ نَحْنِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي:

ونهلك المكذبين بالرسول ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حَقًّا أَوْجبه الله على نفسه الكريمة كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، كما جاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي) [البخاري بلفظ قريب/ ٦٩٨٦ ومسلم/ ٢٧٥١].

﴿قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤) وَأَنْ أَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَرْدُّكَ يَخْتَارُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئكم من الدين الذي أوحاه الله إلي فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقًا فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا﴾؛ أي: أخلص العبادة لله وحده، حنيفًا؛ أي: منحرفًا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخرها، بيان؛ لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

يقول تعالى أمرًا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فيه، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ ؛ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ ؛ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ؛ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.



تفسير سورة هود

وهي مكية

روى أبو عيسى الترمذي [٣٢٩٧] عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت قال: (شَيْبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)، وفي رواية: (هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا) [وقال: حسن غريب وصححه الألباني].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُنْتُ أَهَكَمْتُ ءَايَتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفْهَرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُمْسِكْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٌ ﴿٤﴾﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أَهَكَمْتُ ءَايَتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾؛ أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِي؟) فقالوا: ما جربنا عليك كذبا قال: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [روى البخاري نحوه/٤٥٢٣ ومسلم نحوه/٢٠٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَفْهَرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُمْسِكْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؛ أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿يُمْسِكْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ

فَضَّلَهُ؛ أَي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، قَالَه قَتَادَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وَقَدْ جَاءَ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدٍ: (وَإِنَّكَ لَن تَنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلَ فِي فِي أَمْرَاتِكَ) [البخاري/٥٦ ومسلم/١٦٢٨ نحوه]، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قَالَ: مِنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ كَتَبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ، وَمِنْ عَمَلٍ حَسَنَةٍ كَتَبَتْ لَهُ عَشْرَةٌ حَسَنَاتٍ، فَإِنْ عَوَّقَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَ عَمَلُهَا فِي الدُّنْيَا بَقِيَتْ لَهُ عَشْرٌ حَسَنَاتٍ، وَإِنْ لَمْ يَعْقَبْ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَخَذَ مِنَ الْحَسَنَاتِ الْعَشْرَ وَاحِدَةً وَبَقِيَتْ لَهُ تِسْعٌ حَسَنَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: هَلْكَ مِنْ غَلَبَ أَحَادَهُ أَعْشَارُهُ [الطبري ١٨٢/١١].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَذَبَ رِسْلَهُ فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ مَعَادِهِ لَا مُحَالَةَ، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أَي: مَعَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أَي: هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ، وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَإِعَادَةِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهيبِ كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقَامُ تَرْغِيبٍ.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ یَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ یَعْلَمُ مَا یُیْرُوتُ وَمَا یُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِیمُ بِلَاذِ الصُّدُورِ﴾.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، روى البخاري [٤٤٠٥] عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ﴾ فقلت: يا أبا عباس ما تنتوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى فيستحي فنزلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾.

قال البخاري [٤٤٠٦]: عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يَغْطُونَ رُؤُوسَهُمْ، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به: الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم: أي: أنهم كانوا ينتنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُيْرُوتُ﴾ من القول ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِیمُ بِلَاذِ الصُّدُورِ﴾؛ أَي: يَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ مِنَ النِّيَّاتِ وَالضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ.

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله: ﴿أَلَا حِينَ یَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ یَعْلَمُ مَا یُیْرُوتُ وَمَا یُعْلِنُونَ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ﴾ برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها بحريها

وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾؛ أي: يعلم أين مُتَهَي سِيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكبرها وهو مستودعها، وقال ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾؛ أي: حيث تأوي ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث تموت [الطبري ٢/١٢]، وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب كالتي في الأنعام [الطبري ٢/١٢]، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا تَلْمِزُهَا وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ﴾
 أَتَيْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى آثَمِهِ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، وقال البخاري [٤٤٠٧] في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ)، وقال: (يَدُ اللَّهِ مَلَأَتْ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وقال: (أَفْرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ).

وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شيئاً، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة بن حبيب، وقتادة، وابن جرير [٤/١٢] وغير واحد، وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض، وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور، وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه [ابن أبي حاتم/٨٥٧٨]، وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد، وقال سعيد بن جبيرة: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح [الحاكم/٣٢٩٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَتَيْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم ﴿أَتَيْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً

ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿وَلَيْتَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يقول تعالى: ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيعذبهم بعد مماتهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْتَهُ فهو يتبعك على ما تقول، وقوله: ﴿وَلَيْتَ أَخْرَأَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِنَّكُم مَبْعُودُونَ لَيَقُولَنَّ مَا يَجِئُهُ﴾ يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَجِئُهُ﴾؛ أي: يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. و«الآمة» تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا أَتَمُّ مَعْدُودَةٍ﴾.

﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حل له يأس من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وجحود لماضي الحال كأنه لم ير خيراً، ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾؛ أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ أي: فرح بما في يده فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ أي: في الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: في الرخاء والعافية ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء كما جاء في الحديث: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ، وَلَا نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ، وَلَا حَزَنٌ حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) [رواه مسلم/ ٢٥٧٢ نحوه]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِلَّا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنّت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول

كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهِ فِي الْأَنْسَابِ لَوَلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ أَوْ يُنْفِثْ إِلَيْهِ كَفْرًا أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: ٧، ٨]، فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يشينه عن دعائهم إلى الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَا صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ فَسَيِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقال هاهنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِغٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ۝٩٩﴾ أي: لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع بشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: ﴿فَالْتَمَسْتَنَاجِيًا لَكُمْ﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيهِ ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَوْنَ ۝١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون فقيرًا، يقول: من عمل صالحًا التماس الدنيا صومًا أو صلاة أو تهجدًا بالليل لا يعمل إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين، وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد، وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى [ابن أبي حاتم/ ١٠٧٣٦]، وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْآخِرَةَ زِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۝١٧﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْآخِرَةُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٨﴾.

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من

الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تَجِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ؟) [البخاري/ ١٢٩٢ ومسلم/ ٢٦٥٨ بلفظ قريب]، وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَانَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ)، فالْمُؤْمِنُ بَاقٍ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ.

وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾؛ أي: وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة الْمُكْمَلَةُ الْمُحْتَمَمَةُ بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم النخعي، والسدي وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾: إنه جبريل ﷺ [الطبري ١٦/١٢].

وعن علي والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وهو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي إلى أمته، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبْتُ مُوسَى﴾؛ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَأْتِ مَوْعِدُهُ﴾؛ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض فالنار موعده، وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ) [رواه مسلم بلفظ قريب عن أبي هريرة/ ١٥٣]، وقال سعيد بن جبیر: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: (لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، فَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ) فجعلت أقول أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَأْتِ مَوْعِدُهُ﴾ قال: من الملل كلها [الطبري ١٩/١٢].

وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: القرآن حق من الله لا مرية ولا شك كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢].

وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسول والأنبياء وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد [٥٤٣٦] عن صفوان بن مُحَرِّز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتَرْهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ)، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الْأَشْهَدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الآية، أخرجه البخاري [٤٤٠٨] ومسلم [٢٧٦٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنبوهم الجنة، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: بل كانوا تحت قهره وفي قبضته وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفي «الصحيحين»: (إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ) [البخاري/٤٤٠٩ ومسلم/٢٥٨٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صمّاً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبهوا؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: خسروا أنفسهم؛ لأنهم دخلوا ناراً حامية فهم معذبون فيها لا يُقْتَر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام

فَلَمْ تُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ ضَرَبَتْهُمْ كُلَّ الضَّرَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال الخليل لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ تَنْصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسارهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسّلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته، بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاجْتَبَوْا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعداء فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ الآية [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكي بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢١) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ والملاؤ: هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ أي: لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَادِي الرَّأْيِ﴾؛ أي: في أول بادئ الرأي ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة عقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ردالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونهم هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ يُنذِرُونَ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل [رواه البخاري/٧]، وقولهم: ﴿كَادِي الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عبيٌّ أو غبيٌّ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم غمّي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الأراذلون وهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَءَاَنَنْتِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْنِهِ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿أَنزَلْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: نغصبكم على قبولها وأنتم لها كارهون.

﴿وَيَقَوْمِ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤُا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم أجرة أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله ﷻ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه نفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك، ولا يسأله على ذلك أجراً بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضع فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالماً قاتلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه، والبلاء موكل بالمنطق. ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾؛ أي: حاجبتنا فأكثر من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا﴾؛ أي: من النعمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ؛ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء ﴿وَلَا يَفْعَلُوا نَصْحًا إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغَيِّبَكُمْ﴾؛ أي: أي شيء يجدي عليكم إنذارني إياكم ونصحي إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَئِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾.

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها، ومقرر بشأنها يقول تعالى لنبينه ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي﴾؛ أي: فأثم ذلك علي ﴿وَأَنَا بِرَئِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُمُونَ﴾؛ أي: ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَصْنَعِ الْفُلَکَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَکَ﴾؛ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بمرأى منا ﴿وَوَحِّينَا﴾؛ أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَصْنَعِ الْفُلَکَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾؛ أي: يكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ تهديد أكيد ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: مستمر أبداً.

﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَقَارَ النَّوُّورُ فَلَنَّا أَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤٠﴾.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح ﷺ إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتّان الذي لا يُقْلَع ولا يَفْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَلْوَجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١-١٣].

١١- ١٤، وأما قوله: ﴿وَقَارَ النَّورُ﴾ فعن ابن عباس النور: وجه الأرض [الطبري ٣٨/١٢]؛ أي: صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام النور: فلق الصبح، وتنوير الفجر [ابن أبي حاتم/١٠٨٧]، وهو ضيائه وإشراقه، والأول أظهر، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾؛ أي: واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقربته إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنة الذي انزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: من قومك ﴿وَمَأْمَنَ مَعَهُ﴾؛ أي: نزل يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِدْنَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَوَّيْ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣).

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِدْنَهَا وَمُرْسَاهَا﴾؛ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رؤسوها.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ أَلَمَّذُ لِلَّهِ الَّذِي فَجَّأَنَا مِنَ الْقَوَرِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُزْلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١١) لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٢) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]، وجاءت السُّنة بالحث على ذلك كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾؛ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعْيِبًا أَدْنَىٰ وَرَبِّهَا أَكْبَرُ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام كان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿قَالَ سَوَاءٌ إِلَيَّ جَبَلٌ يَعْصِي مِنِّي أَمَّا﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح ﷺ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾؛ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَتَٰرَضُ آبَاؤُكَ وَيَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ أَلْمَاءُ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغِيصَ أَلْمَاءُ﴾؛ أي: شرع في النقص ﴿وَفُصِيَ الْأَمْرُ﴾؛ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم دينار ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت وتواضع هو الله ﷻ، فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح ﷺ [ابن أبي حاتم/١٠٩١٥]، وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقي الله سفينة نوح ﷺ على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً [ابن أبي حاتم/١٠٩١٦]، وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل [ابن أبي حاتم/١٠٩١٨]، وقال بعضهم: هو الطور.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلًا إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَسِبَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَن أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

هذه سؤال استعلام وكشف من نوح ﷺ عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾؛ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلًا﴾؛ أي: الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتكم بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً ﷺ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية، ويحكي القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وبقوله: ﴿فَخَاتَمَتَاهُمَا﴾

[التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين، وبعضهم يقول: كان ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازًا لكونه كان ربييًا عنده فالله أعلم.

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط [الطبري ٥١/١٢]، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ أي: الذين وعدتك نجاتهم، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة؛ ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١-١٥].

وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية [ابن أبي حاتم/ ١٠٨٩٢] قال عكرمة: في بعض الحروف إنه عمل غير صالح، والخيانة تكون على غير باب [ابن أبي حاتم/ ١٠٩٢٧]، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك، فقد روى الإمام أحمد [٢٧٦١٠] عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وسمعت يقول: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ولا يبالي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] [ورواه أبو داود/ ٣٩٨٢ والترمذي/ ٢٩٣١ وهو حسن].

وقال ابن عباس لما سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله: ﴿فَخَاتَمَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [الطبري ٥١/١٢] قال ابن عيينة: أخبرني عمار الدُّهني أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح إن الله لا يكذب [الطبري ٥١/١٢].

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: ٤٢] قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط، وكذا روي عن مجاهد أيضًا وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مهران، وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه.

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَمَّتَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤٨].

يخبر تعالى عما قيل لنوح ﷺ حين أُرست السفينة على الجودي، من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة، وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يٰنَارُ أَطْلِقِي مَاءَكَ﴾ [هود: ٥٤] الآية فجعل الماء ينقص ويغيض ويُدْبِرُ، حتى برز وجه الأرض وظهر

الْيَسَّ، وكشف نوح غطاء الفلك، ورأى وجه الأرض ﴿قِيلَ يَنْجُ أَهْطَ إِسْلَمِ مِنَّا﴾ الآية [روى ابن أبي حاتم معناه/ ١٠٤٩٧].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٩).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: هذه القصص وأشباهها: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾؛ يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحينا إليك على وجهها، كأنك شاهدها ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: نعلمك بها وحياً منا إليك ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾؛ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العقابة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَا مُفْرَوْنَ﴾ (٥٠) ﴿يَنْفَوْرَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَزْتُ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١) ﴿وَيَنْفَوْرَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢).

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى ﴿عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واخلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره أفلا تعقلون من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه وقوته؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣) ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٍّ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَبِئْسَ مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٥٤) ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ (٥٥) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦).

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيه: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: بحجة على ما تدعيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾؛ أي: بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

بمصدقين ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٥٤ مِّنْ دُونِهِ ﴿يَقُولُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ﴾ ٥٥ وَكَيْدُونِي جَمِيعًا؛ أَي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقًا فذروها تكيدني ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾؛ أَي: طرفه عين.

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾؛ أَي: تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه على صراط مستقيم. قال أئفغ بن عبد الكلاعي [كما روى أبو نعيم في الحلية ١٣٢/٥] في قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قال: فيأخذ بنواصي عباداه فيلقن المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده، ويقول للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَغْتُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ ٥٦ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٥٨ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ٦١.

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبأل ذلك عليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾؛ أَي: شاهد وحافظ لأقوال عباداه وأفعاله ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم، التي لا تمر بشيء إلا جعلته كالريم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هودًا وأتباعه من عذاب غليظ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباداه المؤمنين كلما ذكروا، ويُنادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾. قال السدي: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه [ابن أبي حاتم/١٠٧٩].

﴿وَالِىَ نَمُودَ أَحَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۝﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إلى نَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿أَحَاهُمْ صَلِحًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: ابتدأ خلقكم من الأرض التي خلق منها أبائكم آدم ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: جعلكم فيها عُمَارًا تعمرونها وتستغلونها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝﴾.

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح ؑ وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾؛ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؛ أي: في شك كثير ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتُموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: خسارة.

﴿وَيَنْقَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سُوءَ فَإِخْلُذُوا عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝﴾ فَعَفَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثَمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدًّا لِّنَمُودَ ۝﴾.

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَتَنَبَّأْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ يَسْحَاقُ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنَيْقَ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾؛ أي: عليكم.

قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾؛ أي: ذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة، وهو عجل فتى البقر، حنيذ: مشوي شيئاً ناضجاً على الحجارة المُحَمَّاة، هذا معنى ما روي عن ابن عباس، وقتادة وغير واحد [الطبري ٧٠/١٢] كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٦٩﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧]، وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلبهم ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] فذبجه ثم شواه وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول: وامرأته قائمة فلما قرب به إليهم قال: ألا تأكلون؟ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بئس، قال: فإن لهذا ثمناً. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكايل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا [الطبري ٧٢/١٢].

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾؛ أي: قالوا: لا تخف منا إنا ملائكة أُرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

وقال قتادة: ضحكت وعجبت أن قوماً يأتهم العذاب وهم في غفلة [الطبري ٧٢/١٢]، قال ابن عباس: ﴿فَضَحِكَتْ﴾؛ أي: حاضت [الطبري ٧٢/١٢]. ﴿فَتَنَبَّأْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ يَسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾؛ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية

البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن ها هنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحها وأبينه، والله الحمد.

﴿قَالَتْ يَوَئَلَيْهِ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ الآية حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى ﴿فَأَقَلَّتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفِ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب ﴿قَالُوا أَنْتَجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: قالت الملائكة: لها لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك وإن كان شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير. ﴿رَمَتْهُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾؛ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجّد في صفاته وذاته.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) ﴿يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِلْعَذَابِ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦).

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: رأيتم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام: عند ذلك: ﴿إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُنَا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه [الطبري ٧٩/١٢]، وقال قتادة وغيره قريباً من هذا زاد ابن إسحاق: أفرايتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا، قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها في سورة براءة، وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية؛ أي: أنه قد نفذ فيهم القضاء وحققت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَلْعَاثِمُ مَا نُزِدُ ﴿٧٩﴾﴾ .

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده، فاتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له يعمرها، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة، فسأه شأنهم وضاعت نفسه بسببهم وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ .

قال ابن عباس وغير واحد: شديد بلاؤه [الطبري ١٢/٨٢]، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك، وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم، وفرقت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا أبتاه أدرك فتياً على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه [ابن أبي حاتم/١١٠٥٢] وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يسرعون ويهرولون.

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته [ابن أبي حاتم/١١٠٦٦]، وكذا روي عن قتادة وغير واحد.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحاً، وقال سعيد بن جبير: يعني: نساءهم هن بناته، وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: «النبي أولى

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» [ابن أبي حاتم/١١٠٦٧]، وكذا روي عن الربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾؛ أي: اقبلوا ما أمركم به من الاختصار على نساءكم ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؛ أي: فيه خير يقبل ما أمره به، ويترك ما أنهاه عنه؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا بِبَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ أي: إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نستهيمن، ﴿وَأَنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُزِيدُ﴾؛ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وَأَنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُزِيدُ﴾ إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠) ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ الآية؛ أي: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ لُوطٍ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ؛ - يَعْنِي: اللَّهُ ﷻ - فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ) [رواه أحمد/٨٣٧٣، والترمذي/٣١١٦، والنسائي/١١٠٥٠، والحاكم/٤٠٥٤ وصححه واللفظ له ووافقه الذهبي]. فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم؛ أي: يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾؛ أي: إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين.

﴿إِلَّا أَمْرًاكَ﴾ ذكر في الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوماه، فجاءها حجر من السماء فقتلها [وروي نحوه عن حذيفة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة، والسدي]. ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكِّرْ﴾ [القم: ٣٧].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَائِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ﴾ (٨٢) ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣).

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وهي سدوم

﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿فَعَشْنَهَا مَا عَشْنَى﴾ [النجم: ٥٤]؛ أي: أمطرنا عليها حجارة من سجيل، وهي بالفارسية حجارة من طين [الطبري ٩٤/١٢] قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم: أي: من سنك وهو الحجر، و«كل» وهو الطين وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]؛ أي: مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري [٤٤٠٧]: سجيل: الشديد الكبير، سجيل وسجين واحد.

وقوله: ﴿مَنْضُودٌ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء؛ أي: معدة لذلك، وقال آخرون: ﴿مَنْضُودٌ﴾؛ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾؛ أي: مُعَلَّمَةٌ مختومة، عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، وقال قتادة وعكرمة: ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ مُطَوَّقَةٌ، بها نَضْحٌ من حُمَرَةٍ، وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره فتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد، وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعته، ورفعهم حتى سمع أهل السماء بُنَاحَ كلابهم ثم أكفأهم، وكان حملهم على حوافي جناحه الأيمن، وفي رواية عن قتادة وغيره قال: بلغنا أن جبريل ﷺ لما أصبح نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَفَمَ بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل [انظر هذه الأقوال عند الطبري ٩٧/١٢].

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ أي: وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه، وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً: (مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمٍ لُّوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ) [أبو داود/٤٤٦٢ وابن ماجه/٢٥٦١ والترمذي/١٤٥٦، وصححه شاكر والألباني].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ بِهُ﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان. في بلد يعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وبينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسَلِّبُوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ بِهُ﴾؛ أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العبث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم، وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس، وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله خير لكم، وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة، وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس. قال: وقد روي هذا عن ابن عباس [انظر الأقوال السابقة عند الطبري ١٢/ ١٠٠ - ١٠١]. قلت: ويشبهه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: بقيق؛ أي: افعلوا ذلك لله وَلَهُ. لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله وَلَهُ.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله: ﴿أَسْلَوْنَاكَ﴾ قال الأعمش: أي: قرآنك ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؛ أي: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترك التطفيف على قولك، هي أموالنا نفعل فيها ما نريد. قال الحسن في قوله: ﴿أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون الزكاة. ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران، وابن جريج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول لهم: أرايتم يا قوم ﴿إِنْ كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على بصيرة فيما أَدْعُو إليه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، وقال الثوري: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾؛ أي: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف

أنا في السر فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾؛ أي: فيما آمركم وأناهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾؛ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع قاله مجاهد وغيره.

روى أحمد [١٨٨٩١] عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناسًا من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا محمد علام تحبس جبرتي؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال: إن ناسًا ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به فقال النبي ﷺ: (مَا يَقُولُ؟) قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعا فيدعوا على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبدًا، فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال: (أَوْ قَدْ قَالُوهَا - أَوْ قَاتِلُهَا مِنْهُمْ - وَلَيْنَ فَعَلْتُ ذَلِكَ مَا ذَاكَ إِلَّا عَلَيَّ، وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ، أَرْسَلُوا لَهُ جِيرَانَهُ) [رواه أبو داود/٣٦٣١ مختصرًا وإسناده حسن]، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٦١٠٢] عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَلِينَ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَنْفُرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ). هذا إسناده صحيح [على شرط مسلم]؛ ومعناه: والله أعلم مهما بلغكم عني من خير فانا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فانا أبعدكم منه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلَاقِكُمْ إِنْ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾ قال مسروق: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: أنتهى عن الواصله؟ قال: نعم، قالت: فلعله في بعض نسائك، فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلَاقِكُمْ إِنْ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾ [رواه أحمد/٣٩٤٥ واللفظ لابن أبي حاتم/١١١٤٥].

وعن أبي سليمان العتبي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها: وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [ابن أبي حاتم/١١١٤٧].

﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩) ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠).

يقول لهم: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾؛ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النعمة والعذاب.

وقال قتادة: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي [الطبري ١٢/١٠٤]، وقال السدي: عداوتي، على أن تتمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٌ مِّنْكُمْ يَبْعِدُونَ﴾ قيل: المراد في الزمان، كما قال قتادة: يعني: إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس [ابن أبي حاتم/ ١١١٥٦]، وقيل: في المكان ويحتمل الأمران ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من سالف الذنوب وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّينَ﴾ (٩١) قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾.

يقولون: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ﴾ ما نفهم ولا نعقل كثيرًا من قولك، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. قال سعيد بن جبير والثوري: كان ضرير البصر، وقال الثوري: كان يقال له خطيب الأنبياء [انظر هذه الأقوال عند الطبري ١٠٥/١٢]، وقال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾؛ أي: لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّينَ﴾؛ أي: ليس لك عندنا معزة. ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ يقول: أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناح الرب أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾؛ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّيَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيك بها.

﴿وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّهُ يَغْوًا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَلِيٍّ كَمَا بَعْدَتْ نُمُودٌ ﴿٩٥﴾.

لما يئس نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾؛ أي: طريقتكم وهذا تهديد ووعيد شديد ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ علي طريقي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾؛ أي: مني ومنكم ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾؛ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ وقوله جاثمين؛ أي: هامدين لا جراك بهم، وذكر هاهنا أنهم أتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن يذكر هناك الرجفة،

فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها، وها هنا لما أساءوا الأدب في مقالتهن على نبيهن ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمنة كثيرا دائما .

وقوله: ﴿كَانَ لَّزِبْنَوا فِيهَا﴾؛ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بَعْدًا لِّمَن كَانَ بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار وشبيها بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عربا شبيههم .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى ﷺ بآياته الباهرة إلى فرعون لعنه الله ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: مسلكه وطريقته في الغي ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مقدّمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدّمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردتهم إياها وشربوا من حياض رذاها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] .

وقوله: ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية؛ أي: اتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان [الطبري ١١١/١٢]، وقال ابن عباس: ﴿يَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنْبِيءٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَى﴾؛ أي: من أخبارها ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾؛ أي: عامر وحصيد؛ أي: هالك ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾؛ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾؛ أي: أصنامهم وأوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنْبِيءٍ﴾ قال مجاهد، وقتادة وغيرهما: أي: غير تخسير [ابن أبي حاتم/١١٢٠٩]، وذلك أن سبب

هلاكلهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢).

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بنظائرهم وأمثالهم ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [البخاري/٤٤٠٩ واللفظ له ومسلم/٢٥٨٣].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾.

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ونصرة الأنبياء ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الدار الآخرة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنَلْحِقَنَّ الْظَّالِمِينَ﴾ (١٠٤) وَلَنَسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾؛ أي: أولهم وآخرهم فلا يبقى منهم أحد كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتُحشر فيه الخلائق من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾؛ أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله وقدره في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم، أقام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾؛ أي: لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ من حديث الشفاعة الطويل: (وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ) [البخاري/٧٧٣ ومسلم/١٨٢].

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾؛ أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد كما قال ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر [الطبري ١١٦/١٢]؛ أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب عيادًا بالله من ذلك ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كلمة أبدًا، فخطابهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال: ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض فما دامت تلك السماء وتلك الأرض، وقال ابن عباس: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماء [الطبري ١١٧/١٢].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لِّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا لِمَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، حكاهما الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زاد المسير»، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيرًا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمته الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان، والضحاك، وقتادة، وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس والحسن أيضًا: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين، من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيرًا قط وقال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة، وقال قتادة: الله أعلم بثنياءه، وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾؛ أي: فما أواهم الجنة

﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ما كثرين مقيمين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس، وقال الضحاك، والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها، وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾؛ أي: غير مقطوع قاله ابن عباس [ابن أبي حاتم/١١٢٤٥]، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد لثلاث يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه يعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾، وقد جاء في «الصحاحين» (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبَشٍ أَمْلَحَ فَيُدْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ) [البخاري/٤٤٥٣ بنحوه ومسلم/٢٨٤٩ بنحوه أيضاً]، وفي «الصحاح» أيضاً: (فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَداً، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَداً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَداً) [مسلم/٢٨٣٧].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾
نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكِّ مِنْهُ مُرْسٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل؛ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا إتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر [الطبري/١٢/١٢٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك أسوة فلا يغظنك تكذيبهم لك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال ابن عباس: لا تُدَاهِنُوا. وقال أيضًا: هو الركون إلى الشرك، وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم، وقال ابن عباس كذلك: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٢/١٢٧] وهذا القول حسن؛ أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكُم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكْرِكِ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قال: يعني: الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحسن في رواية وقتادة، والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر من آخره، وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه [انظر هذه الأقوال عند الطبري ١٢/١٢٨].

وقوله: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: يعني: صلاة العشاء، وقال الحسن في رواية عنه؛ يعني: المغرب والعشاء، وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضًا في قول والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢]، وأهل السنن [النسائي/١١٠٧٨ وأبو داود/١٥٢١ والترمذي/٣٠٠٦ وابن ماجه/١٣٩٥] عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (مَا مِنْ مُّسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ) [حسنه الترمذي وهو صحيح]، وفي «الصحيحين» عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضع لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله

يتوضأ، وقال: (مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) [البخاري/ ١٥٨ ومسلم/ ٢٢٦].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بَيَابَ أَحَدِكُمْ نَهْرًا عَمَرًا يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا؟) قالوا: لا يا رسول الله. قال: (كَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا) [البخاري/ ٥٠٥ ومسلم/ ٦٦٧]، وروى مسلم في «صحيحه» [٢٢٣] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكِبَايِرُ)، وروى البخاري [٥٠٣] عن ابن عباس أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله: ﴿وَأَمِرَ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَنْهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: (لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَبْهَتٍ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠٤]، وفي الحديث: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يُعْصِمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ) [رواه أحمد/ ١ والترمذي/ ٢١٦٨ نحوه وأبو داود/ ٤٣٣٨ بنحوه وابن ماجه/ ٤٠٠٥ وهو صحيح]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَبْهَتٍ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجاهم العذاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ﴾ ① إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ؛ أي: ولا يزال الخُلُفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: مختلفين في الهدى، وقال الحسن البصري: مختلفين في الرزق، يُسَخَّر بعضهم بعضًا [ابن أبي حاتم/ ١١٢٨٤]، والمشهور الصحيح الأول.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ﴾؛ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ خاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ونصروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسُنن، من طرق يشد بعضها بعضًا: (إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَفَرَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً). قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: (مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) رواه الحاكم في «مستدركه» بهذه الزيادة [٤٤٤] ورواه أبو داود/ ٥٩٦ وابن ماجه/ ٣٩٩٢، وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿وَلَا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾؛ يعني: الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه: وللاختلاف خلقهم، وقال ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ سَفِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وقيل: للرحمة خلقهم، فعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقاتادة [الطبري ١٢/ ١٤٣] ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقيل: بل المراد للرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ﴾ ① إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه، وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش، وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخْلَفُونَ﴾ ① إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير [١٢/ ١٤٣]، وأبو عبيد والفراء، وعن مالك فيما روينا عنه في «التفسير»: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرحمة وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ لِأَمَلَانٍ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعْفَةُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبَّرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمْتِي أَرْحَمِي بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي،

أَنْتَقِمُ بِكَ مِمَّنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعَزَّتْكَ) [البخاري بألفاظ قريبة/ ٧٠١١ ومسلم كذلك/ ٢٨٤٦].

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من الخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما نثبت به فؤادك؛ أي: قلبك ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾؛ أي: هذه السورة قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على طريقته ومنهجكم ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾؛ أي: على طريقتنا ومنهجنا ﴿وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾؛ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤفي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين، وقال كعب: خاتمة التوراة خاتمة هود [الطبري ١٢/ ١٤٨].



تفسير سورة يوسف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿رَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿الْمُبِينِ﴾؛ أي: الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرهما ويبينها. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير [١٥٠/١٢] عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم تلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث، ورواه الحاكم [٣٣١٩]، وصححه ووافقه الذهبي ورواه ابن حبان [٦٢٠٩]، وحسنه الحافظ.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد [١٥١٩٥] عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب، وقال: (أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيَضَاءً نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتَكْذِبُونَهُ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي) [رواه ابن أبي عاصم في السُّنَّة وحسنه الألباني].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤)

يقول تعالى: اذكر لقومك في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب عليه السلام، كما روى الإمام أحمد [٥٧١٢] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (الْكَرِيمُ، ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنُ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ). انفراد بإخراجه البخاري [٣٢٠٢]، وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي [الحاكم/٨١٩٧]، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، روي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [الطبري/١٢/١٥٢]، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٥)

يقول تعالى مخبرًا عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا بحيث يخرون له ساجدين إجلالًا واحترامًا وإكرامًا، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل حسدًا منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾؛ أي: يحتالوا لك حيلة يُرْدُونَكَ فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَىٰ جَنْبِهِ الْآخِرِ وَلْيَتَفَلَّحْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ) [رواه مسلم/٢٢٦١]، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد [١٦٢٢٧] وبعض أهل السنن [ابن ماجه/٣٩١٤ وأبو داود/٥٠٢٠] من رواية لقيط بن صبرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الرُّؤْيَا عَلَىٰ رَجُلٍ طَائِرٌ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ) [وهو حديث صحيح]، ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث (اسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِكُتْمَانِهَا، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ) [رواه الطبراني في الكبير ٩٤/٢٠، وقال الألباني: إسناده جيد].

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦)

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب

مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِبُكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يختارك لنبوته ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني: تعبير الرؤيا. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾؛ أي:
بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّكُمْ عَلَى بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو الخليل
﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ ٧ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا
وَحْنُ عَصْبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٨ ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ٩ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ
يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ١٠.

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات؛ أي: عبرة للسائلين عن ذلك
المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يستخبر عنه ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا
وَحْنُ﴾؛ أي: حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا
مِمَّا وَحْنُ عَصْبَةٍ﴾؛ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقدّم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك،
ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مُدّعي ذلك إلى
دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنِهِ وَاسْتَعِذْ
وَلِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم
الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من
أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً؛ لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة
يوسف، ولم يقدّم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة
أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلوا لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض
من الأراضي تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين، فأضربوا
التوبة قبل الذنب. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل،
وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون [الطبري ١٥٠/٦]، ﴿لَا تَقْتُلُوا
يُوسُفَ﴾؛ أي: لا تصلوا في بغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان
يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر
والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو
أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس [الطبري ١٦٧/١٢]، ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾؛ أي:
المارة من المسافرين فتستريحوا بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾؛ أي: إن كنتم
عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطعة الرحم،

وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنه ورقّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً.

﴿قَالُوا يَتَابَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿يَتَابَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾؛ أي: ابعته معنا ﴿غَدًا نَرْتَع وَيَلْعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء «يرتع ويلعب». قال ابن عباس: يسعى وينشط، وكذا قال قتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم [الطبري ١٢/١٥٩].
﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾؛ أي: يشق علي مفارقتُهُ مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لهالكون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له، وبسطة وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال مجاهد، وقتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الحب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ويظهرون الأسف على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتردين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ﴾؛ أي: نترامي، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا﴾؛ أي: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَآكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾؛ أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلَةٍ فيما ذكره مجاهد، والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقت عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال ابن عباس: لو أكله السبع لخرق القميص [الطبري ١٦٤/١٢]، وكذا قال الشعبي، والحسن، وقتادة وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه [الطبري ١٦٥/١٢]، وقال الثوري، عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك [الطبري ١٦٦/١٢].

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَمْلُكُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يا بشراي هَذَا غُلْمٌ﴾، وقرأ بعض القراء: ﴿يا بشري﴾.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾؛ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير: هذا قول، وقال ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾؛ يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم، وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم، فنأدى أصحابه ﴿يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلْمٌ﴾ يباع فباعه إخوته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَمْلُكُونَ﴾؛ أي: عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنني سأملئ لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قاله مجاهد، وعكرمة، والبخس: هو النقص؛ أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دُونٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين؛ أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرُّهُ﴾ عائد على إخوة يوسف، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة، والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شَرُّهُ﴾ إنما هو لإخوته.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى باللطافة بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه،

وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجُوهُ﴾. وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها، وقال محمد بن إسحاق: كان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق [الطبري ١٢/١٧٥]، قال: واسم امرأته راعيل [الطبري ١٢/١٧٥]، وقال غيره: اسمها زليخا.

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ يعني: بلاد مصر ﴿وَنُعَلِّمُهُ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد، والسدي: هو تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾؛ أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾؛ أي: فعال لما يشاء [الطبري ١٢/١٧٦].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه، وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾؛ أي: يوسف ﴿أَشَدَّهُ﴾؛ أي: استكمل عقله وتم خلقه ﴿ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ يعني: النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: إنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى.

﴿رَوَدَّتْهُ اللَّيْلُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه؛ أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبتة حباً شديداً لجمالها وبهاؤه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، ﴿وَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير؛ أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي؛ أي: منزلي، وأحسن إليّ، فلا أقبله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، قال ذلك مجاهد، والسدي، ومحمد بن إسحاق وغيرهم، وقد اختلف القراء في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، وقال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وعن ابن عباس: هيت لك، تقول: هلم لك، وكذا قال زر بن حبیش، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعن الحسن: هي كلمة بالسريانية؛ أي: عليك، وقال السدي: أي: هلم لك، وهي بالقبطية، وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها [انظر هذه الأقوال عند الطبري ١٢/١٧٨، ١٧٩]، وقال البخاري: وقال عكرمة: هلم لك بالحوَزانة، هكذا ذكره معلقاً [البخاري في صحيحه تعليقاً ٤/١٧٣٠].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكي هذه القراءة؛ يعني: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال. وقال أبو عبيدة: سألت شيخاً عالمًا من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

وعن أبي وائل، قال: قال عبد الله: هَيْتَ لك، فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: هَيْتُ لك، فقال: دعوني فإني أقرأ كما أقرئت، أحب إليّ [انظر هذه الأقوال بأسانيد عند الطبري ١٢/١٨٠، ١٨١].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖۙ كَذٰلِكَ لِتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَۙ اِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَۙ﴾ (٢٤).

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببر وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره، والله أعلم، وقيل: المراد بهم بها خَطَرَات حديث النفس، حكاة البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي هاهنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاکْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنَّ عَمَلَهَا فَاکْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاکْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَزَائِي، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاکْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا)، وهذا الحديث مخرج في «الصحاحين» [البخاري/٦١٢٦ بنحوه ومسلم/١٢٩ نحوه]، وقيل: هم بضربها، وقيل: تمنأها زوجة، وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖۙ﴾؛ أي: فلم يهم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاة ابن جرير وغيره.

وأما البرهان الذي رآه فيه أقوال أيضًا، فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببر، والحسن، وقتادة وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضًا على أصبعه بفمه، وعن ابن عباس أيضًا: فضرب في صدر يوسف، وعن ابن عباس كذلك: رأى خيال الملك؛ يعني: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاة عن بعضهم [الطبري ١٢/١٨٦].

وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَۙ اِنَّهٗ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] [الطبري ١٢/١٩٠]، وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك، وقال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَۙ﴾؛ أي: كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره: ﴿اِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَۙ﴾؛ أي: من المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَفَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِۙ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًاۙ اِلَّا اَنْ يُسَجَّنَ اَوْ عَذَابٌ اَلِيمٌۙ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِيۙ وَشَهِدَ شَآهِدٌ مِّنْ اَهْلِهَآ اِنْ كَانَ قَمِيصُهُۥ قَدْ مِّنْ قُبُلٍۭ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَۙ (٢٦) وَاِنْ كَانَ قَمِيصُهُۥ قَدْ مِّنْ دُبُرٍۭ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَۙ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصُهُۥ قَدْ مِّنْ دُبُرٍۭ قَالَ اِنَّهٗ مِنْ كٰذِبِكُمْۙ اِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيْمٌۙ (٢٨) يُوسُفُ اَعْرِضْ عَنْ هٰذَاۙ وَاسْتَغْفِرِيْ لِذَنْبِكِۙ اِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخٰطِئِيْنَۙ﴾ (٢٩).

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فَقَدَّتْهُ قَدْأ فظيغًا، واستمر يوسف

هاربًا ذاهبًا، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟﴾ أي: فاحشة ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾؛ أي: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: يضرب ضربًا شديدًا موجبًا، فعند ذلك انتصر يوسف ﷺ بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارأ صادقًا: ﴿هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾؛ أي: من قدامه ﴿فَصَدَّقَتْ﴾؛ أي: في قولها إنه راودها عن نفسها؛ لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه فيصح ما قالت ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبت، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، فقال ابن عباس: قال ذو الحية، وعنه أيضًا: كان من خاصة الملك، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلًا، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وعن ابن عباس في رواية ثالثة قال: كان صبيًا في المهد، وكذا روي عن أبي هريرة، وهلال بن يساف، والحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك بن مزاحم أنه كان صبيًا في الدار، واختاره ابن جرير [انظر الأقوال السابقة بأسانيدنا عنده ١٩٤/١٢]: وقد ورد فيه حديث مرفوع رواه ابن جرير [١٩٣/١٢] عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: (تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ) فذكر فيهم شاهد يوسف [ورواه أحمد/٢٨٢٢ والحاكم/٣٨٣٥ وغيرهما وصححه].

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾؛ أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿فَقَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكِنَّ﴾؛ أي: إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ثم قال أمرًا ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛ أي: اضرب عن هذا صفحًا؛ أي: فلا تذكره لأحد ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَذُنُوبِكِ﴾ يقول لامراته وقد كان لين العريكة أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه فقال لها: استغفري لذنبك؛ أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه. استغفري من هذا الذي وقع منك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيْزِ تَرْوُدُ فَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيْهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلٰكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَّا ءَاْمُرُهُ لِيُسْجَنَ وَلٰكِيْنَا مِنَ الصَّغِيْرِيْنَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ اٰحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُوْنِيْ اِلَيْهِ وَاِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ اَصْبُ اِلَيْهِنَّ وَاَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ اِنَّهٗ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿٣٤﴾﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز، شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس

﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء والكبراء، ينكرون على امرأة العزيز ﴿أَمَرَأْتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿فَدَّ شَعْفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه. قال ابن عباس: الشَّعْفُ: الحب القاتل، والشَّغَفُ دون ذلك، والشَّغَافُ: حجاب القلب [ابن أبي حاتم/ ١١٥٢٣]. ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَا﴾.

قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾ وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿وَقَالَتِ آخَرُ عَلَيْنَّ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فَلَمَّا﴾ خرج ﴿وَرَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُهُ﴾ أي: أعظمنا شأنه، وأجللنا قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشًا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن بالسكاكين، والمراد أنهن حزنن أيديهن بها، قاله غير واحد، وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها [الطبري ٢٠٦/١٢]، فالله أعلم.

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجًا وآتت كل واحدة منهن سكينًا: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأيته جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته يرجع ليرينه مقبلًا ومدبرًا، وهن يحزنن في أيديهن، فلما أحسنن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟ ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا؛ لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبًا منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: ﴿فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ﴾ [رواه مسلم/ ١٦٢].

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه، فلماذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾. قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [الطبري ٢٠٨/١٢].

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ تقول هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله، ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي: من

الفاحشة ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه امرأة عزيز مصر، وهي في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في «الصححين» أن رسول الله ﷺ قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَنْصِبٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) [أخرجه البخاري/٦٢٩ بألفاظ قريبة ومسلم/١٠٣١].

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُوهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين؛ أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، فكأنهم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقيّ العرض صلوات الله عليه وسلامه، وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَدْتُ اعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَدْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٦﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه [ابن أبي حاتم/١١٦١٧]. قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجد والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السم، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباها حباً شديداً وقالوا له: والله لقد أحبيناك حباً زائداً. قال: بارك الله فيكما، ثم إنهما رأيا مناماً فرأى الساقى أنه يعصر خمرًا؛ يعني: عنبًا، وقال الضحاك في قوله: ﴿إِنِّي أَرَدْتُ اعْصِرُ خَمْرًا﴾؛ يعني: عنبًا، قال: وأهل عُمان يسمون العنب خمرًا، وقال عكرمة: قال له: إني رأيت فيما يرى النائم أنني غرست حَبْلَةً من عنب، فنبتت. فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك، فقال:

تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمراً [الطبري ٢١٥/١٢]، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إِنِّي أَرَبِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ أَطْيَرُ مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره. وقال ابن مسعود: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما كان تحالماً ليجرى عليه [الطبري ٢١٤/١٢].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

يخبرهما يوسف ﷺ أنهما مهما رأيا في المنام من حلم، فإنه عارف بتفسيره يخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾. قال مجاهد: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ في يومكما ﴿إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدي: ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد. ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإنه يَهْدِي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا وأمرنا به. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم.

﴿يَصْصَحِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَخَّيْنَاهُمَا أَشْرَءَ آبَائِكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم إن يوسف ﷺ أقبل على الفتيتين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخَلَعَ ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: الذي ولي كل شيء بعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بيَّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خَلْفَهُمْ عن سَلَفِهِمْ، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة. ثم أخبرهم أن الحكم والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمَ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين

المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال ابن جرير: جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وضلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١).

يقول لهما: ﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يعينه لثلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبِّرَتْ وقعت، وقال ابن مسعود: لما قالوا ما قالوا وأخبرهما، قالوا: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [الطبري ٢٢١/١٢] وكذا فسرهما مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله أن من تحلم بباطل، وفسره فإنه يُلْزَمُ بتأويله، والله تعالى أعلم، وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد [١٦٢٢٧] عن لقيط بن صبرة، عن النبي ﷺ قال: (الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ. فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

ولما ظن يوسف ﷺ نجاة أحدهما - وهو الساقى - قال له يوسف خفية عن الآخر، والله أعلم، لثلا يشعره أنه المصلوب، قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسي ذلك الموصى أن يذكّر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان لثلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد، ويقال: إن الضمير عائد على يوسف ﷺ رواه ابن جرير عن ابن عباس، ومجاهد أيضًا، وعكرمة وغيرهم [الطبري ٢٢١/١٢ - ٢٢٢].

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعا، ويوسف في السجن سبعا، وعذب بختنصر سبعا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثنتا عشرة سنة، وقال الضحاك: أربع عشرة سنة [ذكر هذه الأقوال بأسانيد الطبري في تفسيره ٢٢٤/١٢].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْفُتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحَلْمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَلْحَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾ .

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قَدَّرَ الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن، معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهايته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار دولته وأمرأه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَتْ أَحَلْمٌ﴾؛ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾؛ أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: مدة، وقرأ بعضهم: بعد ﴿أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾؛ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾؛ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه. فجاء فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا﴾؛ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزرع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فاخزنوه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحَلُّ التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السَّمان؛ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهم لا يبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾؛ أي: يأتيهم الغيث وتُغَلُّ البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً، فعن ابن عباس رضي الله عنه وفيه يعصرون^(١) يحلبون.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَفَنُ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه، فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: ﴿أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلمًا وعدوانًا، فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ الآية، وقد وردت السُّنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي «المسند» [مسند الإمام أحمد/ ٨٣١١] و«الصحاحين» [البخاري/ ٣١٩٢ ومسلم/ ١٥١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخَيِّ الْمَوْتُ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَنَّ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة: ٢٦٠] وَيَرْحَمُ اللَّهُ لَوْطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبًا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ؟﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟﴾ يعني: يوم الضيافة، ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَفَنُ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز [الطبري ٢٣٦/١٢]، ﴿أَنَا رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي وذلك ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، لهذا راودته؛ لأنها أماراة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاها الماوردي في «تفسيره»، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته

﴿بِالْعَيْبِ﴾؛ أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْعَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير، ولا ابن أبي حاتم سواه، وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة [وغيرهم] والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٗ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿أَتَأْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾؛ أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾؛ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: إنك عندنا ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٗ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: خازن أمين، ﴿عَلَيْهٗ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه.

وقال شيبه بن نعام: حفيظ لما استودعني، عليم بسنيي الجذب [الطبري ٥/١٣]، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يُجعل على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير [١٣/٦]: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله ﷻ السلامة والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبية يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كما قال في حق سليمان عليه السلام ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠]، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام، قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق: لما قال يوسف للملك: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ قال الملك: قد فعلت [الطبري ٦/١٣]، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته [ابن أبي حاتم/١١٧٢٤].

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٥٨ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمِجَاهِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَجْرِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ٥٩ ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ ٦٠ ﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ٦١ ﴿وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٦٢ .

ذكر السدي، ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف ﷺ لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخضبة، ثم تلتها سنين الجذب، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب ﷺ وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف ﷺ للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بغير في السنة، وكان ﷺ، لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يكتفي الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعامًا، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب ﷺ عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف ﷺ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؛ أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمِجَاهِهِمْ﴾؛ أي: وفاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: اتنوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾؛ أي: إن لم تقدموا به

معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُون﴾ ٦٦ ﴿قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ؛ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نُبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾ ؛ أي: غلامانه ﴿اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ﴾ ؛ أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ ؛ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها، قيل: خشي يوسف ﷺ أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل: تذم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً؛ لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ٦٧ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ٦٨ .

يخبر الله تعالى عنهم: إنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَتَابَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ ؛ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل، قرأ بعضهم بالياء؛ أي: يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ؛ أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ ؛ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وقرأ بعضهم: حفظاً [انظر الطبري ١١/١٣] ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ؛ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضغفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملتي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَ وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ٦٩ ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنِّي ۚ اللَّهُ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ۖ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ٧٠ .

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي﴾ ؛ أي: ماذا نريد ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، كما قال قتادة، ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل [ابن أبي حاتم/١١٧٥٣]. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ؛ أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَ وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف ﷺ كان يعطي كل رجل حمل بعير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه؛ أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيه ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنِّي ۚ اللَّهُ ۖ﴾ ؛ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ۖ﴾

إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴿٦٧﴾ إِلَّا أَنْ تَغْلِبُوا كُلَّكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصِهِ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ أَكَّده عليهم، فقال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه؛ لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنبيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة والسدي: إنه خشي عليهم العين [الطبري ١٣/ ١٣]، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه، وعن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب [ابن أبي حاتم/ ١١٧٦٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يُمانع، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه، وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس؛ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده معزراً مكرماً معظمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتياه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة

في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد: كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد، وقال ابن عباس: ﴿صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك [الطبري ١٣/ ١٨]، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ؛ أي: صاعه الذي يكيل به ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جُمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ رَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؟
 إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾
 فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا
 كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي
 عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾؛ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أننا ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين؛ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟﴾ أي: السارق إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ أي: فتشها قبله تورية، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾؛ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله ﷻ [الطبري ١٣/ ٢٧]، وكذا روي عن سعيد بن جببر، قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿فوق كل ذي علم عليم﴾، فقال ابن عباس: بشئ ما قلت: الله العليم فوق كل عالم [ابن أبي حاتم/ ١١٨٢٩]، وعن ابن عباس أيضاً قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم [ابن أبي حاتم/ ١١٨٣٠]، وهكذا قال

عكرمة، وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدى، وتعلمت العلماء، وإليه يعود [ابن أبي حاتم/ ١١٨٣٢]، وفي قراءة عبد الله، ﴿وفوق كل عالم عليم﴾.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصَّوَاعِ قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام، قال سعيد بن جبیر، عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره [ابن أبي حاتم/ ١١٨٣٤ والطبري ٢٨/١٣].

وقوله: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾؛ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبدئه لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في مثورها وأخبارها وأشعارها، وعن ابن عباس: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾، قال: أسر في نفسه ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوتٌ (٧٩).

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له فـ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾؛ أي: بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾؛ أي: كما قلتم واعترفتم ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوتٌ﴾؛ أي: إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢).

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخلص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُوا﴾؛ أي: انفردوا عن الناس

﴿يَحْيَا﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَيْفَهُمْ﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أَوْ يَخُفَّكَ اللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق [الطبري ٣٦/١٣]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر، قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذه بسرقة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسَفُ عَلَى يُونُسَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦).

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم وظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١١٨٧١]، وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: العليم بحالي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه، ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسَفُ عَلَى يُونُسَ﴾؛ أي: أعرض عن بني، وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم الأول ﴿يَتَّاسَفُ عَلَى يُونُسَ﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين، وعن سعيد بن جبیر أنه قال: لم يُعْطَ أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب ﷺ: ﴿يَتَّاسَفُ عَلَى يُونُسَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الطبري ٣٩/١٣]؛ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك: فهو كظيم كميد حزين [الطبري ٣٩/١٣، ٤٠]، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ﴾؛ أي: لا تفارق تذكّر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾؛ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿قَالَ إِنَّمَا

أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ؛ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي﴾؛ أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، وحده، ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها وينجزها.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيْنُنَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجُنَّتْ مُرْجَلَةُ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه إلى الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله؛ أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يقطع الإيأس من الله إلا القوم الكافرون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَتَّيْنُنَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام، ﴿وَجُنَّتْ مُرْجَلَةُ مُرْجَلَةٍ﴾؛ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد، والحسن وغير واحد، وقال ابن عباس: الرديء لا ينفق، مثل خلق الغرارة، والحبل والشيء [رواه سعيد بن منصور في سننه/١١٤١]، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وكذا قال قتادة، والسدي، وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسُول، وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحب الخضر، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق، وقال أبو صالح: جاؤوا بحب البطم الأخضر والصنوبر، وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء، وقوله إخباراً عنهم: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ﴾؛ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوقر ركابنا وتصدق علينا [انظر الأقوال السابقة بأسانيدھا عند الطبري ٥١/١٣ وما بعدها]، وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أحيانا إلينا، وقال سعيد بن جبير، والسدي ﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتَجَوَّزَ فيها، وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾؟ [الطبري ٥٣/١٣].

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا إِنْ تَكُنْ لَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا نَأَلُّهُ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام، إنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق

وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾؛ يعني: كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾؛ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا أَلْسُوًا بِجَهْلَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ﴾؟ أي: أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكنم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبُعْدِ المدة ﴿إِنَّهُ مِنْ بَيْنَ وَبَيْنَ فَاتٍ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والملك والتصرف والنبوة أيضًا، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال السدي: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الطبري ١٣/٥٦] يقول: لا أذكر لكم ذنبكم: وقال ابن إسحاق والثوري: أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتكم [الطبري ١٣/٥٦] ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْعَكِيدِ (٩٥).

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: بجميع بني يعقوب، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾؛ أي: خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام ﴿لَمِنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ﴾ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبونني إلى الفند والكبر، قال ابن عباس: ولما فصلت العير، قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ

يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٦﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام [الطبري ٥٨/١٣]، وقال الحسن، وابن جريج: كان بينهما ثمانون فرسخًا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة. وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبیر: تُسَفِّهُونَ وقال مجاهد أيضًا والحسن: تُهَرِّمُونَ، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ مُكْدِرٍ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تتساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ، وكذا قال السدي وغيره [انظر هذه الأقوال في الطبري ٦٢/١٣].

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَنُهِ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾﴾

قال ابن عباس، والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾ البريد، وقال مجاهد، والسدي: كان يهوذا بن يعقوب، قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنْني لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [انظر هذه الأقوال عند الطبري ٦٣/١٣]؛ أي: من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود، وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس، وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر، وعن محارب بن دثار قال: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنسانًا يقول: اللَّهُمَّ دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي، قال: فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب آخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [رواه الطبري عن محارب قال: عن عمِّ لي، بدل عمر ٦٤/١٣، وكذا رواه سعيد بن منصور/١١٤٤].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدمه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضًا لتلقيه، وهو الأشبه.

وقوله: ﴿ءَاوَيْتَ إِلَيْهِ أَبُوِّي﴾ قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديمًا [الطبري ٦٧/١٣]، وقال محمد بن إسحاق، وابن جرير: كان أبوه وأمّه يعيشان، قال ابن جرير [٦٧/١٣]: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: يعني: السرير [ابن أبي حاتم/١١٩٩٢]؛ أي: أجلسهما معه على سريره، ﴿وَوَخَّرُوا لَهُ سُجْدًا﴾؛ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلًا، ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: التي كان قصها على أبيه قبل، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب ﷻ، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: (مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟) فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: (لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الرُّوحَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عَظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا) [رواه أحمد/١٩٤٢٢ وابن ماجه/١٨٥٣ وهو صحيح].

والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم، ولهذا خروا له سجدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَحِيَّ حَقًّا﴾؛ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا رَحِيَّ حَقًّا﴾؛ أي: صحيحة صدقًا يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾؛ أي: البادية. قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية [الطبري ٧٢/١٣]، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَجَّعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَحِيَّ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾؛ أي: إذا أراد أمرًا قيص له أسبابًا ويسره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله وقضائه وما يختاره. قال سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة [المستدرک/٨١٩٨]، قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا، وقال الحسن: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب [الطبري ٧٠/١٣]، وعنه أيضًا: ثلاث وثمانون سنة، وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة، وقال مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون بين رجل وامرأة، والله أعلم.

﴿رَبِّ قَدْ ءَانَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه ﷻ لما تمت النعمة عليه باجتماعه بأبويه

وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف ﷺ، قاله عند احتضاره، كما ثبت في «الصحاحين» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: (اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى) ثلاثاً [البخاري/٣٤٦٧ ومسلم/٢٤٤٤ بنحوه]، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره: أمانك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللَّهُمَّ أَحِينَا مُسْلِمِينَ، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائعاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف ﷺ [الطبري ١٣/٧٣]، وكذا ذكر ابن جرير، والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] ويحتمل أنه أول من سأل نجا ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا. روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله [١١٩٩٨] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضَرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيَا الْمَوْتَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)، ورواه البخاري [٥٩٩٠] ومسلم [٢٦٨٠].

وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد [٢٢١٦٢]، والترمذي [٣٢٣٥]، وقال: حسن صحيح] في قصة المنام والدعاء الذي فيه (وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً، فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ).

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللَّهُمَّ خذْنِي إِلَيْكَ، فقد سئمتهم وسئمونني [أخرجه ابن أبي شيبه/٣٧١٠٠]، وقال البخاري رحمه الله: لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان، قال: اللَّهُمَّ توفني إليك، وفي الحديث: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُرُّ بِالْقَبْرِ - أَي: فِي زَمَانِ الدَّجَالِ - فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَكَ) [البخاري/٦٦٩٨ ومسلم/١٥٧] كلاهما بألفاظ قريبة] لما يرى من الفتن، والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون، قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليه السلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَنْكُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا تَنْتَهُلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: على إلقائه في الحبس ﴿وَهُمْ يَنْكُرُونَ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية [آل عمران: ٤٤].

يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ طَعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ طُعْنًا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَمَا تَنْتَهُلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصيح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٩﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به،

وكذا قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [الطبري ١٣/ ٧٧]، وفي «الصحيح»: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وفي «الصحيح» أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: (قَدْ قَدْ)؛ أي: حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا [رواه مسلم/ ١١٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يُعْبَدُ مع الله غيره، كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله؛ أي: الذنب أعظم؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) [البخاري/ ٤٢٠٧ ومسلم/ ٨٦].

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك؛ يعني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وثمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، ففي الحديث: (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ) رواه الترمذي [١٥٣٥] وحسنه من رواية ابن عمر، وفي الحديث الذي رواه أحمد [٣٦١٥]، وأبو داود [٣٨٨٣] وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتُّولَةَ شُرْكَ) [ورواه الحاكم/ ٨٢٩٠ بلفظ: التولية، وصححه ووافقه الذهبي]، وفي لفظ لهما: (الطِّيرَةُ شِرْكٌ وَمَا مَنَا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُهُ بِالتَّوَكُّلِ).

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٤٥] أو يأخذهم في ثَغْلِيهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٩٧] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضَئِيًّا وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٠٨].

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ أمراً له أن يخبر أن هذه سبيله؛ أي: طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسَه عن أن يكون له شريك، أو نظير، أو عدل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَاللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَالْأَسْوَدُ الَّتِي هِيَ إِلَّا نَجْمٌ كَوْكَبٌ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۖ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ (١٠٩).

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسوله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق ويعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾ الآية [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى ﷺ، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝٤١ يَمْرُؤُا أَفَتُنْكِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]، وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنَّ نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ الآية؛ أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم [الطبري ١٠٩/١٤]، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ المراد بالقرى: المدن لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجدى الناس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ الآية [التوبة: ٩٨]، وقال قتادة في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾؛ لأنهم أعلم وأحلّم من أهل العمود [أي: سكان الخيام]. وفي الحديث الآخر أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتُحِبَّ هَبَةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ، أَوْ أَنْصَارِيٍّ، أَوْ نَفْقِيٍّ، أَوْ دَوْسِيٍّ) [رواه أحمد/٢٦٨٧، والنسائي/٦٥٩٤ نحوه وهو صحيح].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الأمم المكذبة للرسول، كيف دمر الله

عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ٥١ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٠ - ٥٢].

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ١١٠.

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصَّرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي قوله: ﴿كُذِّبُوا﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد: «قد كُذِّبوا»، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرأها، روى البخاري عن عروة بن الزبير، عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت فقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِّبوا؟ قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك [البخاري/٤٤١٨].

وعن ابن عباس أنه قرأها: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ خفيفة. ثم قال: كانوا بشرًا، وتلا ابن عباس ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصَّرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. قال: لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك ﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ﴾ [سنن سعيد بن منصور/١١٥١]، وكذا روي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية.

وعن سعيد بن جبير قال: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كُذِّبوا، ثم روى ابن جرير أيضًا من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتقه وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف [الطبري ٨٢/١٣].

وأما ابن مسعود، فإنه يقول في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِّبوا بالتخفيف [الطبري ٨٥/١٣].

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ؛ أي : وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ؛ أي : يُكْذَبُ وَيُخْتَلَقُ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ؛ أي : من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ، ومحسوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالريح المُبَيَّضَةِ وجوهم الناضرة ، ويرجع المسوِّدة وجوهم بالصفقة الخاسرة .

آخر تفسير سورة يوسف ، والله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .



تفسير سورة الرعد

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقد منا أن كل سورة تبدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا هو الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]؛ أي: مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد النفاق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي يأذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل يأذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدًا لا تُنال ولا يُدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من البعد مسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي الحديث: (مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُّلقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَالْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ كَتِلْكَ الْحَلْقَةِ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ) [رواه ابن حبان بنحوه ٧٦/٢]، وفي رواية: (وَالْعَرْشُ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ) [الحاكم/٣١١٦، صحيحه الألباني].

وقوله: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ تَرَوْنَهَا﴾ روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد

أَنَّهُمْ قَالُوا: لَهَا عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَى، وَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلَ الْقَبَةِ؛ يَعْنِي: بِلَا عَمَدٍ، وَكَذَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ، وَهَذَا هُوَ اللَّاتِقُ بِالسِّيَاقِ، وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ سِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ؛ أَي: هِيَ مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمَدٍ كَمَا تَرَوْنَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف وأنه يمرر كما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوًا كبيرًا.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنَّهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنَّه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأن له قوائم وحملته يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾؛ أي: يوضح الآيات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَحِيلٍ صُنُونًا وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾؛ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرسلها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والعيون، لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل زوجين اثنين؛ أي: من كل شكل صنفان. ﴿يُغِشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾؛ أي: جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما تصرف في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: في آلاء الله وحكمته.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ﴾؛ أي: أراض تجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغيرهم، وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة،

وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَعَلْتُ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَفَيْلٌ﴾ يحتمل أن تكون الواو عاطفة على جنات، فيكون ﴿وَزَرَءٌ وَفَيْلٌ﴾ مرفوعين، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لعمر: (أَمَا شَعَرْتُ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ؟) [رواه مسلم/٩٨٣]. قال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [الطبري ٩٩/١٣].

وقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضٍ بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾؛ أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزررع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا غَفِصٌ، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْعَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥).

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم ﴿أِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد علم كل عالم وعافل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ إِلَٰهًا مِّثْلُ مَا يُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾؛ أي: يسحبون بها في النار ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْعَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: ما كاثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ﴾؛ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾ يستغلبونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿[العنكبوت: ٥٣ - ٥٤]﴾، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾؛ أي: قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثله وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: إنه ذو عفو وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠]﴾، إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

﴿وَقِفُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾؛ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال ابن عباس: أي: ولكل قوم داع [ابن أبي حاتم/ ١٢١٥٤]، وعنه في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير والضحاك، وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: نبي، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد، وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: قائد، وقال أبو العالية: الهادي: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل، وعن عكرمة، وأبي الضحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالوا: هو محمد ﷺ، وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ [انظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٣/ ١٠٦ وما بعدها].

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾
 ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ .

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَقَلُّ يَكُونُ إِذَا أُنْشِئَ مِنْكِ الْأَرْضُ وَإِذَا أُنْتَرِجَتْ أَجَنَّةٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وفي «الصحاحين» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَعُمُرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا) [البخاري/٧٠١٦ ومسلم/٢٦٤٣].

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ روى البخاري [٤٤٢٠] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدِيٍّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ).

وعن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾؛ يعني: السَّقَطُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى [الطبري ١٠٩/١٣].

وقال ابن عباس: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبئت ثنيتي، وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر، وبه قال عطية العوفي، وقتادة، والحسن البصري، والضحاك [الطبري ١١٠/١٣]، وقال مجاهد أيضًا: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ إرافة الدم حتى يخسّ الولد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة، ثم الولد وعظم، وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض، استهل، واستهالاه استنكار لمكانه، فإذا قطعت سرتة، حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلًا يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أني لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك! غذاك وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتدقت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أني لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ الآية.

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾؛ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلًا معلومًا، وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابنا لها في

الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: (إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَمُرُّوْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ) الحديث بتمامه [البخاري/ ١٢٢٤ ومسلم/ ٩٢٣].
وقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَعَالَى﴾؛ أي: على كل شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعًا وكرهًا.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۚ لَّهُمْ مُّعَاقِبَةٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۚ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كما قال: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]، وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، الحديث [رواه أحمد/ ٢٤٢٤١ والنسائي/ ٥٦٥٤ وصححه الحاكم/ ٣٣٤٩].

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾؛ أي: مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾؛ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعْشُونَ يُبَاهِيهِمْ يَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿لَّهُمْ مُّعَاقِبَةٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ﴾؛ أي: للعبدة ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، بدلاً حافظان وكاتبان، كما جاء في «الصحيح»: (يَتَعَقَّبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيُصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) [البخاري/ ٥٣٠ ومسلم/ ٦٣٢ بالفاظ متقاربة].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿لَّهُمْ مُّعَاقِبَةٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ والمعقبات من أمر الله وهي الملائكة، وقال ابن عباس أيضًا: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه [ابن أبي حاتم/

١٢١٩٥]، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده، إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال ابن عباس أيضًا في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس [الطبري ١١٦/١٣]، وقال عكرمة في تفسيرهما: هؤلاء الأمراء المواكب بين يديه ومن خلفه، وقال الضحاك في الآية: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك، والظاهر - والله أعلم - أن مراد ابن عباس، وعكرمة، والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وروى الإمام أحمد [٣٦٤٨] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: (وَأَيَّايَ، وَلَكِنْ أَعَانَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ)، انفرد بإخراجه مسلم [٢٨١٤]. وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي وغيرهم. وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرايت رقي نسترقى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: (هِيَ مَنْ قَدَرَ اللَّهُ) [رواه الترمذي/٢١٤٨ وقال: حسن صحيح].

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۖ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلال السحاب.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله، ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾؛ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض قال مجاهد: السحاب الثقال الذي فيه الماء، قال: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ، فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النَّطْقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ) [رواه أبو الشيخ في العظمة ١٢٤٤/٤، وهو صحيح]، والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد وضحكها البرق.

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل

الأرض، رواه مالك في «موطئه» [١٨٠١]، والبخاري في كتاب «الأدب» [٧٢٣].
 وقوله: ﴿وَرُسُلُ الصَّوْعَقِ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، وقد روي في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي [٣٤٦٨] عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: (اذهب فادعِ لي). قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله، وما الله، أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: (ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ) أراه فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال: (ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ) فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله ﷻ سحابة حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهب بقمف رأسه، فأنزل الله: ﴿وَرُسُلُ الصَّوْعَقِ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجْدِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَكَمِ﴾ [ورواه النسائي/ ١١٢٥٩ وهو صحيح].

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجْدِلُونَ فِي اللَّهِ﴾؛ أي: يشكّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَكَمِ﴾ قال ابن جرير: شديدة مما حلته في عقوبة من طغى عليه، وعتاً وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ فأنظر كيف كانت عقوبة مكرهم أننا دمّرناهم وقومهم أجمعين [النمل: ٥٠، ٥١]، وعن علي رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَكَمِ﴾؛ أي: شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿١٤﴾.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد، وقال ابن عباس، وقتادة، ومحمد بن المنكدر: لا إله إلا الله [الطبري ١٢٨/١٣].

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾. قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبْسِطٍ كَفَيْهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقباض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكَذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ ﴿١٥﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له

كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من المشركين ﴿وَطَلَّاهُمْ بِالْعُدُوِّ﴾؛ أي: البكر ﴿وَالْأَصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَّهُ، عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَتَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمائله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؛ أي: ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء، ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له، ولا ولد، ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وكما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُفًا﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٣] لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل مجرد الرأي، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحققت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَطْلُبُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ لُحٍّ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفناءه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها

﴿فَاحْتَمِلْ السَّيْلَ زَبَدًا رَابِيًا﴾؛ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾؛ أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾؛ أي: إذا اجتمعوا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب، ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾؛ أي: لا يُنْتَفَعُ به بل يتفرق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب لا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ وهو الشك، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك [الطبري ١٣/١٣٥]، وقال ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمته ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والتمتع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له ويبقى، كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه، ويخرج جوده فينتفع به، كذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق [الطبري ١٣/١٣٥]، وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ لِلْهَادِ﴾ (١٨).

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: أطاعوا الله

ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الْحُسْنَى﴾ وهو الجزء الحسن، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿الكهف: ٨٧، ٨٨﴾، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجِئُوا لَهُ﴾؛ أي: لم يطيعوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾؛ أي: في الدار الآخرة؛ أي: يناقشون على النقيير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلَّهِادُ﴾.

﴿أَفَنَنْتَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٩).

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخبره كلها حق، وأوامره ونواهيها عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَنَنْتَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: إنما يتعظ أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ يَدْخُلُونَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، ويراقبون الله في

ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أُمِرُّهُمْ على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله وَجْهًا ابْتِغَاءَ مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؛ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرًا وعفوا، كما قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٢) وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا إِلَهُهُ خَطِّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن الإقامة؛ أي: جنات إقامة يخلدون فيها، وقال الضحاك في قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾؛ أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانًا من الله وإحسانًا من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانًا من الله وإحسانًا كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٢) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ؛ أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين، مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

﴿وَالَّذِينَ يَنفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥).

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كما ثبت في الحديث (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ) [البخاري/٣٣ ومسلم/٥٩] وفي رواية: (وَإِذَا عَاهَدَ عَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) [البخاري/٢٣٢٧ ومسلم/٥٨]؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ﴿وَمَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَبَسَ لِلَّهِ﴾ [الرعد: ١٨].

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين، إذا كان فيهم الظَّهْرَةُ على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهْرَةُ عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ (٢٦).

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويُقَدِّرُهُ على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وَفَرِحَ هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وروى الإمام أحمد [١٨٠٣٧] عن المستودر أخى بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَثَلٍ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرَجُعٍ) وأشار بالسبابة، ورواه مسلم في «صحيحه» [٢٨٥٨]، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: (وَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ الْقَوَّةِ) [رواه مسلم/٢٩٥٧ نحوه].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنُظْمِنُ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٧) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ (٢٨).

يخبر تعالى عن قبل المشركين ﴿لَوْلَا﴾؛ أي: هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: (بَلْ تَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ) [رواه أحمد/٢١٦٦، والحاكم/١٧٤، وصححه ووافقه الذهبي]؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾؛ أي: هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق

ما اقترحوا أو لم يجيبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطًا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَةُ وَالذُّرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾؛ أي: ويهدي من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؛ أي: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَدَّ لَهُمُ﴾ قال ابن عباس: فرح وقرّة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك؛ أي: أصبت خيرًا، وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ حسنى لهم، ﴿وَحَسُنَ مَا بَدَّ لَهُمُ﴾؛ أي: مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها، وقال ابن عباس: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ قال: هي أرض الجنة بالحشية، وعن عكرمة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ هي الجنة، وبه قال مجاهد [هذه الأقوال بأسانيدنا عند الطبري ١٤٦/١٣].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: (طُوبَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا) (رواه أحمد/١١٦٩١، وأبو يعلى/١٣٧٤ وصححه شاكر والالباني).

وفي «صحيح مسلم» [٢٥٧٧] عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ (يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مِلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ). الحديث بطوله.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لَتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَا قَوْمَهُ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ الْفِتْنَةَ يَكْفُرُوا بِالرَّحْمَنِ إِذَا دُعُوا إِلَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ كَذِبُوا عَلَيْهِمْ إِذَا ادَّعَى إِلَيْكُمُ الرِّسَالَءَ فَيَكْفُرُوا بِمَا آتَاهُمُ الرِّسَالَءَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ يُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية [النحل: ٦٣].

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾؛ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة، والحديث في «صحيح البخاري»، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي «صحيح مسلم» [٢١٣٢ نحوه] عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ).

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقرر له بالربوبية والالوهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: في جميع أموري، ﴿وَالِإِلَهِي مَتَابٌ﴾؛ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾
 أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ
 بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾.

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾؛ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تيسر به الجبال عن أماكنها، أو تُقَطَّعْ به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾؛ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع. روى الإمام أحمد [٨١٤٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (خُفِّفَتْ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَائِيَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلٍ يَدِيهِ) انفرد بإخراجه البخاري [٣٢٣٥]، والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبينوا ﴿أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البخاري/٤٦٩٦ ومسلم/١٥٢]؛ معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: أي: لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل، وقاله ابن جرير أيضاً، وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا، وقرأ آخرون: ﴿أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾؛ أي: بسبب

تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم، لينتظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، قال الحسن: ﴿أَوْ تَحُلَّ قَرْيَا مِّن دَارِهِمْ﴾؛ أي: القارعة وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحُلَّ قَرْيَا مِّن دَارِهِمْ﴾؛ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم، وكذا قال مجاهد، وقتادة، وعن ابن عباس: ﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: نكبة، وكلهم قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾؛ يعني: فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة [الطبري ١٣/١٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْأَعَادَ﴾؛ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢).

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذت رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرَبَةٍ آمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]، وفي «الصحيحين»: ﴿إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ﴾ ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَيْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] [البخاري/٤٤٠٩ ومسلم/٢٥٨٣].

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَل رَّزَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٣٣).

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّزْقَةٍ إِلَّا يُعْلِمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾؛ أي: عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿قُل سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَمْ يَبْظَهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول؛ أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتوها آلهة ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا

أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم؛ أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه أثناء الليل وأطراف النهار [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٣/١٦٠].

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد؛ معناه: أنهم لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق، دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم؛ أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَئِيْلٌ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: المدخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾؛ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: (إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ) [مسلم/١٤٩٣]، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، ولهذا قرن هذا بهذا فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: صفتها ونعتها ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً؛ أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا.

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: (إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ: أُرَيْتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاولْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُه لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا) [البخاري/٧١٥ ومسلم/٩٠٧].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَمْتَحِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيرَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ) رواه مسلم [٢٨٣٥ بنحوه].

وقد قال تعالى ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ ﴿٢٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم في «الصحيحين» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْمُجِدُّ الْجَوَادُ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا) ثم قرأ: ﴿وَطَلِيٍّ مُمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] [البخاري/٤٥٩٩ نحوه ومسلم/٢٨٢٦ نحوه أيضاً]، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تُقبِلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عَجِّلَ لكم الثواب في الدنيا لاستقلتمت كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل ديناكم ولا تنافسون في جنة ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْبَارِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَخْبَارِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾؛ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَخْبَارِ﴾؛ أي: اليهود والنصارى ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾؛ أي: بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [الطبري ١٣/١٦٤]. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾؛ أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾؛ أي: إلى سبيله أَدْعُو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: آراءهم ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ أي: من الله تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السُّنة النبوية والمحنة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ .

يقول تعالى: وكما أرسلناك رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [البخاري/٤٧٧٦ نحوه ومسلم/١٤٠١ بنحوه].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أي: لكل مدة مضروبة، كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أي: لكل كتاب أجل [الطبري ١٣/١٦٥]؛ يعني: لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين، فلهذا يمحو الله ما يشاء منها، ويثبت يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ اختلف المفسرون في ذلك فعن ابن عباس قال: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وفي رواية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: كل شيء إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما، وبه قال مجاهد [الطبري ١٣/١٦٦].

وقال شقيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا أَشْقِيَاءَ، فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كَتَبْتَنَا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يطوف بالبيت ويبكي ويقول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيَّ شِقْوَةً أَوْ ذَنْبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة [الطبري ١٣/١٦٧]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً، وقال كعب لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الطبري ١٣/١٦٨].

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يُستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد [٢٢٤٦٦] عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحَرِّمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ)، رواه النسائي، وابن ماجه [٤٠٢٢ نحوه وهو صحيح].

وثبت في «الصحيحين» أن صلة الرحم تزيد في العمر.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله فهو الذي يثبت.

وقال ابن عباس أيضًا: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ جملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وينحوه قال قتادة [الطبري ١٦٩/١٣].

وقال الحسن البصري: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: من جاء أجله فذهب، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله [الطبري ١٦٩/١٣]، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمته الله، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي: جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين.

﴿وَإِنْ مَا نُزِنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤١)﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَكِرَ الْحِسَابِ (٤١)﴾.

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ مَا نُزِنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ﴾ أي: قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض [سنن سعيد بن منصور/١١٧٥]، وقال في رواية: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية، وقال مجاهد، وعكرمة: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين: وقال ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها، وينحوه قال مجاهد، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت فقهاءها وعلمائها وأهل الخير منها، وكما قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء [هذه الأقوال عند الطبري بأسانيدها ١٧٤/١٣]، وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان، قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الْأَرْضُ تَحْيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا مَتَى يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَرَفُ
كَالْأَرْضِ تَحْيَا إِذَا مَا الْغَيْثُ حَلَّ بِهَا وَإِنْ أَبَى عَادَ فِي أَكْنَافِهَا التَّلَفُ

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعُمُ الْكُفْرُ لِمَن عَقَّبَى الدَّارِ﴾ (٤٢).

يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَنَظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله ﴿وَسِعَعُمُ الْكُفْرُ﴾، والقراءة الأخرى ﴿الكافر﴾، ﴿لِمَن عَقَّبَى الدَّارِ﴾؛ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، والله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣).

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ أي: ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: حسي الله هو الشاهد علي وعليكم. شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان. وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى، وقال قتادة: منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري، وقال مجاهد في رواية عنه: هو الله تعالى، وكان سعيد بن جبير يقرأها ﴿ومن عنده عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ويقول: من عند الله، وكذا قرأها مجاهد، والحسن البصري [الطبري ١٣/١٧٦].

والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَن يَلْعَنَهُ عُلَمَاؤُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.



تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَلرَّ كِتٰبَ اَنْزَلْنٰهُ اِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ بِاِذْنِ رَبِّهِمْ اِلَى صِرَاطٍ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ ﴿۱﴾ اَللّٰهُ الَّذِیْ لَهُ مَا فِی السَّمٰوٰتِ وَمَا فِی الْاَرْضِ وَّوَعْدٌ لِّلْكَافِرِیْنَ مِنْ عَذَابٍ شَدِیدٍ ﴿۲﴾ الَّذِیْنَ یَسْتَحِبُّوْنَ الْحَیٰوةَ الدُّنْیَا عَلٰی الْاٰخِرَةِ وَیَصُدُّوْنَ عَنِ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَیَبْغُوْنَهَا عَوْجًا اُولٰٓئِكَ فِی ضَلٰلٍ بَعِیدٍ ﴿۳﴾﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾؛ أي: العزيز الذين لا يُمانع ولا يُغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾؛ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره.

وقوله: ﴿اَللّٰهُ الَّذِیْ لَهُ مَا فِی السَّمٰوٰتِ وَمَا فِی الْاَرْضِ﴾ قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأه آخرون على الإتياع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنِّیْ رَسُوْلُ اَللّٰهِ اِلَيْكُمْ جَمِیْعًا الَّذِیْ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَوَعْدٌ لِّلْكَافِرِیْنَ مِنْ عَذَابٍ شَدِیدٍ﴾؛ أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: يقدمونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّوْنَ عَنِ سَبِیلِ اَللّٰهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبْغُوْنَهَا عَوْجًا﴾؛ أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم والحالة هذه صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانُ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، وقوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنة الله في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في «الصحيحين» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٣٢٨ ومسلم/٥٢١]، وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنْ رِسْوَائِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنْتُمْ لِلَّهِ إِتٍ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّيْنُ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: هي التسع الآيات ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾؛ أي: أمرناه قائلين له ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَنْتُمْ لِلَّهِ إِتٍ﴾؛ أي: بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره، وإنجائه إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد، وقتادة وغير واحد.

وقوله: ﴿إِتٍ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّيْنُ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيمن لعبرة لكل صَبَّارٍ؛ أي: في الضراء، شكور؛ أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر، وكذا جاء في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) [رواه مسلم ٢٩٩٩ بنحوه].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لَمِنَ شُكْرِكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَكِنَّ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ ٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبّون آبائهم ويحرقون نساءهم؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾؛ أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْفَافِهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ فَجُوعٌ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ﴾؛ أي: أذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم بعزته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ وَلَكِنْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿لَكِنْ شُكِرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾؛ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: كفرتم النعم وجاهدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحَرِّمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ) [رواه أحمد، وابن ماجه وحسنه العراقي والألباني].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ﴾؛ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد الم محمود وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَأِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنٌّ﴾ [الزمر: ٧]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: (يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْبُطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ) فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا دَّعَوْتَنَا إِلَيْهِ مُرِبٍّ ٩﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسى لقومه؛ يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من

الأمم المكذبة بالرسول، وفيما قال ابن جرير نظر، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وشمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم ذلك، فلا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة، والله أعلم، وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وشمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج الواضحات القاطعات، وقال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ كذب النسابون، وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعواهم إلى الله ﷻ، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل، وقال مجاهد، ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة، قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فكان هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى رد أيديهم في أفواههم، وعن عبد الله بن مسعود: عضوا عليها غيظاً، وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ آلْتَابُوا إِلَى آبَائِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقال ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِنَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن نَّصُدُّوكُمَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَدْعُوكَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصّل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ؟﴾ أي: أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصابع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُخْرِجَكُم إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرَ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: خارق نقترحه عليكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هداونا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا عَٰدَيْتُمُونَا﴾؛ أي: من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاحِظَنَّ الْفَاطِلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُشِكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَبْجَرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أراضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ الآية [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم أناف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاحِظَنَّ الْفَاطِلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُشِكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٢٧﴾ وَاتَّخَذَ لِحُيُوتِهِ ٱلَّذِيآ ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَى ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾؛ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِبَارَةً مِنْ ٱلسَّمَآءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آتِيَةٍ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] [الطبري ١٣/١٩٤]، ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ ٱلْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴿١﴾﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَآ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مُتَّعٍ ٱلْخَيْرِ مَعْتَدٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذَى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْعَدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦]، وفي الحديث: (إِنَّهُ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، فَتُنَادَى ٱلْخَلَائِقُ فَتَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) الحديث [رواه أحمد/ ٨٤١١ نحوه وله شاهد عند الترمذي/ ٢٥٧٤ بمعناه وقال: حسن غريب صحيح]. خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهاال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿١﴾﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرأها: ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الطبري ١٦/١]؛ أي: من وراء الجبار العنيد جهنم؛ أي: هي له بالمرصاد يسكنها مخلدًا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوًا وعشيًا إلى يوم التناد. ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والتنن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلَئْدُوهُ جَمِيدٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم، وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١﴾﴾ يَتَجَرَّعُهُ قال: (يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَّرُهُ، فَإِذَا أُذْنِي مِنْهُ سَوَىٰ وَجْهَهُ، وَوَقَعَتْ فَرَوْهُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ). يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِشُوا يَغَاثُوا يَمَآءً كَأَلْهَلٍ يَشْوَى ٱلْوُجُوهَ ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ٢٩]، ورواه ابن جرير [٥٠/٢٦]، وابن أبي حاتم [برقم ١٨٢٠٠ ورواه الترمذي/ ٢٥٨٣ نحوه، والنسائي/ ١١٢٦٣، والحاكم/ ٣٣٣٩ وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾؛ أي: يتغصصه ويتكرهه؛ أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢١]. ﴿وَلَا يَكَاذُ يُسِغُهُ﴾؛ أي: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه وحرارته أو برده الذي

لا يُستطاع. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال عمرو بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعرق وعصب، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، ونحوه عن إبراهيم التيمي، وقال ابن جرير [١٩٦/١٣]: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال ابن عباس: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَنْ رَأَاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ؛ أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٤٦﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٤٧﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبَاطُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات: ٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عيادًا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصىه إلا الله ﷻ جزاءً وفاقا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعديموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ﴾؛ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألقوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾؛ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا يقدرון على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال في هذه الآية: ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾؛ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِحُجَّتِهِمْ يَنْقِصُ عَلَى أَنْ يُجِئَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] .

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧] .

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَىٰ نَا بَرِّزْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا﴾؛ أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار؛ أي: اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحققت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سُوءًا عَلَىٰ نَا بَرِّزْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾؛ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله ﷻ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله فبكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سُوءًا عَلَىٰ نَا بَرِّزْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [الطبري ١٣/١٩٩] .

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨] .

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَزَيْنَا الْظَّالِمُونَ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾﴾

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا اَنَحْنُ صَدَدْنٰكُمْ عَنِ الْهَدٰى بَعْدَ اِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ اَلِيلٌ وَالنَّهَارُ اِذْ تَأْمُرُونَا اَنْ نَّكْفُرَ بِاللّٰهِ وَنَجْعَلَ لَهُ اٰنِدًا وَاَسْرُوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَاُوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْاَعْلٰلَ فِيْ اَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوْا هَلْ يُجْزَوْنَ اِلَّا مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴿سبأ: ٣١ - ٣٣﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْاَمْرُ اِنَّكَ اَللّٰهُ وَعَدَكُمُ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَاخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِيْ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ اِلَّا اَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيْ فَلَا تَلُمُوْنِيْ وَلَوْ مَوَّ اَنْفُسَكُمْ مَا اَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا اَنْتُمْ بِمُصْرِخِيْ اِنِّيْ كَفَرْتُ بِمَا اَشْرَكْتُمُوْنَ مِنْ قَبْلُ اِنَّ الظَّالِمِيْنَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٢٢﴾ وَاَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا بِاِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّهِمْ فِيْهَا سَلٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمُ وَعَدَ الْحَقِّ﴾؛ أي: على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰنُ اِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيْ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ﴾؛ أي: ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿اِلَّا اَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِيْ﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُمُوْنِيْ﴾ اليوم ﴿وَلَوْ مَوَّ اَنْفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَا اَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بنافعكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا اَنْتُمْ بِمُصْرِخِيْ﴾؛ أي: بنافعي بإنفاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿اِنِّيْ كَفَرْتُ بِمَا اَشْرَكْتُمُوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾. قال قتادة: أي: بسبب ما أشركتموني من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله ﷻ، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ اَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ اِلَّا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غٰفِلُوْنَ ﴿٥﴾ وَاِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوْا لَهُمْ اَعْدَآءٌ وَكَانُوْا بِعِبَادَتِهِمْ كٰفِرِيْنَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُوْنَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِمْ ضِدًا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿اِنَّ الظَّالِمِيْنَ﴾؛ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا.

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا اَجْرَعْنَا اَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمُ وَعَدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته، مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿لَمَقَتْ اَللّٰهُ اَكْبَرُ مِنْ مَّقَتِكُمْ اَنْفُسَكُمْ اِذْ تَدْعُوْنَ اِلَى الْاِيْمٰنِ فَتَكْفُرُوْنَ﴾ [غافر: ١٠]، وقال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿ءَاَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِيْ وَاُخَيَّ اِلٰهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ﴾؟ - إلى قوله: - ﴿قَالَ اَللّٰهُ هٰذَا يَوْمُ

يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ» [المائدة: ١١٦ - ١١٩]، قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [الطبري ٢٠١/١٣].

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ آلَ إِبْرَٰهِيمَ ءَامِنًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأمين ساروا ﴿حَٰمِلِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يَحْيَاهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهَا وَقُرْطَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء [الطبري ٢٠٣/١٣]، وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء، وهكذا روي عن ابن مسعود وأنس: أنها النخلة [كما رواه الحاكم عن أنس/ ٣٣٤١]، وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وروى البخاري [برقم: ٦١ نحوه، ومسلم أيضاً/ ٢٨١١ بنحوه] عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: (أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ كَالرَّجُلِ - الْمُسْلِمِ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا وَلَا وَلَا وَلَا، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ) قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر، وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: (هِيَ النَّخْلَةُ)، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا.

وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة [الطبري ٢٠٦/١٣]، وقوله: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل: كل شهرين، وقيل: كل ستة أشهر، وقيل: كل سبعة أشهر، وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؛ أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيِّثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، وشبهه بشجرة الحنظل.

وقوله: ﴿أَجُتُّتْ﴾؛ أي: استؤصلت ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾؛ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

روى البخاري [٤٤٢٢] عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾)، ورواه مسلم أيضاً [مختصراً/٢٨٧١] وبقية الجماعة كلهم [وهو جزء من حديث البراء الطويل المعروف في عذاب القبر].

وفي «صحيح مسلم» [٢٨٧٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها، فذكر من طيب ريحها وذكر المسك، ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعميرينه، فينطلق به إلى ربه ﷻ، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل، وإن الكافر إذا خرجت روحه، وذكر من نتنها، وذكر مقتاً، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل، قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا.

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذي [١٠٧١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يَنْوَرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ نَوْمَةَ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ: قُلْتُ مَثَلَهُمْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: انْتِصِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِعُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ) ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وروى ابن جرير [٢١٥/١٣] عن أبي هريرة [مرفوعاً]: (إِنَّ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَإِذَا كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصِّيَامُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُؤْتَى عَنْ رِجْلَيْهِ فَتَقُولُ: فِعْلُ الْخَيْرَاتِ

مَا قَبِلِي مَدْخَلَ، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ، قَدْ مَثَلَتْ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ، فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ، فَيَقُولُ: وَعَمَّ نَسْأَلُونِي؟ فَيُقَالُ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، مَاذَا تَقُولُ فِيهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أُمَحَمَّدٌ؟ فَيُقَالُ لَهُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيَتَوَرَّ لَهُ فِيهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ تُجْعَلُ نَسْمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ، وَهِيَ طَيْرٌ خُضْرٌ تَعْلَقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، وَيُعَادُ الْحَسَدُ إِلَى مَا بُدِيَ مِنْهُ مِنَ الثَّرَابِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، ورواه ابن حبان [٣٨٩/٧] مختصراً وأحمد/ ١٨٦٣٧ بنحوه والحاكم/ ١٤٠٣ وصححه ووافقه الذهبي].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْئِسُ الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

روى البخاري [٤٤٢٣] عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر، وكذا رواه مالك في «تفسيره» عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: مرجعكم وموئلكم إليها كما قال تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فَلْيَا تُمْ نَضَطَّهْمُ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعٍّ فِيهِ وَلَا حِجْلٌ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى آمراً العباد بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر؛ أي: في الخفية، والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾؛ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ قال ابن جرير: يقول ليس هناك مُحَالَةٌ خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَئِهِ، بل هناك العدل والقسط.

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيعاً وخلاًلاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلامة صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه [الطبري ١٣/٢٢٤]، قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى ها هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾؛ أي: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

وقوله: ﴿وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول: هيا لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم، وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أضيحوا توابين، وأمسوا توابين، وفي «صحيح البخاري» [٥١٤٣] بلفظ قريب أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ، لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مَوْدَعٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا).

وقد روي في الأثر أن داود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟

فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود؛ أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم [رواه أبو نعيم في الحلية بنحوه ٥٦/٦]، وقال الشافعي رحمته الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤدي ماضى نعمه بأدائها نعمة حادثة توجب عليه شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لَغَةٌ تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شَكَرْتُ بِهِ إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِي الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّهِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجًا على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت بسببه عامرة أهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا أَمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا﴾ فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضًا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا أَمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلأئق من الناس، وأنه برئ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك، وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٨]، ورفع يديه ثم قال: (اللَّهُمَّ أُمِّتِي، اللَّهُمَّ أُمِّتِي، اللَّهُمَّ أُمِّتِي) وبكى فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوئك [رواه مسلم/٢٠٢].

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيدًا ورغبة إلى الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾؛ أي: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَأَجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: لو قال أفْتِدَةُ النَّاسِ لازدحم عليه فارس والروم، واليهود، والنصارى، والناس كلهم [الطبري ١٣/٢٣٤]، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون وقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [الفصل: ٧٥]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومَ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ .

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾؛ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه ﷻ على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؛ أي: إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾؛ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾؛ أي: فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾؛ أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ .

يقول تعالى: ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون؛ أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عدّاً؛ أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: من شدة الأحوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية [القمر: ٨].

وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم [الطبري ١٣/

[٢٣٨] ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة يديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول لما يحلُّ بهم، عيادًا بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْنَدُهمْ هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفندتهم خالية؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف، وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئًا ولشدة ما أخبر الله به تعالى عنهم، قال لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِيبُكَ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ أُولَئِكَ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِيبُكَ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٩]، وقال تعالى مخبرًا عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية [السجدة: ١٢]، وقال تعالى ردًا عليهم في قولهم هذا: ﴿أُولَئِكَ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾؛ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فدوقوا هذا بذاك، قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾؛ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة [الطبري ٢٤٢/١٣]، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتَذَرُ﴾ [الفر: ٥].

وروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لنزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير [٢٤٧/١٣] بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر شيئًا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم، قلت: ويشبه هذا إذا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثاني: في تفسيرها ما روي عن ابن عباس أيضًا ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، وهكذا قال الضحاك وقاتادة [الطبري ٢٤٥/١٣].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧) **يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴿٤٨﴾.

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ﴾؛ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أرادته ولا يُغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾؛ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقَرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ) [البخاري/٦١٥٦ ومسلم/٢٧٩٠].

وروى الإمام أحمد [٢٤١١٥] عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: (عَلَى الصَّرَاطِ) رواه مسلم [٢٧٩١].

وروى الإمام مسلم [٣١٥] عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ، فجاءه خبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: (إِنْ أَسْمِي مُحَمَّدَ الَّذِي سَمَانِي بِهِ أَهْلِي) فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: (أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟) قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: (سَلْ) فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ قال رسول الله ﷺ: (هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ) قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: (فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ)، فقال اليهودي: فما تُحَفَّتْهم حين يدخلون الجنة؟ قال: (زِيَادَةُ كِبِدِ النَّوْنِ). قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: (يُنْحَرُ لَهُمْ نَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا). قال: فما شرابهم عليه؟ قال: (مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا). قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجлан. قال: (أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟) قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: (مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مِنْهُ الرَّجُلُ مِنْهُ الْمَرْأَةُ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَإِذَا عَلَا مِنْهُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ الرَّجُلُ أَثْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ). قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: (لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ).

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الأبواب.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعْنَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥١﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أي: بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، والأصفاد هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة [الطبري ٢٥٥/١٣]. وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ﴾؛ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي به الإبل تطفى، قال قتادة: وهو الصق شيء بالنار، ويقال فيه: قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء.

وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب، وربما قرأها ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ﴾؛ أي: من نحاس حار قد انتهى حره، وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَعْنَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلَفَحَ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وروى الإمام أحمد [٢٢٩٥٤] عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (أَرْبَعٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتُرَكَّنُ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَبَّ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قِطْرَانٍ، وَدَنْعٌ مِنْ جَرْبٍ) انفرد بإخراجه مسلم [٩٣٤].

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: يوم القيامة كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النّجاز؛ لأنّه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ٥٢﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿لَرَّ كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾؛ أي: ليتعظوا به ﴿وَلِيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾؛ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذْكُرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: ذووا العقول.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ زُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله: ﴿زُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدار الدنيا مع المسلمين، ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الكفار لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين، وقيل: إن المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْعَلُ عَلَى النَّارِ فَعَالُوا يَلَيِّنُوا نَرْدُ وَلَا تُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال عبد الله بن مسعود: هذا في الجهنيمين إذا رأوهم يخرجون من النار، وكان ابن عباس، وأنس بن مالك يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿زُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الطبري ٣/١٤].

وهكذا روي عن الضحاك ومجاهد، وقتادة، وأبي العالية وغيرهم، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، منها ما رواه الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، قَالَ الْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالُوا: فَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ الْإِسْلَامُ! وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأَخَذْنَا بِهَا، فَسَمِعَ اللَّهُ مَا قَالُوا، فَأَمَرَ بِمَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْكُفَّارِ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنُخْرِجَ كَمَا خَرَجُوا) قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ زُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾) ورواه ابن أبي حاتم و[الحاكم/٢٩٥٤] وصححه الألباني.

وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تَجْرُمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾؛ أي: عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرُونَ ﴿٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِكةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِكةِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾؛ أي: الذي يدعي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِكةِ﴾؛ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كما قال فرعون ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكِكةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، وكذا قال في الآية: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِكةِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكِكةِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بالرسالة والعذاب [رواه البخاري تعليقاً ٦/٢٧٣٤]، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَجْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين استكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس والحسن البصري: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ يعني: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قد عُلِمَ ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن قوّة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم بابًا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قال مجاهد، وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا، وقال ابن عباس: أخذت أبصارنا [وفي رواية عنه: شُبّه علينا، وإنما سُحِرنا]، وقال الكلبي: عميت أبصارنا. وقال ابن زيد: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران الذي لا يعقل [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٤/١٢ - ١٣].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ، شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ، بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب، لمن تأملها وكرر النظر فيها يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، وبهذا قال مجاهد، وقتادة: البروج هاهنا هي الكواكب [الطبري ١٩/٢٩]. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، وقال عطية العوفي: البروج هاهنا هي قصور الحرس، وجعل الشهب حرسًا لها من مَرَدَةِ الشياطين لئلا يسمّعوا إلى الملاء الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحًا به في «الصحیح»، كما قال البخاري [٤٤٢٤] في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: (إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ، هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِي بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيَحْرِقَهُ، وَرَبَّمَا لَمْ يَدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِي بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَتُلْقَى عَلَى قَمِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)، ثم ذكر تعالى خلقه الأرض، ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾؛ أي: معلوم، وكذا قال سعيد بن جبیر، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عتيبة، والحسن بن محمد، وأبو صالح وقتادة، ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَنُ ويقدر بقدر [الطبري ١٤/١٥ - ١٦].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعاش وهي جمع معيشة.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُمْ بِرَزَقِينَ﴾ قال مجاهد: هي الدواب والأنعام، وقال ابن جرير [١٤/ ١٨]: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والزرع على الله تعالى.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْوَهُ وَمَا أَنْشَرَهُ بِخَزَائِنِ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ لَأَنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥).

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على وجه الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة، وقال الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ قال: ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يمتطر قوم ويحرم آخرون وربما كان في البحر.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ أي: تلعق السحاب فتدثر ماء، وتلعق الشجر فتفتتح عن أوراقها وأكامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفرداها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً.

وقال عبد الله بن مسعود: تُرْسَلُ الرِّيحُ فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب حتى تدر كما تدر اللَّقْحَةُ [البهقي/٦٢٧٩]، وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي وقتادة، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ [الطبري ٢١/١٤].

وقوله: ﴿فَاسْقَيْنَكُمْوَهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عذبا يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء جعلناه أجابا، كما ينه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَلَمَاءَ الَّذِينَ تَشْرَبُونَ﴾ (٢٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٢٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٣٠) [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنْشَرَهُ بِخَزَائِنِ﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين، ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه في العيون والآبار والأنهار

وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.
وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وروي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير رحمته الله [٢٤/٢٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَالْبَانَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ﴿٢٧﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا التراب اليابس [الطبري ٢٧/١٤]، والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]، وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى [الطبري ٢٨/١٤].

وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾؛ أي: الصلصال من حمأ، وهو الطين، والمسنون: الأملس.
وقوله: ﴿وَالْبَانَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السموم بالليل والحرور بالنهار، وقال عبد الله بن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ: ﴿وَالْبَانَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الطبري ٣٠/١٤].
 وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وفي رواية: من أحسن النار، وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد في «الصحيح»: (خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ بَنُو آدَمَ مِمَّا وَصِفَ لَكُمْ) [رواه مسلم/٢٩٩٦]، ومقصود الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه، وتشريفه بإياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۚ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۚ إِلَى يَوْمِ الْوَفَاتِ الْمَعْلُومِ ۖ﴾ (٣٤-٣٨).

يقول أمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملاء الأعلى، وأنه رجيم؛ أي: مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به متواترة عليه إلى يوم القيامة، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي آغْوَيْتَنِي لِأُذَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۚ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ ۚ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۚ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۖ﴾ (٣٩-٤٤).

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿يَا آغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُذَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ أي: لذرية آدم عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: كما أغويتني ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَيْكَ لَإِلْمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]، وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي، قاله مجاهد، والحسن، وفتادة، كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: الذي قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجازنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في ذرك بقدر عمله، وقال علي عليه السلام: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها، وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وعن ابن عباس، والأعمش نحوه، وقال فتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ هي والله منازل بأعمالهم، وقال الضحاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود، باب للنصارى، وباب للصبايين، وباب للمجوس، وباب للذين

أشركوا وهم كفار العرب، وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبدًا [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٣٥/١٤ - ٣٦].
وروى الترمذي [٣١٢٣] عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (لَجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ: بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَ السَّيْفَ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ) [وصححه أحمد شاكر في «المسند»].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبَتْ عِبَادِي أَفَى أَنَا الْعَفْوَурُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون.
وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾؛ أي: سالمين من الآفات، مسلمًا عليكم ﴿ءَامِينَ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.
روى البخاري [٦١٧٠] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَلُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ مَظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَتَقَوَّا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ).

وروى ابن جرير [٣٧/١٤] عن محمد بن سيرين قال: استأذن الأشر على علي عليه السلام، وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا، قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني، قال: أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.
وقال كثير النواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربي حربيكم، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما يا كثير فما أدركك فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال: أبو بكر وعمر، وعلي رضي الله عنهم أجمعين [الطبري ٣٨/١٤].

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾. قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.
وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾؛ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في «الصحيحين»: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْشَرَ خَدِيجَةَ بَبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ) [البخاري/١٦٩٩ نحوه ومسلم/٢٤٣٣ بنحوه أيضًا].

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: (يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَمْرُضُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَسْبُوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَطْعَنُوا أَبَدًا) [مسلم/٢٨٣٧ نحوه]، وقال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ؛ أي: أخبر يا محمد عبادي أنني ذو رحمة وذو عقاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ٥٤﴾ قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِطِينِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾.

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيد.

﴿قَالُوا لَا نَوْجَلُ﴾؛ أي: لا تخف ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود، ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي﴾ فأجابه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِطِينِ﴾ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٠﴾.

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري، أنه شرع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: الباقيين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٦٤﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنون بعدابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم ﴿وَأَيُّنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُضْحِحِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في العزاة وإنما يكون ساقية، يُزجي الضعيف ويحمل المنقطع [رواه أبو داود وسكت عنه هو والمنذري].

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾؛ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾؛ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُضْحِحِينَ﴾؛ أي: وقت الصباح كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٨﴾ وَاقْنُؤْا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوهُ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٨١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوهمهم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٨﴾ وَاقْنُؤْا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوهُ ﴿٧٩﴾﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله، كما في سياق سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحااجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصباحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاء عريض، قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرا وما برا نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الطبري ٤٤/١٤] يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال قتادة: ﴿في سكرتهم﴾؛ أي: في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يلعبون، وقال ابن عباس: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لعيشك [البخاري تعليقا ١٧٣٦/٤] ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يتحIRON [الطبري ٤٤/١٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٨٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٨٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّعِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٨٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو

طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّينَ﴾؛ أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّمُتَوَسِّينَ﴾ قال: المتفرسين، وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: للمتأملين [الطبري ٤٦/١٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَإِسْبِيلٌ مُّقْبِرٌ﴾؛ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا لَمَكُونٍ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِلَيْكَ أُنِجُوتُ ﴿٨٨﴾﴾ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال مجاهد، والضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَإِسْبِيلٌ مُّقْبِرٌ﴾ قال: مُعْلَمٌ، وقال قتادة: بطريق واضح، وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد [الطبري ٤٧/١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسوله.

﴿وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْتُمْ مِّنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَاْمِرُ مُبِينٌ ﴿٧٩﴾﴾.

أصحاب الآية: هم قوم شعيب، قال الضحاك وقاتدة وغيرهما: الآية الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لِيَاْمِرُ مُبِينٌ﴾؛ أي: طريق مبين، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أُنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَتَيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أصحاب الحجر: هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليهم السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنهم آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وذكر تعالى أنهم ﴿كَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوتًا ءَامِنِينَ﴾؛ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرًا وبطراً وعبثًا، ما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرَّ به رسول الله ﷺ وهو

ذاهب إلى تبوك، فَقَنَعَ رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَيْمِنٍ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَبَاكُوا خَشْيَةً أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ) [البخاري/٤٢٣ ومسلم/٢٩٨٠ كلاهما بالفاظ متقاربة].

وقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ﴾^(٨٥) الْجَمِيلُ^(٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ^(٨٦).

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٨٥) فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَاصْصَبْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وقال مجاهد، وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قالا، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٨٦) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٨٧) فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٨١ - ٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ^(٨٨).

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنتهم فيه، فلا تغطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ أي: أَلِنْ لهم جانبك.

وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك وغير واحد: هي السبع الطُّوَل [ابن أبي حاتم/١٥١٥٠]، يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقال سعيد: بَيَّنَّ فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر.

وقال سفيان: المثنائي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة سورة واحدة، قال ابن عباس: ولم يُعْطَها أحد إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين، وقال ابن عباس: أوتي النبي ﷺ سبعا من المثنائي الطُول، وأوتي موسى ﷺ سبعا، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع [انظر الطبري ٥٢/١٤]، وقال مجاهد: هي السبع الطول، ويقال: هي القرآن العظيم، وقال زياد بن أبي مريم: أعطيتك سبعة أجزاء: أمر، وأنه، وأبشر، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدد النعم، وأنبئك نبأ القرآن.

والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. رُوي ذلك عن علي، وعمر، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يثنون في كل ركعة مكتوبة أو تطوع، واختاره ابن جرير [٥٦/١٤]، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، والله الحمد، وقد أورد البخاري رحمه الله هاهنا حديثين:

أحدهما: عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت، فقال: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟) فقلت: كنت أصلي، فقال: (أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، أَلَا أَعْلَمُكُمْ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟) فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال: (﴿لَتَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ) [البخاري/٤٣٧٠].

والثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ: السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ) [البخاري/٤٤٢٧]، فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثنائي والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك، لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثنان من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضًا، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾؛ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن هاهنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ) [البخاري/٧٠٨٩] إلى أنه يستغني به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير.

وعن ابن عباس ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، وقال مجاهد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٨٩﴾ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾؛ أي: المتحالفين؛ أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]؛ أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيته وأهله.

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾؛ أي: جَزَّؤُوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. روى البخاري [٣٧٢٩] عن ابن عباس قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك وغيرهم نحو ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: السحر، وقال عكرمة: العَضُ: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضة، وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم ساحر، وقال بعضهم: مجنون، وقال بعضهم: كاهن، فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره [الطبري ٦٦/١٤]. وعن ابن عمر في قوله: ﴿لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ قال: عن لا إله إلا الله، وروي عن مجاهد مثله [رواه الترمذي عن أنس/٣١٢٦].

وروى ابن جرير [٦٧/١٤] عن عبد الله بن مسعود قال: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبتم المرسلين؟ وقال أبو العالية في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عمك وعن مالك، وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُتْلَىٰ عَنْ ذِكْرِهِ إِنشٌ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ [الطبري ٦٧/١٤].

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجْدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإفادته والصدع به، وهو مواجهة المشركين

به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: أمضه، وفي رواية: افعل ما تؤمر، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة [الطبري ١٤/٦٨].

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ؛ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وروى محمد بن إسحاق [كما ذكر ابن هشام فيما يرويه عنه ٢/٢٥٦]، عن عروة بن الزبير: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، وهكذا روى سعيد بن جبير وعكرمة، وكذا روى عن مجاهد، ومقسم، وقتادة وغير واحد أنهم كانوا خمسة، وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبودًا آخر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ؛ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر فلا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسيبحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن نعيم بن همار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجَزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ)، ورواه أبو داود [وهو صحيح]، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. [رواه أبو داود وهو صحيح].

وقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قال البخاري [تعليقًا ٤/١٧٣٩]: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو ابن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير [١٤/٧٤]، وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٩٣) وَلَوْ نَكُنْ نَطْعُ الْمُسْكِينِ (٩٤) وَكُنَّا نَخْشَوْكُمْ الْخَائِضِينَ (٩٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٩٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [المثدر: ٤٣ - ٤٧]، وفي «الصحيح» عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: (وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟) فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: (أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ) [رواه البخاري/١١٨٦].

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في «صحيح البخاري» [١٠٦٦] عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة

إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء ﷺ كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم وحسبنا الله ونعم الوكيل.



تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي: قُرْبُ فلا تستعجلوه، يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَسَتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَ هُ الْْعَذَابُ وَلِيُنِذِرَنَّهُمْ بَقَّةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٣] سَتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: (تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءٌ مِنَ الْمَغْرِبِ مِثْلُ الثَّرَسِ، فَمَا تَرَأَى تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيُقْبِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشُكُّ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ). قال رسول الله ﷺ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثُّوبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمْدَنَّ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرَبُ أَبَدًا - قَالَ - وَيَسْتَعِغِلُ النَّاسُ) [ورواه الحاكم/ ٨٦٢٢ وصححه ووافقه الذهبي].

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علوًا كبيرًا، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة قال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢).

يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾؛ أي: الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾؛ أي: لينذروا

﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾؛ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة؛ أي: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ سَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٩١﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٧٨٧٦]، وابن ماجه [٢٧٠٧] نحوه: عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ، أَنَّى تَفْجِرُنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتَكَ فَعَدَلْتَنِي مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَتِكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟) [قال البوصيري: إسناده صحيح].

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِمَّ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بَشِقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ أي: غداة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وَتَحْمِلُ أَنْثَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِمَّ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بَشِقَ الْأَنْفُسِ﴾ تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِذُوا نَفْسَكُمْ وَمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦١﴾ وَعَلَيْهَا وَكَلَّ الْفَلَاحُ تَحْمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِّلَّسَّوْءِ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]. قال

ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفٌّ﴾؛ أي: ثياب، ﴿وَمَنْعٌ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة، وعنه أيضًا: نسل كل دابة، وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفٌّ﴾؛ أي: لباس ينسج، ومنافع: مركب ولحم ولبن، ونحوه عن قتادة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة [الطبري ١٤/٧٩].

﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبُوهَا زِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام، وأفردتها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمته الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهي حرام، كما ثبتت به السُّنَّة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير أن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفٌّ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبُوهَا﴾ فهذه للركوب [ابن أبي شبة/٢٤٣٢٠]، وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضًا رحمته الله، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد [١٦٨٦٣] عن خالد بن الوليد رحمته الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وأخرجه أبو داود [٣٧٩٠]، والنسائي [٤٨٤٤]، وابن ماجه [٣١٩٨]، فلو صح هذا الحديث لكان نصًّا في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل [البخاري/٣٩٨٢ نحوه ومسلم/١٩٤١].

وفي «صحيح مسلم» [١٩٤٢] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة، فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء وأكثر السلف والخلف، والله أعلم، فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن إنزاع الحمر على الخيل لثلاث ينقطع النسل [رواه النسائي/٤٤٢١، وهو صحيح].

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعْ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْرِي سَوْءَ تَكْمُ وَرِدْشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها

الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي مُوصِلَةٌ إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدُّ السَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدُّ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله [الطبري ٨٤/١٤]، وقال السدي، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدُّ السَّبِيلِ﴾ الإسلام، وقال ابن عباس: وعلى الله البيان [الطبري ٨٤/١٤]؛ أي: تبيين الهدى والضلالة، وكذا قال قتادة، والضحاك، وقول مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطرق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛ أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية [الطبري ٨٥/١٤]، ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٦﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بُلْغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾؛ أي: جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجابا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ أي: وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ أي: ترعون، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

وقوله: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعموها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾.

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام في تسخير الليل والنهار يتعاقبان،

والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورًا وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي السَّمَاءَ بِالسَّحابِ وَيُبْرِئُ السَّيِّئَاتِ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّكَ لَفِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأًا لَّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾ لما نبه سبحانه على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٤] وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [١٥] وَعَلَّمَتِ الْبِلَاقِلَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [١٦] أَمْ نَخْلُقُ أَفْلاكًا تَذَكَّرُونَ [١٧] وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [١٨].

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ، والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره؛ أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: نعمه وإحسانه.

ثم ذكر تعالى الأرض وما جعل فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد؛ أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسًا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال الحسن: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال، ونحوه عن قيس بن عباد وعلي بن أبي طالب [الطبري ٩٠/١٤].

وقوله: ﴿وَأَنْهَرَ سُبُلًا﴾؛ أي: جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّرَ لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك

جعل فيها سبلاً؛ أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَا﴾؛ أي: دلائل من جبال كبار وأكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برأ وبحراً إذا ضلوا الطريق بالنهار.

وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس، وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَا﴾ يقولون: النجوم وهي الجبال [الطبري ٩٢/١٤]، ثم قال تعالى منبهاً على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتهم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير، وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١).

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَعْبُدُونَنَا مَا نَنْحِتُونَ﴾ (٢٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصفات: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾؛ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

﴿إِنَّهُمْ كُفِرُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى أنه لا إله هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: عن عبادة الله مع إنكار

قلوبهم لتوحيده كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقًا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿مَآذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: لم ينزل شيئًا، إنما هذا الذي يُنلى علينا أساطير الأولين؛ أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]؛ أي: يفترون على الرسول ويقولون أقوالًا متضادة مختلفة كلها باطلة، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما ﴿فَكَرَّ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٤]؛ أي: يُنقل ويُحكى، فنفروا عن قوله ورأيه قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم؛ أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: (مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا) [رواه مسلم/٢٦٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَنْتًا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وهكذا روي العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنها كقولهم: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئًا [الطبري ٩٥/١٤].

﴿فَدَّ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَنذَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ ابْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشْقُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْأُسُوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿فَدَّ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو نمروذ الذي بنى الصرح، وروي عن مجاهد نحوه، وقال زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض نمروذ،

فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَنفَ اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِّنَ الْقَوَائِدِ﴾ [الطبري ٩٧/١٤] وقال آخرون: بل هو بختنصر، وقال آخرون: هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا﴾ [نوح: ٢٢]؛ أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ الْإِنِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية [سبا: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَنفَ اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِّنَ الْقَوَائِدِ﴾؛ أي: اجتثه من أصله وأبطل عملهم، وقال هاهنا: ﴿فَأَنفَ اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِّنَ الْقَوَائِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٢٦] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ؛ أي: يُظْهِرُ فُضَائِحَهُمْ، وما كانت تُجَنِّهُ ضَمَائِرَهُمْ، فيجعلها علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ بُلَى السَّارِّينَ﴾ [الطارق: ٩]، كما في «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِّوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ عَذْرَتِهِ، فَيُقَالُ: هَذِهِ عَذْرَةُ فَلَانِ بْنِ فَلَانٍ) [روى البخاري أوله/ ٣٠١٥ ومسلم/ ١٧٣٨ بنحوه]، وهكذا يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقررًا لهم وموبخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولن حينئذٍ: ﴿إِنَّ الْآخِرَىٰ الْيَوْمَ وَالْأَوَّلَىٰ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩).

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم ﴿فَأَلْفَوْا السَّلَامَ﴾؛ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، قال الله مكذبًا لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ؛ أي: بتس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَومُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾؛ أي: أنزل خيراً؛ أي: رحمة وحسناً لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]؛ أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير؛ أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين؛ أي: لهم في الآخرة جنات عدن؛ أي: إقامة يدخلونها ﴿يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِبِ الْأَنْفُسُ وَكَلِّدُ الْأَعْيُنُ وَأَنْشَرُ فِيهَا خَلْدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث: (إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَىٰ شَرَابِهِمْ، فَلَا يَسْتَهَيُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ إِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطَرْنَا كَوَاعِبَ أَتْرَابًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ) [رواه ابن المبارك في «الزهد» ٧٠/٢، وأبو نعيم في «صفة الجنة» بسند صحيح].

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون؛ أي: مُخْلِصُونَ مِنَ الشَّرِّ وَالْدَنَسِ وَكُلِّ سَوْءٍ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ تَرْجُونَ غُفُورَ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينظر هؤلاء إلا

الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة، ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٦﴾ إِن تَحْرِضَ عَلَىٰ هُدْيِهِمُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل الله به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنا منه، قال الله راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعبه عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً؛ أي: في كل قرن وطائفة رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِكُفْرَيْنَ أَثَنًا﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾.

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾؛ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾؛ أي: من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾؛ أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾؛ أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾؛ أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَى﴾؛ أي: بلى سيكون ذلك ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ أي: لا بد منه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ أي: للناس ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾؛ أي: من كل شيء، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾؛ أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يُدْعَوْنَ يوم القيامة إلى نار جهنم دُعَاً.

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القدر: ٥٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ أي: أن يأمر به مرة واحدة، فإذا هو كائن؛ أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وروى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال الله تعالى: سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ قال: وقلت: ﴿بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ وَأَمَّا سَبْهُ إِيَّاي فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ تَلْتَقِ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿٤٢﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٤٣﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ ﴿٤٤﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]. هكذا ذكره موقوفًا [رواه ابن أبي حاتم عن قتادة/ ١٧٧٤ بنحوه] وهو في «الصحيحين» [البخاري/ ٣٠٢١] مرفوعٌ بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْتَغِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنَبْتَغِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس، والشعبي، وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرًا منها في الدنيا، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكامًا، وكل منهم للمتقين إمامًا، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: صبروا على من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٤٤﴾﴾.

عن ابن عباس [كما روى الطبري ١٤/١٠٩]: لما بعث الله محمدًا ﷺ رسولًا، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فأنزل الله: ﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحِيَٰنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أهل الكتب الماضية: بشرًا كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولًا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] ليسوا من أهل السماء كما قلتم، قاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] صحيح،

لكن ليس هو المراد ههنا؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر [كما روى الطبري ١٤/١٠٩]، ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر، صحيح فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول ﷺ والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السُنَّة المستقيمة كعلي، وابن عباس، وبني علي الحسن والحسين، ومحمد ابن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين، وجعفر ابنه، وأمثالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِبَاكُوتٍ أَلْطَعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشرًا أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالدلالات والحجج ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك وغيرهم، والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾؛ يعني: القرآن ﴿لِتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: من ربهم لعلكم بمعنى ما أنزل عليكم وحرصك عليه واتباعك له، لعلنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فَتَفْضِّلَ لَهُمْ مَا أَجْمَلَ وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مَا أَشْكَلَ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾؛ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٧).

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ﴾؛ أي: في تقلبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهمية، قال قتادة والسدي: ﴿تَقْلُيبِهِمْ﴾؛ أي: أسفارهم [الطبري ١٤/١١٢]، وقال مجاهد، والضحاك، وقتادة ﴿فِي تَقْلُيبِهِمْ﴾ في الليل والنهار [الطبري ١٤/١١٢]، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: لا يُعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك، وكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في «الصحيحين»: (لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ) [البخاري/٥٧٤٨ بنحوه ومسلم/٢٨٠٤ واللفظ له]، وفي «الصحيحين»: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُلَاحِظْهُ) [البخاري/٤٤٠٩ واللفظ له ومسلم/٢٥٨٣]، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْسَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَيوُا ظِلَلَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾
 ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
 ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتقيأ ذات اليمين وذات الشمال؛ أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ﷻ، وكذا قال قتادة، والضحاك وغيرهم [الطبري ١٤/١١٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ أي: صاغرون، وقال مجاهد أيضا: سجدوا كل شيء فيؤه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيؤها، وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَفْئِدًا وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: تسجد لله؛ أي: غير مستكبرين عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ﴾؛ أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: ماثبرين على طاعته تعالى وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ﴾
 ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ تَعَمٍّ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهُمُ فَمَتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه.

﴿وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وميمون بن مهران، والسدي، وقتادة وغير واحد: أي: دائماً [الطبري ١١٩/١٤]، وعن ابن عباس أيضاً: أي: واجباً [الطبري ١١٨/١٤]، وقال مجاهد: أي: خالصاً أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَعَدَّ دِينَ اللَّهِ يَجْعُوتَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس، وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد، فإنه يكون من باب الطلب؛ أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً وأخلصوا لي الطلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ثم أخبر أنه مالك النفع والضرر، وأن ما بالعباد من رزق ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَلِإِلَيْهِ تَجْتَرِعُونَ﴾؛ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَنَّزُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [٥٤] لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ. قيل: اللام هاهنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا؛ أي: يستروا ويحمدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَسْعَوْا﴾؛ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَقْرَوْنَ﴾ [٥٦] وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ [٥٧] وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [٥٨] يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [٥٩] لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٦٠].

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعِيَّةٍ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْنَا شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه واثفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَقْرَوْنَ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله وعبدوها معه، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [٢١] إِذَا قَسَمْتَ ضِرَّةً [النجم: ٢١، ٢٢]، وقال هاهنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: عن قولهم وإفكهم.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾؛ أي: كثيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَبْزُورِي مِنَ الْغُورِ﴾؛ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾؛ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾؛ أي: يثدها، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾؛ أي: النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَنْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١١) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَءَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنْهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (١٢).

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم إلى أجل مسمى؛ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. قال عبد الله بن مسعود: كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم، ومثله عن أبي الأحوص، ونحوه عن أبي هريرة [الطبري ١٤/١٢٦ وابن أبي حاتم/١٨٠١٩].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾؛ أي: من البنات من الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَاقِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدْفِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الغلمان [الطبري ١٤/١٢٧]، وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: يوم القيامة كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، والله الحمد، ولهذا قال الله تعالى راداً عليهم في تمنيه ذلك: ﴿لَا جَرَءَ﴾؛ أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنْهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مُضَيَّعُونَ [الطبري ١٤/١٢٨]، وذكره البخاري في تراجمه في تفسير سورة النحل ٤/١٧٣٩، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وعن قتادة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾؛ أي: معجلون إلى النار من الفراط [الطبري ١٤/١٢٨]، وهو السابق إلى

الورْد، ولا منافاة؛ لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها؛ أي: يخلدون.

﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ تَحْتِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ .

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكُذِّبَت الرسل، فلك في إخوانك من المرسلين أسوة، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ تَحْتِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: لمن تمسك به ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ١٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَنَخْذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً ۚ﴾؛ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، وأفرد هاهنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات؛ أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿وَمِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾؛ أي: يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته، ما بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾؛ أي: لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعنان، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريره، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَنَخْذُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريره، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من العنب والمتخذ من النخل، كما هو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت

السُّنَّةُ بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السَّكْرُ ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أُحِلَّ من ثمرتيهما [الطبري ١٤/١٣٤]، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله؛ يعني: ما ييس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيد، حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السُّنَّة بذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

المراد بالوحي ها هنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذنًا قدريًا تسخيريًا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذلة، حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾؛ أي: مطيعة، فجعلناه حالًا من السالكة، قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم، والقول الأول هو أظهر، وهو أنه حال من الطريق؛ أي: فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير [١٤/١٤٠]: كلا القولين صحيح.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: في العسل شفاء للناس؛ أي: من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس؛ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده.

روى البخاري [٥٣٨٦]، ومسلم [٢٢١٧] في «صحيحيهما» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: (اسْقِهِ عَسَلًا) فذهب فسقاه عَسَلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عَسَلًا، فما زاده إلا استطلاقًا، قال: (اذهب فاسْقِهِ عَسَلًا) فذهب فسقاه عَسَلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقًا، فقال

رسول الله ﷺ: (صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، أَذْهَبَ فَاسْقِهِ عَسَلًا) فذهب فسقاه فبرئ. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلاح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ، أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ خَيْرٌ: فَفِي شَرْطَةِ مُحَجَّمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بَنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ) [البخاري/٥٣٥٩ ومسلم/٢٢٠٥].

وروى الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني [٣٤٥٢] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَلُ وَالْقُرْآنُ) وهذا إسناد جيد. [قال في «الزوائد»: هذا إسناده صحيح]، وروى ابن ماجه [٣٤٥٧] عن أبي أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عَلَيْكُمْ بِالسَّنَا وَالسَّنُوتِ، فَإِنَّ فِيهِمَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ) قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: (الْمَوْتُ) [وصحه الألباني]، قال ابن أبي عبة: السنوت: الشُّبْتُ، وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زقاق السمن.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

فَذِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الآية [الروم: ٥٤]، وقد روي عن علي عليه السلام في أَرَذَلِ الْعُمُرِ: خمس وسبعون سنة، وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف، وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾؛ أي: بعدما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَدِ والخرف؛ ولهذا روى البخاري [٤٤٣٠] عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: (أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) رواه مسلم [٢٧٦٠].

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

يبين تعالى للمشركين جاهلهم وكفرهم فيما زعموه الله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكرًا عليهم: أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلهة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزهه منك [الطبري ١٤٣/١٤].

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: أنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره، وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبلي به كلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل اتلاف، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد، قال ابن عباس: بنين وحفدة، وهم الولد وولد الولد، وقال مجاهد: بنين وحفدة ابنه وخادمه، وقال في رواية: الحفدة الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس: الحفدة الخدم، وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري، وقال عكرمة: الحفدة من خَدَمَكَ من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها، وقال ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه، ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة: أختان الرجل، وهذا الأخير

الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضحى، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبیر، ومجاهد والقرظي، وقال ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير [بعد أن ذكر الأقوال السابقة بأسانيد ١٤/١٤٦]: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحُفْد، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: وإليك نسعى ونحفد، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأصنام والأنداد ﴿وَيَبْتَغِي اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره، وفي الحديث الصحيح (أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ: أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أَكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُوعًا؟) [رواه مسلم بنحوه/٢٩٦٨].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣)
 ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤).

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع، ولا شجر، ولا يملكون ذلك؛ أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأمثالاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير [١٤٩/١٤]، والعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦).

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى؛ أي: أن الوثن أبكم لا يتكلم

ولا ينطق بخير ولا بشر، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كُلُّ﴾؛ أي: عيال على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ﴾؛ أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؛ أي: بالقسط ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وبهذا قال السدي، وقتادة، وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير [١٤/ ١٥١]، وعن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضًا كما تقدم.

﴿وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْأِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحْدَةً كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]؛ أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المراتب، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه وبصره وقوي عقله حتى يبلغ أشده، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في «صحيح البخاري» [٦١٣٧] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آَدَاءٍ مَا أَفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَكِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَكِنْ دَعَانِي لِأَجِيبَنَّهُ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ)؛ فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله؛ أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها (فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي

يَبْطِشُ، وَيَبِي يَمْشِي)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤]، ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوَى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ﴾ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣).

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، ويتنفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا ﴿مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾؛ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾؛ أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾؛ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾؛ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثْنَا﴾؛ أي: تتخذون منه أثنًا وهو المال، وقيل: المتاع [الطبري ١٤/١٥٤]، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني والضحاك، وقتادة، وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾؛ أي: حصونًا ومعقل، كما ﴿جَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. هكذا فسره الجمهور.

وقال قتادة: هذه السورة تسمى سورة النعم، وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على

قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنَ أَصْوَادِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا مِائَةً إِلَى حِينٍ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر منه، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُرِثُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا مِّمَّا فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ [النور: ٤٣] لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرِيلٌ يَّقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾ وقد أدبته إليهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾؛ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَاطَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: الذين أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا يفتّر عنهم ساعة واحدة.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾؛ أي: لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلهاً آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث [الذي رواه مسلم بنحوه]. ثم تنطوي عليهم وتلقطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُّقْرَئِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢ - ١٤].

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا

شُرَكَاءَهُمْ؛ أَي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أَي: قالت لهم الآلهة: كذبتُم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَاطَ﴾ قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذٍ [الطبري ١٤/ ١٦٠]؛ أَي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]؛ أَي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذٍ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَنْتَ أَلْوَجْهَ لِلْحَيِّ الْقَبُورِ﴾ [طه: ١١١].

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَاطَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أَي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾؛ أَي: عذابًا على كفرهم، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]؛ أَي: ينهون الناس عن اتباعه، ويتعدون هم منه أيضًا ﴿وَلَنْ يَكُونَ لِآلِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩).

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني: أمته؛ أَي: اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فقال له رسول الله ﷺ: (حَسْبُكَ) فقال ابن مسعود ﷺ: فالتفت فإذا عيناه تذرفان [البخاري/ ٤٧٦٣ ومسلم نحوه/ ٨٠٠].

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وحرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام [الطبري ١٤/ ١٦٢]، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾؛ أَي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾، وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أَي: بالسنة، ووجه اقتراح قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾

أن المراد - والله أعلم - إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿وَحَرِّزُوا سِنَتَهُ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقوله: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذَرْ تَبَذُّرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات، والمنكرات ما ظهر منها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأما البغي فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُدْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) [رواه الترمذي/٢٥١١ وغيره وقال: حسن صحيح].

وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾؛ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية [ذكره في مجمع الزوائد ٧/١٢٥ وقال: ذكر الطبراني نحوه]، وقال قتادة: ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها [الطبري ١٤/١٦٣]. قلت: ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا) [رواه الحاكم/١٥١ وصححه].

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن رواه الإمام أحمد [٢٩٢٢] عن عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله فقال له رسول الله ﷺ: (أَلَا تَجْلِسُ؟) فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينته في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شَخَصَ بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شَخَصَ أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى في السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيته تفعل كفعلك الغداة! قال: (وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟) قال: رأيته

شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرقت إليه وتركنتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: (وَقَطِئْتُ لِدَلِكْ؟) فقال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: (أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ أَنِفًا وَأَنْتَ جَالِسٌ) قال: رسول الله؟ قال: (نَعَمْ). قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ، إسناده جيد متصل حسن.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ .

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في «الصحيحين» قال: (إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا) [البخاري/ ٢٩٦٤ ومسلم/ ١٦٤٩]. وفي رواية: (وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي) [البخاري/ ٦٣٤٠] لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هاهنا، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ يعني: الحلف [الطبري ١٤/ ١٦٤]؛ أي: حلف الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد [١٦٨٠٧] عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا حِلْفُ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا حِلْفُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً) وكذا رواه مسلم [٢٥٣٠]؛ ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا [البخاري نحوه/ ٢١٧٢ ومسلم/ ٢٥٢٩ بنحوه أيضًا]، فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم شهد، ثم قال: أما بعد فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ الْغَاوِرَ يُنْصَبُ لَهُ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ)، وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْغَدْرِ - إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ - أَنْ يُبَايَعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى بَيْعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ، فَلَا يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَزِيدَ وَلَا يُسْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَيَكُونَ فَصْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ. المرفوع منه في «الصحيحين» [البخاري/ ٦٦٩٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.
 وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ قال عبد الله بن كثير والسدي:
 هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه، وقال مجاهد، وقتادة،
 وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده [الطبري ١٤/١٦٦]، وهذا القول أرجح وأظهر
 سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنْكَا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر، ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾؛
 أي: أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان؛ أي: لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من
 ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: خديعة ومكرًا ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ
 هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر
 بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة
 هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال ابن عباس: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: أكثر، وقال مجاهد: كانوا
 يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم
 أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك، وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد نحوه [الطبري ١٤/١٦٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: بالكثرة، وقال ابن جرير: أي:
 بأمره إياكم بالوفاء بالعهد. ﴿وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل
 بعمله من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ
 عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدْ بَعَثَ فِيكُمْ ثَوْبًا وَتَذُقُوا أَلْسُوهُ
 يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا
 عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ
 الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كما قال تعالى:
 ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]؛ أي: لوفق بينكم ولما جعل
 اختلافًا ولا تباغض ولا شحنةا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (٩٣)
 إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [مود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على
 الفتيل والنقير والقطمير، ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً؛ أي: خديعة ومكرًا
 لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى،
 بسبب الأيمان الحائثة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن
 قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام،

ولهذا قال: ﴿وَيَذَرُوا السَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا تتعاضوا عن الإيمان بالله عَرْض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له؛ أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وحفظ عهده رجاؤه موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ؛ أي: يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود مُتَنَاهٍ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾؛ أي: وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَدَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب ﷻ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم؛ أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسُنَّة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب [الطبري ١٤/١٧٠]، وعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه، وقال ابن عباس أيضًا: إنها السعادة، وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضًا: هي العمل بالطاعة والانسراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٦٥٧٢] عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ)، ورواه مسلم [١٠٥٤].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠).

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكي عن حمزة، وأبي حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجوا بهذه الآية، ونقل النووي في «شرح المذهب» مثل ذلك عن أبي هريرة أيضًا ومحمد بن سيرين،

وإبراهيم النخعي والصحيح الأول للأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.
 وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣]، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه [الطبري ١٤/١٧٤]، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾؛ أي: أشركوا في عبادة الله تعالى؛ أي: أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية؛ أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى، وقال آخرون: معناه أنه شَرَكُهُمْ في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يُتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾؛ أي: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً﴾؛ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] [الطبري ١٤/١٧٦]، فقال تعالى مجيباً لهم ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾؛ أي: جبريل ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيَّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان بياغاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى: راداً عليهم في افتراءهم ذلك ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيَّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي: القرآن؛ أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسَكَّة من العقل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسوله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ [رواه البخاري/٢٧٨٢].

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة - وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء فيمن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لِمَا ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي وأبو مالك وقتادة [الطبري/١٤/١٨١].

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر إبقاء لمهجته، ويجوز له أن

يستقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيط لكم منها لقتلتها، رضي الله عنه وأرضاه، وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر [٣٥٨/٢٧ وما بعدها] في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشرك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذا أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحmit، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه، فقال له: إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله، وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حلّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك فيّ، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبداً فقام فقبل رأسه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه من بعدها؛ أي: تلك الفعلية وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾؛ أي: تحتاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِإِسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتَخَطَّفُ الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْعَلُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهكذا قال هاهنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾؛ أي: هنيئاً سهلاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾؛ أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَاءِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسُوا الْفِرَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، ولهذا بدلهم الله بحاليلهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِإِسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾؛ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابته سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار حتى فتحها الله على رسوله ﷺ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم آمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله.

وروى ابن جرير عن سليم بن عتر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان رضي الله عنهما محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا: قتل، فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني: المدينة - التي قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [الطبري ١٤/١٨٦].

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك، فإنه المنعم

المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ إِلَهٍ بِهِ﴾؛ أي: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾؛ أي: احتاج في غير بغي ولا عدوان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّفَتْرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، و«ما» في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدرية؛ أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم تواعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿تَمَتُّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [نساء: ٢٤] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ متّع في الدنيا ثمّ إلينا مرجعهم ثمّ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٩﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وأنه أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر - ذكر ﷺ ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والخرج والتضييق، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْأَنْعَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا﴾ - إلى قوله: - ﴿لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾؛ أي: فيما ضيقنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]، ثم أخبر تعالى تكررًا وامتنانًا في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾؛ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ أي: تلك الفعلة والزلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحَبَدَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَعَآيَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال عبد الله بن مسعود: الأمة معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن ابن عمر قال: الأمة الذي يعلم الناس دينهم، وقال ابن مسعود: إن معاذًا كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ، وقال مجاهد: أمة؛ أي: أمة وحده، والقانت: المطيع وقال مجاهد أيضًا: كان إبراهيم أمة؛ أي: مؤمنًا وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار، وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت: المطيع لله [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٤/ ١٩٠].

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾؛ أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به .
وقوله: ﴿أَحَبَدَهُ﴾؛ أي: اختاره واطصفاه. ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي .

وقوله: ﴿وَعَآيَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَعَآيَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ أي: لسان صدق .

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما قال في الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكرًا على اليهود:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يومًا من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه، واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي

كامل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ موثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة [الطبري ١٤/١٩٤] ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصراني بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَبْدَأُنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالِنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعٌ، الْيَهُودُ عَدَا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ عَدٍ) [البخاري/٨٣٦ ومسلم/٨٥٥].

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فأمره تعالى بليّن الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذ مثله، وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير [١٤/١٩٧]، وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد [الطبري ١٤/١٩٦].

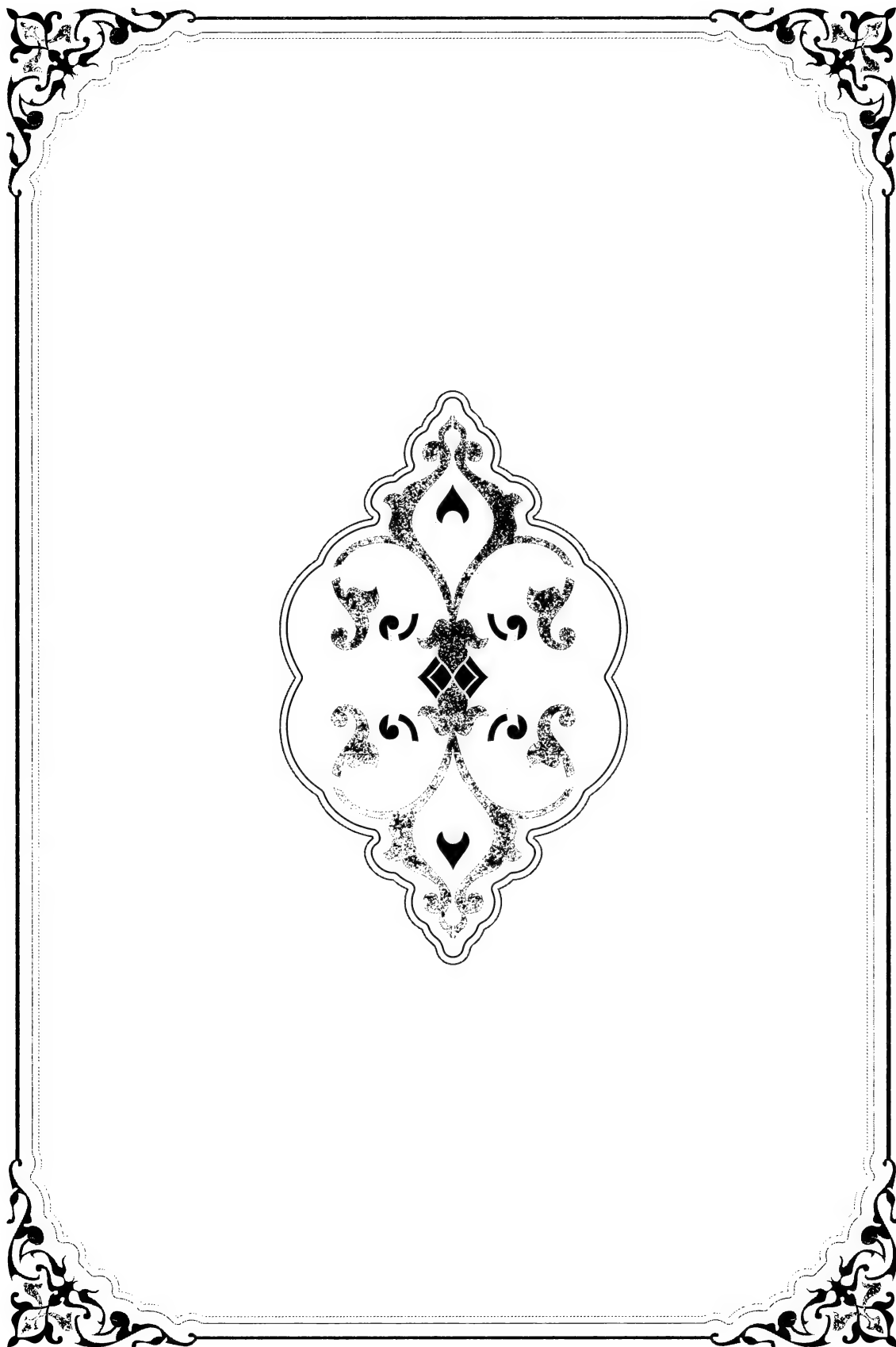
وروى عبد الله ابن الإمام أحمد [٢١٢٦٧] في مسند أبيه، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرَبِّينَ عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم، فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ﴾ [رواه الترمذي/٣١٢٩ نحوه وقال: حسن غريب، والحاكم/٣٣٦٨ نحوه وصححه ووافقه الذهبي]، وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] ثم قال: ﴿فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانتة، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي صَبَقٍ﴾؛ أي: غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾؛ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة كقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَكَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]؛ ومعنى: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾؛ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفينهم.





الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المركز	٥
تقديم معالي الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد	٧
مقدمة لجنة اختصار تفسير ابن كثير	٩
الحافظ ابن كثير وكتابه التفسير	١٣
مقدمة الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ	١٧
فضائل القرآن	٢١
* تفسير سورة الفاتحة	٣٥
* تفسير سورة البقرة	٤٩
* تفسير سورة آل عمران	٣٠٨
* تفسير سورة النساء	٣٩٣
* تفسير سورة المائدة	٥١٢
* تفسير سورة الأنعام	٦٠٨
* تفسير سورة الأعراف	٦٧٨
* تفسير سورة الأنفال	٧٥٣
* تفسير سورة التوبة	٧٩٩
* تفسير سورة يونس	٨٦٧
* تفسير سورة هود	٩٠٢
* تفسير سورة يوسف	٩٣٥
* تفسير سورة الرعد	٩٦٧
* تفسير سورة إبراهيم ﷺ	٩٨٨
* تفسير سورة الحجر	١٠٠٦
* تفسير سورة النحل	١٠٢١

مركز تقيسي للدراسات القرآنية

مركز بحوث ودراسات متخصص في الدراسات القرآنية وتطويرها، في المجالات العلمية والتعليمية والتقنية والإعلامية، من خلال مشروعات متميزة، من الدراسات والبحوث، والبرامج الإعلامية، والدورات التدريبية، والمؤتمرات واللقاءات، والتطبيقات الإلكترونية، بعمل مؤسسي يتحرى الإتقان والجودة، ويمد جسور التعاون والشرابة مع مؤسسات المجتمع كافة، ومع جميع العاملين في خدمة القرآن الكريم وعلومه في العالم أفراداً ومؤسسات. وينتسب للمركز - عملاً مباشراً وتعاوناً - مئآت الباحثين حول العالم.

الرؤية

الريادة في تطوير الدراسات القرآنية.

الأهداف

1. الارتقاء بمستوى الدراسات القرآنية، وإثراؤها ببحوث علمية جادة.
2. تشجيع البحث العلمي في الدراسات القرآنية، وتعزيز دراسات استشراف مستقبلها وتشجيعها.
3. تطوير البيئة التعليمية في مجال الدراسات القرآنية وصناعة المفسرين، وفق منهجية أصيلة بأساليب حديثة.
4. تقريب علوم القرآن للمستفيدين بوسائل مختلفة، وتقديم الاستشارات العلمية في مجال القرآن وعلومه.
5. تطوير بيئة تقنية داعمة لقطاع الدراسات القرآنية، وابتكار منتجات تقنية احترافية وتوظيفها في مجال القرآن وعلومه.
6. توظيف وسائل الإعلام التقليدي والجديد، وتعزيز الشراكات والعلاقات في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

عناويننا



إصدارنا



